كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Marrakech
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD
MARRAKECH
مركز دراسات الدكتوراه - Centre d'Etudes Doctorales

أطروحة جامعية

لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع

# الماء والمجتمع بالبادية المغربية ما بين القرنين 5 – 8 هـ / 11 – 14 م

## مساهمة في تاريخ المجتمع القروي المغربي خلال العصر الوسيط

إنجاز:

سعيد إدحمان

تحت إشراف:

الدكتورة عائشة كُنتوري

السنة الجامعية : 2022 / 2023

## شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الخاص إلى أستاذتي الفاضلة التي أشرفت على هذا البحث **الدكتورة عائشة كْنتوري** فعلى الرغم من مشاغلها العلمية وظروفها الصحية، فإنها تكبدت عناء تصحيحه وتصويب أخطائه وتقديمها للنصح والتوجيه والإرشاد في هذا البحث، حيث كان لمتابعتها وتوجيهاتها الأثر الكبير في حشد الهمة، فجزاها الله عني خير الجزاء.

كما لا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأهل الفضل والإحسان ممن أسدى إلي معروفا في إخراج هذا العمل وقدم لي النصيحة والتوجيه والعناية والدعم، وأخص بالذكر الأساتذة الأفاضل **د. عبد الرزاق ازريكم و د. محمد الخداري و د. عبد اللطيف خرباش** الذين أكن لهم كل التقدير والاحترام، متمنيا الشفاء العاجل لأستاذي **عبد اللطيف خرباش.**

كما أشكر **أسرتي** والسادة الأساتذة: **لالة صفية العمراني وفاطمة العراقي وحسناء الحداوي ومولاي عبد الحكيم الزاوي وفاطمة بوزاد** على دعمهم المتواصل واللامشروط طيلة مساري العلمي. وأشكر كل أساتذتي ممن ألهموني البحث والنقد، وجميع أساتذة شعبة التاريخ والحضارة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القاضي عياض بمراكش.

كما أشكر كل أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل فلهم جزيل الشكر على تجشم عناء قراءة هذا العمل وإبداء آرائهم السديدة الكفيلة بتوجيهه نحو سواء السبيل.

وإلى كل أصدقائي من الذين أحتفظ لهم بالجميل، أتقدم لهم بعظيم شكري وامتناني.

## مقدمة :

ظل المجتمع البدوي على هامش الكتابات التاريخية الكلاسيكية، ولم يحظ بذلك الكم الهائل من التتبع الفكري والنظري الذي اختصت بها الحواضر، وعلى وجه التحديد العواصم السلطانية، باعتبار أن الحاضرة ظلت هي الوجه الرسمي للدول المتعاقبة على حكم المغرب الأقصى، المعبِّر عن الفكر والثقافة والرِّفعة، الذي يحتضن علية القوم وصفوتهم. في مقابل مجال بدوي يمكن التعبير عنه بالتاريخ " **غير الرسمي** " فهو لايعدو كونه مصدرا للتحصيل الجبائي، ومنطلقا للضغط على المدينة عبر فوراته القبلية التي ظلت تعيث فسادا في الأرض عن طريق النهب والحرابة والتخريب وإثارة القلاقل والفتن، خاصة في فترات الأزمات السياسية والطبيعية، وذلك حسب متون الأسطغرافيا الوسيطية التي خلَّفها مؤرخون مرتبطون بالبيت الحاكم ومن يدور في فلكه، ومن تم فهي لاتُقدِّم فقط وجهة نظر هذه السلطة، بل أيضا تعكس نظرة أهل الحاضرة لباديتها.

لقد سبق لجورج دوبي Duby .G أن خلص في دراسته المعروفة " **الاقتصاد الريفي والحياة في الأرياف في الغرب خلال العصر الوسيط**"[1] حسب فوشير Faucher D إلى أن عالم الأرياف بالغرب المسيحي والإسلامي، ولاسيما بنياته الاقتصادية ظَلَّ " **قابعا في الظل. فهناك نقص في المصادر. كما أن الإشعاع الذي ميَّزها خلال العصور الوسطى ركَّز على تاريخ السلالات الحاكمة والديانات والمدن حيث استأثرت باهتمام مؤرخيها.ما علمنا إياه الجغرافيون، غالبا بمفردهم تقريبا، لا يكفي لتسليط الضوء المرغوب فيه على الشعب الفقير المحكوم عليه بالعمل من أجل قوُته، ومن أجل خدمة أولئك الذي يسيطرون عليهم بأي صفة**"[2].

وخلص محمد بن حسن إلى أن الدراسات المتعلقة بالظاهرة الريفية في بلاد المغرب في العصر الوسيط نادرة، لاتتناسب مع الدور التاريخي والحضاري الذي لطالما لعبته الأرياف، ولم يتناول الدارسون هذه المسألة حسب تعبيره إلا " **بكيفية جزئية أو بطريقة عرضية أثناء الاهتمام بمسائل تاريخية أخرى سياسية وعسكرية**

[1] - Duby Georges, « **L'économie rurale et la vie des campagnes dans l'Occident médiéval** », éditions Montaigne, Paris, 1962, 2 vol.

[2] - Faucher Daniel , « **L'économie rurale et la vie des campagnes dans l'Occident médiéval** », In: Études rurales, n°5- 6, 1962, p : 190.

**ومذهبية – عقائدية..وبصورة أخرى، فإننا نفتقر إلى القراءات ذات الصبغة الشمولية التي تعتني بالفلاحة والفلاحين طوال الفترة الوسيطية "[1].**

من هذه الزاوية، يبدو من الوجاهة طرح السؤال الآتي : هل المجال البدوي بمغرب العصر الوسيط ظل فعلا على هامش الكتابة التاريخية؟ أو لم تحظ المدينة بتلك المكانة إلا على حساب البادية وساكنتها؟ وهل يمكننا في الأصل الحديث عن مجتمع بدوي وآخر حضري خلال هذه الفترة أما أنهما كيان واحد لا ينفصلان عن بعضهما البعض؟

إن الحديث عن البادية المغربية سيزداد تعقيدا إذا ما تم ربطه بعنصر جوهري حَرَّك المجال المغربي على مر العصور ألا هو " الماء "، وبصيغة أخرى نطرح سؤالا عريضاً حول الخيط الناظم الذي يربط بين ثلاثية : الماء والمجال والإنسان ؟

يعتبر الماء عنصرا حيويا لعب دورا محوريا في الحياة اليومية لأهل المغرب الأقصى بالبادية، ذلك لأنه يؤشر على الثابت والمتحول في مسار تاريخي وحضاري حافل بالأحداث الجِسام، فتَحكَّم إلى حد بعيد في استقرار الإنسان وتنقلاته عبر مشاهده الطبيعية؛ سهولا وجبالا وواحات وصحاري، كما ساهم بشكل كبير في تباين جغرافية الإنتاج الزراعي وأنماط المعيشة والعوائد والقيم والعقليات. فلم يدخر الإنسان المغربي جهدا في ابتكار حيل وتقنيات واستحداث عمائر متعددة، بسيطة تارة، ومعقدة تارة أخرى لاستنباط المياه وتوزيعها وتخزينها وحسن استغلالها وتدبيرها ذلك لأن تقلبات المناخ لم تتوقف في النزوع نحو مزيد من الجفاف ما يفرض الوعي بهذا الإكراه وتحديدا في المجالات القاحلة وشبه الجافة، وهو ما يُفسر كيف أن الماء شكَّل أهم الانشغالات التي ظلت تؤرق بال الإنسان المغربي القروي، وأغلى ما يملك.

فلا نستغرب مثلا حينما نقرأ في متون المظان عن " **رجل يكرمه أهل ( بادس ) ويقدمونه ويذكرون أنه ينبط المياه في المواضع التي لا يعهد فيها ماء عيونا وآبارا، وأنه يخبر بقرب الماء وبعده "[1]**. كما يشرح

---

[1]- بن حسن محمد، "**القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط** "، تونس، 1986م، ص 28.

هذا الطرح تبناه مؤرخون آخرون . راجع : الفاتحي حميد، " **ملكية الأرض في بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط** "، **أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس – أكدال، السنة الجامعية 2007 – 2008م، ص 1 و صص 19 – 23.

الهلالي محمد ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين : إسهام في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي** "، **أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس – أكدال، السنة الجامعية 1999 – 2000 م، صص 10 – 11 .

كيف أن الأمر لا يتوقف عند التقدير والإحترام، بل يكشف كيف أن التعامل مع منابع المياه ومصادرها يكتسي أيضا صبغة القداسة فهي مسألة تظهر بوضوح في الطقوس والممارسات العملية التي كانت تهدف إلى استنزال الغيث، والإستشفاء به من الأسقام والعاهات، ومظاهر التبرك به طلبا للرِّزق الوفير في **"معائش العباد"** بتعبير القادري في نشر مثانيه[2]، كما تتجسد هذه القدسية في التمثلات الذهنية والغيبية ليس فقط لندرة الماء، بل أيضا لزيادته عن الحاجة، فلطالما أَرجَع العامة والخاصة ثنائية القحط والفيض إلى غضب إلهي على جور السلطة وشطط كبار مسؤوليها وخدامها أو منع الزكاة وانحراف الناس وإغراقهم في ملذات الدنيا أو هما معاً.

إن أهمية الماء تُفسر ممارسات اجتماعية متباينة الأبعاد؛ فوفْرتُه تضمن سيادة السكينة وروح التضامن واستثارة التحالف داخل المجال القروي، وشُحُّه يؤدي إلى اختلال الاستقرار وإذكاء نار المشاحنات بين أفراد القبيلة، أو بينها وبين قبائل أخرى للسيطرة على مصادره. أمر سجَّلته شهادات القدماء بالتعبير المشهور : " **إذا رأيت قوما يتخاصمون وقد علا بينهم الكلام فتعلم أنهم في أمر الماء** "[3]. فلطالما كانت مجتمعات الندرة " **مفتوحة على الأزمة والتدافع المستمر بين القبائل حول الماء، وأماكن الإنتجاع، فضلا عما عرفه من مجاعات وجوائح واختناقات وتوترات سياسية ترتبط بعُسر انتقال واستخلاف**"[4]. وتدبير النزاع حول هذا المورد الحيوي كان يتم حله تارة عبر أحكام الشرع أو تقاليد وأعراف متوارثة قد تكون مُرضية لأطراف الصراع، أو تنتهي بسيادة سلطة التراتبية الاجتماعية عبر الإحتكام إلى منطق القهر والغلبة للقبيلة الأقوى في وضع اليد على حصصه ومنابعه.

بناء على هذه المعطيات يظهر أن دراسة المسألة المائية من منظور طبيعي جغرافي فقط يُعد ضربا من العبث العلمي، بل أصبح النظر إليها من أبعاد متعددة ضرورة ملحة وحاجة موضوعية، وبالأخص من الزاوية التاريخية، ولا نجازف إذا ما قلنا بأن الماء يختزل تاريخ الإنسان والمجال، تاريخٌ ترَك بصماته على الواقع السوسيو اقتصادي للمغاربة وحفر نتوءات في ذاكرتهم الجمعية. من هذا المنطلق استقر الاختيار على البحث في موضوع **"الماء والمجتمع بالبادية المغربية ما بين القرنين 5 – 8 هـ/ 11 – 14م"**.

---

[1]- البكري أبو عبيد الله، " **المسالك والممالك** "، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيروت، 1992، ج 2، ص 778.

[2] - القادري محمد بن الطيب، " **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني** "، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر،1977، صص 72 - 73.

[3] - مجهول، " **الاستبصار في عجائب الأمصار** "، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة- آفاق عربية، بغداد، 1985 م، صص 152 – 153 .

[4]- العطري عبد الرحيم، " **من ثراء الثقافة المغربية، الحكاية الشعبية وتقديس الماء في مجتمعات الندرة** "،**مجلة الثقافة المغربية**، ع 18، 2018 م، ص 83 .

❖ **إشكالية البحث:**

تنطلق إشكالية هذا البحث من ضرورة إبراز مكانة الماء في واقع الإنسان بالبادية المغربية وما يطبعها من تحولات كبرى، على اعتبار أن تاريخ الإنسان القروي ظل خاضعا لثنائية الوفرة والندرة، ما جعله يتبنى سلوكات وأنماط عيش وأساليب إنتاج كفيلة بإنقاذ حياته التي كانت دوما على المحك، دون إغفال دور السلطة المركزية ومستويات تدخلها وتدابيرها لمواجهة قسوة الطبيعة، وما كان يتمخض عنها من آثار على المجتمع، ومن تم سيكون السند القبلي الذي يرتكز عليه حكمها عرضة للتغيير بعصبية أخرى قادرة على مواجهة المصاعب المناخية وتداعياتها التي تؤثر على " **أمر المعاش والمعاد والحاضر والباد** " [1].

لمعالجة هذه الإشكالية كان لزاما علينا الإجابة على تساؤلات تطرح نفسها بقوة والتي من شأنها المساعدة على فهم طبيعة العلاقة بين الماء والمجتمع بالبادية المغربية، وهي كالتالي:

هل كان الإنتاج الزراعي يُعاني على نحو شبه مستمر من ندرة الماء ؟ وكيف استغل هذا المجتمع الزراعي الموارد المائية، وسخَّرها في حياته اليومية ؟ ما هي العلاقات السوسيو اقتصادية التي كانت تُنسج حول هذا المورد الحيوي؟ وكيف تمكن مجتمع البادية من مُجابهة ظرفية الأزمات المائية ؟ وكيف أثَّرت على الذاكرة الجماعية ؟ وما هي حدود تدخلات السلطة زمن القحوط وانعكاساتها على معيشة الرعية بالمجال القبلي ؟

❖ **بنية البحث:**

تم التطرق في الفصل الأول المعنون بـ "**ملاحظات أولية حول المسألة المناخية والمائية بالمغرب خلال العصر الوسيط**" إلى طبيعة العلاقة بين المناخ والتاريخ، حيث تم تناول دور الماء كعامل طبيعي يشرح الحدث التاريخي وحضوره في الكتابات الوسيطية والدراسات المعاصرة، بالإضافة إلى النِّقاش الذي وسم الأبحاث العلمية حول مدى حدوث تغير جذري في المناخ الذي كان سائدا في العصور القديمة. وأوردنا أيضا مجموعة من النصوص المصدرية التي دوَّنها الجغرافيون والرحالة حول الإطار الطبيعي والمناخي بمغرب العصر الوسيط.

كما تحدثنا في هذا الفصل عن مصادر المياه المختلفة التي كانت تُغذي بها البادية حاضرتها؛ إذ شكلت الركيزة التي اعتمدت عليها الدولة المغربية الوسيطية في سياستها الفلاحية ومشاريعها المائية، ووضحنا أيضا بأن الوتيرة التي عرفتها عملية تشييد المنشآت المائية من أجل تحقيق الأمن المائي والإكتفاء الغذائي،

[1] - الناصري أحمد أبو العباس، " **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** "، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1997، ج 8، ص 87 .

تراجعت بشكل واضح خلال العصر المريني، وتطرقنا كذلك لخريطة الإنتاج الفلاحي بالبوادي، ودور هذه الأخيرة في تموين حواضرها باحتياجاتها من المواد الإستهلاكية، وكيف أن الماء لعب دورا رئيسيا في تباين جغرافية الإنتاج الزراعي بالبوادي المغربية.

أما فيما يهُم الفصل الثاني المعنون بـ" **حضور المياه في البنيات الاجتماعية للبوادي** " فتتبعنا من خلاله مسألة المِلكية كمؤشر يساعد على فهم عُمق العلاقات الإجتماعية السائدة في مجتمع ما، وتطرقنا كذلك للصراعات القبلية التي كانت وتيرتها تشتد بفعل القحوط أو الفيضانات، وما كانت تُشكله من تهديد لصور التضامن والتآزر بين أفراد مجتمع البادية.

جاء الفصل الثالث بعنوان " **الجوائح المائية بالبادية المغربية وأساليب المواجهة الرسمية والشعبية** "، حيث رصدنا فيه مساهمة الأزمات المناخية في ارتفاع الأسعار، بالإضافة إلى بعض السلوكيات التي كانت تزيد من معاناة الساكنة، وآلية تدبير الدول الحاكمة لهذه المسألة. ثم تناولنا بعد ذلك مسألة النظام الغذائي في فترات الجفاف، والتخزين والإدخار كسلوكات عمد من خلالها أهل البوادي إلى اتخاذ مجموعة من التدابير لاستغلال فترات الوفرة، وذلك من أجل مواجهة قلة الطعام في السنين العجاف.

وقمنا كذلك بالإحاطة بدور الجوائح المائية في تغير الخريطة البشرية بالمغرب الأقصى، وتبدل نمط العيش والإنتاج. وأيضا دور المناخ في توجيه السياسة الضريبية للسلطة الحاكمة، وأثر الجبايات على الأنشطة الفلاحية والتجارية، وردود الفعل إزاءها.

وبخصوص الفصل الرابع والأخير، فقد عنوناه بـ "**الماء بين الوفرة والندرة : دراسة في الطقوس والذهنيات وأنماط التفكير** "، فقد تحدثنا فيه عن التفسيرات الخرافية والغيبية التي كان يقدمها المغاربة للجوائح المائية وما كان يواكبها من ممارسات عملية، بالإضافة إلى التطرق إلى مسألة الإستسقاء بأهل الولاية والصلاح، ودورهم التكافلي زمن المساغب، ثم ختمنا حديثنا برصد مسألة صراع الرمز بين المتصوفة والسلطة المركزية خلال السنين العجاف.

### ❖ قراءة في البيبليوغرافيا المعتمدة في البحث :

إن صعوبة هذا الموضوع فرضت علينا التوقف عند مختلف المصادر المعاصرة لفترة الدارسة أو المتأخرة عنها، حيث قمنا باستخراج مجموعة من النصوص المصدرية على اختلاف مشاربها، والتي تتحدث عن ثنائية الماء والمجتمع بالبادية المغربية بشكل صريح أو ضمني، كما آثرنا التوسل بما جاء في مجموعة من الدراسات والأبحاث المغربية لترميم النواقص التي تعتري الكتابات التاريخية التقليدية، نظرا لأهميتها المعرفية والمنهجية، والتي استمدتها من الإنفتاح

على مصادر ومراجع تختزن بين طياتها معلومات لا تقتصر فقط على المعطيات التاريخية، بل تنهل من معين العلوم الإنسانية الأخرى، والتي قد تساعد على فهم الحدث التاريخي وتفسيره، وهو ما شكل استجابة لدعوات مبكرة أطلقها مفكرون كبار، أهمها دعوة المؤرخ والمتخصص في السوسيولوجيا والاقتصاد فرانسوا سيميان Simiand François " **المؤرخين ليتخلصوا من بهرجهم ليجددوا أنفسهم** "، من خلال مقالته المعروفة " **المنهج التاريخي وعلم الاجتماع** "[1]. والتي شكلت الفأس التي هوت على ما أسماه" **أصنام قبيلة المؤرخين** " **وعددها ثلاثة، وكلها غير مفيدة : الصنم السياسي أي الاهتمام الدائم بالتاريخ السياسي، يضاف إليه الصنم الفردي أو العادة الراسخة في فهم التاريخ كتاريخ للأفراد، وأخيرا صنم التسلسل التاريخي، أي عادة الضياع في البحث عن الأصول** "[2].

فيما يخص مسألة الغطاء النباتي والخصائص المناخية للمجال المغربي، وموارده المائية والمنشآت والتقنيات التي كانت توظف في استنباطها وجلبها وتخزينها واستغلالها من قبل السلطة الحاكمة والرعية، والتغيرات الكبرى التي طرأت على المشهد الزراعي في العصر الوسيط، فقد اعتمدنا على مادة علمية متنوعة، أهمها مصادر : "**صورة الأرض**"[3]، "**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** "[4]، "**الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون** "[5]، " **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** "[6]، " **وصف إفريقيا**"[7]، " **المسالك والممالك** "[8]، "**وصف افريقيا الشمالية والصحراوية** "[9].**المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق**[10]، **الاستبصار في عجائب الأمصار**[11].

---

[1] - Simiand François, « **Méthode historique et science sociale** », Revue synthèse historique, Paris, 1903.

[2] - فرانسوا دوس، " **التاريخ المفتَّت : من الحوليات إلى التاريخ الجديد** "، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، 2009م، ص 49.

[3] - ابن حوقل أبي القاسم، "**صورة الأرض**"، بيروت- لبنان، 1992م .

[4] - ابن أبي زرع الفاسي ، "**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** "، الرباط، 1972م.

[5] - ابن غازي العثماني أبي عبد الله محمد بن أحمد ، " **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون** " ، الرباط، 1952م.

[6] - العمري ابن فضل الله ، " **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**"، تحقيق كامل سليمان الجبوري، لبنان، 2010، ج 1.

[7] - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، 1983م، ج 2.

[8] - البكري أبو عبيد الله، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق .

[9] - الشريف الإدريسي، "**وصف افريقيا الشمالية والصحراوية** "، مأخوذ من نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بيريس، الجزائر،1957م .

[10] - الإدريسي الشريف، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، تحقيق محمد حاج صادق، دون تاريخ.

[11] - مجهول، " **الاستبصار في عجائب الأمصار** "، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، 1985 م.

ومراجع أبرزها : "**النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**"[1]، ثم كتاب "**مراكش زمن الموحدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان** "[2].

أعمال ندوة : " **الفلاحة في تاريخ المغرب** "[3].

-El Faïz Mohammed, **Marrakech Patrimoine En Péril**[4].

- Allaine. ch,« **Les Citernes et les Margelles de Sidi-Bou-Othman**»[5].

أما بالنسبة للنظام الغذائي الذي اتبعه المغاربة في زمن القحط والشروط والمحددات المناخية، والجغرافية، والسوسيو اقتصادية والذهنية والثقافية التي كان يخضع لها، وقيمتها الغذائية، فقد اعتمدنا بشكل كبير على المصادر التالية :

ابن عذاري المراكشي، " **البيان المغرب – قسم الموحدين** " [6] .ابن زهر أبو مروان، "**كتاب التيسير في المداواة والتدبير** "[7].الغساني أبو القاسم،" **حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار** "[8].

أما فيما يخُص المراجع فأهمها :" **الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط**[9]، و"**ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها زمن المجاعات**[10]. " **الطعام والإطعام زمن المجاعات بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط بين التدبير الرسمي والتضامن الشعبي**"[11]." **من مظاهر التغذية في العصر الوسيط**"[12].

---

[1]- موسى عمر عز الدين، " **النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري** "، بيروت، 2003م .

[2]- رابطة الدين محمد، "**مراكش زمن الموحدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان** "، تقديم مصطفى الشابي، مراكش، 2016م، ج 1.

[3] **- ندوة : " الفلاحة في تاريخ المغرب "**، تكريما للأستاذ أحمد مزيان، تنسيق محمد اليزيدي، 2019 م.

[2] - El Faïz Mohammed, **Marrakech Patrimoine En Péril**, Actes Sud/Eddif 2002.

[5] - Allaine. ch,**« Les Citernes et les Margelles de Sidi-Bou-Othman», Hespéris Tamuda**, Tome 38, Année 1951.

[6]- ابن عذاري المراكشي، " **البيان المغرب- قسم الموحدين** "، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، لبنان، 1985 م .

[7]- ابن زهر أبو مروان، " **كتاب التيسير في المداواة والتدبير**"، تحقيق وتعليق محمد عبد الله الروداني، الرباط، 1991م .

[8]- الغساني أبو القاسم بن محمد الشهير بالوزير ، " **حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار**"، تحقيق محمد العربي الخطابي، بيروت، 1990 م.

[9]- بنحمادة سعيد، " **الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط مدخل لدراسة العوائد والقيم**"، ضمن **كتاب النظام الغذائي بالمغرب والأندلس : دراسات في سوسيولوجيا الأحكام والقيم والعوائد**"، محمد البركة، سعيد بنحمادة، عبد الهادي البياض، سلا، 2016م.

[10]- بوتشيش القادري إبراهيم- البياض عبد الهادي، **"ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها زمن المجاعات: المغرب والأندلس من القرن6هـ/ حتى القرن 8هـ/12م/14م نموذجا"**، ضمن **مجلة عصور الجديدة**، ع7-8، الجزائر، 2012 – 2013 م.

[11]- البياض عبد الهادي، " **الطعام والإطعام زمن المجاعات بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط بين التدبير الرسمي والتضامن الشعبي**"، ضمن **كتاب النظام الغذائي بالمغرب والأندلس.."، مرجع سابق.**

[12]- فقادي الحسين، " **من مظاهر التغذية في العصر الوسيط**"، ضمن **مجلة أمل**، العدد 16، 1999م.

أما فيما يخُص مسألة تخزين الأقوات، وبعض الأساليب والتقنيات التي كانت تتم من خلالها هذه العملية، ودور الندرة المائية في سيادة ثقافة الادخار لمواجهة الأزمات الغذائية، فقد توسلنا بمصادر مهمة، في مقدمتها : **الفلاحة الأندلسية**[1]. لإبن العوام الإشبيلي، ثم " **معيار الإختيار** "[2] لإبن الخطيب .

ودراسات على رأسها :" **الادخار بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط**[3] .

Rosenberger ( B ), « **Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc**»[4].

« **Société**, **pouvoir et alimentation** [5].

**"خروج السمايم نقايم وخروج الليالي نعايم "**[6].

كما أننا وظفنا كتبا مختلفة لمساعدتنا على رصد كرامات المتصوفة وظاهرة الإطعام التي تزعمها أهل الصلاح والولاية خاصة في زمن المساغب، وما نُسج حولها من قيم إحسان وتكافل لإغاثة المعسرين، وأثر ذلك على مكانتهم الرمزية داخل المجتمع، قوامها المصادر التالية :

" **التشوف إلى رجال التصوف** "[7]، " **السلسل العذب والمنهل الأحلى** "[8].

بالإضافة إلى مؤلَّف" **أنس الفقير وعز الحقير** "[9].

أما بالنسبة للدراسات، فأهمها : **"زهد المتصوفة في الطعام وولائم الزوايا من خلال النصوص المنقبية**[1]**"**.

---

[1] - ابن العوام الإشبيلي، " **الفلاحة الأندلسية** "، تحقيق أنور أبو سويلم، سمير الدروبي، علي ارشيد محاسنة، الأردن،2012 م، ج 1.

[2]- ابن الخطيب لسان الدين، " **معيار الإختيار في ذكر المعاهد و الديار** "، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، مصر، 2002م .

[3] - امعيط نور الدين، " **الادخار بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط : المصطلحات المتداولة والتقنيات المستعملة** "، ضمن أعمال : **الندوة الدولية " المخازن الجماعية في الأطلس الكبير المركزي : تراث مادي ورأسمال رمزي** "، تنسيق ومراجعة سعاد بلحسين ومحمد العاملي، بني ملال، 2017 م.

[4] - Rosenberger ( B ), « **Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc.XV°-XVIII° siècles** », in **A.E.S.C** , N° 3-4, 1980.

[5] - Rosenberger Bernard, « **Société, pouvoir et alimentation : nourriture et précarité au Maroc précolonial** », publié avec le concours du service de coopération et d'action culturelle de l'ambassade de France au Maroc, Alizés, 2001.

[6]- الحجاجي محمد غازي، **"خروج السمايم نقايم وخروج الليالي نعايم : الأمثال الشعبية بمنطقة الدار البيضاء والشاوية حسب المواسم الفلاحية "**، ضمن **سلسلة الشاهد في تاريخ وتراث الدار البيضاء والشاوية**،الرباط، 2015 م.

[7]- ابن الزيات، " **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي** "، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، ص1997م.

[8] - الحضرمي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، " **السلسل العذب والمنهل الأحلى** "، تحقيق محمد الفاسي، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، المجلد العاشر، 1964 م، ج 1.

[9]- ابن قنفذ القسنطيني أبي العباس أحمد الخطيب ، " **أنسر الفقير وعز الحقير**"، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، دون تاريخ.

**" القيم الإنسانية في الممارسات الصوفية خلال القرن 6هـ"[2].**

وبخصوص الكتابات التي أحاطت بمساهمة الأولياء في إغاثة الرعية زمن القحوط، وأدوار الوساطة والتحكيم التي كانوا يقومون بها بين ساكنة البوادي في ظل الظروف العسيرة، وصراع الرمز بينهم وبين السلطة المركزية ودلالاته، فجاء في مقدمة مصادرها :" **التشوف إلى رجال التصوف "[3]، المنزع اللطيف والمقصد الشريف "[4]، " أنس الفقير وعز الحقير "[5]**.وبالنسبة للمراجع، فمنها على وجه الخصوص :" **الكرامة والرمز[6]**"، و" **السلطة الثقافية والسلطة السياسية "[7]، " مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط "[8]**.

**"كتب المناقب كمادة تاريخية "[9]."الصلحاء والسلطة بين الرفض والإغراء في المغرب الوسيط"[10]. المتصوفة ومحنة السجن في الغرب الإسلامي"[11]."ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب "[12]. "حول محن المتصوفة المغاربة في العصر المرابطي"[13].**

---

[1] - فرحات حليمة، **"زهد المتصوفة في الطعام وولائم الزوايا من خلال النصوص المنقبية"**، ترجمة محمد الغرايب و عبد العزيز بلفايدة، **التصوف والمجال والإنسان - أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد اللطيف الشادلي**، الرباط، 2016 م.

[2] - بوتشيش القادري إبراهيم، **" القيم الإنسانية في الممارسات الصوفية خلال القرن 6هـ -قيم الخير والإحسان نموذجا "**، ضمن **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش**، ع12، 1995م.

[3] - ابن الزيات، **" التشوف إلى رجال التصوف.."**، مصدر سابق.

[4] - البادسي عبد الحق بن اسماعيل، **" المنزع اللطيف والمقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف "**، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، 1993 م.

[5] - ابن قنفذ القسنطيني، **" أنس الفقير وعز الحقير"**، مصدر سابق.

[6] - بولقطيب الحسين، **" الكرامة والرمز : كرامات أولياء دكالة خلال عصري المرابطين والموحدين نموذجا "**، دراسات عربية : **مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية**، العدد 4/3، لبنان، 1996 م.

[7] - أومليل علي،**" السلطة الثقافية والسلطة السياسية "**، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 1997 م.

[8] - القبلي محمد، **" مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط "**، الدار البيضاء، 1987م .

[9] - فرحات حليمة والتريكي حميد، **" كتب المناقب كمادة تاريخية "**، ضمن ندوة **" التاريخ وأدب المناقب"**، الرباط، 1989 م.

[10] - فرحات حليمة، **"الصلحاء والسلطة بين الرفض والإغراء في المغرب الوسيط"**، ترجمة محمد الغرايب، ضمن كتاب **"السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب : الإئتلاف والاختلاف"**، أعمال تكريمية مهداة للأستاذ أحمد عزاوي، القنيطرة، 2013 م.

[11] - الحداد حميد،**" المتصوفة ومحنة السجن في الغرب الإسلامي"**، مقال منشور ضمن **دورية كان التاريخية - العدد 22**، ديسمبر2013م.

[12] - الشريف محمد، **"ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب- الطوائف الصوفية خلال مرحلة الانحلال الموحدي"**، ضمن : **مجلة المناهل**، العدد 81/80، فبراير، الرباط،2007م.

[13] - بوتشيش القادري إبراهيم، **"حول محن المتصوفة المغاربة في العصر المرابطي"**، ضمن : **مجلة المناهل**، ع81/80، الرباط، 2007.

أما بخصوص الأعمال التي ساعدتنا في تتبع مسألة التحصيل الضريبي وبعض أسماء الجبايات التي كان يتم فرضها على المزارعين والتجار، ومعرفة مواقف وردود فعل مجموعة من الفقهاء والعلماء منها، وأثر السياسة الجبائية زمن الندرة على الاقتصاد والمجتمع بالمجال القبلي، فمنها المصادر الآتية :

**" المسند الصحيح الحسن " [1]." ملعبة الكفيف الزرهوني "[2]." نفاضة الجراب في علالة الإغتراب "[3].**

**" رحلة ابن بطوطة "[4]. " المقدمة "[5]."فيض العباب " [6]." نصح ملوك الإسلام "[7] ." أزهار الرياض في أخبار عياض "[8]. "صبح الأعشى في صناعة الإنشا "[9]." الذخيرة السنية " [10]. "الأنيس المطرب بروض القرطاس " [11]." كتاب العبر " [12]."الشهب اللامعة في السياسة النافعة"[13].**

---

[1] - ابن مرزوق أبو عبد الله محمد، " **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن** "، تحقيق ماريا خيسوس بغيرا، تقديم محمود بوعياد، الجزائر، 1981م.

[2] - عبد الله الزرهوني الكفيف، " **ملعبة الكفيف الزرهوني** "، تقديم وتعليق محمد بن شريفة، الرباط، 1987م.

[3] - ابن الخطيب لسان الدين، " **نفاضة الجراب في علالة الإغتراب** "، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، الدار البيضاء، دون تاريخ.

[4] - ابن بطوطة، " **رحلة ابن بطوطة : تحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** "، قدَّم له وحققه الشيخ محمد عبد المنعم العريان وراجعه وأعدَّ فهارسه الأستاذ مصطفى القصاص، بيروت، 1987، ج 1.

[5] - ابن خلدون عبد الرحمن، " **المقدمة** "، تحقيق وتقديم وتعليق د. عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء 2005، جزءان.

[6] - النميري ابن الحاج، "**فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب** "، دراسة و إعداد الدكتور محمد ابن شقرون، بيروت، 1990.

[7] - ابن السكاك المكناسي محمد بن أبي غالب ، " **نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام**"، تحقيق وضبط نزيهة المروني العلمي الإدريسي، وجدة، 2016 م.

[8] - المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد، " **أزهار الرياض في أخبار عياض** "، تحقيق : مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، القاهرة، 1939، ج1.

[9] - القلقشندي أبو العباس، "**صبح الأعشى في صناعة الإنشا** "، القاهرة، 1963، ج 5.

[10] - علي بن أبي زرع الفاسي، " **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** "، الرباط، 1972.

[11] - ابن أبي زرع الفاسي، "**الأنيس المطرب ..**"، **مصدر سابق.**

[12] - ابن خلدون عبد الرحمان ، " **تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** "، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، لبنان، 2000 م، ج 6.

[13] - ابن رضوان المالقي أبي القاسم، " **الشهب اللامعة في السياسة النافعة** "، تحقيق علي سامي النشار، الدار البيضاء، 1984م.

وبالنسبة للدراسات، فأبرزها : **" وثائق مرينية "**[1] **." دور الفقهاء في الرقابة المالية بمغرب العصر الوسيط على ضوء رسالتين موجهتين ليوسف بن تاشفين "**[2]**." الموارد المالية بالدولة الموحدية "**[3]**.**

**"المالية الموحدية" **[4]**."موقف الرعية من السلطة السياسة في المغرب والأندلس على عهد المرابطين**[5]**".**

**" مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين "**[6]**.**

كما لجأنا إلى مادة عملية زودتنا بمعلومات تاريخية مهمة حول أسعار المواد الغذائية زمن المجاعات والأوبئة وتدابير السلطة في ضبطها ومحاربة الإحتكار، من بينها :

مصادر عمادها : **نوازل ابن الحاج التجيبي "**[7]**."ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب "**[8]**.**

**"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب "**[9]**."الذيل والتكملة "**[10]**.**

ومراجع أساسها : **" حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط"**[11]**. "جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين "**[12]**.**

---

[1] - السلامي رشيد، **" وثائق مرينية : مراسلات، معاهدات، ظهائر"**، دراسة وتحقيق، **رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الخامس بالرباط، 1989م، ج 2.

[2] - بوتشيش القادري إبراهيم، **" دور الفقهاء في الرقابة المالية بمغرب العصر الوسيط على ضوء رسالتين موجهتين ليوسف بن تاشفين"**، السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب، **أعمال مهداة إلى الأستاذ أحمد عزاوي**، القنيطرة، 2013 م.

[3] - كرراز فوزية، **" الموارد المالية بالدولة الموحدية "، مجلة عصور الجديدة**، العددان 16-17، الجزائر، 2015م.

[4] - اسكان الحسين، **"المالية الموحدية"**، ضمن : **وقفات في تاريخ المغرب، دراسات مهداة إلى الأستاذ إبراهيم بوطالب**، الدار البيضاء، 2001م.

[5] - جسوس عز الدين، **"موقف الرعية من السلطة السياسة في المغرب والأندلس على عهد المرابطين"**، دراسة في علم الاجتماع السياسي، افريقيا الشرق-المغرب، 2014م .

[6] - الهلالي محمد ياسر، **" مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين : إسهام في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي "، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس – أكدال، السنة الجامعية 1999 – 2000 م.

[7] - ابن الحاج، **" نوازل ابن الحاج التجيبي "**، دراسة وتحقيق أحمد شعيب اليوسفي، تطوان، 2018، الأجزاء : 1 – 2 – 3 .

[8] - **" ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب "**، اعتنى بتحقيقه ودراسته الفنية واللغوية والتاريخية والإجتماعية ليفي بروفنسال، القاهرة، 1955م، المجلد الثاني.

[9] - ابن عذاري المراكشي، **" البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب "**، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، بيروت، 1983م، ج 4.

[10] - ابن عبد الملك المراكشي، **"الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة "**، ج 8، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، المملكة المغربية، 1984م، ج 8 .

[11] - البزاز محمد الأمين، **" حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط"، مجلة ك. آ. ع. إ- الرباط**، العدد الثامن، 1993م.

[12] - بولقطيب الحسين، **"جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين "**، الدار البيضاء، دون تاريخ.

وفيما يهم الحديث عن قيم التضامن ومظاهر النزاع حول الماء بين المزارعين خاصة في زمن الجوائح المائية، وبينهم وبين الرحويين، وبين المكترين والملاكين، وبين المؤجرين ونظار الأوقاف ودور الماء في الصراع بين البادية وحاضرتها، فقد عدنا إلى مجموعة من المصنفات، من قبيل المصادر التالية : " **الإتقان والأحكام** " [1].

"**مذاهب الحكام في نوازل الأحكام** "[2]."**فصول الأحكام** " [3]."**تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام** "[4]." **وثائق المرابطين والموحدين** "[5]، " **المعيار المعرب** "[6]، "**فتاوى ابن رشد**"[7].

ودراسات في مقدمتها : أعمال ندوة:"**التاريخ والقانون** "[8]. " **النوازل والمجتمع** " [9] لعمر بنميرة. "**النوازل الفقهية والمجتمع** "[10] لمحمد فتحة .

وتوسلنا بالإشارات التاريخية التي تضمها بعض الكتب والأبحاث للوقوف عند علاقات الإنتاج التي كانت تنسج حول الماء والأرض، وبعض القضايا التي كانت تطرح حول الفقهاء فيما يخص المزارعة والمغارسة والمساقاة، كما استفدنا منها في حديثنا عن الملكية العقارية بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، فيما يهم المصادر فأهمها : " **الكافي في فقه أهل المدينة المالكي** "[11].**البهجة في شرح التحفة** "[12].

---

[1] - الفاسي أبي عبد الله محمد بن أحمد، " **الإتقان والأحكام : شرح تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام** " ، تحقيق محمد عبد السلام، القاهرة، 2011 م، ج 2.

[2] - القاضي عياض وولده محمد، "**مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**" ، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، بيروت، 1997 م.

[3] - الباجي أبو الوليد، **فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام**، تحقيق الباتول بن علي، المحمدية، 1990م .

[4] - ابن فرحون برهان الدين أبي الوفاء،" **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام** "، خرّج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه جمال مرعشلي، الرياض، 2003، ج 2.

[5] - المراكشي عبد الواحد، " **وثائق المرابطين والموحدين** "، تحقيق حسين مؤنس، مصر، 1997.

[6] - الونشريسي، " **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى افريقية والأندلس والمغرب**، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، الرباط، 1981م.

[7] - ابن رشد أبي الوليد بن محمد، "**فتاوى ابن رشد**"، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن الطاهر التليلي، بيروت، 1987م.

[8] - " **التاريخ والقانون التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة** "، أعمال مهداة للأستاذ الدكتور محمود اسماعيل مكناس، سلسلة الندوات رقم 22، 2009م.

[9] - بنميرة عمر،" **النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن والتاسع/14و15م)** "، الرباط، 2012م .

[10] - فتحة محمد، " **النوازل الفقهية والمجتمع : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي ( من القرن 6 إلى 9 هـ/ 15.12م)** "، الدار البيضاء،1999 م.

[11] - بن عبد البر أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي، " **الكافي في فقه أهل المدينة المالكي** "، لبنان، 1992م.

[12] - التسولي أبو الحسن علي بن عبد السلام، " **البهجة في شرح التحفة** "، لبنان، 1950م، ج 2.

وبالنسبة للمراجع والأبحاث، فأبرزها ما يلي :" **وضعية الأراضي الفلاحية في المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الوطاسية "**[1]."**القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط "**[2]." **ملكية الأرض في بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط "**[3]."**أملاك الدولة بين التراجع والاسترجاع "**[4]." **مجتمع المغرب الأقصى"**[5].

فضلا عن دراسات اعتمدنا عليها في التطرق للممارسات العملية والتفسيرات الخرافية التي كان يقدمها المغاربة للجوائح المائية من بينها: **"المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية "**[6].

**" أثر التغيرات المناخية في التمثلات الشعبية بالمغرب والأندلس"**[7].

"**الماء في الفكر الإسلامي والآدب العربي "**[8]. **"عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي "**[9].

هناك أعمال أخرى أفادتنا في رصد فكرة المهدوية والمجال الجغرافي الذي كانت تنشط فيه خلال العصر الوسيط، ودور الظروف الصعبة من كوارث طبيعية وضعف الدولة المركزية في ظهور أدعياء النبوءة والمهدوية في المجال القبلي، نذكر على وجه الخصوص: **"أدب الحدثان والمجال المقدس في المغرب نموذج ماسة"**[10].

---

[1]- الطويل حجاج محمد، **" وضعية الأراضي الفلاحية في المغرب، من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الوطاسية من القرن 2 / 10 هـ / 8 – 16م "، مجلة البادية المغربية**، الرباط، 2017 م.

[2]- بن حسن محمد، "**القبائل والأرياف المغربية ..**"، مرجع سابق.

[3]- الفاتحي حميد، **" ملكية الأرض في بلاد المغرب والأندلس ..**"، مرجع سابق.

[4]- بوتشيش القادري ابراهيم، **"أملاك الدولة بين التراجع والاسترجاع من خلال نماذج من الغرب الإسلامي"**، ضمن ندوة: **التصرف في ملكية الدولة عبر التاريخ**، تونس 2005م .

[5]- العلوي القاسمي هاشم، " **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي"**، الرباط، 1995، ج 1.

[6]- الحسين أسكان، **"المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب"**، ضمن أعمال ندوة **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب"**، الجديدة، 2004.

[7]- البياض عبد الهادي، **" أثر التغيرات المناخية في التمثلات الشعبية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط "**، ضمن أوراق **الندوة الدولية التكريمية المهداة للأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش :" التاريخ الاقتصادي والإجتماعي وتاريخ الذهنيات بالمغرب والأندلس : قضايا وإشكاليات "**، سلا، 2020م، ج 3.

[8]- بنعبد الله عبد العزيز، راجع دراسته : "**الماء في الفكر الإسلامي والآدب العربي "**، المحمدية، 1996م، ج 2.

[9]- المحمودي أحمد، **"عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي "**، مكناس، 2001م.

[10]- فرحات حليمة، **"أدب الحدثان والمجال المقدس في المغرب نموذج ماسة"**، ترجمة عبد العزيز بل الفايدة، **مجلة المناهل**، ع80-81، الرباط،2007م.

**"الصلحاء والسلطة بين الرفض والإغراء في المغرب الوسيط"**[1]. **"المغرب في العصر الموحدي: جدلية القوة والأزمة"**[2].

Ferhat Halima et Triki Hamid, « **Faux prophètes et Mahdis dans le Maroc médiéval** [3]».

أما بالنسبة للأعمال العلمية التي قدمت لنا إفادة مهمة حول دور الجفاف في الهجرة، وأثر ذلك في تغير نمط العيش وجغرافية توطين القبائل الكبرى بالمغرب بالسهل والجبل والصحراء فنذكر: **"حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن 12م ونهاية القرن 13م"**[4].

**" الفلاحة المغربية في العصر الوسيط "**[5].

**"دكالة بين الشدة والرخاء"**[6].

❖ **صعوبات البحث:**

من المتعارف عليه، أن أي دراسة علمية تعترضها جملة من العراقيل المنهجية والمعرفية، والتي تختلف في صعوبتها حسب طبيعة الموضوع وفترة دراسته، والإمكانيات التي توفرها المادة المصدرية. من هذا المنظور سنذكر مجموعة من المصاعب التي واجهتنا في هذا البحث، وهي على الشكل التالي :

- ✓ تركيز الكتابات التاريخية التقليدية على الحواضر الكبرى، مع إغفال الحديث عن البادية بشكل يساعد على أخذ صورة واضحة عن مجتمعها، وحضور الماء في نسيجها الاقتصادي والاجتماعي والفكري.
- ✓ صعوبة التمييز بين المجال الحضري ( المدن الكبرى ) والمجال القروي نظرا للتداخل الكبير بينهما.

---

[1] - فرحات حليمة، **"الصلحاء والسلطة بين الرفض والإغراء في المغرب الوسيط"**، ترجمة محمد الغرايب، ضمن كتاب **"السلطة والفقهاء .."**، مرجع سابق.

[2] - المغراوي محمد، **"المغرب في العصر الوحدي: جدلية القوة والأزمة"**، ضمن أعمال **ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، الجديدة، 2004.

[3] - Ferhat Halima et Triki Hamid, « **Faux prophètes et Mahdis dans le Maroc médiéval** », **Revue Hespéris Tamuda**, Vol XXVI-XXVII, Fascicule unique, 1988-1989.

[4] - القبلي محمد، **" حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن 12م ونهاية القرن 13م"**، ضمن : **كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط : علائق وتفاعلات "**، الدار البيضاء، 1997م.

[5] - الطويل حجاج محمد، **" الفلاحة المغربية في العصر الوسيط "، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – جامعة محمد الخامس، السنة الجامعية 1987 – 1988 م.

[6] - الطويل حجاج محمد، **"دكالة بين الشدة والرخاء"**، ضمن أعمال **ندوة المجاعات والأوبئة .."**، مرجع سابق.

- ✓ شح المعلومات بالمصادر وغلبة النصوص الإنطباعية، وقلة الإشارات الإحصائية في المصادر التاريخية، وعدم تتبعها بشكل كافٍ لتلك العلاقة بين عاملي الندرة أو الوفرة المطرية، وانعكاساتها على المجتمع القبلي، وحتى وإن وُجدت بعض الإشارات القليلة، فإنها لا تخلو من التضخيم والتناقض، وعدم وجود خيط ناظم يربط فيما بينها.
- ✓ تباين الإشارات التاريخية في المصادر من حيث القيمة والأهمية، تجعل من كتابة تاريخ متصل دون بتر وفراغات أمرا صعبا، إن لم نقل مستحيلا، فكتب النوازل والعقود مثلا، وعلى الرغم من أنها تشكل العمود الفقري للمادة المصدرية المعتمدة في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، إلا أنها لا تحدد في أغلب الأحوال زمن ومكان النازلة، والتي تخلو أيضا من أسماء الأفراد والجماعات، بل أن البعض يرى بأنها ذات " **محتوى نظري لا يتناسب دائما مع الواقع المعيش، وهو أقرب ما يكون إلى العمل الذهني، ذلك أن المواقف المثالية للفقهاء تحلق في دنيا بعيدة عن أرض الواقع، مما يجعلها بناءات فقهية مجردة تفتقر إلى أرضية تنغرس فيها أو إلى علاقة جدلية مباشرة بينهما وبين الواقع التاريخي** "[1]. علاوة على أن كتب الحوليات والتواريخ لا تذكر أسعار المواد الغذائية زمن الوفرة إلا نادرا، وتتكرر فيها إشارات انطباعية من قبيل " **عمَّ الرخاء ورخصت الأسعار** "، كما أن أزمة الرقم لا تسمح بكتابة ما يُشفي الغليل عن نفقات ومداخيل الدول، خصوصا ما يهم التحصيل الضريبي زمن المرابطين والموحدين، فالشذرات المتناثرة هناك وهناك تؤرخ للعصر المريني.
- ✓ صعوبة القيام بجرد شامل لسنوات الجفاف والفيض، وبالتالي صعوبة الإحاطة بانعكاساتها على مجتمع البادية، كآثارها على استقرار القبائل وهجراتها، والولادات والزواج، وعلى الأنشطة التجارية والحرفية، فضلا عن أن الشذرات المتوفرة تهم في أغلب الأحيان الحواضر السلطانية.

[1]- بن حسن محمد، "**القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط** "، مرجع سابق، صص 29 – 30.

# الفصل الأول : ملاحظات أولية حول قضايا الماء والمناخ بالمغرب خلال العصر الوسيط

## المحور الأول : المحددات المناخية كمدخل لدراسة مصادر المياه

لطالما شكَّل المناخ عاملا مهما في سير الأحداث عبر تاريخ المغرب، كما يشرح سيرورة البلاد الحضارية بتجلياتها الاقتصادية، والاجتماعية والفكرية، ذلك أن الإلمام بأنماط العيش، والاقتصادات المحلية والتغيرات التي عرفها تاريخ المجال المغربي، لا يمكن أن يتم إلا برصد فترات الوفرة والندرة التي تعاقبت على البلاد.

إن طبيعة العلاقة بين المناخ والإنسان وسمت الفترات التاريخية على اختلافها، وكيفت رؤيته لمحيطه وظروف معيشته. فإذا كانت مجموعة من الكتابات التاريخية قد حاولت التحجيم من دور المناخ في التأثير على حياة الإنسان ومعيشته، إلا أنه هناك في المقابل ثلة من المختصين في تاريخ المناخ ممن اعتبروه حجر الزاوية في شرح الحدث التاريخي، حيث اختزلوا تطور المجتمعات في التقلبات المناخية.

وإذا كانت المقاربة التاريخية لمناخ المغرب الأقصى مستعصية، فهذا يرتبط بغلبة الصبغة السردية للأحداث السياسية والعسكرية على المصادر المغربية وعدم إعطاء الأهمية للبيئة الطبيعية، والتي من شأنها أن تشرح مجريات الأحداث، خلافا للغرب الأوروبي الذي عرف طفرة في ما يخص الأبحاث الكمية حول تاريخ المناخ[1]، نظرا لارتكازها على نتائج سلسلات تواريخ المحاصيل الزراعية[2] . هذا الأمر لم يمنع من تناسل مجموعة من الأعمال

---

1 - Le Roy Ladurie ( E ) :

- **« Histoire du climat depuis l'an mil »**, V. I , Flammarion, Paris ,1967
- **« Histoire et climat »** , In A.E.S.C, 14 N° 1. 1959. pp : 3 -34.
- **« pour une histoire de l'environnement : la part du climat »**, In **A.E.S.C**, 25e année, N°5, 1970.pp : 1459 - 1470 .
- **« climat et récoltes aux XVII° et XVIII° siècles »**, 15e année, N°.3, 1960.pp : 434 – 465 .

- Bois ( Ch ), **« Années de disette, année d'Abondance, sécheresse au Maroc »** , **Revue pour l'étude des calamités**, Genève, 1949, N° 26 -27.

- Vries Jan, **« Histoire du climat et économie : des faits, une interprétation différente »** In : **A.E.S.C** , 32e année, N° 2 1977. Pp : 198 - 226.

- Hervé Richard, **« Palynologie et climat »**, , In **A.E.S.C**, 1988 Volume 3 - N° 3, pp : 359 - 384 .

- Kington John, **« Fluctuations climatiques : une étude synoptique du climat : fin XXIIIe – début XIXe siècle »**, **A.E.S.C ,** 32e année , N.2 , 1977.pp : 227 – 236 .

2- حبيدة محمد، **" التاريخ والمناخ، ملاحظات أولية حول المناخ في المغرب خلال القرن 17 "، مجلة المناهل**، ع 46، الرباط، 1995، صص 202 - 203 .

العلمية على الصعيد الوطني التي اهتمت بهذا الجانب[1]، والتي استفادت من نتائج أبحاث بعض المتخصصين الغربيين في دراسة تاريخ المناخ، وعلى رأسهم Le Roy Ladurie الذي لعب دورا مهما في تطوير علم المناخ، حيث اعتمد على تواريخ تَقدم أو تراجع جبال الجليد والاضطرابات المناخية منذ عام 1000، كما استغل الأرشيفات، واتخذ من دراسته للتاريخ الزراعي بفرنسا منطلقا له، حيث أسس للركائز المنهجية لهذا العلم (المناخ)، موظفا جملة من التواريخ المتعلقة بالجني والقطاف [2]، كما اهتم فرناند بروديل Braudel بدراسة الدورات الديمغرافية والبيولوجية بمنطقة البحر الأبيض المتوسط ومختلف الأزمات البنيوية التي ترتبط بها [3]، وبِالمثل أنجز العالِم المناخي الأمريكي Stockton بحثا حول التغيرات المناخية في القرون الماضية، باتباع طريقة التقويم الشجري Dendrochronologie[4]، وكلها دراسات تهدف إلى محاولة إخراج التاريخ من طابعه الضيق

---

1- نستحضر في هذا السياق مجموعة من الأبحاث وهي :

- Rosenberger Bernard et Triki Hamid , « **Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe », Hesp-Tam, Vol XVI »** , fasc unique, 1973, pp : 109 -176 .et fasc unique, 1974, pp : 5-104.

- البزاز محمد الأمين، **" تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"**، منشورات ك.آ.ع.إ بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، 1992 م .

- استيتو محمد، **" الكوارث الطبيعية بمغرب القرن 16 م "**، دبلوم الدراسات العليا، ك.آ.ع.إ، ظهر المهراز، فاس، 1988، ( مرقونة).

- بنحيون ماجدة، **" مساهمة المناخ في حصول المجاعات وانتشار الأوبئة بشمال إفريقيا خلال العهود القديمة "**، ضمن أعمال **" ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب "**، منشورات ك.آ.ع.إ بالجديدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004 م . صص 9 - 24.

- الناصري محمد، " **الكوارث الطبيعية والحتمية التاريخية "**، ضمن **مجلة ك.آ.ع.إ، الرباط**، ع 15، 1989- 1990، صص : 67- 88.

- صباحي محمد، " **موقع الجفاف في مناخ المغرب "**، ضمن **مجلة ك.آ.ع.إ، تطوان**، ع 14، 2007، صص 108-137 .

- أبو إدريس إدريس، **" أثر عنصر الماء في مغرب قرن 17 و 18 "، المناخ والتساقطات والأنهار "**، ضمن **مجلة ك.آ.ع.إ**، مكناس، ع 12، 1998، صص 79- 90 .

- باحو عبد العزيز، **" بعض الملامح الكبرى من تاريخ التغيرات المناخية والجفاف بالمغرب "، ذاكرة التكامل : أعمال مهداة للأستاذين محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمسماني**،تنسيق سيدي محمد الكتاني، الرباط، 2015، صص 193- 225 .

- البوزيدي سعيد ، **" الخصوصيات المناخية للمغرب القديم : مقاربة تاريخية لتناول ظاهرة التقلبات المناخية "** ، أضواء جديدة على تاريخ شمال إفريقيا القديم وحضارته ، **تكريم الأستاذ المصطفى مولاي رشيد**، الرباط، 2007، صص 183 - 204 .

- رحو حياة، " **مشكل الماء بالمغرب خلال القرن العاشر والحادي عشر للهجرة (16 – 17 م)**، وجدة، 2012 .

2- Ladurie Le Roy, « **Histoire du climat ...** » , op, cit , V I, p : 11.

3 - حبيدة محمد، **" مدرسة الحوليات، مفاهيم التحليل البروديلي "، مجلة أمل**، ع 3، 1993، ص 88 .

4- تقنية تعتمد على حساب عدد الحلقات في جذوع الأشجار، فنمو الشجرة يضيف كل سنة حلقة جديدة إلى لحائها. ويختلف سمك هذه الحلقات باختلاف كمية الأمطار وكمية التبخر- النتح التي تتحكم فيها درجة الحرارة .فإذا كانت السنة ممطرة وباردة أو معتدلة، فإن حلقة النمو ستكون سميكة، أما إذا كنت السنة جافة وحارة فإنها ستكون رقيقة .

- Ladurie le Roy, « **histoire et climat** », op,cit, p : 8 .

المعتمد على الأحداث السياسية وتاريخ الأمير، إلى عوالم أخرى تسعى إلى مقاربة **"جيو– تاريخية"** حسب تعبير جان بودان[1].

من هذا المنظور سنحاول إعطاء ملاحظات أولية عن مناخ المغرب خلال العصر الوسيط، مع العلم بأن إثراء النقاش العلمي حول مناخ المغرب خاصة، وشمال إفريقيا عموما من قبل الدراسات المعاصرة، ركَّز على مدى وجود تحولات جذرية بين مناخ هذه المنطقة خلال العصور القديمة، وبين مناخ العصور التي تلتها.

---

يؤكد علي حسن موسى أن تأريخ عمر الأشجار، واستنتاج نوع الذبذبات المناخية التي أثرت على مراحل نموها، يكون أكثر دقة في الأشجار المعمرة جدا مثل أشجار الجبار ( السيكويا Sequoia )، وأشجار صنوبر بريستلكون ( Pinus Artistat ) التي تعيش مدة تزيد عن 4000 سنة . راجع دراسته : **" التغيرات المناخية "**، سوريا، 1986، ص 78 .

- يذكر عبد العزيز باحو أن دراسة Stockton اعتمدت بالأساس على تحليل عينات من الأشجار المعمرة من صنف أرز الأطلس، تم اختيارها من مواقع جغرافية مختلفة من البلاد : في الريف ( موقعي تيسوكا وأفشتال )، وفي الأطلس المتوسط ( مواقع تونفيت، وفم الزاد، وإيفران، وتاعدولت )، وفي الأطلس الكبير الغربي ( موقعي إيدني وتازكا ) . عبد باحو عبد العزيز، **" بعض الملامح الكبرى من تاريخ التغيرات المناخية ... "**، مرجع سابق، ص207 .

- يرى محمد الناصري محمد أن دراسة حلقات الأشجار، لا تسمح إلا بأفكار أولية وصياغة فرضيات، إذا تعلق الأمر بالفترات الطويلة الممتدة على قرون، أما بالنسبة للفترات القصيرة الأمد، فإن الدراسة المنظمة للأشجار المعمرة طويلا تؤدي إلى حقائق صحيحة نسبيا فيما يتعلق التقلبات سواء على مر عقود طويلة أو داخل العقد نفسه . راجع : **" الكوارث الطبيعية ... "**،مرجع سابق، ص 72 .

- علم المناخ الشجري La dendroclimatologie

- **« La dendroclimatologie est une méthode qui consiste à utiliser l'épaisseur des cernes annuels de croissance des arbres comme indicateur climatique »**.

-Jean Jouzel, Claude Lorius, Dominique Raynaud, **« Planète blanche: Les glaces, le climat et l'environnement »,** 2008.

- La dendroclimatologie est la science qui à partir de l'étude des cernes annuels de croissance des arbres (ou d'autres plantes ligneuses) étudie les climats passés (paléoclimatologie) et le changement climatique en cours.

**علم المناخ الشجري :** هو علم تحديد مناخ الماضي من الأشجار. تكون حلقات الأشجار أوسع عندما تكون الظروف ملائمة للنمو، وتضيق عندما تكون الأوقات صعبة. ثمة خصائص أخرى للحلقات السنوية مثلاً أثبت أن أقصى كثافة للخشب أفضل من عرض الحلقة البسيطة. باستخدام حلقات الأشجار، قدّر العلماء العديد من المناخات المحلية لمئات إلى آلاف السنين السابقة. بالجمع بين دراسة حلقات الأشجار المتعددة ، استطاع العلماء تقدير المناخات الإقليمية والعالمية السابقة.

تظهر أهمية هذا العلم في تغطية البياضات التي تعرفها المصادر التقليدية بخصوص أحوال المناخ بالمغرب خلال القرون الماضية، فعلى سبيل المثال ورد في إحدى الدراسات أنه " من المرجح أن عهد السلطان إسماعيل عرف تردد سنوات الجدب، إذا ما أخذنا بعين الإعتبار نتائج دراسة **Stockton** حول تاريخ دورات المناخ بالإعتماد على مقاطع جذوع الأشجار، لكن تدخل المخزن لمحاصرة آثار الجفاف بفتح مخازن الحبوب في المدن جعل تلك الآثار محدودة، مما أوحى بكون ذلك العهد كان عهد رخاء دائم حسب ما ترويه النصوص التقليدية، في حين أن ذلك إنما كان يرجع إلى الدور المنظم للدولة " . القبلي محمد ( إشراف وتقديم )، **" تاريخ المغرب تحيين وتركيب "**، الرباط، 2011، ص 406.

stockton c w ,**« Current research Progress toward understanding Drought »**, in Drought, Water Management and Food Production - .secheresse, gestion des eaux et production alimentaire, publications de l'institut agronomique et veterinaire hassan II 1988, pp.21- 35.

1- أورده العروي عبد الله، "**مفهوم التاريخ** "، لبنان، 2005، ج 1، ص258.

إن المناخ يرتبط ارتباطا متينا بعامل الزمن، إذ أنه يعرف عدة تقلبات الأمر الذي جعله محط بحث للتاريخ[1].

من هنا يظهر بأن رصد مميزات وخصائص هذا المناخ إلى غاية الفترة محط الدراسة هي مسألة تساعد في تتبع مجموعة من الثوابت والمتغيرات فيما يخص البيئة الطبيعية للمغرب،كما أنها قد تنير الجوانب المعتمة حول ما إذا كان هذا المجال قد شهد تغيرات مناخية تمخض عنها تغيرا في الموارد الطبيعية (سواء من حيث التراجع أو التزايد) من غابات ومستوى المجاري المائية، إضافة إلى ندرة التساقطات ( أمطار، ثلوج )[2].

تتفق أغلب الأبحاث العلمية التي اهتمت بالظاهرة المناخية بالمغرب القديم، على أن مناخ البلاد في الفترة القديمة لم تطرأ عليه تغيرات جذرية، فهو يشبه بشكل كبير مناخ العصور التي تلتها[3] . ومن المحتمل أن تكون المناطق الشمالية ذات رطوبة مرتفعة، وتكون بعض المناطق الداخلية والصحراوية أقل جفافاً، لكن حدثت تقلبات مناخية أسفرت عن زحف النطاقات الصحراوية نحو المجالات الرطبة – في العهود القديمة – بحسب النتائج التي توصلت لها الدراسات الحديثة، وذكرت بأن الأنهار المغربية في القرن الخامس قبل الميلاد كانت مسبحا للتماسيح وأفراس النهر، كما أن جل أنحاء البلاد كانت بيئة ملائمة ترتع فيها الفيلة والقردة الكبيرة وغيرها من الحيوانات، بفعل الغطاء النباتي الكثيف[4]. فمثل هذه الإشارات، تجعلنا نتردد في اعتبار المناخ الذي كان سائدا في جنوب "

---

1 - Le Roy Ladurie , « **Histoire du climat ..** », op, cit, V. I ,..p : 11 .

2- العلوي القاسمي هاشم، " **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي** "، الرباط، 1995م، ج 1، ص 82.

3 - وعلى رأسهم استيفان كسيل وفيليب لوفو. للمزيد حول هذا الجانب أنظر : البوزيدي سعيد، **"الخصوصيات المناخية للمغرب القديم.."**، مرجع سابق، ص 193.

- يقول محمد الأمين البزاز أنه على الرغم من صعوبة الحسم في مثل هذه المواضيع المعقدة، إلا أن جل الآراء مالت إلى القول إلى أن الطقس لم يطرأ عليه تغير جذري في العصور القديمة والتي تلتها . ص 287 . للمزيد حول الموضوع أنظر : مقالته : " **الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة والوسطى** "، **مجلة المناهل**، ع 69- 70، 2004، صص 286 - 287 .

4 - ذكر عبد اللطيف البرينسي إلى أن منطقة شمال إفريقيا ربما عرفت في القرن 5 قبل الميلاد وجود التماسيح وأفراس النهر، لكنها انقرضت بفعل التغيرات المناخية والعوامل البشرية، كما يذكر- نقلا عن الكتاب القدماء - وجود تماسيح طولها ذراع تعيش في المياه التي تجري من الأطلس وحيوانات إفريقية تعيش في أنهار موريسيا وفي غرب المغرب، حيث ترعى بجوار نهر الأناتيس، ( أم الربيع ) ووادي درات ( درعة )، بالإضافة إلى الفيلة في ضاحية سلا، والقردة الكبيرة Gorilles، ويضيف بأن مستنقع قرب رأس سوليس ( سبارتيل )[ يعتقد نفس الباحث أن الأمر يتعلق بضايات بحيرة المهرهر ووادي الحاشف ] كان مغطى بقصب كثير عال وكانت الفيلة وحيوانات أخرى ترعى هناك، بل كانت توجد في كل أنحاء المغرب في بداية الإمبراطورية الرومانية، حيث خلص إلى أن شهادة النصوص الأدبية بوجود الفيلة بالمغرب خلال العهود القديمة تؤكدها النصوص الآثرية. راجع أطروحته الموسومة بـ " **رحلة حانون : دراسة وتحقيق**"، **أطروحة لنيل**

بحر الروم " في القرن الخامس قبل الميلاد هو نفسه السائد اليوم[1]، ومن تم كانت التقلبات المناخية وراء انقراض هذه الحيوانات.

مناخ المغرب الأقصى من خلال المصادر الوسيطية :

نرى من الأنسب أن نورد بعض الإشارات حول خصائص المناخ انطلاقا من الأوصاف التي وردت في كتابات الجغرافيين والرحالة منذ منتصف القرن الرابع الهجري، حيث أسهبت في الحديث عن ثراء الغطاء النباتي للمغرب الأقصى، وغنى محاصيله الزراعية وتنوع ثرواته الحيوانية، فقد كان وافر الخيرات راخي الأسعار، والبداية مع

---

**دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم تحت إشراف د.محمد التازي سعود**، ك.أ.ع.إ فاس، 1989 – 1990 . صص 172 – 173 و ص 199 و الصفحات من 207 إلى ص 211.

- كما أشار البزاز محمد الأمين إلى أن المناطق الشمالية كانت أغزر مطرا، وأن المناطق الصحراوية كانت أقل جفافا، على سبيل المثال لا الحصر،" قصب كثيف يصل إلى حدة التطرف نحو الجنوب، بين رأس جوبي وبوجدور، ونهر عظيم ينبع من بحيرة كبيرة، تتصل بنهر آخر مليئ بالتماسيح "، كما يشير إلى تعرض إحدى جهات الجنوب المغربي للفيض المطري عام 42 م . أنظر مقالته : **" الجوع والجراد والأمراض.."**، مرجع سابق، ص 288 - 289 . " من خلال مقال دولا شابيل يتضح أن الأمر يتعلق بوادي غير **Ger** في الجنوب الشرقي المغربي"، أنظر:

- De la Chapelle ( F.de ), « **l'éxpédition de suetonius pautonius dans le sud-est du Maroc** », in **Hesp-Tam**, t, XIX, fasc 1-2, 1934, .p 107 .

- Lenz oskar ,« **Timbouctou : vaoyage au Maroc, au Sahara et au Soudan** », trad de l'allemand par Pierre Lehautcourt, librairie Hachette, paris, 1887, t. second, p 12.

من أجل مزيد من المعلومات التي أوردها Lenz حول الثروة الغابوية والنباتية للصحراء ووفرة الأنهار قديما . راجع : صص 393 – 398.

- التازي سعود محمد، **" محاولة في الإقتصاد المغربي في عهد الملك يوبا الثاني وابنه بطليموس 25 ق.م – 40 ق.م "، مجلة المناهل**، ع 26، الرباط. 1983، صص 10 - 11 - 12 .

- مجدوب محمد، **" الثروة المائية في المغرب القديم " ، ندوة الماء في تاريخ المغرب**، الرباط، 1999، صص 18 - 19 و ص 26 ومن ص 28 إلى ص32.

- البوزيدي سعيد، **" دور الشبكة النهرية والمجالات الرطبة في توزيع المواقع القروية بموريطانيا الغربية "، مجلة البادية المغربية**، ع 3 ، الرباط، صص 1- 3 ، ص 9 ، صص 15 - 16 ، ص 18 .

- البوزيدي سعيد، **" الخصوصيات المناخية للمغرب القديم..."**، مرجع سابق، صص 188 - 196 - 199 .

- البيضاوية بلكامل، **" الشرب والمشروبات بالبادية المغربية عبر التاريخ القديم "، مجلة البادية المغربية**، ع 4، الرباط، 2011، ص 7 .

- خرباش عبد اللطيف، **" جوانب من اقتصاد المغرب القديم خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد "، مجلة أمل**، ع 44، الرباط، 2015، ص 19.

- المغبر محمد، **" جوانب اقتصادية من تاريخ المغرب القديم أواخر القرن الثاني ق. م- منتصف القرن الأول الميلادي "، مجلة أمل**،ع 44، الرباط، 2015 م، صص 27 - 30 .

- البرينسي عبد اللطيف : **" وادي درعة والقبائل الدرعية من خلال المصادر القديمة "، ندوة حوض وادي درعة، ملتقى حضاري وفضاء للثقافة والإبداع**، أكادير، 1996 م، ص 21 .

1 - البوزيدي سعيد، **" الخصوصيات المناخية.."**، مرجع سابق، صص 202 – 203.

ابن حوقل الذي يقول "**وأما ما حاذى أرض افريقية إلى آخر أعمال طنجة (...) فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه**"[1]، وهو ما نلمسه عند البكري خلال القرن الخامس الذي أشار إلى أن العديد من بوادي شمال البلاد " **آهلة عامرة كثيرة الثمار والعيون** "[2]، والملاحظ أن مناخ المنطقة لم يؤثر بشكل كبير على ما تتوفر عليه من ثروات طبيعية و حيوانية، على الرغم مما تعرضت له البلاد أيضا من استنزاف خلال الفترة الرومانية[3].

وإذا ما علمنا أن المناخ لا يتغير في إلا في فترة زمنية طويلة، فإنه عرف تقلبات أفرزت تغيرات في بعض المناطق[4]، مما يدعو إلى الحيطة والحذر في تناول هذا الموضوع "وفق الخصوصيات الجغرافية وتجنب السقوط في العموميات "[5] وعليه، ستتم دراسة مناخ المنطقة من خلال تقسيمها إلى قسمين :

القسم الأول "**وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره**"[6]، فهو قسم متوسطي يشمل الأجزاء الشمالية، ثم القسم الثاني "**وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة**"[7]، وهو القسم الصحراوي ويبدأ تقريبا من درعة شمالا إلى حدود نهر السنغال جنوبا، فهذه المنطقة كانت أقل جفافا كما صورتها لنا المصادر التاريخية منذ القديم[8]، لكن كيف هو الحال خلال العصر الوسيط؟.

---

1- ابن حوقل أبي القاسم، "**صورة الأرض**"، مصدر سابق، ص84.

2 - البكري أبو عبيد الله، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، ج 2، ص 792.

3- لقد كانت روما ترى في بلاد المغرب خزان روما من الحبوب لذا سعت بكل إمكاناتها المتاحة من أجل استغلال خيراته وعليه تحولت الأراضي إلى سهوب قاحلة. البزاز محمد الأمين، "**الجراد والجوع والأمراض..**"، مرجع سابق، ص292.

4- موسى عمر عز الدين، " **النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي..**"، مرجع سابق، 35 .

5- البوزيدي سعيد، " **الخصوصيات المناخية..**"، مرجع سابق، ص191.

6- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 1، ص75.

7- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص75.

8- فبعض المناطق بالمغرب القديم كانت تعرف انتشار مجموعة من الحيوانات التي تعيش في بيئة رطبة كما دلت على ذلك النقوش كالفيل مما يظهر أن "**الصحراء لم تكن دائما قاحلة، بل كانت خضراء.** راجع : " البزاز محمد الأمين، "**الجراد والجوع والأمراض...**"،

إذا ما حاولنا الانطلاق من القسم الثاني فإن أول ما يستوقفنا فيه مدينة سجلماسة التي تنتمي إلى المناخ الصحراوي الجاف، انطلاقا مما سجلته ملاحظات بعض الجغرافيين العرب منذ القرن الرابع الهجري حيث نجد المقدسي يصفها بأنها "**شديدة الحر والبرد جميعا صحيحة الهواء**"[1]، أما ابن حوقل فيقول "**وسجلماسة مدينة حسنة الموضع فاخرة العمل**"[2]، وهو نفس ما سجله صاحب الاستبصار "**بلد مفرط الحر شديد القيظ**"[3]، ولم يتغير الأمر مع ما تم تسجيله لدى كل من ابن الخطيب والعمري خلال القرن الثامن الهجري[4]، لكن إذا كانت المناطق الجافة تستحيل فيها الزراعة دون السقي والتساقطات فما السر وراء خصوبتها ووفرة منتوجاتها؟

يمكن تفسير ذلك بفيضانات واد زيز خلال فصل الصيف بفعل ذوبان الثلوج الواقعة شمال المدينة بجبال الأطلس الكبير الشرقي[5]، وهو ما عبر عنه كل من ابن حوقل بقوله "**على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل**"[6]، والبكري "**وشرب زروعهم من النهر في حياض كحياض البساتين**"[7]، خاصة وأن "**ماؤها زعاق**"[8] لا يصلح للفلح، لكن الحالة التي وصلت إليها سجلماسة حسب شهادة الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري بأن "**سجلماسة الآن خربة تماما**"[9]، لم يكن بفعل تغير مناخي بقدر ما كان من ورائه فعل سلطوي يتمثل في سياسة كل من أبي يوسف يعقوب وأبي الحسن المرينيين اتجاه سكان سجلماسة حيث قاموا بمحاصرتها لفترات طويلة[10]،

---

مرجع سابق، ص288. أنظر أيضا حافظي علوي حسن، " **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي** "، المملكة المغربية، 1997م، ص 42.

1- المقدسي أبو عبد الله محمد بن أحمد، " **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** "، مصر، 1991م، ص231.

2- ابن حوقل، " **صورة الأرض** "، مصدر سابق، ص 90.

3- مجهول، " **الإستبصار في عجائب الأمصار** "، مصدر سابق، ص201

4- ابن الخطيب لسان الدين، " **معيار الإختيار في ذكر المعاهد و الديار** "، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، مصر، 2002م، ص181.
-العمري ابن فضل الله ، " **مسالك الأبصار..**"، مصدر سابق، ص463.

5- حافظي علوي حسن، "**سجلماسة وإقليمها ..**"، مرجع سابق، ص45

6- ابن حوقل، مصدر سابق، ص90.

7- البكري، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، ج 2، ص836.

8- نفسه، ص 836.

9- الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، بيروت، 1983م، ج 2، ص 128.

10- الناصري أحمد بن خالد، " **كتاب الاستقصا لدول المغرب الأقصى** "، تحقيق وتعليق جعفر الناصري و محمد الناصري، الدار البيضاء، 1997م، ج 3، ص120،36.

وتم تغوير مياه أحد أهم عيونها في عهد السلطان الأكحل[1]، لكن هل هذا كاف للقول بأن المنطقة لم تشهد تغيرات طفيفة، خاصة وأن الحسن الوزان أشار إلى ظهور مجموعة من الأمراض المرتبطة بحالة المناخ السائد كمرض العيون[2]، وهو ما لم تسجله المصادر قبله؛ وكذلك تراجع الغطاء النباتي والذي يمكن إرجاعه بدرجة أولى إلى كون **"الرمل بأعلى أرض الواحات يعدو عليها ويغير ما فيها من الآثار"**[3]، مما يؤشر على تغير في بعض ملامحها المناخية.

إذا ما حاولنا التوقف بحوز مراكش[4] الذي يتميز بقساوة مرتبطة أساسا بالظروف المناخية السائدة وندرة المياه[5]، فمعلوم أن مراكش تتأثر في فصل الصيف بفعل ارتفاع درجة الحرارة، وضعف التساقطات وعدم انتظامها[6]، مما ساهم في انتشار غطاء نباتي قوامه "**السدر والحنظل**"[7]، كما كانت تعرف المنطقة فيضانات واد تانسيفت خاصة "**إذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقى ولا يذر**"[8]، هذه الوضعية لم يتم التغلب عليها إلا بقرارات سياسية بعد أن صارت عاصمة لأكبر دول الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط.

أما فيما يهم منطقة الدير حيث توجد أغمات، فعلى الرغم من أنها تستقبل أمطار غير منتظمة كمنطقة الحوز، فإنها تستفيد من ثلوج الجبال حسب شهادة الإدريسي" **فاذا كان زمن الشتاء تجللت الثلوج النازلة بجبل درن. فيسيل ذوبانها الى مدينة أغمات**"[9]، وهو ما عاينه كاربخال أيضا خلال القرن 16م بقوله "**وأثناء**

---

1- حافظي علوي حسن، "**سجلماسة وإقليمها** "، مرجع سابق، ص66.

2- الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج2، ص128

3- الشريف الإدريسي، "**وصف افريقيا الشمالية والصحراوية** "، مصدر سابق، ص28.

4- "**الحوز المراكشي**": يحيل حسب التعبير المتداول على السهل المحصور بين جبال الأطلس الكبير الغربي والجبيلات. أحمد زروال، "**النظام الخطارتي: أسلوب من أساليب تدبير المياه الباطنية بالحوز المراكشي**"، ضمن أعمال ندوة: **الماء بتانسيفت: تاريخ وتقنيات**، مراكش، 2002، ص 41.

5- نفس المرجع، نفس الصفحة.

6- رابطة الدين محمد، "**مراكش زمن الموحدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان** "، تقديم مصطفى الشابي، مراكش، 2016م، ج 1، ص30.

7- مجهول، " **الحلل الموشية في الأخبار المراكشية** "، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1979م، ص 16 .

8- الشريف الإدريسي، "**المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص85.

9- نفسه، ص82.

**الشتاء تنزل أمطار غزيرة مصحوبة بالرعد والصواعق، كما يسقط الثلج والبرد**"[1]. أما من ناحية هواءها فهو "**وخيم**"[2] كما صورته المصادر السابقة عن الإدريسي الذي قال بأنها "**صحيحة الهواء**"[3].

بالوقوف عند المصادر الجغرافية التي صورت لنا هذه المنطقة والتي تمتد "**إلى آخر أعمال طنجة** (...) **فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه**"[4] كما أنها "**طيبة الهواء، ذات أجنة واسعة ومزارع عظيمة**"[5]، وهو ما أشار إليه صاحب الاستبصار[6] خلال القرن (6هـ/12م)، حيث الأشجار الكثيرة والحيتان بمختلف أصنافها[7] والأرحاء الشتوية، والقردة، والأسود، هذه الأخيرة تشير المصادر التاريخية إلى أنها عاشت بالمناطق الشمالية من المغرب الأقصى، وخصوصا المناطق التي تعرف بتنوع غطائها النباتي ووفرة مياهها[8].

بالمقابل سجلت لنا بعض المصادر أن المغرب الأقصى منذ القرن الخامس الهجري تعرض لموجات جفاف خلفت آثارا على الإنسان والمجال، خاصة في منطقة معروفة بمناخها المتوسطي الذي تعيش البلاد تحت تأثيراته، وتتأرجح سنواتها بين الجفاف والفيضانات[9].

## المحور الثاني : الموارد المائية ودورها في النشاط الزراعي والمشاريع السقوية

### 1. أهم مصادر المياه بالمغرب الأقصى

شكل الماء عنصرا مؤثرا في الحياة اليومية بالمغرب الأقصى، نظرا لتنوع وتعدد مصادره بين ما هو سطحي وآخر طبيعي، مما كان له أثر إيجابي على موارده المائية التي تغذيها الأمطار ثم الأنهار والأودية فالعيون ثم الآبار،

---

1- مارمول كربخال، " **إفريقيا** "، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، الرباط، 1984، ج 1، ص30-31.

2- البكري،" **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، ج 2، ص843 . مجهول، " **الاستبصار في عجائب الأمصار** "، مصدر سابق، ص207.

3- الإدريسي، " **المغرب العربي ..** "، مصدر سابق، ص82.

4- ابن حوقل، " **صورة الأرض** "، مصدر سابق، ص84.

5- نفسه، ص81،

6- مجهول، " **الاستبصار ..** "، مصدر سابق، ص179.

7- الإدريسي، " **المغرب العربي ..** "، مصدر سابق، ص91.98.

8- نشاط مصطفى، "**الأولياء والأسود في تاريخ المغرب الوسيط نماذج من العصرين الموحدي والمريني**"، ضمن **التصوف والمجال والإنسان، أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد اللطيف الشادلي**، الرباط، 2016، ص17.

9- جسوس عز الدين، "**موقف الرعية من السلطة السياسة في المغرب والأندلس على عهد المرابطين**"، دراسة في علم الاجتماع السياسي، الدار البيضاء، 2014م، ص53.

التي شكلت جميعها الركيزة التي تأسست عليها الدولة المغربية الوسيطية للنهوض بالحياة الاقتصادية وتلبية متطلبات التعمير والعمران، بل وكانت في قلب التحولات السياسية الكبرى التي شهدها المغرب الوسيط، فكيف وصفت شهادات الجغرافيين والرحالة المشهد المائي خلال هذه الفترة ؟

## مياه الأمطار:

يبدو أن هناك شبه إجماع بين الدارسين على أن المغرب الأقصى كان يتميز بعدم انتظام التساقطات التي يعرفها[1]، وهو نفس ما أرخت له مصادر هذه الفترة فالتساقطات كانت إما تعرف انقطاعا متواصلا أو أنها تعرف توالي الأيام[2]، وقد تستمر أياما محددة[3]، فتنقلب من نعمة إلى نقمة لما تسببه من فيضانات و ما يصاحبها من أمراض[4]. هذا التذبذب على مستوى التساقطات لم يكن ليجعلها مأمونة الجانب، وحتى مصير تلك الأمطار المتساقطة كان الضياع بفعل التبخر نتيجة ارتفاع درجة الحرارة[5].

لقد كان المغرب الأقصى وما يزال إلى اليوم تحت رحمة السماء، وما تردد صلوات الإستسقاء ورفع أكف الضراعة لله إلا برهان واضح على الأهمية التي تحتلها مياه الأمطار في ذهنية وثقافة الإنسان المسلم بصفة عامة[6]،

---

1- موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي..**"، مرجع سابق، ص54. - بولقطيب الحسين، **"الحياة الإقتصادية للحلف القبلي المصمودي في القرنين الخامس والسادس الهجريين"، مجلة الإجتهاد**، العدد 18، بيروت، 1993م، ص60. البياض عبد الهادي، "**وضعية الزراعة بالمغرب والاندلس خلال العصر الوسيط، مجلة البادية المغربية**، العدد 4، الرباط، 2011، ص3.

2- ابن عذاري المراكشي، "**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** "، مصدر سابق، ج 4، ص99. - ابن القطان المراكش، " **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان** "، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، بيروت، 1990م، ص159. - أبو بكر الصنهاجي (البيذق)، " **أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين** "، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1971، ص53.

- ابن صاحب الصلاة عبد الملك، " **المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس** "، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، 1987.ص149 - ابن الزيات، " **التشوف إلى رجال التصوف..**"، مصدر سابق، ص 220 و ص 405.

3- ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 92. - ابن عذاري المراكشي، " **البيان المغرب- قسم الموحدين** "، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، لبنان، 1985، ص100 .

4- ابن عذاري، **البيان. ق-م**، م.س، ص 177، و صص333-344.

5- الهنتاتي نجم الدين، **"مياه الأمطار في المدينة في الغرب الإسلامي الوسيط"**، ضمن أعمال **ندوة الماء والتعمير ببلاد المغرب في العهدين القديم والوسيط**، تونس2009، ص123.

6- يحتل الماء كما هو معلوم مكانة متميزة في الثقافة الإسلامية، بدءا من القرآن الكريم مرورا بالسنة النبوية وصولا إلى كتب التراث والجغرافيا والأدب، فمياه الأمطار تعد من أنواع المياه المذكورة في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى: " **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ** " .سورة النحل الآية 10.

باعتبارها المدد الأساسي والمزود الرئيس لحاجياته من الماء سواء الباطنية منها أو السطحية، بفعل الدور الكبير الذي تلعبه الجبال في التخزين، والعيون في التوزيع، فإلى أي حد استطاعت الجبال أن تؤمن الموارد المائية الكافية للمغرب الأقصى؟

## الأنهار والأودية[1]

إن الأنهار والأودية المغربية ظلت في غالب الأوقات عائقا أكثر منه عاملا من عوامل التطور، وأن كثرتها وعدم حسن استغلالها جعلها نقمة أكثر منها نعمة[2]. إلا أنه لا يمكن إنكار أن هذه الروافد التي كانت تنبع من البوادي، لطالما شكلت مغذيا رئيسيا لحاجيات البلاد الضرورية من المياه، ومحركا للمعيش اليومي للرعية، وهي تمتد على شكل شبكة من الأراضي الداخلية في اتجاه الشمال والغرب والجنوب، وتعتبر جبال درن ومرتفعات اغمارة خزانات مائية تغذي هذه الشبكة المائية[3]، ومن خلال أوصاف المصادر الجغرافية يمكن الفصل بين الأنهار الكبرى، والأودية الصغيرة الموسمية الجريان.

---

أما كتب الفلاحة فقد أولت هذا الماء عناية خاصة نذكر على سبيل المثال: ابن البيطار الذي يقول عنه **" ومن المياه الفاضلة ماء المطر"**. راجع : **" الجامع لمفردات الأغذية والأدوية "**، لبنان، د.ت، ج 4، ص 409.

- وابن العوام الإشبيلي الذي يقول عنه **"وما المطر وهو الما المبارك وهو يصلح لسقي ما لطف من النبات"**. - ابن العوام الإشبيلي، **الفلاحة الأندلسية**، تحقيق، أنور أبو سويلم ، سمير الدروبي، علي ارشيد محاسنة، الأردن، 2012، ج 1، ص 520.

بالإضافة إلى كتب النوازل كالونشريسي الذي عرضت عليه نازلة حول **" من اكترى أرضا فأمطرت حتى هلك الزرع أو اتى الجراد فأكل الزرع"**، - الونشريسي، **" المعيار المعرب .."**، مصدر سابق، ج 8، ص164.

1- كانت الأنهار محط اهتمام مجموعة من الفقهاء، بغية الفصل فيها وتحقيق مبدأ الإباحة العامة للمياه انطلاقا من الحديث الشريف الذي يقضي بأن الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار، وعليه فقد قسم الماوردي(ق5ه) الأنهار إلى ثلاثة أنواع: **"فأما مياه الأنهار فتنقسم ثلاثة أقسام: أحدها ما أجراه الله تعالى من كبار الأنهار التي لا يحتفرها الآدميون (...) ولا ضرورة تدعو فيه إلى تنازع أو مشاحنة، والقسم الثاني ما أجراه الله تعالى من صغار الأنهار وهو على ضربين: أحدهما أن يعلو ماؤها وإن لم يحبس ويكفي أهله من غير تقصير، والضرب الثاني أن يستقل ماء هذا النهر ولا يعلو للشرب إلا بحبسه فللأول من أهل النهر أن يبتدئ بحبسه ليسقي أرضه حتى تكتفي منه وترتوي (...) والثالث ما حتفره الآدميون لما أحيوه من الأرضيين فيكون النهر بينهما ملكا مشتركا، ولا يحق فيه لغيرهم"**. - الماوردي أبي الحسن، **"الأحكام السلطانية والولايات الدينية "**، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، الكويت، 1989م، صص 235 - 237. وهذا التقسيم هو الذي أجمع عليه الفقهاء، ويبقى النوع الثاني هو الذي استأثر باهتمامهم نظرا لما أفرزه من نزاعات وخصومات شغل حيزا مهما من فتاويهم.

2 - الزين عبد الفتاح، **" المغرب الماقبل استعماري : سيرورة مجتمعية ( 1631 م – 1912 م ) "، المجلة التاريخية المغربية**، العدد 55-56، تونس، 1989، ص 113 .

3- البوزيدي سعيد، **"دور الشبكة النهرية والمجالات الرطبة في توزيع المواقع القروية"، مجلة البادية المغربية**، العدد3، الرباط، 2009م، ص1. أما عن دور الجبال في النشاط الزراعي فينبغي القول أنها كانت مصدرا لاغنى عنه في مد المغرب الأقصى بالمياه اللازمة

- واد تانسيفت[1]: منبعه من جبل درن[2]، هذا الأخير كان خلال هذه الفترة مشهورا بتراكم الثلوج الكثيفة على قممه في فصل الشتاء[3] والتي يستفيد منها هذا الواد خلال فصل الصيف وينتهي إلى البحر المحيط.
- نهر أم الربيع[4]: يعد من أكبر الأنهار بالمغرب وهو من بلاد تادلا، يصفه الإدريسي على "**أنه على واد سريع خرار يجاز بالمراكب**"[5]، ويضيف الوزان أنه "**ينبع من الأطلس** (...) **ولا يمكن قطعه خوضا في الشتاء والربيع**"[6]، ويصب بدوره في البحر المحيط[7].
- واد درعة: نظرا لأهمية هذا النهر فقد ورد ذكره في المصادر القديمة بتسميات مختلفة[8]، كما يذكر البكري أن هذا الوادي منبعه "**من جبل درن** "[9]، "**وإنما تعرف درعة بواديها فإنه نهر كبير يجرى من المشرق**

---

للزراعة والسقي، على اعتبار أنها كانت المصدر الرئيسي للمياه، إذ تنفجر منها الينابيع التي تكون الأنهار الدائمة والبحيرات، بذلك كانت تكوّن مجاري مائية تغذي عدة أنهار مثل نهر أم الربيع ونهر سبو. راجع : نصر الله سعدون، "**دولة الأدارسة في المغرب العصر الذهبي** "، بيروت، 1987 م، ص 18.

1- **"تانسيفت ":** وادي شهير في حوز مراكش وصيغته مؤنث أنسيف أي النهر ونطقه اليوم حذفت منه النون فبقي أسيف وعلى الضفة الاخرى أسفل هذه القرية المذكورة(مليجة) بمسافة يوجد رباط شاكر"، هامش رقم 128، ابن الزيات، **" التشوف.."**، مصدر سابق، ص 126.

2- **"جبل درن: يسمى أدرارن درن أي جبل درن بسكون حروفه، ويطلق عادة على الأطلس الكبير الغربي جنوبي مراكش بين تيزي ن-أوماشو وتيزي ن-تلوات، لكن إطلاقه هنا قد توسع فيه ليشمل السلسة الجبلية التي تعد امتدادا له في مجموع الشمال الإفريقي والتسمية قديمة واردة عند الجغرافيين القدماء مثل سطرابون وبلين"** .هامش رقم 59، ابن الزيات، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص101.

3- الإدريسي، **" المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق "**، مصدر سابق، ص82-85. مجهول، **" الحلل الموشية "**، مصدر سابق، ص113.

4- مجهول، **" الاستبصار "**، مصدر سابق، ص185. **"وانسيفن: ذو الأنهار أو نهر الأنهار ويعرف اليوم في طول مجراه بواد أم الربيع وترفده أنهار عديدة"**.ابن الزيات، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص340.

5- الادريسي الشريف، **" المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق "**، مصدر سابق، ص88.

6- الوزان الحسن، **" وصف إفريقيا "**، مصدر سابق، ج2، ص247.

7- البكري، **" المسالك والممالك "**، مصدر سابق، ج 2، ص837

8- درا ودرات Daral/Dara، انظر: البرينسي عبد اللطيف ،**"نهر درعة والقبائل الدرعية من خلال المصادر القديمة"**، ضمن أعمال **ندوة: حوض نهر درعة ملتقى حضاري وفضاء للثقافة والإبداع**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1996، ص22. - مجدوب محمد، **" الثروة المائية في المغرب القديم "**، مرجع سابق، ص26.

9- البكري، **" المسالك والممالك**، " مصدر سابق، ص 844

**إلى المغرب ومنبعه من جبل درن**"[1] وهو كثير المياه[2]، وينبع هو الآخر من الأطلس عند حدود هسكورة[3].

- واد زيز: سبقت الإشارة إلى أن هذا النهر يعرف تزايدا في منسوب مياهه سواء في فترات تهاطل الأمطار أو خلال فترات الصيف جراء ذوبان ثلوج مرتفعات الأطلس الكبير الغربي[4]، و منبعه هو الآخر من الأطلس[5]، وهو من الأنهار الموسمية والتي كانت مصدرا مهما من مصادر تزود مدينة سجلماسة بحاجياتها من الماء[6].

- نهر سبو: يعد من ثاني أنهار المغرب أهمية بعد نهر أم الربيع ينبع من فازاز (الأطلس المتوسط) ويسير متعرجا متضخما بانصباب روافده فيه، مثل وادي ايناون ووادي ورغة، وقد ورد اسمه عند ابن حوقل "**وهو نهر عظيم الماء كثيره واليه مصب وادي فاس وجميعها يقعان في البحر**"[7]، فهو "**يحاذي مدينة فاس من شرقيها. وعلى ستة أميال منها**"[8]، "**ومجرى هذا النهر طويل ومياهه غزيرة** (...) **وعندما يصب سبو في البحر في المحيط**"[9] عند قصبة المهدية، ويعد المزود الرئيس لمدينة فاس من حاجاتها من الماء، وفيه يصب واد فاس[10]، ثم هناك واد الفلفل بمكناس، والذي يقول عنه ابن غازي أن منبعه من جبال بني فازاز والمعروف أيضا بواد أبي عمائر[11]، ووادي بهت[12].

---

1- مجهول، " **الإستبصار** "، مصدر سابق، ص206.
2- التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 410.
3- الوزان ،" **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ص254
4- علوي حافظي حسن، " **سجلماسة وإقليمها..**"، مرجع سابق، ص58
5 الوزان، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 2، ص254.
6- مجهول، " **الاستبصار** "، مصدر سابق، ص201. - البكري، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، ص836.
7- ابن حوقل، " **صورة الأرض** "، مصدر سابق، ص97.
8- الإدريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص99.
9- الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ص248.
10- الإدريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص99 .
11- ابن غازي، " **الروض الهتون..**"، مصدر سابق، ص 2.
12- الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ص248.

ومن بين أهم أنهار الجزء الغربي للمغرب نخص بالذكر "**نهر المعمورة وهو نهر سلا لا يعبر إلا على جسر وفي شماليه على ستين ميلا يصب نهر القصر**[1]" كما تذكر المصادر كذلك نهر أم الربيع الذي يعبر في فصلي الشتاء والربيع على الزوارق مما يبرز مدى كبر هذا النهر وارتفاع صبيبه عند فصل الشتاء [2].

وما يزكي هذا الطرح ما أشار إليه ابن خلدون بقوله على أنه "**نهر عظيم يمتنع عبوره أيام الأمطار لاتساعه، ويعظم مده إلى البحر فينتهي إلى سبعين ميلا**"[3]، بذلك اعتبره الإدريسي من بين أهم الأنهار التي يحتوي عليها المغرب فقال "**واد كبير خرار يجاز عليه بالمراكب سريع الجري كثير الانحدار**"[4].

أما نهر سوس، فيعتبر أقل هذه المجاري مياها، لكن الجغرافيين العرب أعجبوا بخصب ضفافه وازدهار الفلاحة حوله، ولعل هذا راجع بالدرجة الأولى لكثرة مياهه في العصر الوسيط وسهولة استغلالها، حيث أن النهر يجري في وسط سهل فيضي ولا يتعمق فيه كثيرا، وليست له فيضانات تتلف المزارع والمغروسات التي أقيمت على الضفاف، وهناك نهران آخران يضافان إلى منطقة سوس هما ماسة ونول، لكنهما أقل مياها من نهر سوس لارتباطهما بمياه الأمطار، بينما نهر سوس يتلقى مياه ثلوج درن، والنهران الأخيران مثل بقية الأنهار الصحراوية، تقوم الزراعة على ضفافها إذا فاضت في شهري مارس وأبريل[5].

ومن أبرز الأنهار الموجودة بمنطقة غمارة[6] نهر اللكوس الذي كانت "**تدخله المراكب..ومصب واديه في البحر**"[1]، ثم هناك واد محكسة الذي يرى بعض الباحثين أنه هو نهر تمودا المذكور في المصادر القديمة وهو

---

1 - ابن سعيد المغربي علي بن موسى بن محمد ( ت. 685 هـ )، "**بسط الأرض في الطول والعرض** "، تحقيق خوان فرنيط خينيس، تطوان، 1958،ص 72.

2- الوزان الحسن، " **وصف افريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 159.

3 - ابن خلدون ، " **تاريخ ابن خلدون المسمى العبر ..**"، مصدر سابق، ج 6، ص 119.

4 - الإدريسي الشريف، " **وصف إفريقيا الشمالية** "، مصدر سابق، ص 46.

5 - الطويل حجاج محمد، " **الفلاحة المغربية في العصر الوسيط** "، **دبلوم الدراسات العليا**، مرجع سابق، ص 27 .

6- إن تحديد مجال غمارة تواجهه صعوبات كثيرة، فالمصادر الجغرافية التاريخية غير واضحة في هذا الصدد، إذ يستعمل مصطلح غمارة كإشارة إلى المجموعة البشرية، وأحيانا أخرى توظف هذا المصطلح للحديث عن المجال الجغرافي . أنظر الادريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص187.- مجهول، " **الاستبصار** "، مصدر سابق، ص190. – ابن سعيد المغربي، " **بسط الأرض في الطول والعرض** "، مصدر سابق، ص139.

وادي مرتيل في الوقت الحالي[2]، في حين أن كل من البكري والإدريسي يذكرون مجكسة كاسم بلد وليس كاسم نهر[3]، وعليه فمجكسة حسب أحد الدارسين أطلق على اسم نهر وبلد وقبيلة مثله مثل تمودا الذي أطلق على النهر والمدينة معا[4].

## العيون[5]:

تظهر قيمة العيون في كونها الشريان الرئيس لمياه الأنهار في مواسم الجفاف وشح الأمطار[6]، وتنقسم إلى قسمين: عيون طبيعية، وأخرى استنبطها الإنسان، ونظرا لمكانتها فقد شغلت حيزا كبيرا في المصادر الجغرافية، وهذا يدل على الدور الكبير الذي تلعبه هذه العيون من خلال جلب الماء إلى داخل المدينة لكي تستفيد منها الساكنة في جل أنشطتها الزراعية والحرفية، بالإضافة إلى الدور البيئي الذي كانت تلعبه داخل المدينة المغربية

---

1- مجهول، " **الإستبصار** "، مصدر سابق، ص189.

2 - ليمان حسن، **"تامودا"** ضمن " **معلمة المغرب** "، سلا، ج 6، ص2205.

3- البكري، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، صص776، 777، وص 784، الإدريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص187.

4- غطيس مصطفى، **"نهر تمودة: النهر ذو الأسماء الخمسة"، دورية كان التاريخية.www.kan.nashiri.net** العدد 18، ديسمبر 2012، صص 120-130.

5- تنقسم العيون حسب الماوردي إلى ثلاثة أقسام : **" أحدها أن يكون مما أنبع الله تعالى ما ءها ولم يستنبطه الآدميون فحُكمها حكم ما أجراه الله تعالى من الأنهار...والقسم الثاني أن يستنبطها الآدميون فتكون ملكا لمن استنبطها ...والقسم الثالث أن يستنبطها الرجل في ملكه فيكون أحق بمائها لشرب أرضه "** . أنظر : **" الأحكام السلطانية ..."**، مصدر سابق، صص 240 – 241 . يتحدث ابن البيطار عن مياه العيون بقوله: **" فأفضل المياه مياه العيون ولا كل العيون ولكن ماء العيون الحرة الأرض التي لا يغلب على تربتها شيء من الأحوال (...) ولا كل عين بل التي هي مع ذلك جارية ولا كل جارية بل الجارية المكشوفة للشمس والرياح فإن هذا مما تكتسب به لجارية فضيلة، وأما الراكدة فربما أكسبها الكشف رداءة "**، - ابن البيطار، **" الجامع لمفردات الأغذية والأدوية "**، بيروت، د.ت، ج 4، ص408.

- كما إنها تصلح للخضر حيث **"قال ابن بصال: ما العيون وماء الآبار يوافقان من الخضر ما له أصل كبير غائر تحت الأرض كالجزر والفجل"**. - ابن العوام الإشبيلي، **" الفلاحة الأندلسية "**، مصدر سابق، ص523.

- كما كانت محط نزاع دائم بين الساكنين داخل المدن إذ نجد أغلب الفتاوى تعالج هذا الإشكال. راجع : ابن رشد،**"فتاوى ابن رشد"**، مصدر سابق،ج 2 و 3 ص : 1575،1574،1306،1191،1190،1189،1168،1167.

- وكذلك القاضي عياض وولده محمد، **"مذاهب الحكام في نوازل الأحكام"** ، مصدر سابق، ص100.

6- موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص 59.

الوسيطية[1]، وإذا ما حاولنا رصد شبكة هذه العيون فيلاحظ أنها تكتسح هذا المجال شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وإن كانت تتفاوت من حيث عددها والدور المناط بها داخل كل مجال.

تعد العيون من أهم مصادر المياه التي ارتكزت عليها عاصمة الأدارسة فاس في نشأتها وتطورها[2]، فإذا كان كل من صاحب الاستبصار والإدريسي قد صرحا بأن عيون فاس كثيرة لا تحصى[3]، فهذا ابن ابن سعيد يؤكد ما ذكره سابقوه "**يقال أن فيها من العيون عدد أيام السنة**"[4]، ونحن لا يهمنا الرقم بقدر ما تهمنا حمولته التي تدل على مدى تحكم هذه العيون بالمدينة، ولن يختلف الأمر كثيرا إذا ما توجهنا شمالا بحوالي أربعين ميلا حيث سنجد مدينة مكناس التي "**تشقها الأنهار والمياه السائحة، والعيون الكثيرة**"[5]، وهو ما تتفق عليه ثلة من المصادر[6]. فيما خصها ابن الخطيب في نفاضته بأبيات شعرية يتغنى بما هي عليه من مياه وخيرات[7].ونفس الشيء نجده في مدينة تطوان[8] ومدينة وجدة[9]، أما عن سجلماسة فيعتبر البكري أول من أشار إلى وجود العيون بها[10].

---

1- نخص بالذكر مدينتي أغمات وفاس واللتين كان يخترقهما النهر ويسحب الفضلات والأوساخ وينظف المدينة من مختلف الأقذار. ويساهم في تلطيف الأجواء. راجع : الإدريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص82 و ص94.

2- ابن القاضي المكناسي، "**جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**"، الرباط، 1973م، صص 28-29. - ابن أبي زرع الفاسي، " **روض القرطاس..**"، مصدر سابق، ص38.

3- مجهول، " **الإستبصار** "، مصدر سابق، ص180. - البكري، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، ص94.

4- ابن سعيد المغربي، " **بسط الأرض..**"، مصدر سابق، ص141.

5- مجهول، " **الإستبصار** "، مصدر سابق، ص188.

6- الادريسي، "**المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص97. – الحميري محمد عبد المنعم، " **الروض المعطار في خبر الأقطار**"، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975، ص544. - ابن غازي، " **الروض الهتون..**"، مصدر سابق، ص 4 .

7- **بالحسن من مكناسة الزيتون *** قد صح عذر الناظر المفتون**

**فضل الهواء وصحة المال الذي *** يجري بها وسلامة المخزون**

**سحّت عليها كل عين ثرة *** للمزن هامية الغمام**

ابن الخطيب لسان الدين، " **نفاضة الجراب في علالة الإغتراب** "، مصدر سابق، ص383.

8- مجهول، **الإستبصار**، مصدر سابق، ص137.

9- نفسه، ص177.

10- البكري، **المسالك والممالك**، مصدر سابق، ص836.

**الآبار :**

تعتبر الآبار[1] مصدرا أساسيا من مصادر المياه بالمغرب الأقصى، نظرا للأدوار الهامة التي لعبتها على مر فتراته التاريخية، وهي منتشرة بكثرة وتم استنباطها لأغراض مختلفة[2]. وقداختار أهل التجارب مواضع حفر الآبار في أماكن لها مقومات الديمومة والاستمرار[3] في طليعتها الحفاظ على منسوب وصبيب متوازيين عبر مختلف فصول السنة، وفي هذا الصدد تم استغلال السطح التضاريسي وفق هندسة مضبوطة لحفر الآبار[4].

---

1- يتضح دور الآبار في حياة الإنسان، ومكانتها في الدين الإسلامي، من خلال العديد من النصوص، قال الله تعالى : **" فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ"**. سورة الحج الآية 45 .

وجاء أيضا في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من علم علما، أو أجرى نهرا، أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدا، أو ورث مصحفا، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته**" . راجع : المنذري عبد العظيم، **"صحيح الترغيب والترهيب "**، تحقيق محمد ناصر الألباني، الرياض، 2000 م، ج 2، ص2600 . والبئر في اللغة : القليب، أنثى، وبأر الرجل بئرا حفرها والبئر جمعها في القلة أبؤر وأبآر، وفي الكثرة آبار وبئار، وهي الحفرة العميقة في الأرض يستقى منها الماء أو حفرة بعيدة الغور يمكن من خلالها استغلال المياه الجوفية. ابن منظور جمال الدين، " **لسان العرب** "، بيروت، د.ت، المجلد الثالث عشر، ص 39.

2- أسكان الحسين، **"تكنولوجيا التحكم في الماء بالجنوب المغربي خلال العصر الوسيط"**، ندوة تاريخ الري بالجنوب المغربي، ضمن **مجلة أمل**، العدد 24، أكادير،2001م ص18.

3- تميز العرب منذ قديم الدهر بفراسة حاذقة يتعرفون بها على مكامن الماء في باطن الأرض ببعض الإشارات الدالة على وجوده، وبعده وقربه، بشم التراب أو برائحة بعض النباتات فيه، أو بحركة حيوان مخصوص، وقد سمى العلماء معرفتهم هذه ب"علم الريافة"، في اللغة القنقن: "والقنقن والقناقن، بالضم هو البصير بالماء تحت الأرض، وهو الدليل الهادي والبصير بالماء والجمع القناقن. قال وأصلها بالفارسية وهو معرب مشتق من الحفر من قولهم بالفارسية "كن" "كن"أي :احفر احفر". - ابن منظور جمال الدين، **" لسان العرب"**، مصدر سابق، ص 350.

- أما في اللغة الأمازيغية فقد اتخذ اسم الباحث عن المياه الجوفية، تسميات متعددة حسب كل مجال، من أشهرها "مافامان"، وهي كلمة مركبة من اسمين جمعها "إد ماف أمان" وتعني "ماف" الباحث أو الذي يجد ما يبحث عنه و"أمان" يقصد به الماء. أسكان الحسين، **"إيد"** ضمن **المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته**، إشراف محمد حمام، الرباط 2004، ج 1، ص85-86، - شفيق محمد، **الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية**، الرباط، 1999م، ص 162.

وقد سجل ابن عذاري هذا الأمر من أحوال عبد الله بن ياسين أنه سافر مع قوم كانوا معه فعطش جميعهم فشكوا ذالك إليه فقال: "عسى أن يجعل الله لنا من أمرنا فرجا ومخرجا" ثم سار بهم ساعة وقال " إحفروا فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر، فعدوا ذلك كرامة له، فشربو جميعا وسقوا ذوابهم وانصرفوا" . - ابن عذاري، **البيان**، مصدر سابق، ج 4، ص 16.

4- ابن وحشية أحمد بن علي، " **الفلاحة النبطية** "، تحقيق توفيق فهد، دمشق، د.ت، ص54-70.

كما ذكرت كتب الفلاحة كيفية استغلال مياهها[1] وتحديد أنواعها[2] دون أن ننسى أنها شغلت حيزا مهما في كتب الفتاوى[3]، وهذا يدل على الأهمية التي تحتلها في حياة المجتمع المغربي.

يشير الوزان إلى أن الحاجة إلى المياه دفعت أهل سجلماسة إلى حفر الآبار ذلك أنه "**كثيرا ما يجف النهر في هذا الفصل من السنة، فلا يجدون غير الماء المالح المستخرج من الآبار المحفورة باليد**"[4]، فتطورت أساليب حفرها وبنائها وتأصلت التجربة في ذلك، حتى أصبحت المعرفة واسعة بفن حفر الآبار[5].

أما مدينة مراكش التي " **لم يكن بها ماء، فحفر الناس بها آبارا فخرج لهم الماء على قرب** "[6] فأضحى "**شرب أهل مراكش من الآبار، ومياهها كلها عذبة، وآبارهم قريبة معينة** "[7]، من خلال هذا نستشف

---

1- أدرجها ابن البيطار ضمن المياه الرديئة وفسر سبب فسادها لكونها مياه محتقنة لاتخلو من تعفن، - ابن البيطار، " **الجامع لمفردات الأغذية..**"، مصدر سابق، ص409. في حين أورد ابن العوام فصل خاص بمياه الآبار سماه "في فتح الآبار"، - ابن العوام الإشبيلي، " **الفلاحة الأندلسية** "، مصدر سابق، ج1، ص537.

2- حددت مصنفات الفقه بمختلف أوجه الانتفاع بمياه الآبار بناء على الأحكام الفقهية التي قسمت الآبار إلى:

**آبار الماشية**: وتنقسم إلى قسمين:

* الآبار التي تحتفر في الفلوات: يسميها الماوردي آبار السابلة، ويكون ماؤها مشتركا وحافرها منهم كأحدهم لا يكون فيها بيع ولا عطية وصاحبها الذي احتفرها وورثته أحق بمائها قبل غيرها ثم ليس لهم منع الناس أن يستقوا بفضلها لأنها تعتبر من آبار الصدقة.

* الآبار التي يحتفرها المرء في أرضه لمنفعته ولصاحبها بيعها وبيع مائها وهي كالبئر البادية ، أصحابها أحق بمائها طالما أقاموا عليها في تجمعهم، فإذا ارتحلوا عنها صارت البئر سابلة ويكون السابق إليها أحق بمائها.

**آبار الزرع:** وهي الآبار التي تحتفر لسقي المزروعات، لصاحبها الحق في بيعها وهو أولى بفضلها ولا يجبر أحد على أن يبيع فضله لمن يسعى به إلا أن تهور بئر جاره على نخله أو زرعه فيقضي له أن يسقى بفضل ذلك الماء حتى يصلح بئره

**آبار الشفة:** والمراد بها الآبار التي تستعمل للشرب لا التي تستعمل لسقي الأرض ويمكن أن نفرق بين نوعين:

* البئر التي يحتفره الرجل في أرضه أو داره ويمكن له بيعها وبيع مائها، على أن صاحبها أحق بمائها من الناس.

* البئر التي يحفرها الرجل في الصحراء وفيافي الأرض مثل "مواجل طريق المغرب"، وقد كان أنس بن مالك يكره بيع هذا الصنف من الآبار من دون أن يحرم ذلك، وهي مثل آبار الماشية فليس لأهلها منع فضلها أما المارة فلا يمنعون لشفاههم ودوابهم. انظر: الماوردي، **الأحكام السلطانية**، مصدر سابق، ص239.238.- البرزلي أبي القاسم بن أحمد البلوي، " **فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام -لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام** "، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيروت، 2002م، ج 4، ص432.422.420. ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 1، ص186.

3- وتعزى هذه الأهمية إلى أسباب متعددة، فالآبار توجد في المجال الريفي والمجال الحضري على حد سواء وتبعا لذلك وردت ضمن المسائل التي تهم الريف والمسائل التي تهم المدينة، كما تدرج الآبار ضمن منشآت المياه المستخرجة من باطن الأرض وتزداد أهميتها في المجال الريفي، وتستعمل مياهها للشرب أو السقي.

4- الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج2، ص 126 .

5- حافظي علوي حسن، "**أخطار تنقل القوافل في القفر بين العوامل الطبيعية والثقافية**"، من إيناون إلى استانبول، **أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المؤذن**، الرباط، 2012م، ص58.

6- ابن أبي زرع الفاسي، "**الأنيس المطرب ..**"، مصدر سابق، ص 138 .

7- الإدريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص85.

بأن باطن المجال الذي تأسست عليه مدينة مراكش يزخر بفرشة مائية على غاية من الأهمية نظرا لقرب الماء من السطح.

وفيما يخص دكالة التي كان معاش أهلها على الفلاحة البورية، وما تتطلبه هذه الأخيرة من مياه استطاعت بعض الآبار توفيرها، فقد سجل المجهول البرتغالي بالمنطقة "**أكثر من أربعمائة بئر تدعى أسكوم بها مياه وافرة على عمق قليل**"[1]، إلى جانب اهتمامهم بتخزين مياه الأمطار، دون أن تستفيد من نهري تانسيفت وأم الربيع لتبية حاجياتها من الماء[2]. حتى مدينة فاس التي اشتهرت بوفرة مياه واديها وكثرة العيون بها، وُجدت بها الآبار حيث يقول ابن القاضي "**ومنها أن بها ماء العيون والآبار والأنهار، فمياه العيون والآبار عذبة صافية باردة**"[3]، وكان لتلك التي تم إنباطها من أجل بناء جامع القرويين الصدى الواسع في كتابات المؤرخين[4].

فرضت الظروف المناخية على الإنسان ضرورة البحث عن موارد مائية إضافية خاصة بالنسبة لسكان المناطق الجافة وشبه الجافة، فاعتمدوا على الرأسمال البشري، والرصيد المتوارث من الخبرات والتجارب للوصول إلى المياه في باطن الأرض، فجاء الرصيد التقني للسكان على درجة عالية من الغنى والتنوع[5]، استطاعت من خلاله التأقلم والتعايش مع عدوانية المجال من خلال توفير أحد أهم مصادر المياه ألا وهي الآبار.

انطلاقا مما سبق يتبين أن المغرب الأقصى يتميز بغنى موارده المائية على اختلاف أنواعها، وهو ما يشرح المكانة التي ستنالها طرق وأساليب استغلالها من طرف أولي الأمر، خصوصا إذا ما أخذنا بما جاء في الاسطغرافيا الوسيطية، والتي تظهر أن المغرب عرف حركية اقتصادية وعمرانية واضحة المعالم إبان عصر الإمبراطوريات، فبواسطة الماء تشكلت المشاهد الطبيعية والمائية، وبه كذلك يمكن تفسير عدد كبير من الأحداث السياسية

---

1- مجهول البرتغالي، " **وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور** "، ترجمة الكونت هنري كاستري، نقله إلى الفرنسية محمد مزين، مراكش،1995، ص26.

2- الطويل حجاج محمد، **"دكالة بين الشدة والرخاء"**، ضمن أعمال **ندوة المجاعات والأوبئة.."**، مصدر سابق، ص41.

3- ابن القاضي، "**جذوة الإقتباس** "، مصدر سابق، ص43.

4- ابن أبي زرع ، **روض القرطاس**، مصدر سابق، ص 55-61.

5- حافظي علوي حسن، **"طرق الاستدلال على وجود الماء وتدبير قلته ودفع مضاره بصحراء بلاد المغرب في العصر الوسيط"**، مقال منشور ضمن **"ندوة الماء والتعمير ببلاد المغرب في العهدين القديم والوسيط** "، تونس2009، ص 186.

والقضايا السوسيو اقتصادية .فهل يستوي القول بأن عنصر الماء يعد مشكلة المغرب الاقتصادية[1] ؟ أم أن المشكل راجع إلى كيفية استغلاله والاستفادة منه[2]؟

## 2. استغلال الموارد المائية في الأنشطة الفلاحية بالمغرب ما بين القرنين 11 و 14م:

شكَّل الاهتمام بالماء ووسائل جلبه أولوية كبرى لكل الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأقصى مسخرة كل إمكانياتها من أجل توفيره، خاصة في منطقة تشهد تغيرا في كمية التساقطات من عام لآخر، وعلى الرغم من كل المعيقات المناخية والجغرفية لم تأل هذه الدول جهدا لإقامة مشاريع مائية ضخمة تساير ما تطمح إليه على المستوى الإقتصادي، فتعددت أساليب الري[3] التي أقامتها من خطارات وسواقي وقنوات الري الممتدة على مسافات بعيدة والنواعير في سقي الحدائق السلطانية والضيعات المخزنية المعروفة بالبحيرة مما ساهم في الرفع من الإنتاج عموما[4].

إن بداية توسع النشاط الزراعي كان منذ العهد المرابطي، بحيث أضيفت مناطق جديدة، واستحدثت مدن ونمت حولها المشاريع الزراعية، كالمغرب الشرقي، وحوض ملوية الأعلى ودرن، وعلى طول دير فازاز وحول وادي سوس وعلى طول روافد نهر سبو، وقد ساعد الاستقرار السياسي واستتباب الأمن على هذا التوسع إذ اطمأن سكان البوادي والحواضر، فانصرفوا إلى العمل والإنتاج مستغلين إمكانيات جهاتهم الطبيعية ومنها استغلال الموارد المائية[5].

فالدولة المرابطية بعدما تقوت شوكتها سعت إلى تحقيق أمن مائي وغذائي لرعيتها داخل المجال الذي فرضت عليه سيطرتها، واتبعت سياسة ذات أثر في ميدان الري، خاصة في منطقة شكل فيها الماء إلى جانب

---

1- موسى عز الدين، **النشاط الإقتصادي**، مرجع سابق، ص60.

2- الطويل حجاج محمد، "**الري والزراعة المسقية في الجنوب**"، ضمن **ندوة تاريخ الري بالجنوب المغربي**، مرجع سابق، ص8.

3- نفسه، ص62 .

4- القبلي محمد، " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** "، مرجع سابق، ص229.

5 - حجاج الطويل، " **الفلاحة المغربية** "، مرجع سابق، ص 92.

الدين والعصبية مرتكزا قامت عليه التجارب السياسية بالمغرب الأقصى[1]، فكانت الإستعانة بالخبرة الأجنبية في هذا المجال، لإعطاء انطلاق أول مشروع مائي متمثلا في الخطارات[2] التي أطلق عليها دوفيردان "المعجزة"[3]، حيث لعبت دورا أساسيا في تاريخ تزويد الرعية بالمناطق الجافة والشبه الجافة بحاجياتها من الماء سواء للشرب أو السقي، فالإدريسي حدد مصدر المياه مراكش في آلية الخطارة، وإن لم يرد ذكرها بذات الإسم[4] في عهد الأمير المرابطي علي ابن يوسف بن تاشفين[5]، وقد اعتمد هذا النص مجموعة من الباحثين لكشف أصل و زمن دخول هذا النظام إلى المغرب الأقصى[6].

---

1- مزين محمد، **"التاريخ المغربي ومشكل المصادر"، مجلة ك.آ.ع.إ-فاس**، جامعة محمد بن عبد الله، ع2، 1406هـ/1985م، ص118.

2- عرَّف بول باسكون" Paul Pascon الخطارة **" بأنها الفرشاة ومن انحدار السطح الطبيعي، وتنتهي مياه المصرف بالبروز على سطح الأرض لتلج بذلك السافلة بهدف ري الحدائق"** .

-Pascon( P), « **le Haouz de Marrakech** », Editions Marocaines et Internationales, Tanger,1977, Tome1, P.105.

أما "كوبلو" Goblot فيعرفها على أنها **" تقنية ذات صفة منجمية تستعمل لاستغلال المياه الجوفية بواسطة تقنية الساقية"**.

- Goblot (H), « **les quanates, une technique d'acquisition de l'eau** », Monton éditeur, Paris, la Haye, New Yourk, p151 .

أورد أحمد زروال تعريفا لهذه التقنية بالقول : **"( الكظامة أو الكظيمة أو القناة أو الفجارة أو الفوكارة أو الشطارة أو الفقارة...) قناة أو مصرف لسديمة مغذية وهي شبكة أو نظام من القنوات التي تعمل على التحريك الباطني للماء ونقله لمسافات بعيدة دون تعرضه للتبخر، ذلك أنها تنتظم على شكل سلسلة خطية من الآبار. بئر بجانب بئر يربط بينهما مجرى باطن"** . أحمد زروال، **"النظام الخطارتي : أسلوب من أساليب تدبير المياه الباطنية بالحوز المراكشي"**، ضمن أعمال ندوة: **الماء بتانسيفت: تاريخ وتقنيات**، مراكش، 2002، ص 41.

3- دوفيردان غاستون، " **تاريخ مراكش من التأسيس إلى الحماية (1912م) "**، ج1، ترجمة محمد الزكراوي وخالد المعزوزي، الرباط، 1433هـ/2012م، ص123.

4- رابطة الدين محمد، " **مراكش زمن الموحدين .."**، مرجع سابق،ج1، ص184.

5- الإدريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق "**، مصدر سابق، ص84.

6- لا يزال الجدل قائما حول أصل هذه التقنية وتاريخ دخولها للمغرب والذي لم يصل بعد إلى مستوى الإجماع النهائي، فإذا كانت أبحاث كولان ودريش وكرانكيرم وباسكون والعربي مزين تؤكد على أن هذه الآلية صحراوية، فإن Goblot في دراسته يمنحها أصلا أندلسيا في حين أن موساوي العجلاوي يذكر أن استخدام الخطارة تزامن مع التواجد الإدريسي الخارجي بالمنطقة والتي تم استغلالها في مناجم الفضة ، أما دوفيردان فقد اعتبر الفرضية القائلة بأصل الخطارة أنه صحراوي غير دقيقة، مادامت قب&ائل صنهاجة التي جاءت من الجنوب لم تفكر في إنشاء الخطارة قبل عهد على بن يوسف المرابطي. لكن كل من مولان Molin و لويكي Lewicki يصرحان بأن قبائل التوارك يستعملون كلمة إيفلي كمقابل لكلمة خطارة، ويوجد بتوات وكوارة عدد منها، كذلك القبائل الزناتية التي اكتسبت تجربة كبيرة في هذا المجال. و لا يغرب عن أذهننا أن هذه الفرضيات لم تسلم من الإديولوجية التي تجعل من المغرب الأقصى مجال مفتوحا لتقبل أفكار الغير وأنه ليس مجال إنتاج أفكار وأساليب خاصة به، فعوض أن نرجع الخطارة إلى أصول فارسية أو شرق أوسطية، لماذا لا نقول بأصلها الشمال الإفريقي، حجتنا في ذلك البراعة والخبرة الكبيرتين اللتين راكمتهما ساكنة الواحات كدرعة وتافيلالت وتدغى، في التعامل مع المسألة المائية وهو ما أشار إليه Goblot الذي اعتبر أن ساكنة الواحات السالفة الذكر كانت وراء إنشاء خطارات الحوز .

- Goblot (H), « **les quanates...** », op.cit, P 151.

- دوفيردان غاستون، " **تاريخ مراكش "**، مرجع سابق، ص124. - حافظي علوي حسن، " **سجلماسة وإقليمها "**، مرجع سابق، ص76. - محمد حبيدة ، **"الماء في المغرب : التقنية والتنظيم ملاحظات حول القرنين 17 و 18"**، ضمن أعمال ندوة **الماء في تاريخ المغرب**، مرجع

يرى كوبلو (Goblot) أن الدولة الحاكمة لعبت دوراً مهما في إدخال هذا النظام إلى مراكش، خاصة بعدما حدث ذلك التلاقح بين أهل اللثام والأندلسيين[1]، وبالتالي فقد وجد المرابطون حلا مؤقتا لمشكلة الماء بواسطة الخطارات التي حولت المنطقة من صحراء قاحلة "**كانت قبل ذلك يطير الطائر حولها فيسقط من العطش والرمضاء**"[2]، إلى جنة خضراء انتصبت فيها أشجار الغلال بأنواعها فتمكنت مراكش وأحوازها من إنتاج الحبوب والخضر والفواكه والزيوت، وارتفعت بذلك المساحة المسقية لتصل إلى حوالي 5000 هكتار[3].

كما شكلت السواقي أحد أهم الآليات التي تم اعتمدها في جلب المياه من مسافات بعيدة، وكانت من أهم الركائز التي وسائل السقي، هذه الآلية التي ذاع صيتها خلال العصر الموحدي، ولكن لا ننكر وجودها –على الأقل– منذ العصر المرابطي دليلنا فيما ذهبنا إليه مجموعة من الإشارات المصدرية التي همت مدينة فاس " **وفي كل زقاق ساقية متى شاء أهل الموضع فجروها فغسلوا مكانهم منها**"[4]، ومكناس " **فمن حوائرها ايضا بنو زياد وتقع غربا من الحوائر المذكورة وليست على الوادي المذكور(واد الفلفل) لكن لها منه جدول من نوع ساقية طويلة المسافة صعبة المجرى**"[5]، بل وحتى بمراكش" **وكان علي بن يوسف قد جلب إلى مراكش ماء عين. بينها وبين المدينة ستة أميال، ولم يستتم ذلك. فلما تغلب المصامدة على الملك وصار لهم بأيديهم، تتموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة**"[6]، ويزكيه أيضا نص لابن سعيد "**بناها –أي مراكش– يوسف بن تاشفين المتولي سلطان الملثمين، في أرض صحراوية، وجلب إليها الماء، وأكثر الناس فيها**

---

سابق، ص128. - مهدان امحمد، " **الماء والتنظيم الاجتماعي**"، أكادير، 2012، ص 67. - العجلاوي موساوي، **"تقنيات استخراج المياه الباطنية في مناجم الفضة بالمغرب(2هـ-7هـ/8م-13م)"**، **ندوة الماء في تاريخ المغرب**، مرجع سابق، ص114.

1 -Goblot (H), « **les quanates...** », op.cit, P 152.

2 - مجهول، **الإستبصار**، مصدر سابق، ص210.

3- Pascon (P), « **Le Haouz de Marrakech** », op.cit, P.75.

4- الإدريسي، **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق**، مصدر سابق، ص94. - البكري، **المسالك والممالك**، مصدر سابق، ص796.

5- ابن غازي، " **الروض الهتون** "، مصدر سابق، ص 4

6- الادريسي، **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق**، مصدر سابق، ص 85.

**البساتين**"[1]، وناقش أحد الدارسين هذه المسألة وخلص إلى أن هذه الآلية كانت موجودة بمراكش قبل الموحدين[2] معززا ذلك بما ورد عند ابن القطان في سياق كلامه عن يوم البحيرة[3]، وكذلك ما ورد عند التادلي[4].

يمكن القول أن " **العهد الموحدي هو امتدادا للعصر المرابطي من حيث زيادة المناطق الزراعية وتنويع المحاصيل وكثرة الإنتاج** "[5]، ويرجع الفضل في ذلك إلى الحضور الوازن للمنشآت المائية المهمة، فالماء يحقق استقرار الأفراد والجماعات ، ويلبي طموحهم الإقتصادي، خاصة في المجال الفلاحي، واهتمام الموحدين بمعاش أهل البادية، خاصة في فترة الاستقرار السياسي والظروف المناخية المتزامنة معها، فقد " **اقبلوا على اشغالهم وصلاح احوالهم في خدمة بواديهم واطلاق سواقيهم واتسعت احوالهم**"[6]، فاهتموا بجر المياه من أماكن بعيدة عن طريق السواقي الطويلة[7]، التي تم اعتمادها في سقي الأجنة والبحائر والأراضي الفلاحية، والتي تمت على مراحل مختلفة من عمر الدولة، وكان أول من دشن هذه العملية الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي حين قام بجلب الماء إلى الرباط من عين غبولة "**فصنع سقاية لشرب الناس والخيل وسقي الأرض حواليها، فصارت فيها البحائر والجنات والمغروسات**"[8]، وبالمثل" **غرس خارج مراكش بستانا طوله ثلاثة أميال، وجلب إليه الماء من أغمات، واستنبط عيونا كثيرة**"[9]، وسار أبو يوسف يعقوب على منواله فـ "**جلب لها**

---

1- ابن سعيد، " **بسط الأرض..** "، مصدر سابق، ص125.

2- رابطة الدين محمد، " **مراكش زمن حكم الموحدين** "، مرجع سابق، ج 1، صص188-189.

3- ابن القطان، " **نظم الجمان..**"، مصدر سابق، ص160.

4- ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص456-457.

5- موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص196.

6- ابن عذاري ، " **البيان. ق-م** "، مصدر سابق، ص338.

7- بنميرة عمر،" **النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن والتاسع/14و15م)** "، الرباط، 2012م، ص297. - موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص187. - القبلي محمد (إشراف وتقديم)، " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** "، مرجع سابق، ص228.

8- ابن صاحب الصلاة، " **المن بالإمامة** "، مصدر سابق، ص 358.

9- مجهول،" **الحلل الموشية** "، مصدر سابق، ص 145- 146 .

**المياه وأخذها في صهاريج أعظم من المتقدمة(...) أرسل في وسط المدينة ساقية ظاهرة ماؤها ماء قصره المكرم، تشق المدينة من القبلة إلى الجوف، وعليها السقايات لسقي الخيول والدواب واستقاء الناس"[1].**

كما شهد عصر يعقوب المنصور الموحدي توسيع مساحة المناطق المروية، آية ذلك مشروع الساقية اليعقوبية التي تخترق منطقة الرحامنة عبر قناة طويلة بلغت حوالي 90 كلم$^2$، وغالب الظن أن تنفيذ أعمال بناء هذا المشروع الكبير كان تحت إشراف يعيش المالقي[3] الذي سهر على إنجاز القنوات السطحية المائية الكبرى بكل من فاس والرباط وجبل طارق وإشبيلية[4].

يتضح أن المغرب قد شهد خلال العصر الموحدي الأول تدابير رسمية واضحة المعالم في ما يهم القطاع الفلاحي، وتحديدا مسألة السقي[5]، استفادت منها البوادي، إذ بدأت مع عبد المومن بجلبه الماء إلى مراكش من أغمات على مسافة تقدر بحوالي 30 كلم[6] لسقي البحائر التي أنشأها وغرسها بالأشجار المثمرة، مستغلا الأودية المنتشرة بمنطقة الحوز، كواد الزات وغدات وأوريكة وغيغاية ونفيس وتانسيفت[7]، هذه الساقية هي التي أشار إليها الإدريسي في عهد علي بن يوسف، ولم تتم إلا في عهد الموحدين تسمى اليوم بساقية تسلطانت[8].

---

[1] - مجهول، **" الإستبصار"**، مصدر سابق، صص 209 – 210 .

2- El Faïz Mohammed, « **Marrakech Patrimoine En Péril** », op, cit, p126.

3- الحاج يعيش المالقي من ألمع وأشهر المهندسين الذين برزوا في عهد الموحدين وقد كانوا يلجاون إليه في كل المشاريع الهامة فهو الذي صنع بأمر من عبد المومن بمدينة مراكش مقصورة المسجد الجامع التي حير وصفها سائر المهتمين بالآثار الموحدية خاصة منهم الذين يعنون بالنهضة الميكانيكية على ذلك العهد، وهو الذي قام سنة 567 في اشبيلية بعملية تسريب الماء لسقي البحيرة الملكية، وتوصيله إلى داخل اشبيلية من قلعة جابر، كما قام ببناء خزان للماءداخل المدينة، منه كان الماء يتوزع على مختلف أحيائها". - هامش رقم5، ابن صاحب الصلاة، **" المن بالإمامة "**، مصدر سابق، ص85.

4- لكديم الصوصي مولاي ابراهيم، **"المهن المرتبطة بالماء: جلب، تدبير وتوزيع: نموذج مراكش"**، ضمن أعمال **ندوة: الماء المتملك.."**، مرجع سابق، 2002، ص211.

5- إلى حد أن الطويل حجاج محمد شدَّد على أن هذه التدابير الرسمية التي نهجها كل من عبد المومن بن علي الكومي، وأبي يعقوب يوسف، وأبي يوسف يعقوب المنصور تدخل ضمن ما أسماه **"سياسة مخزنية واضحة في ميدان الري وتعبئة المياه"**. راجع دراسته : **"الري والزراعة المسقية.."**، مرجع سابق، ص9.

6- دوفيردان غاستون، **"تاريخ مراكش"**، مرجع سابق، ج 1، ص41

7- مبسوط زينب، **"التهيئة المائية بالحوز"**، ضمن أعمال **ندوة الماء بتانسيفت..**، مرجع سابق، ص78.

8- هوزالي أحمد، **"تاسلطانت"** ضمن **معلمة المغرب**، م.س، ج6، ص2058. - جلاب حسن، **"في تاريخ الماء و أساليب الري و التوزيع بمراكش"**، مراكش، 1998، صص:191- 213.

كما وصف العمري الساقية التي جلبها المنصور لتامراكشت على أنها نهر يخترقها[1]، إضافة إلى مشروعه الضخم المعروف بالبحيرة أو الساقية اليعقوبية[2]، والتي تعد نموذجا للمنشآت المائية التي وظفت فيها إمكانيات مائية هامة لإقامتها، وذلك بعدما تم جلب المياه في شكل سواقي ضخمة انطلقت من واد لخضر[3]، بحيث كان هذا الخليفة يطمح إلى إعادة تعمير مجال البحيرة واستغلال مؤهلاته الاستراتيجية والاقتصادية والعسكرية، خاصة وأن هذا المجال لايتوفر على جريان مائي دائم، ويتسم بطابع الجفاف فكانت السواقي النموذج الأمثل لتهيئة وإعداد المجال[4]، وكذا تجاوز مشكلة المياه الذي تعاني منه منطقة دكالة وآسفي من خلال هذا المشروع[5] الذي أكدت تقارير باحثين أركيولوجيين، أنه كان موجها بالأساس لسقي الحبوب، وذلك لغياب سهلي تامسنا ودكالة إثر الهجمة التي استهدفت ساكنتها[6].

فجاء هذا المشروع ليبين التفوق والسبق الموحدي في ميدان الري الكبير[7]، وعلى الرغم من أهمية هذا المشروع كتراث مائي فائق الأهمية إلا أن مسألة حدود الساقية تبقى من بين الإشكالات التي يصعب الحسم فيها، لأن آثار الساقية اندثرت بسبب مجموعة من العوامل البشرية والطبيعية، وكانت أيضا هناك سواقي في حوض

---

1- العمري ابن فضل الله، **"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "**، مصدر سابق، ج 4، ص102.

2- "**وفي هذا الإطار جاء المشروع الكبير ليعقوب المنصور الموحدي الكبير في الحوز الجنوبي المعروف بالبحيرة . جاء هذا المشروع ليبين التفوق والسبق الموحدي في ميدان الري الكبير، إذ أقام سدا ضخما على وادي تساوت وروافده واد لخضر بهندسة وتقنية جد متطورة استعملت فيها مواد البناء المحلية، ومنه انطلقت في قنوات رئيسية بعرض أربعة أمتار وعمق يقارب المتر، انطلقت بالمياه إلى مسافات بعيدة – حوالي 100 كلم . لتتفرع إلى قنوات ثانوية وثالثية وصولا إلى الحقول والبساتين، يضاف إلى ذلك الأشغال الممهدة للأرض وإعدادها للسقي، وقد قدرت المساحة المسقية ما بين 2000 إلى 3000 هكتار"** . - أنظر : الطويل حجاج محمد، "**الري والزراعة المسقية..**"، مرجع سابق، ص11.

3- المنوني محمد، " **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين** "، الرباط، 1977م، ص253.

4- El Faïz (M), **Marrakech Patrimoine En Péril**, op.cit, pp125-126.

5- الطويل حجاج محمد، **"منطقة عبدة وأحمر خلال العصر الوسيط: المجال والإنسان"**، ضمن **الكتاب الجماعي " تاريخ إقليم آسفي: من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة "**، آسفي، 2000م، ص92.

6- الطويل حجاج محمد، "**الري والزراعة المسقية..**"، م.س، ص11. - أسكان الحسين، "**تكنولوجيا التحكم في الماء..**"، ضمن **ندوة الري في الجنوب المغربي**...، مرجع سابق، ص20.

7- الطويل حجاج محمد، **" الري والزراعة.."**، مرجع سابق، ص 11.

سوس تحديدا في المنطقة الممتدة ما بين تارودانت وتزنيت حيث اكتشفت آثار ساقية كبيرة منطلقة من سد كبير يدخل ضمن مشروع مخزني ضخم لري المنطقة[1].

وإذا كانت السواقي قد عرفها المغرب في فترات مختلفة من تاريخه، فإن المؤكد هو أن السواقي لم تبرز بشكل كبير وعلى نطاق واسع إلا مع الدولة الموحدية بحيث لجأت إليها لتغطية حاجياتها من هذه المادة الحيوية، فشق السواقي الكبرى لا يمكن أن يتم إلا بواسطة سلطة قادرة على تمويلها ماديا، وتسخير الأيادي العاملة الكافية أو تقنيا من خلال الاستفادة من خبراء اشتهروا في هذا المجال[2].

كما عملت الدول المتعاقبة على حكم المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، على خلق آليات ووسائل لتخزين المياه وتعبئتها، فكانت الصهاريج[3] خير من قام بهذه الوظيفة. وأول ما يستوقفنا في هذا الباب حول العصر الذي ظهرت فيه هذه المنشآة، ولعل ما يدعو إلى طرح هذا السؤال هو ما تميز به المغرب الأقصى على مر تاريخه من التعاقب الدوري للاعتمار والخراب مما أدى حسب البعض إلى عدم حدوث تراكم في تقنيات الري[4].

وما يمكنّ أن نسجله في هذا السياق هو أن مختلف الشذرات المتناثرة بين متون الإسطغرافيا التاريخية، والتي أشارت إلى منشأة الصهريج تهم الحقبة الموحدية بدرجة أساس، وهذا لا يعني أنه من السهل المجازفة والجزم بأن هذا النوع من العمائر المائية لم يكن منتشرا في العهد المرابطي، خاصة مع عدم وجود معطيات آثرية تحسم في الأمر، وأيضا لأن المتون المشار إليها قد دوَّنها إخباريون موالون للسلطة الموحدية، كان همهم الإشادة بإنجازاتها

---

1- الطويل حجاج محمد، **" الري والزراعة.."**، مرجع سابق، ص12.

2 - Pascon (p), **Le Haouz de Marrakech**, op.cit, p : 97.

3- **"وهو حوض لاستقبال وتجميع وتخزين المياه القادمة من الجبل أو مياه الأمطار، أو المياه القادمة عن طريق الخطارات، ويتم توزيعها على المدينة ومحيطها، عبر سواقي وقنوات مخصصة لذلك "**. - رابطة الدين محمد، **"آليات توزيع المياه بمراكش زمن حكم الموحدين"**، ضمن أعمال ندوة **"الماء الممتلك .."**، مرجع سابق، 2002. ص.131.

4- أسكان الحسين، **"تكنولوجيا التحكم في الماء بالجنوب المغربي .."**، مرجع سابق، ص26.

ف"**بمثل هذه الآثار تفتخر الملوك**"[1]. فلا يُستبعد أن يتعمَّدوا عدم الحديث، حتى ولو بشكل عابرٍ عن منجزات خصومهم المرابطين.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الصهاريج قد لعبت دورا بارزا على مختلف الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية، بحكم وظيفتها القائمة على تجميع المياه في زمن الوفرة والفيض، لاستغلاله زمن الندرة من أجل توزيعه فيما بعد على الأجنة والعرصات، وتوفير الماء الشروب للإنسان والحيوان، كما تعمل على تنظيم توزيع الحصص المخصصة لسقي الأراضي الفلاحية والحصص الموجهة إلى المدينة[2].

هذه الصهاريج تنقسم إلى نوعين مكشوفة[3] وغير مكشوفة[4]، هذه الأخيرة حظيت باهتمام كبير من لدن مصادر العصر الوسيط ولا نجد في هذا الصدد أمامنا سوى ما صورته عن عاصمة الموحدين، التي كانت تأتي إليها الوفود من كل حدب وصوب، لكن هذا لا يعني غياب هذه الصهاريج عن باقي التراب المغربي[5]، وقد ارتبطت

---

1- مجهول، " **الاستبصار** "، مصدر سابق، ص185.

2- رابطة الدين محمد، "**آليات توزيع المياه بمراكش..**"، **ندوة الماء المتملك**، مرجع سابق، ص 134.

3- الصهاريج المكشوفة: هي التي تكون على شكل مستطيل أو مربع متفاوتة الأحجام، و تسمى بالبركة أو الماجل مثل المواجل الضخمة التي بنيت في أغلب المدن المفتقرة للمياه الكافية في شمال إفريقيا، وسميت في العهد الموحدي "بالرويا" تستعمل لري الدواب أثناء لحركات، والاسم المحلي لها هو "إفرضن" مثال لهذا النوع من الصهاريج صهريج المنارة بمراكش، الذي أسسه السلطان عبد المومن الكومي الموحدي، يبلغ عمقه متران، ومحيطه 510 متر، يأتيه الماء عبر قنوات متصلة بجبال الأطلس المتوسط التي تظهر من بعيد. - أسكان الحسين، "**تكنولوجيا التحكم في المياه بالجنوب المغربي..**"، م.س، ص24. - المنوني محمد، **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، م.س، ص251. - رابطة الدين محمد، **مراكش زمن حكم الموحدين**، مرجع سابق، ج 1، ص194.

4- تسمى أيضا بالماجل أوبالجب أو المطفية وهي عبارة خزان يبنى تحت مستوى سطح أرضية المنزل لجمع مياه الأمطار. ومهما اختلفت تسمية هذه التقنية من بئر مطر وصهريج وماجل ومطفية عند المسلمين أو أمبلوفيوم عند الرومان وألخبيس في الأندلس، فأغلب الظن أنها آلية تعمل على تخزين مياه الأمطار لتلبية الحاجيات اليومية للمجتمع في ظل ندرة المياه وطبيعة المناخ شبه الجاف في المنطقة المدروسة بشكل خاص والبلاد الإسلامية بصفة عامة، وإنما جاء الاختلاف في التسميات تبعا لكل منطقة وانتقالا من مجال إلى مجال إلى آخر، وهي تعد من المنجزات التي تستحق الإشادة. راجع دراسة : الرامي خالد، " **النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان( 1817-1913م)- دراسة في العمارة الإسلامية**"، تطوان، 2008م، ص248.

- باسيليو بابون مالدونادو، "**العمارة الأندلسية-عمارة المياه** "، ترجمة د. علي إبراهيم علي منوفي، مراجعة وتقديم د. محمد حمزة إسماعيل الحداد، القاهرة،2008، ص9. -

5- الأنصاري ابن القاسم محمد، " **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار** "، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1403هـ/1983م، ص40. كما ذكر الوزان أن شرب أهالي مدينة القصر الكبير وتازة كان من الخزانات، - الوزان حسن، **ج1**، **م.س**، ص 235-276، دون أن ننسى أن المغرب القديم عرف انتشارا واسعا للخزانات والتي تعددت استعمالاتها للسقي والشرب بالإضافة إلى القيام بمجموعة من الأنشطة الصناعية كتمليح الأسماك وغيرها كما دلت على ذلك الأبحاث الأركيولوجية التي تمت في مجموعة من المواقع كشلا وبناصا وتمودا و وليلي وغيرها.

الصهاريج أيما ارتباط بالبحائر والبساتين التي أقامها الخلفاء الموحدين، إذ لا نكاد نجد ذكر لأحد هذه الصهاريج دون الحديث عن محيطها الذي حرص الموحدون على غرس أشجار كثيرة حولها للتقليل من درجة تبخر الماء وتفرع هذه المياه المجموعة في جداول للسقي[1].

كما أن الإهتمام بتشييدها فرضه الجريان غير المتوقف للخطارة لتجميع المياه قصد استعمالها في السقي، ففي عهد الخليفة عبد المومن تم إنجاز المشروع الذي فكر فيه المرابطون، وهو جلب الماء من جبال درن، إذ أشار صاحب الإستبصار إلى أن "**الخليفة الامام جلب المياه من اودية درن وغرس بحيرة عظيمة بغربي المدينة قبل نفيس دورها ستة اميال وبنى فيها وخارجها صهريجين عظيمين كنا في تلك المدة نعوم فيهما، فلا يكاد القوي منا يقطع الصهريج الا عن مشقة وكنا نتفاخر بذالك**"[2]، فإذا كان أولها صهريج المنارة أو أقنا حسبما أورده العمري[3] ورجحه أحد الباحثين[4]، فإن الصهريج الثاني يكون هو صهريج البقر والذي يدل اسمه على أنه كان مخصصا لشرب الدواب[5] وسقي البساتين.

تواصلت المجهودات فيما بعد و"**احدث الخليفة بعده يوسف رضي الله عنه بحائر مثلها في الغرس بل اجمل وجلب لها المياه واصدرها في صهريج اعظم من المتقدمين**"[6]، هذا الصهريج يطلق عليه "دار الهنا" الذي لا يزال قائما حتى الآن، و لايزال محتفظا بتقنياته المتقدمة والمبتكرة في الجلب والتوزيع، وكان هذا الصهريج سببا في وفاة الخليفة الموحدي الرشيد[7].

---

1- موسى عز الدين،" **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص182

2- مجهول، " **الإستبصار** "، مرجع سابق، ص209.

3- **العمري ابن فضل الله، " مسالك الأبصار..**"، مصدر سابق، ص102.

4- رابطة الدين محمد، " **مراكش زمن الموحدين** "، مرجع سابق، ج 1، ص132.

5- فسر دوفيردان هذه التسمية بقوله " **ويمكن أن تقرن هذه العبارة بحادثين تاريخيين اثنين: أولهما وجود سوق للهائم والأنعام بالقرب منه على عهد الموحدين، وثانيهما ما اشتهر به الخليفة المستنصر من تربية ثيران القتال**". دوفيردان غاستون، " **تاريخ مراكش** "، مصدر سابق، ج 1، ص238.

6- مجهول،" **الاستبصار** "، مصدر سابق، ص209.

7- ابن عذاري المراكشي، " **البيان. ق.م** "، مصدر سابق، ص359. - الناصري، " **الاستقصا** "، مصدر سابق، ج 2، ص246.

لا ننسى كذلك الإشارة إلى خزانات سيدي بوعثمان التي تعتبر من أهم المنشآت التي سهرت الدولة على إنجازها، نظرا للأدوار التي لعبتها على جميع الأصعدة، فعلى الرغم من ضخامة هذا المشروع[1]، فإن النصوص التقليدية لم تسلط الضوء عليها بما فيه الكفاية، اللهم ما تم استنتاجه من ذكر الطريق التي كانت تربط بين مراكش ودكالة حيث نجد ذكرا لقرية "تونين"[2] والتي كانت تشكل أول مرحلة في الطريق نحو سلا[3]، وموقعها خول لها أن تكون ممرا رئيسيا للحركات التي كان يقوم بها سلاطين الدولة الموحدية[4]، فهي تعد بمثابة نزالة[5] على طريق مراكش نحو الشمال[6] التي عملت على توفير حاجيات الجيوش من المياه بالإضافة إلى سقي ما يناهز نحو 3000 هكتار في اتجاه مدينة الصافي[7]، دليلنا في هذا الطرح موقعها الجغرافي الذي يجعلها على الحدود الجنوبية لسهل البحيرة حيث التربة الخصبة ووفرة المياه[8]، وبقايا الساقية اليعقوبية دون أن ننسى نوعية الخزف التي تم العثور عليها والتي كانت منتشرة في تلك الحقبة[9].

---

1- " تتشكل خزانات سيدي بوعثمان من تسعة غرف مقببة يبلغ شعاع سقفها 1.80 مترا، وطولها الاجمالي 49 متر وعرضها 25 متر تتجه من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي طاقتها الاستيعابية تصل الى 3254000 لتر، وكل خزان تبلغ مساحته الداخلية 22 متر طولا و3.60 عرضا 4.3 متر .في الارتفاع تتصل الخزانات فيما بينها بممرين ارتفاعها 2.45 متر وبفتحة تبلغ 1.15 متر على جدار يصل سمكه الى 1.5 متر وأعلى كل سقف توجد ثمانية ثقب اسطوانية".

- Allaine. ch,**« Les Citernes et les Margelles de Sidi-Bou-Othman», Hespéris Tamuda**, Tome 38, Année 1951,pp 425-426.

2- **"يرجح أن تكون هي المكان المعروف باسم سيدي بوعثمان على بعد 35 كيلومتر من شمال مدينة مراكش"**. انظر هامش رقم 3، ابن صاحب الصلاة، **" المن بالإمامة "**، مصدر سابق، ص353.

3- الإدريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق "**، مصدر سابق، ص87.

4- ابن صاحب الصلاة، **" المن بالإمامة "**، مصدر سابق، ص353.

5- **"تعني الحراسة التي أنزلت في مكان معين للقيام بحراسته، ثم أصبحت الكلمة تدل على المكان فهي بهذا المعنى مؤسسة اجتماعية مخزنية، الهدف منها حفظ الأمن خاصة أمن الطرق، وتسهيل مهمة المسافرين ومبادلات التجار"**. الخديمي علال، **"من التاريخ الاجتماعي للمغرب، مؤسسة النزايل والمواصلات الداخلية والتدخل الأجنبي خلال القرن 19م"**، ضمن أعمال **ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر التاريخ**، جامعة الحسن الثاني، ك.آ.ع.إ. عين الشق الدار البيضاء، 1989م، ج 1، ص195.

6- هوزالي أحمد، **"سيدي بوعثمان"**، ضمن **معلمة المغرب**، سلا، 1992م، ج 6، ص1783.

7 -El Faïz (M), **Marrakech Patrimoine En Péril**, op,cit, p126.

8 -Allain. ch, **«Reconnaissances archéologiques dans le massif des Rehamna et la Bahira», Hespéris Tamuda**, N 41, 1954, pp157-158.

9- للمزيد حول هذا الموضوع يمكن الإطلاع على المراجع التالية كونها الوحيدة التي اهتمت به:

- Allain.Ch, « **les citernes et les margelles de sidi-bou-othman**», op.cit, pp425-440.

أما فيما يخص المياه التي تتغذى منها هذه الخزانات الضخمة، فتتمثل في واد سيدي بوعثمان، دون استبعاد استفادتها من مياه الساقية اليعقوبية التي كانت تتوزع على واجهتين؛ إحداهما تغذي تسع خزانات بحمولة تقدر ب 3254000 لتر[1].

كما كانت هناك أيضا مبادرات فردية قام بها سكان دكالة للتغلب على مشكل المياه من خلال تخزين المياه في صهاريج تحت الأرض تعرف بالمطفية، هذه المياه لم تستعمل فقط للشرب بل تم استثمارها في إقامة بعض الضيعات الصغيرة[2]، وشهدت هذه المطافي انتشارا واسعا جنوب أم الربيع حتى بلاد جزولة[3].

رغم كل هذه المنشآت الهيدروليكية الضخمة، فإن المصادر أثارت الانتباه إلى إغفال الموحدين لمجموعة من الأشغال المائية الأخرى والتي كان بالإمكان الاستفادة منها، فهذا صاحب الإستبصار يقول متأسفا عن عدم الإستفادة من مياه نهر سبو" **ولو كان هذا النهر يخرج فى البطاح، لكانت البلاد التى يسقيها أشرف البلاد وأخصبها، وما أسهل خروجه فى بعض المواضع لو تنبه له الأمر العالى، وهذا لابد منه**"[4]؛ كما يرى أحد الباحثين أن مكناس لم تُستثمر مؤهلاتها المائية من قبل الموحدين[5]، لكن آخر يرى عكس ذلك، فقد استفادت هذه المنطقة من الإصلاح الزراعي الذي تبناه الجهاز الموحدي بتشييده لعدد من الصهاريج والآبار، كما عمل على توفير المياه واستنباطها من باطن الأرض إلى مناطق الزراعة[6].

---

- Allain.Ch, « **Reconnaissances archéologiques dans le massif…**», op.cit, pp155-183 et «**Une organisation agricole almohade dans le Bhira**», op.cit, pp 435-458.

1 -El Faïz (M), **Marrakech Patrimoine**.., op.cit. p126.

2- الطويل حجاج محمد، **"دكالة بين الشدة والرخاء"**، م.س، ص49. - بوشرب أحمد، "**دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي و أزمور-(قبل 28 غشت 1481- أكتوبر 1541م) "**، الدار البيضاء، 1984م، ص58

3- أسكان الحسين، **"تكنولوجيا التحكم في الماء.."**،مرجع سابق، ص18. - بوشرب أحمد، **" دكالة والإستعمار.."**، مرجع سابق، ص57.

4- مجهول، **" الاستبصار "** ، مصدر سابق، ص185.

5- بنحمادة سعيد، **" الغرب الإسلامي :مباحث في العلوم التجريبية "**، مصر، 2013م، ص100.

6 بوتشيش القادري إبراهيم، " **إسهامات في التاريخ الإقتصادي-الإجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط "**، مكناس، 1997م، ص39.

ويبدو أن الفلاحين الصغار لم يكونوا مستعدين للمغامرة والحفر بحثا عن مصادر المياه أين ما اتفق[1]، فبالأحرى إقامتهم لمنشآت سقوية ضخمة كانت تتطلب جهودا جماعية وإمكانيات مالية أكبر[2]، فإذا ما استثنينا الري الصغير والمتوسط، فإن الري الكبير سواء في أحواض الأنهار الكبرى والسهول كسهل سوس والحوز لا يمكن أن تقوم به إلا سلطة قوية تتوفر على الإمكانيات لإنجازها[3] فذلك يعد من "**الحج الكبير**"[4]، وبالفعل فقد كانت هذه المشاريع ضخمة، حيث يُستشف ذلك من الأوصاف التي جاءت في روايات الإخباريين من قبيل"**الخندق العظيم**"[5]، "**صهريجين عظيمين**"[6]، "**ولم نقدر أن نتوضأ من الساقية لعمقها**"[7].

أما فيما يخص عصر المرينيين، فيمكن أن نسجل بأنهم لم يضيفوا مجهودات مهمة في القطاع الفلاحي بل على العكس من ذلك شهد عهدهم تراجعا خطيرا في مساحة الأراضي الزراعية والمشاريع المائية رغم الإشارات التاريخية التي أسهبت في وصف النواعير التي دخلت في عهدهم[8]، إذ أنه لم يرد لها ذكر في المصادر المغربية قبل

---

1- الطويل حجاج محمد، "**الري والزراعة المسقية..**"، مرجع سابق، ص8.

2- بنحمادة سعيد، "**أثر البنية القبلية في تدبير النزاعات على الماء بالمغرب والأندلس –المحددات والتجليات**"، **مجلة هيسبريس تمودا**، العدد44، 2009م، ص56.

3- أسكان الحسين، "**تكنولوجيا التحكم في الماء..**"، م.س، ص24.

4- رابطة الدين محمد، **مراكش زمن حكم الموحدين**، مرجع سابق، ج 1، ص191.

5- ابن القطان، " **نظم الجمان** "، مصدر سابق، ص160

6- مجهول، " **الإستبصار** "، مصدر سابق، ص210.

7- ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص395.

8- يقول ابن الحاج النميري في وصفه للناعورة الكبرى بفاس " **وما سر الناظرين كفلكها المسخر الذي سقى الروض بنوء الفرع المقدم .. طامحة الهمم، راجحة الكرم . بادية الصلاح، محفوفة بعناية الملك الفتاح...وما الذي أقوله في ناعورة فاقت نواعير الأرض كما فاق ملوكها إمامنا ذو الشرف المحض فلم تقاربها إلا بنتها التي جاورت الدار البيضاء، وملأت بما هو أبدع من الفضة الفضاء.. ناعورة حازت كل حسن باهر.. حسناء زينت بعقود أكوابها التراقي، ولدغها صل النهر فكان ماؤها الراقي. جارية لها أخوة لكن من الرضاع، عارفة بأحاديث الري المنزهة عن الإنقطاع... معتدلة الحركة، ظاهرة البركة . لا يضعف كبدها بالاستسقاء ، ولا يضر معدتها كثرة الشرب ...**".

النميري ابن الحاج، "**فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب** "، دراسة و إعداد محمد ابن شقرون، بيروت، 1990، ص 174- 175 - 176 .

أما ابن فضل الله العمري فهو يقول : "**و هذا النهر [نهر الجواهر] ... عليه الناعورة المشهورة، ترفع إلى بستان السلطان المعروف بالمسارة وهو بستان جليل فيه قصر جميل، و هذا البستان خارج المدينة الجديدة، و هذه الناعورة مشهورة الذكر، يضرب بها المثل و يتحدث بها الرفاق** ". العمري ابن فضل الله، **وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني مقتبس من مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري**، تحقيق محمد المنوني، قطعة منشورة ضمن : المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، الرباط، 2000، ص.551-552.

العهد المريني[1]. والتي كانت موجهة بالأساس إلى سقي بساتين الحكام، والإنتفاع المنزلي. فلا نكاد نجد استغلالا كبيرا للمياه في ميدان السقي، بل إن المرينيين كانوا رعاة إبل وشياه، فلما دخلوا المغرب كان اهتمامهم أكثر بالرعي وجمع الأموال عن طريق التجارة والضرائب، أكثر من اهتمامهم بتوسيع الرقعة الزراعية وتطوير أساليب الري وسائل الإنتاج وتحسين المردودية، وهي وسائل كانت في متناولهم ومتوفرة في هذه الفترة، وبصفة خاصة خبرة الأندلسيين والأوربيين. وبدل ذلك نشط المرينيون في ممارسة سياسة إقطاعية أضعفت الفلاحين بالضرائب حتى نفر الناس في البوادي من أعمال السقي والزراعة[2].

إن تصفح الإشارات المصدرية يؤكد ما أثرناه حول تراجع النشاط الزراعي بالبوادي، وعدم حدوث تراكم في أساليب الري، والمرتبط في الأصل بالطبيعة الرعوية لبني مرين والميول الحربية للقبائل العربية، وظروف الانتقال السياسي، فهذا ابن غازي يشير إلى أن تقنيات السقي والوفرة في المغروسات ومحاصيل الحبوب ورخص الأسعار في بادية مكناسة كانت من مظاهر الخصب والرخاء " **قبل أن يستولي على المغرب تخريب بني مرين عند**

---

بينما انفرد ابن الخطيب بذكر مخترع هذه التقنية المائية، بقوله :"**محمد بن عبد الله بن الحاج، يكنى أبا عبد الله و يعرف بابن الحاج، كان أبوه نجارا من مُدجني مدينة اشبيلية، من العارفين بالحيل الهندسية، بصيرا باتخاذ الآلات الحرفية الجافية و العمل بها، و انتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق، و اتخذ له الدولاب المنفسح القطر البعيد المدار المحيط ملين المركز و المحيط المتعدد الأكواب الخفي الحرفة، حسبما هو اليوم ماثل بالبلد الجديد، دار الملك بمدينة فاس، أحد الآثار التي تحذو إلى مشاهدتها الركاب، و بناء دار الصنعة بسلا..**". ابن الخطيب لسان الدين،" **الإحاطة في أخبار غرناطة** "، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973م، ص . 139-140. كما يؤكد في موضع آخر على أن هذه " **الناعورة .. مثلت من الفلك الدوار مثالا، و أوحى الماء إلى كل سماء منها أمرها فأبدت امتثالا، و مجت العذب البرود سلسالا، و ألفت أكوابها الترفه و الترف..**". ابن الخطيب لسان الدين، "**معيار الاختيار..**"، مصدر سابق، ص. 176.

هناك نواعير أخرى ذكرها الوزان بالقول : "**و قد أقيم على النهر بظاهر المدينة [فاس] نواعير كبيرة جدا تنقل الماء منه إلى أعلى سور أعدت فيه قنوات تحمل الماء إلى القصور و البساتين و الجوامع. و قد صُنعت هذه النواعير في عصرنا أي منذ نحو مائة سنة، إذ كان الماء قبل ذلك يصل إلى المدينة بواسطة قناة تنطلق من مسافة عشرة أميال** " . الحسن الوزان ، مصدر سابق، ج 1، صص-285 284 .

راجع أيضا : ابن أبي زرع ، **الأنيس المطرب..**"، مصدر سابق، ص: 407. راجع أيضا : مجهول ، **الحلل الموشية..**"، مصدر سابق، ص. 177.

Colin, G.S., « **L'origine des Norias de Fès** », **Hespéris Tamuda**, Tome XVI, fasc. I-II, Ier et 3eme trimestre, 1933.

1 - الطويل محمد حجاج، " **السانية** "، **معلمة المغرب**، سلا، 2001، ج 14، ص: 4830.

2 - الطويل حجاج محمد، " **الفلاحة المغربية في العصر الوسيط** "، مرجع سابق، ص 96.

**اختلال أمر الموحدين "**[1]. أما ابن زرع فقد وصفهم بأنهم كانوا " **ينزلون بأنعامهم في السباسب والصحارى...لا يعمرون إلا القفار..لا يعرفون الحرث ولا التجارات..جل أموالهم الإبل والخيل، ودأبهم الحرب وخوضان الليل..وضرب أعدائهم بالسيف...وكانت طائفة من بني مرين يدخلون بلاد المغرب في زمان الصيف، فيرعون به أنعامهم..كان ذالك دأبهم على مر الزمان، وتعاقب الأحيان...**"[2]. فبعد معركة العقاب 610 هـ / 1213 م دخلوا البلاد، فوقفوا على " **خصبها ونقاية هوائها، وسعة مسارحها ومراعيها وعذوبة مياهها، وكثرة أنهارها، والتفاف أشجارها، وبركات ثمارها..فشنوا الغارات على قراه ومدنه، وضيقوا على قبائله...وخلت المشاجر، وقلت العمارات، ووقع الخوف في البلاد والطرقات، وغلت الأسعار**" [3]. فما كان من وراء هذا كله حسب راوية ابن أبي زرع إلا أن " **انقطع الحرث واشتد الغلاء في البلاد، بسبب ذالك الإهمال والفساد**"[4].

إن هذه الإشارات تؤكد بأن عصر بني مرين، قد شكل انتكاسة للأنشطة الزراعية والمشاريع المائية، خاصة أنه شمل حتى السهول الأطلنتية الخصبة، المصدر الأساسي لإنتاج الحبوب بالمغرب، كما هو الشأن بالنسبة لسهل الشاوية حيث اتخذته السلطة مرعى لإبلها وأغنامها[5]. لقد عبر ابن خلدون بدوره عن فداحة التخريب الذي طال كل نواحي البلاد، بالقول " **ثم استشرى من بعد ذلك داء بني مرين واعضل خطبهم، وكثر الثوار بالمغرب.. وفسدت السابلة**"[6]. وبالمِثل نقل الناصري عن روايات الاسطغرافيا الوسيطية، ما نصه " **فكثر ( بنو مرين )**

---

1 - ابن غازي، " **الروض الهتون..**"، مصدر سابق، ص 3.

2 - علي بن أبي زرع الفاسي، " **الذخيرة السنية..** "، مصدر سابق، ص 25.

3 - نفسه، ص 27.

4 - علي بن أبي زرع الفاسي، " **الذخيرة السنية..**"، مصدر سابق، ص 36.

5 - نستشهد هنا بنص جاء فيه : " **فكان حسان يباشر أمور السلطان في شأن تلك الماشية..وهم لهذا العهد يتصرفون في الدولة على ما كان لسلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل ولهم عدد وكثرة..ولفظ الشاوية نسبة إلى الشاء التي هي جماعة الغنم مثلا...**". الناصري أحمد، "**الاستقصا** "، مصدر سابق، ج 4، ص 66.

6 - ابن خلدون عبد الرحمان، " **العبر..**"، مصدر سابق، ج 7، ص 226 .

**عيثهم وضررهم بالمغرب وأعضل داؤهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم"**[1]. ويكفي أيضا للتأكيد على مظاهر التقهقر الذي أصاب المنشآت المائية وانحسار رقعة الأراضي الزراعية، هو انتشار ظاهرة ترك المزارعين لأراضيهم الفلاحية الخصبة المنتشرة في السهول[2]، وفرارهم إلى المناطق الوعرة " **يمينا وشمالا، ولحقوا بالجبال المنيعة لتكون حصنا لهم ومآلا** "[3]. وهذا ما يُفسر إعطاء السلطان أبي بكر المريني – بعد وصوله للحكم – أوامره للقبائل "**بسكنا الأوطية وعمارة القرا والمداشر الخالية والاستكثار من الحرث**"[4]. والتي اضطرت فيما بعد حسب أحد الدارسين إلى تغيير نمط عيشها في السهول التي استوطنتها، فأصبحت قبائل غارمة مستقرة تمتهن الزراعة[5].

---

1 - الناصري، " **الإستقصا..**"، مصدر سابق، ج 3، ص 6.

2 - خاصة أن القبائل العربية تركز وجودها، وعمليات التخريب والإفساد التي قامت بها على السهول، وهو ما سجله ابن خلدون، وفسَّره بوضوح بالقول : " **العرب لا يتغلبون إلا على البسائط...فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يَسهُل عنه ولا يعرضون له. والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم، لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب، ولا يركبون الصعاب، ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهبٌ وطُعمةٌ لأكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم إلى أن يُصبح أهلها مُغلَّبين لهم، ثم يتعاورونهم ( يتداولونه ) باختلاف الأيدي، وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم** " . راجع : " **مقدمة ابن خلدون** "، مصدر سابق، ج 1، ص 286 .

3 - علي بن آبي زرع، " **روض القرطاس..**"، مصدر سابق، ص 283.

4 - ابن أبي زرع، " **روض القرطاس..**"، مصدر سابق، ص 294.

5 - أشار عمر بنميرة إلى أن سلوك القبائل العربية في تامسنا ودكالة وتادلة التي كانت تحتل الحزام الخصب من المغرب قد شهد تغيرات عمودية عميقة، إذ تحولت في معظمها من قبائل بدوية - انتجاعية إلى مجموعة من المزارعين لهم أراضي فلاحية ويمارسون نشاطا يتطلب الإستقرار، كما أن تحولهم إلى قبائل غارمة ليس إلا ترجمة لتغيير نمط عيشهم . راجع دراسته : **"النوازل والمجتمع.."**، مرجع سابق، ص 115 وما بعدها.

ومهما يكن من أمر، فإن إنجاز الشبكة المائية كان يدخل ضمن اهتمامات معظم الدول المغربية الوسيطية، والتي سخرت النظام التعليمي للغرض نفسه بغية تخريج الأطر الهندسية، وجلب المهندسين من بلاد الأندلس[1]، حيث يبدو أن هناك استمرارية في إنجاز العمائر والمنجزات المائية خلال العصر الوسيط[2] من أجل تحقيق الأمن المائي، والحد من **"معاناة خلة أهل بلد تحل بهم جائحة من جوع أو مرض أو سيل"**[3]. ولو أنها ليست بنفس الأهمية في مختلف محطات هذه المرحلة التاريخية، إذ أنها شهدت انحسارا واضحا منذ العصر المريني

1 - بنحمادة سعيد، " **الغرب الإسلامي** "، مرجع سابق، ص 100 و ص 118.

2- موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص181.

3 - ابن الأزرق أبو عبد الله، " **بدائع السلك في طبائع الملك** "، تحقيق علي سامي النشار، بغداد، 1977م، ج 2، صص 30 - 31.

كما أسلفنا، وأكدته أيضا العديد من الأبحاث[1]. رغم مجازفة البعض بالقول بأن المرينيين اهتموا بتوسيع المساحة المسقية والتجهيزات المائية بالبوادي[2].

رغم أهمية أشغال الزراعة والسقي التي عرفها العصر الوسيط، وخاصة في العصر الموحدي، فإن البعض يرى بأن الجمود هو الطابع العام الذي كان يميز هذه الأنشطة[3]. ومهما يكن من أمر فإن توسيع رقعة المساحات المسقية والمغروسة، وإقامة مشاريع مائية ضخمة تستهدف تموين البوادي للحواضر السلطانية بالمياه، كان مرتبطا بالاستقرار السياسي، وحدود ظل السلطة في البوادي، فضلا عن طبيعة الدولة الحاكمة نفسها وميولات العصبية التي تستند عليها.

## المحور الثالث : عنصر الماء كمحدد أساسي في توزيع وتباين الإنتاج الزراعي بالبوادي :

إذا كانت المدن الكبرى قد شهدت كما هو معروف مشاريع مائية كبرى، خرجت من رحمها بحائر لطالما نالت حظا كبيرا من ثناء الإخباريين، فإن البادية المغربية قد شهدت بدورها حركة فلاحية مهمة، وهذا أمر طبيعي

---

1 - شدد حميد تيتاو على أن العصر المريني عرف تحولات عميقة مست في المشهد الفلاحي بوجه عام؛ بفعل التغيرات التي مست المورفولوجية القبلية، والمتمثلة في النزوح الجماعي للقبائل الزناتية المرينية الرعوية، إلى جانب قبائل آخرى، نحو الخصب من البلاد والإستئثار بالأرض على حساب القبائل التي تشكلت لديها تقاليد مهمة في تدبير الأرض وفلحها. راجع مقالته : **"المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر العصر الوسيط : متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية "**، ضمن أعمال ندوة : **" الفلاحة في تاريخ المغرب "**، تكريما للأستاذ أحمد مزيان، تنسيق محمد اليزيدي، الرباط، 2019 م، صص 97 – 127.

وخلص محمد ياسر الهلالي إلى أن العصر المريني لم يشهد أي مبادرات مهمة فيما يخص المجال الفلاحي، بل على العكس من ذلك عرف تراجعا ملحوظا ساهم في ترسيخه وإذكائه أصل قبائل بني مرين الرعوي وشركائها، فجاءت مبادرات حكامهم محدودة جدا في الزمان والمكان فلم تول عناية لتطوير وسائل الإنتاج الفلاحي وتحسين مردوديته، رغم توفرها على معطى كان بإمكانه أن يؤهلها لتطوير النشاط الفلاحي، يتمثل في خبرة الأندلسيين الذين تسارعت وتيرة هجرتهم إلى المغرب خلال هذه الفترة التاريخية، فضلا عن ذهنية البدو المغاربة أواخر العصر الوسيط عموما، والتي كانت تحتقر الفلاحة، فدعوا إلى عدم الإحتراف بها؛ فهي لا تليق في نظرهم إلا بالضعفاء العاجزين، والتي زاد من إذكاءها السياسة الجبائية التي نهجها المرينيون، إذ فرضوا ضرائب مُجحفة منذ طور حركتهم. ولم ينس الإشارة إلى أثر القحوط والحروب والفتن على تدهور النشاط الفلاحي. راجع مقالته : **" الإشتغال بالفلاحة في مغرب أواخر العصر الوسيط : علاقة التمثلات بالواقع التاريخي "**، ضمن أعمال ندوة **" الفلاحة في تاريخ المغرب "**، مرجع سابق، صص 129 - 166.

2 - البياض عبد الهادي، **" المحددات العلمية في الممارسة الفلاحية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط : إسهام في دراسة التربة والمياه "، ندوة الفلاحة في تاريخ المغرب**، مرجع سابق، صص 93 .

3- وصف الهلالي ياسر محمد هذه الأشغال الفلاحية بأنها " بدائية "، واعتبر أيضا بأن صمت المصادر بصفة شبه تامة عن أدوات وطاقة العمل والتقنيات، يمكن اعتباره مؤشرا على جمودها. حيث بقيت الفلاحة تعتمد على التسميد الحيواني والبشري، مع استمرار ظاهرة الأرض المستريحة والدورة الزراعية الثلاثية. راجع دراسته : **" الإشتغال بالفلاحة في مغرب أواخر العصر الوسيط : علاقة التمثلات بالواقع التاريخي "**، ضمن أعمال ندوة **" الفلاحة في تاريخ المغرب "**، مرجع سابق، هامش الصفحة 154.

بالنظر إلى العلاقة القائمة بين البوادي كمصدر من مصادر تموين الحواضر بحاجياتها الغذائية، فقد كانت بوادي المدن الكبرى كمراكش وفاس وغيرها خير دليل على ذلك. وفي نفس السياق اعتبرت دكالة خزان مراكش من الحبوب منذ العهد المرابطي[1] لتدخل مع الموحدين فترة رخاء وازدهار فلاحي حققت معه فائضا في الإنتاج تم تسويقه محليا وخارجيا[2].

كما اشتهرت بوادي سوس بمنتجات متنوعة منذ القرن الرابع الهجري[3]، وتواصل فيما بعد هذا النشاط الفلاحي الذي يعد مؤشرا على التحكم في الماء، إذ عرفت المنطقة انتشار الزراعة المسقية خاصة قصب السكر[4] الذي شهد تراجعا بفعل ظروف المرحلة الانتقالية بين العهدين المرابطي والموحدي، إضافة إلى التقلب المناخي الذي نزع أكثر إلى الجفاف، مما دفع كل من الخليفة الموحدي يوسف أبو يعقوب وابنه إلى إيلاء عناية فائقة لمسألة السقي في سوس قصد الحفاظ على إنتاج السكر الذي شكل ركيزة أساسية في الاقتصاد المحلي[5].

لقد ظلت السهول مصدر التموين الأول لأسواق البلاد من المواد الغذائية الرئيسية كالحبوب والفواكه والخضر منذ زمن بعيد إلى يومنا هذا، مرد ذلك ليس فقط إلى خصوبتها[6]، بل أيضا لمجهودات ساكنتها من أجل استحداث أساليب وتقنيات زراعية لاستغلال هذا المجال، فإذا كان سهل الحوز المحيط بمدينة مراكش قد شهد حركية فلاحية أولا لوجود سلطة مركزية، وثانيا لوجود تقاليد زراعية قديمة متمثلة في المصامدة الملتصقين بالأرض، فإن سهولا

---

1- مجهول، " **الاستبصار** "، مصدر سابق، ص209. - مجهول، " **الحلل الموشية** "، مصدر سابق، ص16. - دندش عصمت عبد اللطيف، **"أضواء جديدة على المرابطين "**، مرجع سابق، ص198. - بولقطيب الحسين، **"الكرامة والرمز: كرامات أولياء دكالة خلال عصري المرابطين والموحدين نموذجا"، دراسات عربية : مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية**، مرجع سابق، ع 4/3، 1996م، ص73.

2- الطويل حجاج محمد، **"دكالة بين الشدة والرخاء"**، مرجع سابق، ص44-45.

3- ابن حوقل، " **صورة الأرض** "، مصدر سابق، ص90.

4- حركات إبراهيم، " **المغرب عبر التاريخ** "، الدار البيضاء، 2000، ج 1، ص219. -القبلي محمد (إشراف وتقديم)، " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** "، مرجع سابق، ص230.

5- الطويل حجاج محمد، "**الري والزراعة المسقية..**"، مرجع سابق، ص13.

6- القبلي محمد،" **حول التحركات البشرية..**"، مرجع سابق، ص44.

أخرى نالت هي الأخرى حظها من هذا الإهتمام، فتادلا[1] خلال العهد الموحدي عرفت ما يمكن أن نسميه ثورة فلاحية[2] في مرحلة الأوج والإزدهار، بحيث تضاعفت المساحات المغروسة وتنوعت المزروعات، وانتقلت تادلا من الزراعات الخفيفة المكملة للنشاط الرعوي إلى الزراعة الكثيفة المتعددة المنتوج العالية المردودية[3]، وخلفت فائضا في المحاصيل تم تصديره إلى الخارج، وأهم ما تميزت به هذه الثورة الفلاحية هو إدخال زراعة القطن، إذ أنه وفي ظرف وجيز أصبحت تادلا هي المزود الرئيسي للمغرب من حاجياته من هذه المادة "**ومن مدينة تادلا يخرج القطن كثيرا ويسافر به الى كل الجهات**"[4]، كما أنه شغل حيزا هاما من كتب النوازل[5]، فتادلا عرفت إشعاعا على المستوى الفلاحي جعلها تدخل القاموس الفلاحي[6] أما بلاد الهبط[7] فكان أهلها يتمعشون من الإنتاج الزراعي مستفيدة من روافد مياه سبو. هذه الشبكة المائية هي التي لعبت دورا مهما في خلق موارد غابوية شكلت حجر الزاوية في صناعة السفن خلال العهدين الموحدي والمريني.

أما فيما يهم البوادي التي توجد في المرتفعات الجبلية، ورغم أن طبيعة التضاريس شكلت عائقا أمام إقامة النشاط الزراعي، لعدم شساعة أراضيها الصالحة للزراعة باستثناء منطقة الدير[8]، فإن ساكنتها المرتبطة بالأرض كان نمط عيشها قائما على ممارسة الفلاحة[9]، إلى حد أنها بقيت مستقلة في تدبير حاجياتها من الغذاء، فأهلها

---

1- معناه حزمة الزرع وسهل خصب واسع وتم إطلاق هذا الاسم عليها عندما انتقل سكانها الزناتيون من حياة الترحال والرعي الى الزراعة، - هامش رقم 79، ابن الزيات، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص108. - الطويل حجاج محمد، **" النشاط الاقتصادي في تادلا خلال العصر الوسيط"**، ضمن أعمال **ندوة : تادلا التاريخ، المجال، الثقافة**، مرجع سابق، ص37.

2- نفسه، ص42.

3- نفسه، ص 42.

4- الإدريسي، "**المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق "**، مصدر سابق، ص93.

5- بن حسن محمد، **" القبائل والأرياف المغربية.."**، مرجع سابق، ص45.

6- الطويل حجاج محمد، " **النشاط الاقتصادي في تادلا.."**، مرجع سابق، ص38.

7- يقول الحسن الوزان : **" تبدئ هذه الناحية جنوبا من نهر ورغة لتنتهي شمالا على المحيط، وتتاخم غربا مستنقعات أزغار، وشرقا الجبال المشرفة على أعمد هرقل (...) هذه الناحية عجيبة حقا بسبب خصوبتها ووفرة إنتاجها، معظمها سهل تخترقه مجاري مياه عديدة". " وصف إفريقيا "**، مرجع سابق، ج 1، ص306 .

8- القبلي محمد (إشراف وتقديم)، " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب "**، مرجع سابق، ص63.

9- أزايكو علي صدقي، **"التأويل النسبي (الجينيالوجي) لتاريخ شمال إفريقيا"**، ضمن **مجلة كلية الآداب-الرباط**، ع 15، 1990م، ص26-28.

"**استغنوا بقطرهم عن سائر أقطار العالم**"[1]. فالجبل بصورة عامة كان معروفا بتعاطي ساكنته لغراسة الكروم والتفاح والزيتون والعنب[2] إلى جانب الزبيب الذي اشتهرت به جبال درن، والذي حظي بإقبال وإعجاب ملوك المغرب " **لرقة قشرته وعذوبة طعمه واعتدال غذائه**"[3].

**القمح :**

اعتبر البعض القمح "**صاحب القول الفصل في تاريخ بلدان حوض البحر المتوسط** "[4].وقد كانت زراعته تتم بين شهري أكتوبر ونونبر، ويُحصد غالبا في يونيو أو يوليوز، حيث يتطلب إنتاجه كميات كبيرة من الماء وتربة خصبة ومناخا ملائما. وهي شروط لم تكن متاحة في بعض المناطق، كجبل الحديد[5] الذي كان أهله يُجبرون على جلبه من منطقة دكالة[6]. بالإضافة إلى بعض المناطق الموجودة في جبال الأطلس، و في بعض مناطق درعة التي كان بها " **نزر قليل..لا يستخرج منها قمح البتة**"[7].

وتؤكد المصادر أن بعض المناطق استفادت من وفرة الموارد المائية واعتدال الهواء، ما سمح بتوفير كميات مهمة من القمح، كالبصرة التي كانت تستفيد من مياه" **عيون عليها بساتين يسيرة من شرقيها، ولها غلات كثيرة منها القمح**"[8]، وأحواز طنجة التي كان بها "**رخص وخصب... ومن غلاتها القمح ولهم مياه كثيرة وسقي يغزر عائدته عليهم**"[9]. وكان شمال أمزميز يتوفر على سهل يمتد حتى مدينة مراكش، "**حيث ينمو به أجود ما في**

---

1- ابن خلدون، " **العبر** "، مصدر سابق، ج 6، ص298.

2- رابطة الدين محمد، " **مراكش زمن حكم الموحدين** "، مرجع سابق، ص34.

3- الإدريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص81.

4 - بروديل فرناند، " **البحر المتوسط والعالم المتوسطي** "، ترجمة عمر بن سالم، أليف للنشر - تونس، 1990، ص 78 .

5 - يقول الحسن الوزان : " **ليس هذا الجبل من الأطلس، إذ يبتدئ من المحيط شمالا، ويمتد جنوباً إلى نهر تنسيفت، فاصلا بين أقاليم حاحا ومراكش ودكالة . وتسكنه قبيلة رجراجة** " . " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1 ، ص 112 .

6 - نفسه، ص 112 .

7 - مارمول كاربخال، " **إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 2، ص 113.

8 - ابن حوقل، " **صورة الأرض** "، مصدر سابق، ص 81 .

9 - نفسه، ص 81 .

**بلاد البربر من القمح ... وذلك بكثافة عظيمة لدرجة أنه يكفي للإقليم كله لو زرعت الأرض بكيفية جيدة"**[1].

إن الظروف الطبيعية الملائمة هي التي وفرت أيضا لسهل دكالة فائضا من الإنتاج، وحسبنا دليلا المطامير الكبيرة الموجودة بجل مدنها وقراها كتيط، مائة بئر، سرنو، آسفي، أكوز، وغيرها. وهو ما كان يتيح لها تموين الحواضر الكبرى كمراكش وفاس ومكناس، وبعض المناطق الشمالية التي لا تنتج القمح، وتصديره أيضا إلى خارج البلاد لدرجة أن سكان منطقة بولعوان بدكالة كانوا " **أغنياء جدا بحبوبهم، ولكل واحد...محصولات تبلغ حوالي ألف حمل دابة من القمح"**[2]. كما أن الوثائق الأجنبية وصفت منطقة دكالة وتامسنا **بـ"محيطات الحبوب"**[3]. إذ شكلت المناطق السهلية التي عرفت بخصوبتها منذ القديم خزان المغرب من الحبوب، وتمتد بعض أراضيها من أصيلا إلى آسفي[4]، فنشاطهما الاقتصادي ظل معتمدا بدرجة كبيرة على الفلاحة والتجارة، ذلك أن تصدير المنتجات الفلاحية النباتية والحيوانية ومشتقاتها عن طريق المراسي، ظل موردا لاغتناء وثراء الفلاحين والتجارة[5].

**الشعير :**

كان الشعير يُزرع ضمن الزراعات البكرية في الأراضي الفلاحية بجنوب البلاد، وضمن الزراعات المازوزية في شمالها[6].ويعد أهم منتوج زراعي واستهلاكي، حيث يشغل مساحة مهمة مقارنة مع أنواع الحبوب الأخرى، ويمكن تفسير ذلك بقدرته على التكيف مع قساوة المناخ، فبقليل من التساقطات المطرية ينمو بسرعة، وحتى وإن

---

1 - كاربخال، " **إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 2، ص 46 .

2 - الوزان، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 155 .

3 - استيتو محمد،" **الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16** "، **رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا**، **ك.أ.ع.إ**، ظهر المهراز، فاس، 1988، ص 256.

4 - كريمي ماجدة، " **العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني** "، **أطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، 1987-1988**، ص 209 .

5 - نفسه، ص 209 .

6 - Rosenberger ( B ), « **Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc.XV°-XVIII° siècles** », in **A.E.S.C** , N° 3-4, 1980, p : 484 – 485 .

كانت التربة أقل عمقا وغنى[1]. ولذلك انتشرت زراعته في السهول الأطلنتية، والمرتفعات الجبلية[2]، وأحواز طنجة[3] وتطوان[4]. وحالت برودة الطقس وسيادة الجفاف، دون وجود زراعة للشعير في بادس[5]، أما بمنطقة درعة، فلم تمنع إكراهات الطبيعة المتمثلة في الحرارة المفرطة، وندرة الأمطار من إنتاج الشعير بوفرة[6].

**الدخن :**

تجب الإشارة إلى أن أهمية إنتاج هذه المادة، تكمن في كونها تُعوض الخصاص الذي كان يعرفه إنتاج الشعير والقمح في فترات الجفاف، ونفاد مدخرات الموسم الفلاحي السابق[7]. وقد أشارت شهادات بعض المصادر المتأخرة بأن زراعة الدخن كانت معروفة بين سكان بوادي حاحا [8] وسهل دكالة[9] والشاوية[10]. وعلى الرغم من أن الدخن ينضج في مدة قصيرة لا تتعدى ثلاثة أشهر، ولا يتطلب كمية مهمة من الأمطار، فإنه من الواضح أن إنتاجه واستهلاكه على وجه العموم لم يكن بصورة كبيرة [11]. رغم أن كتب الفلاحة أكدت على أنه "**إذا خُزِّن في سنابله يبقى مائة سنة** " [12].

وفي مجمل الأحوال فإن استهلاك المغاربة للحبوب تشهد عليه أيضا الإشارات التاريخية حول كثرة الأرحاء المائية في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط[13]، خاصة في المناطق التي كانت تكثر فيها روافد الأنهار والسواقي والمساقط

---

1 - رويان بوجمعة، " **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912 - 1945**"، الرباط، 2013، م27 – 28 .

2 - البكري، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، ص 784.

Rosenberger ( B ), « **Cultures complémentaires et nourritures .. »,** op.cit, p : 484 .

3 - البكري، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، 788.

4 - نفسه، ص 788 - 789 .

5 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 326 و ص 333.

6 - مارمول كاربخال، " **إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 2، ص 113.

7 - Rosenberger ( B ), « **Cultures complémentaires ..»,** op.cit, p: 487 .

8 - الوزان ، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 96 .

9 - مجهول برتغالي، " **وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور** " ، مرجع سابق، ص 26 .

10 - نفسه، ص 31 .

11- Rosenberger ( B ), « **Cultures complémentaires ..»,** op.cit, p: 487 .

12 - بن العوام ،" **الفلاحة الأندلسية** "، مصدر سابق، ج 3، ص 517.

13 - ابن حوقل، " **صورة الأرض** "، مصدر سابق، 89. البكري، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، ج 2، صص 794 – 795 . الإدريسي، "**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** "، مصدر سابق، ج1، ص. 242.

المائية، أي شبكة مائية سطحية كثيفة، ناتجة عن مناخ رطب[1]. وقد حظيت فاس وأحوازها بالنصيب الأكبر من الطواحين[2] والأرحاء المائية، إذ أنها لعبت دورا كبيرا في الحياة الاقتصاية والاجتماعية لسكانتها[3].

**الزيتون :**

حظي غرس أشجار الزيتون بعناية كبرى في المغرب خلال العصر الوسيط، خاصة في فترات الوفرة، فأغمات وصفها ابن الخطيب بأنها "**جنة تجري من تحتها الأنهار، متعددة البساتين طامية بحار الزياتين** "[4]. وهذا دليل على الكثرة وشساعة المساحة التي تشغلها هذه الأشجار التي وجدت في طقس المنطقة ما يساعد على تمام النضج والكثرة التي تلف بها محيط المدينة[5]، والزيتون الذي كان يجنى من كل أنحاء المنطقة تقريبا. كان يعتمده السكان في استخراج الزيت من حبوبه، وله استعمالات أخرى دون عصره. تبدأ منذ مرحلة بداية نضجه إلى أن يحين موعد الطحن والعصر[6]. وقد كان يستعان بالزيت في إيقاد النار بمواقد الأفران، والحمامات لسرعة اشتعالها. وقد بلغ ثمن أربعين أوقية من الزيت بدرهم واحد سنة 656 هـ/ 1258م[7].

كما نالت غراسة الزيتون في نواحي مراكش ومكناس اهتماما كبيرا، فهذه الأخيرة عرفت تزايدا في عدد معاصر زيت الزيتون بها، فأصبحت تحمل إسم مكناسة الزيتون[8]، وليس من الغرابة في شيء أن تكثر المعاصر بهذه

---

مجهول، "**الاستبصار ..**"، مصدر سابق، ص 188. الجزنائي، "**جنى زهرة الآس..**"، مصدر سابق، ص 42. الحميري ، "**الروض المعطار...**" مصدر سابق، صص 434 – 522 – 544 . الأنصاري السبتي، "**اختصار الأخبار..**"، مصدر سابق، ص 55. أحمد ابن القاضي المكناسي، "**جذوة الاقتباس**"، مصدر سابق، ص 30.

1- محمد حجاج الطويل، "**معلمة المغرب** "، سلا، 2001، ج 13، ص.4283.

2 - عرَّف الوزان الحسن الطاحونة بأنها عبارة عن " **أبنية مشتملة على أرحاء يمكن أن يبلغ عددها ألف رحى. إذ تتكون كل طاحونة من قاعة كبيرة ذات أعمدة تضم أحيانا أربع أو خمسة أو ست أرحاء ". " وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 233.

3- للمزيد حول الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للطواحين والأرحية يرجع إلى أطروحة كنتوري عائشة :

GANTOURI AICHA, « **Le Moulin Hydraulique De FES** » , **Thèse De Doctorat De L'université De Paris I**, Volume I, Année Universitaire, 1989_1990 , PP : 265 – 282 .

4 - ابن الخطيب لسان الدين، **معيار الإختيار..**"، مصدر سابق، ص 78.

5 - ازريكم عبد الرزاق بن عمر، " **مدينة غمات وما إليها ..**"، مرجع سابق، ص 241.

6 - ازريكم عبد الرزاق، " **مدينة غمات وما إليها..**"، مرجع سابق، ص 241 .

7 - نفسه، ص 241 .

8- الحميري، " **الروض المعطار..**"، مصدر سابق، ص544.

المناطق المذكورة[1]، فقد بلغت فيهما غراسة الزيتون مبلغا عظيما وخصوصا مع الموحدين[2]، حيث عملوا على "**تشجيع الناس على زراعته والاعتناء به**"[3]. وبالتالي فأهمية هذا الإنتاج من الزيوت تدل على أنها شغلت حيزا مهما من التجارة الداخلية والخارجية، فضلا عن أنها كانت تدخل ضمن الميرة التي تتزود بها الجيوش[4]، إضافة إلى كونها تدر أموال مهمة لساكنة في البوادي والحواضر على حد سواء، فيكفي أن نشير إلى أن بناء الجامع الكبير بفاس كان من نفقة معصرة الزيتون بمكناس[5].

**قصب السكر:**

اشتهر المغرب الأقصى بإنتاج قصب السكر قبل القرن الخامس الهجري[6]، وبالتالي فإن ما عرفته صناعة السكر في العصر السعدي من مكانة كبرى[7]، ترتبط في جزء كبير منها بتراكم الخبرات في الفترة التي سبقته؛ فمن المعروف أن إنتاج قصب السكر يتطلب تجهيزات مائية مهمة من أجل القيام به على أكمل وجه بدءا بالغرس وصولا إلى التصنيع، ونظرا لارتفاع تكاليف توفير هذه المنشآت فقد حرصت الدولة على القيام بالأمر بنفسها كما

---

1- **" فلا مجازفة في الجزم بأن مراكش سرعان ما اتخذت لنفسها معاصر لزيوتها، وهي اليوم متجمعة قرب باب الخميس، حيث ما يزال أحد الأبواب يسمى باسم شاهد على ما كان، وهو بين المعاصر".** دوفيردان غاستون، **"تاريخ مراكش "**، مرجع سابق، ج 1، ص173.

2- **"ففى مراكش اليوم من الزيتون والزيت ما تستغنى به عن غيرها من البلاد وتمير بلادا كثيرة، وكان زيتها قبل اليوم دهن الهرجان لأنه بتلك البلاد كثير جدا. وزيتون مراكش أكثر من زيتون مكناسة وزيتها أرخص وربما أطيب".** مجهول، **" الاستبصار "**، مرجع سابق، ص210.

3 - ابن زيدان عبد الرحمان بن محمد السجلماسي، **"إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس "**، تحقيق علي عمر، القاهرة، 2008م، ج 1، ص23.

4- **"ومعهم الميرة المذكورة على ثلاثة الاف دابة من القمح والشعير والدقيق والزيت والملح والالات والمرافق "**. ابن صاحب الصلاة، **" المن بالإمامة "**، مصدر سابق، ص435.

5- بوتشيش ابراهيم القادري، **" إسهامات في التاريخ الإقتصادي والإجتماعي لمدينة مكناس.."**، مرجع سابق، ص59.

6- ابن حوقل، **" صورة الأرض "**، مصدر سابق، ص90. - البكري، **"المسالك والممالك "**، مصدر سابق، ص253.

7- الفشتالي عبد العزيز، **"مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا "**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، الرباط،1993م، ص 254. للمزيد حول الموضوع يرجع إلى الدراسات الآتية :

كنتوري عائشة وللاصفية العمراني، **" زراعة وصناعة السكر بالمغرب من خلال نصوص تاريخية : ق. X م - XVIe م**، ضمن مجلة أمل، ع 43، 2014. استيتو محمد، **"صناعة السكر خلال العصر السعدي : محطة ضائعة في التاريخ الإقتصادي والإجتماعي المغربي"** ، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة** ،ع 8، 2008. لقبايبي محمد توفيق، **" الأهمية الإقتصادية لمادة السكر خلال العهد السعدي"**، **مجلة أمل**، ع 44، الرباط، 2015.

هـو الشـأن بالنسـبة للسـاقية الحَروسـية (Harroussia) الخاصـة بقصـب السـكر الـتي تم جلـب مياههـا مـن مرتفعات الجبيلات[1].

وشهد إنتاج السكر في منطقة سوس خلال العصر المرابطي تطورا مهما، كما عمل الموحدون على الزيادة في المساحات المخصص له فتضاعف إنتاج السوس[2]، فكثرت معاصره في تارودانت وإيجلي، وظهرت أخرى في مراكش حيث بلغت نحو"**أربعين معصرة للسكر أو أزيد وزادت على سوس ومزارعه في أرض مراكش بوادي يعرف بوادي نفيس**"[3]، وكان بول بيرتي (P. Berthier) قد أشار إلى أن منطقة شيشاوة كانت واحدة من أهـم منـاطق إنتـاج مـادة قصـب السـكر بـالمغرب الأقصـى في العصـر الوسـيط[4]. وسـجلت المصـادر أن نوعيـة هـذا السكر حافظت على جودتها في بداية العصر المريني، رغم الإنحسار الكبير في إنتاجه، كما هو حال مراكش، حيث كان "**يعمل منه ( السكر ) أنواع ويخلص مكرر يجيء في نهاية البياض والصلابة ولطافة الذوق يقارب مكرر مصر إن لم يكن مثله**"[5]. وعلى أية حال، فانتشار زراعة قصب السكر يعزى بدرجة أولى إلى توفر صبيب مائي مهم، كان يساعد أيضا في يسمح إدارة الأرحاء التي تلعب دورا هاما في صناعة السكر، على أن سوء العوامل المناخية والسياسية بالمغرب المريني أدت إلى انحسار مساحاته، وانهيار صناعته .

**الخضر** :

تدخل الخضر ضمن أقوات التعويض، والتي تكمل الخصاص الذي تعرفه محاصيل الحبوب في العديد من الجهات، وقد تركزت زراعتها قرب النقط المائية المختلفة والتقنيات الهيدروليكية التي تستخدم في توفير الماء لسقي البساتين والأراضي الفلاحية، فمنطقة تدنست ( بحاحا ) " **يكتنفها نهر ..ضفافه مليئة بالأشجار المثمرة**

---

1 - Berthier Paul, «**Les Plantations De canne a Sucre et les Fabriques de Sucre dan L'ancien Maroc**», **Hespéris Tamuda**, vol VII, Rabat 1966, p34-35.

2- مجهول، " **الاستبصار** "، مصدر سابق، ص 212 .

3- ابن سعيد المغربي، " **بسط الأرض..** "، مصدر سابق، ص125. - موسى عز الدين، "**النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص240

4- Berthier Paul, «**Les Plantations De canne a Sucre et les Fabriques ..**», op.cit. p : 35-38.

5- العمري ابن فضل الله، **مسالك الأبصار** "، مصدر سابق، ج4، ص98.

**وبكل أنواع الخضر"**[1]. وتذكر بعض الشذرات المصدرية أسماء بعض أنواع الخضر بمراكش وأحوازها، ومنها اللفت والكرنب والباذنجان والقرع والبقول[2] .

ونظرا لعدم كفاية إنتاج المدن الكبرى كفاس ومراكش من الخضر، فقد تم اللجوء لمجموعة من المناطق لتموين أسواقها بهذه المادة، فكان البصل والجزر واللفت أهم الخضر التي يتم جلبها من تكوداست، لأن بها " **عدة عيون يدير ماؤها الأرحاء السافلة ويسقي البساتين والأراضي"**[3]، والسفوح الشمالية لجبل زلاغ، فهي " **مليئة بالبساتين والحقول الصالحة للفلاحة المسقية من ماء النهر بواسطة الناعورات"**، فإنتاج هذه المادة يتمعش من خلاله سكان هذه المناطق[4].

**الفواكه :**

من الواضح أن الفواكه كانت متوفرة، ومتنوعة تبعا لاختلاف المحيط الإيكولوجي لكل مجال جغرافي، واختلفت مواسم جنيها، " **بحيث يؤكل حب الملوك في سهول موريطانيا أوائل ماي بل وفي أواخر أبريل. وبعد مرور الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر ماي يقتطف تين ناضج نضج تين الصيف. وفي الأسبوع الثالث من شهر يونيه يبدأ العنب ينضج ويؤكل، وينضج في شهري يونيه ويوليوز التفاح والإجاص والمشمش والبرقوق جميعها، كما ينضج في شهر غشت تين الخريف والعنب، غير أنه لا يكثر التين والخوخ إلا في**

---

1 - كاربخال مارمول، " **إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 2، ص 9.

2 - يزرع في المواضع الباردة من البلاد الجبلية، ولا يصلح في التهايم ولا في الأودية، وأجود مزارعه الأرض الطيبة، وصورة زراعته أن يرمى الحب في قعر التلم بين كل خطوتين حبة، وتغطى بالتراب، ويوطأ عليها بالقدم، وإذا حصدت الذرة، سقي بعدها كلما احتاج إليه، ويكون بين كل حبة ذراعين أو ثلاثة، ولا يمتد ولا ينقطع حمله في البساتين ما دام يسقى، فإذا انتهى قلع أو جمع من شجره، ويبس يحتاج لا حفر، ولا عملا إذا قد ثبت، وإذا أحب أن ينتول منه أخضر للأكل، فيجمع من شجره ويطبخ في قدر ويغطى، ويلقى فيه الملح قدر ما يصلحه، ويرش عليه من الماء شيء هين، ويوقد تحته حتى يستوي. راجع : بن رسول عمر بن يوسف، " **ملح الملاحة في معرفة الفلاحة** "، تحقيق عبد الله محمد علي المجاهد، صنعاء، 1987م، ص 110.

3 - كاربخال مارمول، " **إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 2، ص 109 .

4 - كاربخال مارمول، " **إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 2، ص 181 .

**شتنبر. ويبدأ تجفيف العنب في الشمس بعد منتصف غشت، فإذا نزل المطر في شتنبر عصر ما بقي من العنب خمراً..ويقتطف التفاح والرمان والسفرجل في شهر أكتوبر"**[1].

هذا النص يُبرز أن غراسة الفواكه قد نالت أهميتها لدى الساكنة، وتميزت بتتابع فترات جنيها- ما بين فصلي الربيع والخريف – وانتشار عادة تجفيفها، فهي سلوك غذائي لطالما اعتمده المغاربة في مواجهة تداعيات أي تطرف مناخي محتمل. لكن الفترات المطيرة والباردة لم تكن تسمح بتجفيف هذه الفواكه، بل يتم طبخها كالعنب فقد عُرفت صناعة الخمور أو صناعة الرُّب[2] على الأقل منذ الفترة المرابطية على الرغم من أنهم قد تشددوا في منعها[3]، ساهم في ذلك وفرة إنتاج العنب، ويشير الإدريسي في خضم حديثه عن أهل السوس " **وشرابهم المسمى أنزيز. وهو حلو يسكر سكرا عظيما. ويفعل بشاربه ما لا تفعله الخمر لمتانته وغلظ مزاجه**"[4]، أما صاحب الإستبصار فيقول متحدثا عن أهل جبل درن بقوله "**فيه أمم لا تحصى من المصامدة وأكثر عيشهم إنما هو من العنب والزبيب والرّب، وهم لا يستغنون عن شربه لشدة برد الجبل وثلجه**"[5].

وقد ساعدت سنوات الوفرة المطرية التي عرفتها بعد الفترات التاريخية، في كثرة الفواكه بالحواضر وبواديها، فهذا صاحب الحلل يقول بأن : " **الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستانا طوله ثلاثة أميال وعرضه**

---

1 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق،ج 1، ص 78 .

2- "**هنالك الرُّب المباح مثل رب التوت ورب السفرجل ورب الرمان، والرّب الحرام وهو الشراب المسكر المتخذ من عصير العنب والتمر أو غيرهما ويترك حتى يختمر ..وله قواعد فقهية ضابطة له، وإطارا مخزنيا ينظم رواجه..يشرف عليه أمناء مكلفون بالمراقبة، من مؤهلاتهم القدرة الكافية على التمييز بين الحلال من الحرام وما يجوز شربه وما لا يجوز** ". أورده رابطة الدين محمد، مادة "الرب باب"، **معلمة المغرب**، مرجع سابق، ج13، صص 4263-4264. " **أصبح استهلاك الرب رسميا أي بيعه وإنتاجه معترفا به من لدن المخزن الموحدي، والانتشار تحدث أضرارا بالمجتمع وبالمخزن نفسه وهيبته فبدأ يعمل على ضبط الإنتاج والاستهلاك والتسويق..وبعد العهد الموحدي استمر إنتاج الرُّب واستهلاكه لكن بكيفية متقطعة ..وتحول شكله والغرض منه فأصبح يدخل في التغذية في البوادي الفقيرة** ". أورده : الطويل حجاج محمد، مادة "الرب"، "**معلمة المغرب** "، مرجع سابق، ج13، ص 4263 . راجع أيضا : القبلي محمد، " **رمز الإحياء وقضية الحكم في المغرب الوسيط** "، أعمال ندوة " **أبو حامد الغزالي : دراسات في فكره وعصره وتأثيره** "، الرباط، 1988، ص 142. - بولقطيب الحسين، "**الحياة الإقتصادية للحلف القبلي المصمودي ...**"، مرجع سابق، ص11. – عمراني محمد، "**مسألة الخمور في تاريخ المغرب الوسيط**"، **مجلة أمل**، العدد 16، 1999م، صص59-62 .

3- دندش عصمت، "**الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين** "، مرجع سابق، ص182. - موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص241.

4- الادريسي، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص79.

5 - مجهول، " **الإستبصار** "، مصدر سابق، ص211.

**قريب منه فيه كل فاكهة تشتهيها الأنفس وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط عيونا كثيرة**"[1]. وبالمثل غرس يعقوب المنصور الموحدي " **بستانا كبيرا طوله اثنا عشر ميلا وعلى إحدى جانبيه مجموعة كبيرة من أشجار النارنج يبلغ عددها أربعمائة شجرة بين كل اثنين إما ليمونة وإما ريحانة**"[2]. وقد اشتهرت أحواز مراكش بتنوع غلالها فاعتبرها البعض "**أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناب وفواكه وجميع الثمرات**"[3]. والتي كان من بينها "**التوت والجوز واللوز والليمون والنارنج والبطيخ واسمه عندهم الدلاع**"[4].

كما كان مجال أغمات معروفا بتوفره على أشجار الرمان والإجاص والتفاح والعنب والتين، ولم تكن تكتفي بما تنتج، إذ كانت تأتيها من بلاد نفيس كميات مهمة من الفواكه[5]، ووفرة الأشجار المثمرة عموما بهذه المنطقة يفيد استفادة الأهالي منها من حيث ضمان الأمن الغذائي وتزويد السوق بالفائض[6].

واشتهر جبل درن أيضا بغراسة "**التين الكثير والكبير الطيب المتناهي في الطيب البالغ الحلاوة وفيه العنب المستطيل العسلي الذي لا يوجد في أكثره نوى ومنه يتخذ الزبيب الذي عليه ينتقل ملوك المغرب لرقة قشرته وعذوبة طعمه واعتدال غذائه وفيه الجوز واللوز وأما السفرجل والرمان فيكون منها ما يباع الحمل منه بقيراط واحد وبه من الإجاص والكمثري والمشمش كل غريبة وكذلك الأترج والقصب الحلو حتى أن أهل هذا الجبل لا يبيعونه بينهم ولا يشترونه بكثرته وعندهم شجر الزيتون والخرنوب المشتهي وسائر الفواكه**"[7]. وعرفت فاس بـ" **تفاح حلو يعرف بالأطرابلسي جليل حسن الطعم والرائحة**"[8].

---

1 - مجهول، " **الحلل الموشية** "، مصدر سابق، ص 145.

2 - نفسه، ص 241.

3 - مجهول، " **الاستبصار** "، مصدر سابق، ص 210.

4 - القلقشندي أبو العباس، "**صبح الأعشى في صناعة الإنشا** "، القاهرة، 1963، ج 5، صص 175- 176.

5 - كما هو الأمر بالنسبة للتفاح، يقول البكري في هذا السياق : " **وهو بلد ( منطقة أغمات ) ...وهو راخي الأسعار كثير الخير يحمل إليه من مدينة نفيس تفاح جليل يباع منه وِقْر بغل بنصف درهم** ". راجع كتابه " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، ج 2، ص 843 .

6 - ازريكم عبد الرزاق، " **مدينة غمات وما إليها..**"، مرجع سابق، ص 245 .

7- الإدريسي،"**نزهة المشتاق**"، المجلد الأول، مصدر سابق، ص 230.

8 - مجهول، " **الإستبصار** "، مصدر سابق، ص 181.

وبدورها تميزت بوادي مكناسة بوفرة روافدها المائية، مما سمح بتنوع مغروساتها، فـ"**الفواكه والمزارع والمسارح فيها أنواع كثيرة من الهلالج المسمى بغرب الأندلس : العبقر ويسمونه البرقوق لا يكاد يوجد مثله في غيرها من البلاد كثرة وطيبا وغضارة خصت بذلك. وفيها المشمش المسمى بالأندلس : البرقوق، وفيها أنواع من التفاح طيبة، من جملتها نوع يسمى الطرابلسي حلو عطر يعقد مرتين في العام في أكثر الأحوال وسمون الآخر منه العودة ..وفيها أنواع كثيرة من الإجاص، وفيها سفرجل كثير طيب حلو وحامض..وفيه أنواع من الرمان كثيرة طيبة كالسفري والراهبي وميمونة والنعيمي والاخضر**"[1]. على أن صاحب الروض الهتون قد أشار إلى أن الرخاء الذي عرفته الفلاحة بمكناسة لن يدوم بفعل الصراعات التي اندلعت بين الموحدين وبني مرين[2].

أما بوادي سوس فكانت معروفة بفواكه من" **أجناس مختلفة وأنواع كثيرة كالجوز والتين والعنب العذاري والسفرجل والرمان الأمليس والأترج الكبير المقدار الكثير العدد وكذلك المشمش والتفاح المنهد**"[3].

ومهما يكن الحال فإن الفواكه قد لعبت وظيفة غذائية هامة، فشملت المناطق الرطبة والشبه الجافة على حد سواء، وسمحت بالتغيير في الوجبات الغذائية لكثرة أنواعها ورخص أسعارها ومذاقها الطيب، إضافة إلى تتابع مواسم نضجها وفترات استهلاكها على امتداد ثمانية أشهر في السنة تقريبا. وهو ما يوضحه الجدول التالي[4]:

**جدول : مواسم جني بعض الفواكه والثمار بالمغرب الأقصى**

| الفترة التي يظهر فيها الإنتاج | طبيعة الإنتاج |
|---|---|

1 - ابن غازي، " **الروض الهتون** "، مصدر سابق، ص 3 .

2 - يقول ابن غازي في هذا الصدد :" **وهي كثيرة الفواكه والمزارع والمسارح ...وذلك قبل أن يستولي على المغرب تخريب بني مرين عند اختلال أمر الموحدين، وفي بحيرتي فاس ومكناسة أنواع كثيرة من الفواكه الصيفية والخريفية...وغراسات مكناسة كلها سقي الا ما كان منها بحكم النادر، وقد باد زيتونها لهذا العهد الا قليلا لما توالى عليها من الفتن** ". راجع كتابه : " **الروض الهتون** "، مصدر سابق، ص 3.

3 - الإدريسي، " **نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص 227.

4 - مزين محمد، " **فاس وباديتها : مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549-1637** "، الرباط، 1986، ج 2، ص 398 .

| | |
|---|---|
| أواخر إبريل | الكرز |
| أواخر ماي | التين |
| أواخر يونيو | العنب |
| يوليوز | التفاح – الإجاص – المشمش – البرقوق |
| غشت | التين ( الثانية ) – النبق – العنب الجاف (الزبيب ) |
| شتنبر | التين – الخوخ |
| أواسط أكتوبر | التفاح – الرمان – السفرجل |
| نوفمبر | الزيتون |

لعب الماء لعب دورا رئيسيا في تباين جغرافية الإنتاج الزراعي بالبوادي المغربية خلال العصر الوسيط، إذ أن وفرة المياه واعتدال المناخ كانت وراء كثرة المنتجات خاصة بالمناطق السهلية الأطلنتية الخصبة، وهو ما لم يكن متاحا في باقي المناطق. لكن ذلك لم يمنع السكان من ابتكار وسائل وطرق لتدبير ظرفية القلة ومواجهة إكراهات الطبيعة.

# الفصل الثاني : حضور المياه في البنيات الاجتماعية للبوادي

## 1. الملكية العقارية للأرض

إذا كانت البنيات الاجتماعية هي التي تتحرك فوق الأرض ومن أجل استغلالها، فقد انطلق البعض من فكرة مفادها أن الأرض هي المحرك الأساسي للوحدات الاجتماعية في كل المجتمعات الزراعية[1].

وقد شكلت الأرض في المغرب ولا تزال البؤرة المحورية التي يحتدم حولها صراع تلك الوحدات الاجتماعية سواء كانت حضرية أو ريفية [2]. كما تعتبر مفتاحا لفهم دينامية العلاقة بين الإنسان والمجال، وتؤسس تاريخيا لعلاقات وتراتبات، وتختزن صراعات وتوافقات، وتُعدُّ مصدرا للفخر والإعتزاز [3]. إنها **"بطاقة هوية تُشهر في وجه الجميع، لتقاس بها ومن خلالها موازين القوى والنفوذ، فكلما كبرت الأرض، كلما تعالت رهانات القوة والفعالية، وكلما تقلصت، كلما ضاعت أسهم التأثير والمشروعية، فالأرض هي أهم ثروة في المجتمعات الزراعية "**[4].

ويمكن اعتبار الملكية من أهم المؤشرات التي تساعد على فهم عمق العلاقات الاجتماعية السائدة في مجتمع ما، وهي تجسد علاقة الإنسان أيضا بأدوات الإنتاج، كنظام محدد لتوزيع منتجات العمل بين أعضاء المجتمع

---

1 - الهروي الهادي، **" القبيلة، الإقطاع والمخزن : مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844 – 1934 "**، الدار البيضاء، 2005 ص 65 .

2 - نفسه، ص 65 .

3 - Raymond Jamous, « **Honneur et Baraka : Les structures sociales et traditionnelles dans le Rif** », **Revue de L'occident musulman et de la Méditerranée** , N0 34, 1982, p : 152.

4 - العطري عبد الرحيم، **" المسألة القروية في المغرب : الأرض والسلطة والمجتمع "**، فاس، 2017، ص 35.

بين الأفراد والجماعات[1]. من هذه الزاوية كان لابد من الحديث عن ملكية الأراضي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، على اعتبار أنها تساعد على الإحاطة بأهم الأنشطة التي قامت بها السلطة المركزية، وكيف استثمرت الإطار الجغرافي الذي تحكمه. فلا يمكن إنكار دور الأرض في توجيه تاريخ المغرب، ليس فقط لأنها دعامة الإنتاج الثابتة[2]، بل لأنها شكلت كذلك عاملا أساسيا في بعض النزاعات التي كانت تندلع أحيانا بين المخزن والعامة من جهة[3]، وبين القبائل التي كانت تستوطن المجال من جهة أخرى[4].

ولولا مكانة الأرض في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقاعدة عريضة من فئات المجتمع، لما كانت لتشكل أحد **"معضلات التاريخ الإسلامي"**[5]. فالباحث في البنيات الإقتصادية والإجتماعية للمجتمعات الزراعية بالغرب الإسلامي يواجه عسرا كبيرا بخصوص تأصيل نظام ملكية الأرض، وتتبع أنواع الملكية وطرق استغلالها وآلية انتقالها[6]، ويزداد الأمر تعقيدا كلما تعلق الوضع تحديدا بالمغرب الأقصى[7]، على اعتبار أن النقاشات الفقهية لم تحسم في الأمر[8].

---

1 - كاتشانفسكي يوري، **" عبودية إقطاعية أم أسلوب إنتاج آسيوي ؟ "**، ترجمه عن الروسية عارف دليلة، بيروت، 1981، ص 120.

2- بنحمادة سعيد، **"الملكية العقارية وقانون الماء ببلاد المغرب والأندلس بين التشريع النظري والتنزيل التاريخي دراسة لأثر الجغرافيا التاريخية في تبيئة القانون"**، أعمال ندوة: **التاريخ والقانون التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة، أعمال مهداة** للأستاذ محمود إسماعيل، مكناس، 2009، ص153.

3- بنميرة عمر، **" النوازل والمجتمع .."**، مرجع سابق، ص144.

4 - لأننا لابد أن نستحضر بأن المجال ليس مجرد معطى جغرافي، بل هو مجال سياسي لصوغ العلاقات الاجتماعية، وعليه فكل تحول في تدبير المجال لا بد وأن ينسحب على مجموع العلاقات والبنيات الاجتماعية للقبيلة . راجع : العطري عبد الرحيم، **" المسألة القروية في المغرب"**، مرجع سابق، ص 37 .

5- إسماعيل محمود عبد الرزاق، "**سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**"، القاهرة، 2005، ج 1، ص25 .

6 - الجنحاني الحبيب، "**نظام ملكية الأرض في المغرب الإسلامي القرن 1هـ . 6هـ/ 7م . 12م**"، **مجلة دراسات تاريخية**، ع 5، العراق، 1981م، ص 30

7- موسى عز الدين، "**النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص129.

8- اختلف الفقهاء في حكم **" أرض المغرب، فقيل عنوة وقيل صلحية، وقيل التفصيل بين السهل والجبل، وقيل بالوقف"**، في حين أكد البعض **"أن البلاد الغربية لم تجر في الافتتاح على قانون واحد، بل منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صلحا"** و رواية ثالثة تكشف أن بعض المناطق **"أسلم عليها أربابها، وليس فيها صلح ولا عنوة"** كما هو الحال بالنسبة لبلاد المصامدة ومراكش . الونشريسي، **" المعيار المعرب"**، مصدر سابق، ج 6، ص 133-134.

وقد ركزنا على تتبع الوضعية التي كانت عليها أراضي المغرب الأقصى إبان حكم المرابطين والموحدين والمرينيين، لارتباط ذلك بميلاد الشخصية الفعلية للدولة المغربية الوسيطية في إطار تنظيم السلطة المركزية للمجال الفلاحي وتدبيره[1]، والمساعدة على استيعاب بعض القضايا كالمنازعات التي كانت تندلع حول الأرض والماء زمن القحط أو الخصب، و تحديد حصص السقي وتحصيل الضرائب[2] واختلاف أساليب سقي تلك الأراضي الزراعية[3].

✓ **الملكيات الخاصة للأرض :**

كان شيوخ البربر ووجهاؤهم يستحوذون على الجزء الأكبر من هذه الملكيات، وهناك إشارات تاريخية تتحدث عن ظهور ملكيات كبيرة خاصة في فترات الإستقرار السياسي التي شهدها العهد المرابطي والموحدي [4]. وتؤكد إحدى الدراسات أن الملكية العقارية في **"البداية كانت جماعية لدى كل الشعوب، ولم تصبح خاصة إلا فيما بعد، في المستوى الذي صارت معه الزراعة كثيفة أكثر "**[5].

ويبدو أن معظم الفلاحين اقتصروا في ملكية الأراضي الصغيرة قبل العصر المرابطي، إلى حد أن كثيرا منهم اكترى أرضه أو اتخذوا وكلاء، وبذلك انتشر نظام المغارسة والمساقاة مما كون جماعة الفلاحين المكترين، ومهد لانتشار نظام الخماسة. وكانت هذه الملكيات الصغيرة تحيط بالقرى والمداشر.

وبعد مجيء المرابطين أحدثوا انقلابا في الملكيات بحيث تحولت ملكية الأرض إلى علية القوم من الملثمين وأتباعهم، فإذا كان هؤلاء قد استولوا على أراضي القبائل المغلوب على أمرها والمناوئين لهم سواء في المغرب أو في

---

1- القاسمي العلوي هاشم، القاسمي العلوي هاشم، "**مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي** "، المملكة المغربية، 1995م، ج2، ص32.

2- بنحمادة سعيد، **"الملكية العقارية وقانون الماء ببلاد المغرب .."**، مرجع سابق، ص155.

3- بنحمادة سعيد، **الماء والإنسان في الأندلس-خلال القرنين 7-8هـ/13-14م**، إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، بيروت، 2007م. ص23.

4 - مثاله بنو عشرة في العصر المرابطي، وأما عن العصر الموحدي فانظر ما يذكر عن الفهمي في مراكش . ابن عبد الملك المراكشي، **"الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة** "، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، السفر8، 1948م، ص 400. وابن حسان القضاعي في فاس . نفس المصدر، ج 1، ص 90 . وبني بهلول قسطيلة. **" الاستبصار"**، مصدر سابق،. ص 157.

5 - كاتشانفسكي، **" عبودية إقطاعية.."**، مرجع سابق، صص 120 – 121 .

الأندلس، فإن القبائل المصمودية حافظت على أملاكها من جراء تحالفهم مع المرابطين في بداية أمرهم، بالإضافة إلى كونهم زراع ملتصقون بالأرض مستقرين فيها[1]، دون أن ننسى أمرا مهما وهو أن العصبية الصنهاجية كانت تمثل " **جزيرة في بحر مصمودي على حد تعبير الأستاذ أحمد التوفيق**"[2]، وبالتالي فهي حاولت مهادنتهم وعدم استفزازهم لأن ذلك يشكل خطرا على الدولة في مهدها.

كانت الملكية الخاصة منتشرة على حد سواء في السهول الغنية أو الجبال ذات الكثافة السكانية[3] مثل جبل درن[4]، فمن خلال الوقوف على كتب النوازل الفقهية نجدها قد أعطت عناية قصوى لمسألة الملكية الفردية[5] التي كانت منتشرة بين سكان البوادي[6]. وقد كان من نتائج الإقطاع الذي أسنده المرابطون إلى الجند وغيرهم من أتباع الدولة الجديدة، أن نشأت ملكيات فردية قامت حسب أحد الباحثين على أساس إحياء الأراضي الموات[7]، كما أن هناك أراضي تتحول إلى ملكية فردية إما بالوراثة أو بالهبة أو بالشراء. ومن الطبيعي أن نجد بأن أهل الصلاح من المتصوفة كانت لديهم بدورهم ملكيات خاصة بهم يتكسبون منها[8]، فقد حرص أهل العلم على اقتناء الأرض كمورد للرزق إما تعففا عن العمل أو زهدا[9]، وعملت الدولة على احترام الملكيات الخاصة[10] على الأقل في عصر قوتها.وحينما سجلت أراضي الدولة تراجعا في فترة حكم علي بن يوسف حاول إيجاد حل لهذا المشكل إذ عمل على استعادة الأراضي عن طريق مصادرة أملاك الأمراء والعمال المرابطين المغضوب عليهم و

---

1- بولقطيب الحسين، "**الحياة الإقتصادية للحلف القبلي المصمودي..**"، مرجع سابق، ص60.

2- أورده أبو العزم عبد الغني، "**معالم المدينة الإسلامية: نموذج مراكش**"، ضمن ندوة " **مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي** "، المحمدية، 1989م، ص67.

3- بن حسن محمد، "**القبائل والأرياف المغربية ..**"، مرجع سابق، ص35.

4- مجهول، "**الاستبصار** "، مصدر سابق، ص211. - الحميري، " **الروض المعطار**"، مصدر سابق، ص235.

5- بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع** "، مرجع سابق، ص150.

6 - القبلي محمد (إشراف وتقديم)، "**المغرب تحيين وتركيب** "، مرجع سابق، ص227.

7- انطلاقا من قول النبي صلى الله عليه وسلم : «**من أحيى أرضا مواتا فهي له**» دليل على أن ملك الموات معتبر بالإحياء دون الإمام. أنظر : الماوردي، "**الأحكام السلطانية** "، مصدر سابق، ص231. - بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع** "، مرجع سابق، ص137.

- القاسمي العلوي، "**مجتمع المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ج2، ص32.

8- ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص133-253-309-417.

9- موسى عز الدين، "**النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص151.

10- بنحمادة سعيد، "**الغرب الإسلامي** "، مرجع سابق، ص41.

حاشيتهم[1]، كما حدث في سنة (515هـ/1127م) عندما أراد مراجعة الملكيات العامة التي آلت إلى ملكيات خاصة منذ أيام بني عامر و بني عباد، وأدى ذلك إلى ثورة العامة في قرطبة على ابن رشد و من وافقه في تلك الفتوى[2].

وفي هذا إشارة إلى مكانة الأراضي بالنسبة للدولة التي كان للفقهاء النصيب الأكبر منها، واضطر معها علي بن يوسف ليتراجع عن رغبته في مراجعة أملاك الدولة فاسترجع كثيرا من الأراضي وصادر أخرى من كبار الموظفين المتهمين باحتكار الأموال واغتصاب أملاك الدولة[3]، والراجح أن هذه السياسة كانت من أبرز الأساليب التي اتبعتها الدولة المرابطية فيما يتعلق بأراضي الخواص .

وقد نتج عن الملكية الخاصة بروز صراعات حول الماء سواء بين العالية والسافلة[4]، أو بين أصحاب الأرحاء والجنات[5]، هذه الصراعات كانت خاضعة لتدبير عرفي وآخر فقهي. هذا الأخير الذي كان يمثل السلطة المركزية حاول المزج بين ما هو شرعي وما هو عرفي حتى لا يثير سخط أهل البادية[6]. للحيلولة دون الخروج على السلطة القائمة.

### ✓ أراضي الدولة :

ظل هذا النوع من الأراضي تحت تصرف الدولة، حيث كان يضم الغابات والمساحات الخاصة بالأنهار والعيون والسواقي العامة وكل ما لا يمكن امتلاكه بصفة شخصية، أي أن الدولة هي المالك الحقيقي للأرض، وهي

---

1- بوتشيش القادري إبراهيم، **"مخطوط نوازل ابن الحاج مصدر جديد في تاريخ المجال القروي بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين"، ندوة البادية المغربية عبر التاريخ**، الدار البيضاء، 1999م، ص35. - بنحمادة سعيد، "**الغرب الإسلامي مباحث** "، مرجع سابق، ص54.

2- البرزلي أبو القاسم، " **فتاوى البرزلي** "، مصدر سابق، ج3، ص52-53.

3- الطويل حجاج محمد، " **وضعية الأراضي الفلاحية في المغرب، من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الوطاسية من القرن 2 / 10 هـ / 8 – 16م** "، **مجلة البادية المغربية**، ع 7، الرباط، 2017، ص 62.

4- ابن رشد،" **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، ص1296- 1297- 1298. - القاضي عياض وولده محمد، " **مذاهب الحكام..** "، مصدر سابق، ص90-100.

5- ابن رشد، " فتاوى ابن رشد "، مصدر سابق، **ج2**، ص1088. **ج3**، ص1286.

6- بنحمادة سعيد، **"أثر البنية القبلية .."**، مرجع سابق، صص42-43.

التي تمنح حق الإنتفاع بها لرعاياها دون تملك [1].وقد ساهمت الظروف السياسية والاجتماعية المضطربة التي عرفتها البلاد في فترات وهن الدولة المركزية، والتي كانت تتزامن مع القحوط، بالإضافة إلى عدم استقرار مجموعة من القبائل التي احترفت الرعي والترحال، في انتشار أراضي الموات[2]، وإتلاف المزروعات والمغروسات، وإهمال أنظمة الري، وازدياد نسبة الأراضي البور، فبات من الصعب استثمارها من جديد، وفي حالات أخرى عمد الفلاحون إلى اغتصاب الأراضي بالقوة[3]. وقد تعرضت إحدى فتاوى البرزلي إلى هذه الظاهرة، وكان الحل المقترح عمليا يأخذ بعين الإعتبار انتشار هذا التعدي إلى درجة اكتسابه نوعا من الشرعية " **فمن اغتصب أرضا وزرعها، فالزرع لزارعه وعليه الكراء..**"[4].

وكانت عملية زراعة أراضي المخزن في العصر الوسيط عموما، تتم عن طريق كراء الأراضي الزراعية : أرض مملوكة في مقابل جهد مبذول عن طريق المزارعة أو المساقاة أو المغارسة[5].وقد كانت الأراضي الزراعية التي تملكها الدولة في العهدين المرابطي والمريني أقل شساعة من نظيرتها خلال العصر الموحدي، وهو ما أرجعه البعض إلى كون المصامدة لم ينهجوا السياسة العقارية القائمة على الهبة والإقطاع كما فعلت صنهاجة وزناتة الشيء الذي أسهم في تملكهم لأراضي شاسعة[6]، رغم أن الأساس الذي ترتكز عليه العصبية هي المصلحة المشتركة[7].

---

1 - أكد إدريس بنعلي أن ملكية الدولة في النسق المخزني تستند في اشتغالها إلى فكرة مركزية مفادها أن السلطان هو المالك الحقيقي لأراضي البلاد بأسرها، وهو الذي يعطي حق الإنتفاع بها، من دون تملكها إلى من يشاء من رعاياه مقابل دفع الضرائب لبيت المال، والقيام ببعض الإلتزامات العسكرية عندما يطلب منه ذلك، ويقوم هؤلاء بدورهم بتخويلها لأتباعهم من الفلاحين .

Ben Ali Driss ,« **Le Maroc Précapitaliste : Formation Economique et Sociale** », Société Marocaine des Editeurs Réunis, Casablanca, 1983, p : 59 .

2 - الأراضي الموات : هي الأرض التي لا يملكها أحد، كما أنها لا تعرف استغلالا فلاحيا من طرف أي كان، وتندرج ضمن دائرة أملاك السلطة المركزية، وهناك من يذهب إلى القول بإمكانية تملك هذه الأراضي بعد إحيائها واستغلالها لمدة معقول.

راجع : العطري عبد الرحيم، " **المسألة القروية في المغرب..**"، مرجع سابق، ص42 .

3 - القاسمي هاشم العلوي، " **مجتمع المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ص 38.

4 - البرزلي، " **فتاوى البرزلي** "، مصدر سابق، ص 152.

5 - الفاتحي حميد، " **ملكية الأرض في بلاد المغرب والأندلس ..**"، مرجع سابق، ص165.

6- دندش عصمت عبد اللطيف، "**الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين -عصر الطوائف الثاني** "، لبنان، 1988م، ص158.

7- بن حسن محمد، "**القبائل والأرياف ..**"، مرجع سابق، ص13. - بنحمادة سعيد، "**الغرب الإسلامي** "، مرجع سابق، ص56.

وبالتالي فإن الموحدين عمدوا في بداية أمرهم إلى توزيع الأراضي على حلفائهم[1]، فكان الإقطاع في بداية الدولة أوسع شمولية على مستوى التراب الذي خضع لسلطتهم في الغرب الإسلامي[2]، لدرجة دفعت القبلي للقول أن هذا النوع من القرارات يمكن أن يطلق عليه **"ما يسمى الآن باستبداد الدولة"**[3]؛ لكنهم سرعان ما أعادوا النظر في هذه السياسة بعدما اتسعت الدولة وأضحت في حاجة إلى موارد مالية[4] لتنفيذ مشاريعها.

وفي هذا الإطار نجد أن المرابطين ذهبوا في سبيل توسيع ملكية الدولة إلى ضم الأراضي التي توفي عنها أصحابها دون أن يتركوا من يرثها، وشاركوا أحيانا في الاستفادة من ثلث ملكية أراضي من ظلوا على قيد الحياة[5]، ونظرا لغياب قانون منظم للأرض وحيازتها حاول المرابطون أن يسلكوا مسلكا حضاريا بحفظ ممتلكاتهم فاستحدث علي بن يوسف خطة "صاحب المواريث" لتسجيل الأراضي وورثتها الشرعيين، وإرجاع ما لم يثبت وارثها إلى ملكية الدولة[6] . وانتقل الأمر إلى الموحدين بحيث ظهر " **المستخلص بالشرف** "[7]، حيث اعتبروا ما فتحوه من المناطق أراضي عنوية يسوغ لهم فرض الخراج عليها[8]، وتدخل ضمن أملاك دولتهم فبعد حصار عبد المؤمن بن علي الكومي مدينة مكناسة دخلها عنوة بالسيف وخمست أموالها[9]. فضلا عن مصادرة أملاك الثائرين .

---

1- "**مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية** "، اعتنى بإصدارها **ليفي بروڤانصال Lévi Provençal**، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، ج 10، الرباط، 1941م، ص87.

2- القاسمي العلوي،" **مجتمع المغرب .. "**، مرجع سابق، ج2، ص33 . - موسى عز الدين،"**النشاط الاقتصادي "**،مرجع سابق، ص143.

3- القبلي محمد، " **انهيار الموحدين بدأ منذ معركة العقاب"، مجلة زمان**، ع 37، 2016م، ص47.

4- غضبان أكرم حسين، **"الإقطاع في عهد الموحدين"، مجلة آداب البصرة**، ع51، العراق، 2010م، ص116.

5- بوتشيش القادري ابراهيم، **"أملاك الدولة بين التراجع والاسترجاع من خلال نماذج من الغرب الإسلامي"**، ضمن : **ندوة : التصرف في ملكية الدولة عبر التاريخ**، تونس، 2005، ص83.

6- نفسه، ص83.

7 - المراكشي ابن عذاري، " **البيان ..**"، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 225

8 - دندش عصمت، " **الأندلس في نهاية المرابطين..**"، مرجع سابق، ص 157

9 - ابن غازي المكناسي، " **الروض الهتون** "، مصدر سابق، صص 9 – 10.

أما خلال العهد المريني فقد سميت أراضي الدولة بـ" الرباع المخزنية "، وأرض القانون، وهي "البلاد التي ترجع لجباية معلومة"[1]، وقد تشكلت غالبية أراضي الدولة من المصادرات، كما تجدر الإشارة إلى أن الدولة المرينية قد عملت على تفويت الملك العمومي عن طريق كراء الأراضي للفلاحين[2].

✓ **الملكيات الجماعية للأرض :**

الأراضي الجماعية أو أراضي القبائل، هي أراض تستغلها مجموعات محددة تربطها وشائج الدم أو المصالح المشتركة أو هما معا، وقد خضعت هذه الأراضي للتقسيمات القبلية الكبرى على امتداد العصر الوسيط سواء من جانب القبائل البربرية ( صنهاجة وزناتة ومصمودة ) بتفاصيلها وتفريعاتها، وكذلك من جانب القبائل العربية الوافدة من المشرق على شكل موجات بشرية امتدت إلى حدود المحيط الأطلنتي غربا[3].

وتبدو الخريطة الزراعية في بلاد المغرب في القرون الأولى متأثرة بالتقسيم القبلي السياسي؛ فالتجزئة إلى إمارات قبلية من أقصى الشمال على البحر المتوسط إلى تخوم الصحراء جنوبا، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى إقليم الزاب شرقا فسحت المجال للقبائل المستقلة، والإمارات القبلية المكونة من "الأحلاف القبلية " لتركيز سيادتها، وهذه القبائل في الغالب تمارس النشاط الرعوي، وأما العمل الزراعي فيأتي في درجة ثانية، على عكس المجموعات القبلية التي توجد في أحواض الأنهار الواسعة حيث تكون الزراعة في مرتبة أولى، ثم الرعي ثانيا[4].

وقد كانت الأراضي الجماعية إلى حدود العصر المرابطي تنتشر في الأراضي الخالية والمناطق الرعوية خاصة[5]، حسبما أشارت إليه كتب الفتاوى والتي استغلها سكان القرية الواحدة إما في رعي الماشية أو الزراعة[6]، كما يمكن الحديث أيضا عن طريقة جماعية لاقتناء الأراضي، عن طريق اشتراك عدة أفراد في جمع حصة من المال

---

1 - ابن مرزوق أبو عبد الله محمد، " **المسند الصحيح ..**"، مصدر سابق، ص 284 .

2 - بنحمادة سعيد، " **الغرب الإسلامي..**"، مرجع سابق، ص 59

3 - الفاتحي حميد، " **ملكية الأرض في بلاد المغرب والأندلس** "، مرجع سابق، ص 165.

4 - العلوي القاسمي، " **مجتمع المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ج 2، ص 40.

5- بن حسن محمد، "**القبائل والأرياف..**"، مرجع سابق، ص35.

6- بوتشيش القادري ابراهيم، " **البنية القبلية بالمغرب ومسألة المساواة والتراتب الاجتماعي**"، ضمن **كتاب : تاريخ الغرب الاسلامي- قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، بيروت، 1994م، ص 22.

لشراء أرض مشتركة ثم تقسيمها بعد ذلك فيما بينهم[1]، وسادت روح التضامن بين القبائل، واستغلوا موارد السقي استغلالا جماعيا، إما عن طريق اقتسام الحصص أو بواسطة التداول والمناوبة[2].

ويشير أحد الدارسين إلى أن الأراضي الجماعية من الأراضي الأكثر انتشارا في المغرب إلى يومنا هذا، سواء في السهول والجبال وفي مناطق الإستقرار والترحال، ويبدو أنها كانت متفاوتة المساحات بحسب طبيعة كل منطقة وقوة القبيلة، على أن القاعدة التي حكمت هذه الملكية الجماعية، والتي ترسخت منذ القديم هي الحصول على أراضي متكاملة الموارد ( أراضي زراعية / مراعي / أراضي غابوية )[3].

وتعتبر الأراضي الجماعية ملكا للقبيلة وتختلف طريقة الاستفادة منها حسب الأعراف والتقاليد، ففي بعض القبائل مثلا يتم توزيع الأراضي في بداية موسم الحرث.وفي قبيلة أخرى يتم توزيع الأراضي بصفة نهائية بين أعضاء القبيلة حسب عدد أفراد الأسرة[4]، على أن يتم الاتفاق بينهم على الأراضي المخصصة للحبوب والأراضي المخصصة للغرس والأراضي المتروكة للرعي الجماعي، على أن هذه الأراضي لا يمكن للمستفيدين بيعها، وتفويتها للغير من خارج القبيلة[5].

وما يلفت الانتباه فيما يهم الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى نهاية المرابطين أن الاقطاع الذي كان شائعا آنذاك كان هو إقطاع القبائل وزعمائها تقوم بإقطاع بعض الأراضي للقادة النازحين أو الشخصيات الإسلامية المعارضة، وقد كانت أكثر هذه الاقطاعات متواجدة في شمال البلاد، وخاصة في المناطق التي استوطنتها زناتة، أما في منطقة المصامدة فإن الأعراف البربرية كانت أكثر تشددا ولا نجد إشارات عن أي نوع من الإقطاع هناك،

---

1- بوتشيش القادري إبراهيم، **"مخطوط نوازل ابن الحاج.."**، مرجع سابق، ص35.

2- بوتشيش القادري ابراهيم، **" البنية القبلية بالمغرب .."**، مرجع سابق، ص23.

3 - الطويل محمد حجاج، "**وضعية الأراضي الفلاحية..**"، م.س، ص 59.

4 - نفسه، ص 60.

5 - نفسه، ص 60.

باستثناء وجود إشارات تتحدث عن شراء أراضي جماعية في ظروف غامضة كشراء بني عشرة لأراضي شاسعة في سلا، وشراء بني وجاد لأراضي في رباط الفتح[1]، وشراء المرابطين للأراضي التي بنيت عليها مدينة مراكش[2].

ومن الواضح أن العصر المريني قد عرف استحواذ الملكية الجماعية على مساحة واسعة من البنية العقارية للأرض بالمغرب الأقصى، وذلك بفعل وصول قبائل بني معقل وبني هلال إلى بسائطه والسيطرة عليها، وبالتالي أصبحت هي القاعدة، مما منع احتجان الأراضي في يد أقلية وبالتالي شكّلت الملكية الفردية الإستثناء [3].

✓ **الأراضي الحبسية :**

أراضي الحُبس هي مجموع الأراضي التي وقفت لصالح مؤسسة دينية أو اجتماعية، وهي أراضي غير قابلة للبيع، ويظهر بأن أراضي الحُبس تركزت حول مدينة فاس بدرجة كبرى، وبنسبة أقل حول مدينة مراكش، ذلك أن الدولتين المرابطية والموحدية على عظمة سلطانهما لم تهتما بموضوع الوقف أو الأحباس[4]، ولعل ما يفسر ذلك أن انتشار الملكية الخاصة كان في بدايته، وأن الإزدهار الذي عرفته البلاد في هذه الفترة انعكس مباشرة على المؤسسات الدينية والاجتماعية، فكانت الدولة والخواص يتخذون المبادرة في هذا المجال.

وقد كانت مداخيل هذه الأراضي توزع على المؤسسات المستفيدة من الأحباس، وكان المشرف عليها هو ناظر الأحباس الذي يعين من طرف القاضي، والذي كان يساعده في فاس" **نحو عشرين من الأعوان المكلفين**

---

1 - ابن صاحب الصلاة، " **المن بالإمامة** "، مصدر سابق، ص 447.

2 - ابن عذاري، " **البيان ..**"، مصدر سابق، ج 4، صص 122 – 123 . ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص 138. الحميري، "**الروض المعطار**"، مصدر سابق، ص 540. ويبدو أن هذا البيع كان صوريا ويؤكد ذلك ما ورد عند ابن عذاري من امتناع يعقوب المنصور الموحدي عن دخول مراكش بعد عودته من الأندلس إلا بعد أن دفع ثمن الأراضي التي بنيت عليها لأصحابها، وهم من هيلانة وهزميرة . ابن عذاري، **البيان..**، مصدر سابق، ج 3، ص 206.

3 - وقد قدَّم البعض تفسيرا آخر لهيمنة الملكية الجماعية على حساب الملكية الخاصة، وهو نمط إقتصاد القلة والكفاف، إذ أن بطئ تطور القوى المنتجة لم يُتح الحصول على فائض اقتصادي كفيل باختراق البنيات الجماعية أو إخضاعها وتكييفها لعلاقات الإستغلال. راجع : الهلالي ياسر، **"مجتمع المغرب الأقصى .."**، مرجع سابق، ص 104.

4 - عز الدين موسى، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص 154 .

**بالذهاب إلى الضواحي لكي يقدموا للفلاحين وللبساتين وأصحاب الكروم ما يحتاجون إليه، وأجر كل واحد من هؤلاء الأعوان ثلاثة مثاقيل في الشهر "**[1].

ومن المعروف أن التحبيس " **يتم ابتغاء مرضاة الله وخوفا من اغتصاب ذوي النفوذ لممتلكاته** " [2]. ولا يجوز تحويل أرض الأحباس عما وضعت له، وليس لأحد أن يدخل في حوزته شيئا من منافعها، حيث كانت معفية من الضرائب من قبل المخزن، في دلالة واضحة على الاحترام الذي كانت تحظى بها الحُبس، فقد كانت الأوامر السلطانية توجه بعزل الوكلاء على ممتلكات الحُبس ممن طالت أيدهم مداخيلها دون وجه حق، ومحاسبتهم كما حصل في عهد علي بن يوسف بن تاشفين[3]، وهذا ينطبق على مختلف الدول التي حكمت المغرب خلال العصر الوسيط.

على أن الوقار الذي يكنه المخزن للحُبس وممتلكاته كان يتراجع بعد استفحال حاجة المخزن إلى الأموال، فكان يلجأ في البداية إلى الإقتراض من أموال الحُبس قبل أن يضع يده عليها؛ فالمصادر تتحدث عن أن مال الأحباس تم توظيفه في تجديد وإصلاح مسجد القرويين في عهد السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق المريني وابنه يوسف[4] .

ويظهر أن رقعة التحبيس قد اتسعت في عصر بني مرين بفعل الظروف السياسية والاجتماعية المضطربة، فأصبح الناس مهددين في أسباب معاشهم وفي حياتهم، وساد لدى العامة نوع من خيبة الأمل والزهد في الحياة الدنيا فكان تحبيس الأراضي والأملاك يتم لصالح المؤسسات الدينية والاجتماعية ( مدارس، مساجد، مارستانات، وزوايا). وتجدر الملاحظة إلى أن المخزن أصبح يتزعم ظاهرة التحبيس، فضلا عن تكاثر تحبيس الخواص على هذه

---

1 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 225 .

2 - الطويل، " **وضعية الأراضي الفلاحية..** "، مرجع سابق، ص 68

3 - ابن أبي زرع، "**روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص 59

4 - نفسه، ص 59 - 68 – 77 . راجع أيضا : بن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، صص 230 – 233. الجزنائي علي، "**جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس** "، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الرباط، 1991م، صص 61 – 67 .

المؤسسات المذكورة ليس بفعل حالة عدم الاستقرار التي كانت تعرفها البلاد فحسب، بل خوفا من المحبس على مصير أبنائه وأسرته، ورغبة منه في المحافظة على أملاكه في عقبه من الذكور خاصة[1] .

### ✓ الأراضي المقطعة:

لقد رافق الاستقرار السياسي خلال الفترة الوسيطية من تاريخ المغرب، ظهور الملكيات الكبيرة في العصرين المرابطي والموحدي والمريني[2]، وذلك راجع إلى كون هاته الدول بسطت حكمها على البلاد والعباد بحد السيف، إذ ابتزوا الأموال من الرعية، واستحوذوا على ثلث وسائل الإنتاج الفلاحية باعتبارها غنائم[3]، وظل النمط الإقطاعي شكلا من أشكال علاقات الإنتاح السائدة[4]، فقد عمل المرابطون بنظام الإقطاع[5] بالنسبة لأبناء عصبيتهم وأنصارهم[6] الذين تغيرت مواطن استقرارهم، فانتقلت قبائل الملثمين من منطقة الصحراء إلى منطقة السهول والواحات الشمالية، فنزلت لمتونة ومسوفة رحبة مراكش[7]، وسكنت لمطة سهول غمارة الزراعية، ثم توالت جموع القبائل الصنهاجية باستدعاء يوسف بن تاشفين لهم أيام نيابته عن أبي بكر بن عمر فأقطعهم الأراضي[8]،

---

1 - الونشريسي، **" المعيار"**، مصدر سابق، ج 7، ص 67 – 69 – 202 – 103 – 477 – 478 .

2- موسى عز الدين، **"النشاط الاقتصادي "**، مرجع سابق، ص151.

3- أسكان الحسين، **"مظاهر الخلل في تسيير شؤون الدولة بالمغرب الوسيط نموذج الدولة المرابطية والموحدية"، مجلة أمل، ع** 32/31، الدار البيضاء، 2006، ص20. - موسى عز الدين، **" النشاط الاقتصادي "**، مرجع سابق، ص137.

4- البياض عبد الهادي، **"وضعية الزراعة بالمغرب.."**، مرجع سابق، ص21.

5- تعددت تعاريف الفقهاء للإقطاع، ومنها تعريف الماوردي حيث جاء فيه" **وإقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه ونفذت فيه أوامره، ولايصح فيما تعين فيه مالكه وتميز مستحقه وهو ضربان: إقطاع تمليك وإقطاع استغلال.**

*** إقطاع التمليك: "فتنقسم فيه الأرض لامقطعة ثلاثة أقسام: موات وعامر ومعادن.**

*** إقطاع الاستغلال: فعلى ضربين عشر و خراج"**. - الماوردي أبي الحسن، **" الأحكام السلطانية "**، مصدر سابق، ص248-256.

- **"وقد اختلف الدارسون بين من يقول بوجود إقطاع إسلامي قياسا على الإقطاع الأوربي، وبين من ينفي ذلك"**. أنظر : بنحمادة سعيد،**"الغرب الإسلامي مباحث في العلوم التجريبية "**، مرجع سابق، ص74.

6- القاسمي العلوي هاشم، "**مجتمع المغرب الأقصى "**، مرجع سابق، ج 2، ص32.

7- المراكشي عبد الواحد، " **المعجب في تلخيص أخبار المغرب "**، تقديم وتحقيق وتعليق زينهم محمد عزب، القاهرة، 1994م، ص93.

8- ابن عذاري، **" البيان "**، مصدر سابق، ج 4، ص23.

واستمر الأمر على النحو ذاته بعدما انفرد بالحكم[1]؛ وهذا أمر طبيعي مادامت القبيلة تبحث عن الحافز الإقتصادي المتمثل في كسب **"الخيرات الدنيوية"** أكثر من سعيها للملك[2] والتي شكلت الأرض أهمها.

وإذا كانت سياسة يوسف ابن تاشفين الإقطاعية سعى من خلالها إلى أن يحيط نفسه بأهل عصبيته والتأليف بينهم، فإن ذلك سيتغير فيما بعد حين صار للدولة جيش كبير، ففي مقابل عجزها عن الوفاء بمستحقاتهم المالية اتجهت نحو إقطاع الأراضي لهم ليفلحوا ويستثمروا " **فمن ظهرت نجدته و إعانته وشجاعته أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده"**[3]، وكذلك تم إقطاع أراضي لصالح الفقهاء جراء تحالفهم مع المرابطين منذ بداية ثورتهم[4]، فكان الجند والفقهاء هم المستفيدون من هذه السياسة[5].

اعتبر الموحدون البلاد المفتوحة، والتي لم تدخل في كنف الدعوة الموحدية ملكا للإمام، وتجاوزوا الحدود النظرية في ذلك ليطبقوا الإمتلاك الفعلي لهذه الأراضي، فآلت إليهم ملكية أراضي الدولة المرابطية، وأراضي كبار رجال الدولة والمتنفذين في عهدهم، مما تمخض عنه اندلا ع العديد من الثورات ضدهم[6]، تم إخمادها ومصادرة أملاك المشاركين فيها كنوع من التأديب والعقاب لهم، فاضطر الموحدون إلى التعديل من سياستهم تجاه الأراضي المفتوحة بعد ذلك.

فإذا كان الموحدون قد نهجوا سياسة الإقطاع منذ بداية الثورة، وحيث أن أول إقطاع وزع أيام المهدي بن تومرت هو اقتسام أملاك قبيلة هزميرة – كان هذا الإقطاع شبيه بالجزاء حسب رواية ابن القطان عن هزميرة التي قال فيها بأنه " **قتل منهم في ذلك اليوم نحو من خمسة عشر ألفا...وسبى حريمهم وغنمت أموالهم، فقسم أرضهم**

---

1- مجهول، **"الحلل الموشية "**، مصدر سابق، ص33.

2- ابن حسن محمد، **" القبائل والأرياف.."**،مرجع سابق، ص14.

3- بن حسن محمد، **" القبائل والأرياف.."**، مرجع سابق، ص82.

4- موسى عز الدين،**" النشاط الاقتصادي "**، مرجع سابق، ص152..

5- القاسمي العلوي هاشم، **"مجتمع المغرب الأقصى "**، مرجع سابق، ج2، ص32.

6- كان من أخطرها الثورة التي قادها هود الماسي برباط ماسة. وكذلك بقايا برغواطة في دكالة. موسى عز الدين، **النشاط الإقتصادي**، مرجع سابق، ص135. - بنميرة عمر، **" النوازل والمجتمع .."**، مرجع سابق، ص139.

**وكرومهم بين الموحدين...وأصفى ديارها جوائز جوائز : لكل جائزة قبيلة "**[1]؛ فإنه يبدو بأن الموحدين حسموا في مسألة الأرض، واعتبروا الأرض خراجية، وحسبنا دليلا " **التكسير** " الذي قام به عبد المومن بن علي الكومي ابتداء من سنة 554 هـ / 1159م ، حيث أمر " **بتكسير بلاد أفريقية والمغرب، وكسرها من بلاد أفريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصا بالفراسخ والأميال طولا وعرضا، فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات والحزون، وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب "**[2].

إن عملية " **التكسير** " التي قام بها الموحدون ليست في الحقيقة إلا طريقة نظرية لتقدير الأراضي الزراعية وملكيات الدولة، وتقدير مداخيلها الجبائية من النشاط الفلاحي، ذلك أن عبد المومن أزال الثلث من مساحة أراضي الإمبراطورية وهو الذي يوافق الأراضي غير الفلاحية، فهذا الثلث من مساحة أراضي الإمبراطورية يعتبر نظريا ملكا للدولة تضاف إليها أراضي الإقطاعات، والأراضي المستصلحة والمستخلصة، والأراضي التي انقرض ورثتها إلى غير ذلك من أشكال حيازة الدولة . ولذلك كان من الطبيعي أن يُعتبر التكسير حسب البعض أبرز مظاهر "**سياسة إعداد المجال**" في العصر الموحدي[3]، بحيث أضحى أكثر من ثلثي الأراضي في ملك الدولة الموحدية[4].

وإذا كان الإقطاع من أهم العوامل التي كانت تساعد على انحسار رقعة أراضي الدولة، فإن الأمر لم يحدث مشكلة للموحدين على العكس من المرابطين رغم من أنه طبق على نطاق واسع جدا في فترة حكمهم[5]. إذ أن الموحدين كثيرا ما كانوا ينزعون الإقطاع، كما أن سياسة دولتهم كانت محاولة إنزال قبائلهم في المدن دون السهول الزراعية

---

1 - ابن القطان، "**نظم الجمان**"، مصدر سابق، صص 139- 140.

2 - ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، صص 198 – 199 .

3- بنحمادة سعيد، " **الغرب الإسلامي** "، مرجع سابق، ص56-57.

4- اسكان الحسين، " **المالية الموحدية** "، ضمن : **وقفات في تاريخ المغرب، دراسات مهداة إلى الأستاذ إبراهيم بوطالب**، الدار البيضاء، 2001م، ص83.

5- القاسمي العلوي، "**مجتمع المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ج 1، ص317.

[1]. فبعد نجاح الثورة الموحدية في تكوين دولة مركزية تغيرت سياستهم الإقطاعية، إذ أصبحت مصلحة الدولة فوق مصلحة الموحدين، وتوضحت أراضي الدولة أكثر من ذي قبل وتعززت باتباع التكسير. فعلى الرغم من تعدد الإقطاعات وأنواعها ( إقطاع الإنتفاع – إقطاع التمليك إقطاع مقابل خدمة المخزن...)، فإن المخزن الموحدي كان متحكما فيها ويراقبها، لذلك كان أسلوب المصادرة واسترجاع تلك الإقطاعات والأموال الناجمة عنها إلى الدولة وسيلة فعالة لضمان مداخيل الدولة وممتلكاتها والمحافظة على التوازنات المالية، وتستمر فعالية هذا الأسلوب طيلة فترات قوة الدولة وسيادتها .

تطور الإقطاع الموحدي بعدما كان إقطاع تأليف وإقطاع تمليك، وبرز إقطاع الرواتب وإقطاع تسكين؛ وبما أن الدولة كانت تمتلك أراضي شاسعة فقد استثمرها السلاطين وأقاموا عليها البحائر[2] الواسعة كما هو الشأن بالنسبة لمراكش[3] ومكناس[4] والرباط وفاس[5].

وقد انتشرت ظاهرة الإقطاع في عهد الدولة المرينية بصورة كبيرة، فلم يكن بإمكان السلاطين المتأخرين التحكم في الوضعية العقارية مما أدى إلى تعطيل الكثير من الاستغلاليات وتهميش عدد كبير من الفلاحين الذين أصبحوا عمالا زراعيين ( رباعة، خماسة..) [6]، أو انتقلوا إلى الرعي والترحال، فتركزت الأراضي الزراعية في يد أشخاص غير فلاحين لم يكن يهمهم منها سوى الحصول على مداخيل مرتفعة بأقل التكاليف، كما لم يهتموا بتطوير وسائل الري والزراعة. فبمجرد وصولهم للسلطة قاموا بتوزيع أراضيع ومراعيه فيما بينهم، فدولتهم قامت على الإقطاع بكل أنواعه، وتمتع به أعيان بني مرين ووجهاءهم، فأبو بكر المريني "**كان أول شيء فعله أنه جمع أشياخ بني مرين؛**

---

1 - عز الدين موسى، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص 130 .

2- "**عرفت البحيرة في مراكش منذ أواخر أيام المرابطين، لكن الموحدين عنوا بها كامل العناية واتخذوا منها مكانا لتجمعهم**". انظر : هامش رقم 1، ابن صاحب الصلاة، " **المن بالإمامة** "، مصدر سابق، ص15.

3- مجهول، " **الاستبصار** "، مصدر سابق، ص210. ابن عذاري، " **البيان - قسم الموحدين** "، مصدر سابق، ص155. - ابن صاحب الصلاة، " **المن بالإمامة** "، مصدر سابق، ص344.

4- ابن عذاري، " **البيان ق-م** "، مصدر سابق، ص157.

5- العمري، " **مسالك الأبصار..**"، مصدر سابق، ج 4، ص119. - ابن عذاري، " **البيان ق-م** "، مصدر سابق، ص158.

6 - حجاج الطويل محمد، " **الفلاحة المغربية..**"، مرجع سابق، ص 99 .

**وقسّم عليهم ما كان بيده من المغرب، فأنزل كل قبيلة في ناحية منه، وجعل لها ما نزلت فيه من الأرض، وما غلبت عليه من البلاد..."**[1]. كالقبائل العربية، إذ استفادت من إقطاع أراضي واسعة في نواحي الحواضر، مقابل تقديمها خدمات حربية لصالح السلطة المركزية. يؤكد أحد الدارسين أن خصوصية هذا الإقطاع تذكرنا بظاهرة أراضي الكيش التي أصبحت مؤسسة قارة لدى الدول التي أتت بعد الدولة المرينية[2].

على أنه لا نجرؤ على القول بأن ظاهرة أراضي الكيش ترجع إلى هذه الفترة، لأن الإشارات المصدرية لا تسعف في تأكيد الأمر، رغم ما قد يفهم من قول صاحب وصف إفريقيا بأن " **أرياف سلا ومكناس كان يزرعها أعراب من الأشراف والنبلاء الذين هم مع ذلك من خدام الملك** "[3].

لقد خلص بعض الدارسين إلى أن المرينيين كانوا يمنحون الإقطاعات بسخاء، عكس الموحدين الذين تحكموا في الإقطاعات، فمنحوها بحسب فائدتها الاقتصادية، مما نتج عنها إضعاف الفلاحين بالضرائب حتى نفر الناس من العمل الزراعي، فكانت النتيجة هي تراجع فلاحي واضح المعالم[4]. فالسلطة المرينية قامت في مختلف مراحلها على أساس " **التوزيع والإشتراك المنفعي، وهو أسلوب تطلب منها توفير امتيازات مادية لكل من أسهم في الغلبة المرينية** "[5].

ومهما يكن من أمر، فقد ارتبط وجود الملكية في بلاد المغرب الأقصى بمجموعة من المشاكل كالمنازعات على الحدود بين الملاك وانتشار ظاهرة الاستيلاء على الأرض بوسائل غير شرعية يتم من خلالها تملك الأراضي بالغصب والتعدي[6] والترامي على ممتلكات الغير[1].خاصة في فترات ضعف السلطة المركزية وانحطاطها،كما أن حياة

---

1 - مجهول، " **الحلل الموشية ..**"، مصدر سابق، ص 174.

2 - فتحة محمد، " **جوانب من الحياة الإقتصادية المغربية خلال العصر المريني** "، ضمن **حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء**، العدد 2، 1985، ص 136.

3 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 207.

4 - حجاج الطويل محمد، " **الفلاحة المغربية..**"، مرجع سابق، ص 71 و ص 96.

**5** - الهلالي ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى..**"، مرجع سابق، ص 106 .

6- ما يؤكد هذه المسألة هو تخصيص كتب الفتاوى بابا تحت مسمى "**الغصب والتعدي**".

الفلاحين وظروف الإنتاج كانت تتأثر أحيانا بالأحوال المناخية وبأوضاع البلاد، مما كان يدخل الفلاحين وغيرهم في ظرفيات خصاص ترجمت بدورها على مستوى الفتاوي بكثرة نوازل الرهن وبيع الثنيا وبيع المضغوط والأحباس[2].

ويمكن القول أيضا أنه بالرغم من التحولات التي كانت تعرفها ملكية الأرض بالمغرب الأقصى على مر الدول التي تعاقبت على حكمه، فإن القاسم المشترك الذي طبع كل هذه التحولات شيوع ظاهرة الإقطاع بشتى أنماطه باعتباره أحد الأعمدة التي ارتكزت عليها الدول المتعاقبة سواء من أجل مكافآة الموالين أو تسكين الثائرين، واتقاء شر بعض القبائل، وكسب رضى ذوي النفوذ الديني والاجتماعي[3] بغرض ضمان توازنات الدولة وخدمة سياستها العامة، رغم أنها لا تصب دوما في صالح الرعية.

## 2. أثر عنصر الماء على علاقات الإنتاج وأنماط إستغلال الأرض

إن الحديث عن حضور الماء في البوادي المغربية خلال العصر الوسيط، لا يمكن أن يتم بمعزل عن رصد أنماط استغلال الأرض. ومن خلال تصفح كتب النوازل والعقود يظهر بأن طرق استغلالها الأراضي وعقود الشركة كانت متعددة، وردت بصيغ متعددة تحت إسم المزارعة والشركة والخماسة والمناصفة والمساقاة والمغارسة والقبالة والإجارة والكراء، وقد يكون المنتج هو صاحب الحقل بنفسه. وتشير المكانة التي أولتها هذه المصنفات لمختلف أنواع عقود الشركة الفلاحية إلى شيوعها بين مختلف الشرائح سواء في الملكيات الكبيرة والمتوسطة .

---

1- بوتشيش القادري ابراهيم،"**مخطوط نوازل ابن الحاج...**"، مرجع سابق، ص35. - بنحمادة سعيد، " **الغرب الإسلامي مباحث** "، مرجع سابق، ص54.

2 - فتحة محمد، " **النوازل الفقهية** "، مرجع سابق، صص 340- 341 .

3 - محمد فتحة، " **النوازل الفقهية** "، مرجع سابق، ص 353 وما بعدها .

وعموما، تعتبر الأرض أهم ما يشترك به رب المال ممن يندرج ضمن الملاك، بينما يبقى العمل أبرز ما يشارك به العامل، أما باقي العناصر الضرورية للشروع في العمل من بذور وأسمدة وآلات فيختلف مصدرها باختلاف وضعية كلا الطرفين[1].

✓ **المزارعة :**

المزارعة في الإصطلاح الفقهي هي معاقدة بين صاحب الأرض وبين المزارع، وقال ابن عرفة "**هي شِركة في الحرث** "[2]. وشرطها " **أن يُعطى لوكيل رب الأرض ستة أقفزة**[3] **على الزوج، فهذا التطوع هو لرب الأرض نفقة وهو زائد على جزئه. وكذلك لو اشترطه فيجوز، فإن أخلف العام فالوكالة تابعة للصابة تُكمَّلُ للوكيل، وبنقصها أو عدمها يُنقَص الوكيل من الوكالة على قدر ذلك، ومع عدم الصابة لا يكون للوكيل شيء** "[4]. فقد سُئل "**عن رجل دفع إلى ثلاثة رجال ثمانية عشر قفيزا من قمح على أن يكون ثلثها عوضا عما يجعلونه من القليب**[5] **والحرث، وثلثاها يخرجها في الصيفية، ويكون الزرع بينهم كلهم على السواء. فأجاب بأن المزارعة غير صحيحة، وإذ قد عملوا عليها وجاز ربع الزرع فيكون بينهم كلهم على السواء، ويكون لمسلف الزريعة أخذها من أشراكه، ومن كان له منهم فضل في غير ذلك مما جعلوه رجع به** " [6]. كما أن المزارعة لاتلزم إلا بالعمل، لأنه شُرط فيها التكافؤ والإعتدال، ولو كانت عُقدة تلزم بالعَقد كالبيع لما راعى فيها هذا، كما لايُعتبر في المبيع. "**فالشركة تلزم بالتعاقد كالبيع لا يرجع فيها أحدهما بِخلاف القِراض والجُعل** " [7].

---

1 - الطاهري أحمد، **"الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد من نظام التثمير التعاقدي إلى نمط الانزال الاقطاعي"**، مصر، 2004، ص 265.

2 - ابن الحاج التجيبي القرطبي، " **نوازل ابن الحاج التجيبي** "، مصدر سابق، ج 2، ص 33.

3 - القفيز من المكاييل، جمعه أقفزة وقفزان، وهو ثمانية مكاكيك ( جمع مكوك ) والمكوك مكيال معروف لأهل العراق وهو صاع ونصف صاع. ابن الحاج، " **نوازل ابن الحاج..**"، مصدر سابق، ج 2، ص 34 .

4 - ابن الحاج، " **نوازل ابن الحاج** "، مصدر سابق، ج 3، ص 608.

5 - القليب لفظ عامي متداول بين أهل المغرب والأندلس، وهو حرث حقيقي لكن دون زرع البذور، وغايته نفش تربة الأرض وتهوئتها حتى يتضاعف مردودها . نفسه، ج 2، ص 34 .

6 - نفسه، ص 34 .

7 - نفسه، ج 3، ص 606 .

وهناك من أكد على أن **"المزارعة تكون فيها الأرض من واحد والعمل على الآخر، والزريعة بينهما على قدر ما اتفقا عليه في الزرع الذي يطلُعُ في الصيف، فإن اتفقا على أنه بينهما أنصافا فالزريعة كذلك، أو على أن الثلث لواحد والثلثان لآخر، فعلى صاحب الثلث والزريعة وعلى صاحب الثلثين ثلثاها "** [1]. فقد جاء في نوازل ابن الحاج أنه **"إذا اشترك رجلان في الزرع فأخرجا البذر بينهما بنصفين جاز أن يتساويا في قيمة أكْرية ما يتخارجانه بعد ذلك من أرض ودواب وعمل، مثل أن تكون الأرض لأحدهما وللآخر البقر، والعمل عليهما أو على أحدهما، وللآخر البقر والعمل عليهما أو على أحدهما إذا تساويا، وكذلك إن كان البذر والأرض بينهما وتساويا فيما سوى ذلك. ومعنى العمل في هذا إنما هو الحرث فقط لا يكون ذلك في الحصاد والدرس، ولو شرط ذلك لفسدت الشركة "** [2].

ومن بين القضايا التي كانت تطرحها المزارعة **"مسألة العمارة وهي قلبُ الأرض، يعني أن العامل إذا قلَّب الأرض وزرعها فلم ينبت زرعه، فحقه باقٍ في العمارة، وله أن يزرعها مرة أخرى أو يبيعها ممن شاء، وإذا نبت زرعها ثم أصابه آفة وهلك، فلا يبقى له حقٌّ في العمارة "**[3]. وإن ادعى رب الأرض المزارعة والعامل الكراء، فالعامل مُصدق مع يمينه، ولا يُقبل منه إن قال دفعت الكراء . ولو ادعى العامل المزارعة ورب الأرض الكراء، فالقول قول رب الأرض مع يمينه[4].

كما أنه كثيرا ما **"سئل عن رجل دفع لرجل ثورا ليحرث به في بلده على وجه الشركة، وضم له الرجل ثورا آخر وجميع آلة الحرث وزرع الزريعة ويده مع يد صاحب الثور. ولما فرغا من الحرث قال الزارع**

---

1 - الفاسي أبي عبد الله محمد بن أحمد ( ت. 829 هـ ) **" الإتقان والأحكام : شرح تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام "** ، تحقيق محمد عبد السلام، القاهرة، 2011 م، ج 2، ص 240 .

2 - ابن الحاج، **" نوازل ابن الحاج "**، ج 3، صص 609 – 610.

3 - الفاسي أبي عبد الله محمد بن أحمد، **" الإتقان والإحكام.."**، مصدر سابق، ص 244 .

4 - نفسه، ص 247.

**لشريكه رُدّ عليّ نصف ما زرعتُ من بذر، فامتنع ولم يعطه شيئاً. فكان الموقف الشرعي من ذلك أن الزرع كله لصاحب الزريعة وعليه لصاحب الثور والعمل معه أجرته "**[1].

وأثار الإشتراك في الزرع شريطة أن يحرث كل واحد في بلده عدة خلافات، فقد سئل عن رجلين اشتركا في الزرع في بلد فحرث كل واحد منهما في بلده ويشارك صاحبه في حرثه، فجاء الموقف الفقهي بأن الشركة فاسدة، وكل واحد منهما ما زرع دون شريكه [2].كما ينطبق هذا الحكم الشرعي على " **رجلين أخرج أحدهما الزريعة على أن يخرج الآخر نصفها وجعل الآخر البقر والعمل والأرض لغيرهما فهي شركة فاسدة من أجل السلف، وهو نصف الزريعة، من الجملة، ويكون الزرع بينهما على السواء، ومن كان له فضل على صاحبه فيما أخرجه رجع عليه بنصفه** " [3].

اختلف العلماء حول ما إذا كانت المزارعة تَلزم بالعقد كالمساقاة والإجارة أم لا تلزم إلا بالعمل كالقراض والجُعل، فهناك من أفتى بأنها لا تلزم إلا بالعمل والبذر، وأن لكل واحد منهما فسخَها مال يَبذر. وهناك من شدد على أن المزارعة إذا انعقدت على الصحة لمدة لم يكن لواحد منهما فسخُها حتى تتم المدة، أي أن الزراعة تلزم بالعَقد كالمساقاة والإجارة[4].لعام واحد وإن انعقدت لأعوام، وقد قيل في المزارعة تنعقد لأعوام : إنها تَلزم لعام واحد فقط[5]. "**وإذا أراد أحدهما حل العقد قبل أن يشرعا في العمل فله ذلك، وإن شرعا في حرث أو زريعة لم يكن له ذلك، وكذلك إن مرت منها سنة ثم أراد أحدهما الخروج بعد أن عمل العامل سنة لم يكن له**

1 - الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 8، صص 164 – 165 .

2 - نفسه، ج 8، ص 137 .

3- ابن الحاج، " **نوازل ابن الحاج** "، مصدر سابق، ج 3، ص 605.

4 - ابن الحاج، " **نوازل ابن الحاج** "، مصدر سابق، ج 3، ص 606.

5 - نفسه، ج 2، ص 37 .

**ذلك، لأن المزارعة انعقدت في أعوامه "** [1]. وإذا أخرج أحدهما الأرض والآخر العمل والبذر بينهما " **فادعى العامل أنه أسلفه نصف البذر من عِنده فإنه يصدّق ويحلف وقد فسدت الشركة "**[2].

ومن المسائل التي كانت محط خلافات بين أهل البادية، **"متزارعان لم تنبت زريعة أحدهما : فقد سُئل عن شريكين في زراعة لم تنبت زريعة أحدهما، هل الزرع النابت بينهما أم لا ؟ دلس أم لم يدلس .فأجاب : هو عيبٌ في الزريعة إن دلس، فلا حق له في الزرع الذي هو في زريعة شريكه وهو لشريكه دونه وهو كمناصف دفع إليه صاحب الأرض نصيبه من الزريعة زرعه المناصف ولم يجعل هو شيئا، فلا حق له في الزرع، وعليه حصاده ودراسه. وإن حلف أنه لم يدلس فالسالم وغيره بينهما، ويكون على كل واحد منهما قيمة نصف زريعة صاحبه "**[3].

ومن الفقهاء من حسم في مسألة الجمع بين مزارعة وكراء على أرض واحدة، إذ " **سئل عن امرأة زارعت في حصة لها في قرية رجل فأقبل المُزارع، فلما كان أكتوبر أكْرَت هذه الحصة لمدة من عامين بعشرة مثاقيل، والعام الأول منهما هو العام الذي وقَّتَتْ فيه المزارعة، فالواجب في هذا النازلة هو أن يُبطل الكراء في العام الأول ويُرجعَ إلى المكتري نصف ما نَقَدَ إن كان قد دفعه ويكون له العام الآخر، وإن شاء أن يفسخ القبالة في العامين، فله ذلك "**[4].

وعلى أية حال، فإن لملكية الأرض في المغرب أثرا يرتبط بأوضاع البادية، وحسب تعبير محمد مزين " **فأغلب الباحثين إن لم نقل كلهم، يرون بأن أراضي المغرب اعتبرت ملكا للأمة الإسلامية، وأنها بمثابة وقف عليهم، وأن زراعتها بمنزلة مزارعين يدفعون الخراج إيجاراً للأراضي التي يزرعونها "**[5]. كما أن انتشار المزارعة

---

1 - الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 8، ص 158.

2 - نفسه، ص 138 .

3 - الونشريسي، ج 6، ص 62 .

4- ابن الحاج، " **نوازل ابن الحاج** "، مصدر سابق، ج 3، ص 607 .

5 - مزين محمد، " **فاس وباديتها..**"، مرجع سابق، ص 321.

في هذه الأراضي مقارنة بالمغارسة قد يُفسَّر بتراجع الاعتماد على الأشجار المثمرة التي تحتاج إلى شرط الأمن وتتطب سنوات للنمو والإنتاج بشكل أكبر من الحبوب التي تسمح بالتعامل مع الأرض وفق ظروف السنة الواحدة[1]. ولعل مختلف النوازل التي قمنا بعرضها تكشف عن جوانب من الحياة اليومية بالبوادي المغربية، فالمزارع هنا لم يشكو فقط من الجوائح المائية المتحكمة في محاصيله وفي معيشه اليومي، بل كان عليه حسب أحد الباحثين أن " **يواجه جبروت وغلبة البشر، وأن يتكيف مع أساليبهم. وأن يتحول بدوره متى وسعه ذلك إلى مُستغِل لنفس الأساليب** "[2].

✓ **الخماسة :**

تعتبر الخماسة شكلا من أشكال علاقات الإنتاج، وهي من صور المزارعة الصحيحة في المذهب المالكي، ووظيفة الخماس حسب الفقهاء هي " **أن يحرث وينقي ويرفع الأغمار ويحصد ويدرس وينقل السنبل إلى الأندُر، وإن شرط عليه غير ذلك فلا يجوز** " [3].

فالخماس يتكلف بكل مراحل العملية الزراعية مقابل خمس الإنتاج، في حين أن صاحب الأرض مسؤول من جانبه على توفير أدوات الإنتاج من" **ماشية وآلة الحرث والزريعة والأرض. ولا يجوز الخماس إلا إذا كان بمعنى الشركة، وتكون قيمة عمله بقدر الجزء الذي له ويكون له وعليه من جميع ما يتعلق بالشركة جزؤه، فذلك جائز، وله حينئذ حظه من كل ما يكون في الزرع دون شريكه** "[4].

---

من هنا يبدو أن محاولة فهم مسألة القيمة النقدية التي كانت للأرض في عملية الإيجار ذات أهمية بالغة. فحسب القاضي عيسى بن مسكين " **ليست للأرض في العرف المغربي قيمة إيجار نقدا. ففي الإيجارات العادية لا إيجار يتوجب للأرض على المستأجر إذا لم يحصل منها على شيء، وهذا دليل على أن الأرض في ماضي المغرب، لم تكن تشكل قيمة للتبادل. عكس المواشي مثلا ولعل هذا الوضع ناتج ليس عن العرف، فقط، بل كذلك عن تأثير القانون الإسلامي** ". أورده حباشي عبد اللطيف،" **حول صورة الفلاح في الثقافة العربية الإسلامية : أدب النوازل نموذجا** "، مجلة أمل، ع 9، الدار البيضاء، 1997، ص73.

1 - للمزيد حول هذا الموضوع : راجع دراسة محمد بن حسن، "**القبائل والأرياف المغربية..**"، مرجع سابق، ص 52 وما بعدها.

2 - فتحة محمد، " **النوازل الفقهية والمجتمع..**"، مرجع سابق، 379.

3 - الونشريسي، م.س، ج 8، ص 151 .

4 - نفسه، ص 151 .

ومن المشاكل التي شاعت فيما يخص شركة الخماس في البادية المغربية خلال العصر الوسيط، واقتضت حُكم الفقهاء لتوضيح أوجه التحليل وعدم الجواز فيها، " **ما على الخماس من الخدمة، حيث أفتى بعضهم على أن الخماس إذا اشترط عليه خدمة النصف أو كانت العادية بذلك مستمرة واشتركا على ذلك فعلى الخماس نصف الخدمة** "[1]. كما سئل عن " **الذي يشترط على المناصف والمثالث والخماس ألا يحصد ربُّ الأرض معه ولايدرس، وأن يكون العمل عليه كله** "[2]. ما يُبين حضور مسألة اشتراط العمل كله على الخمّاس، والتي طرحت على العلماء مسألة جوازه أو عدم جوازه أخذ الخمس دون إخراج نصيبه من البذر، حيث " **أفتوا بأنه هذا الأمر لايجوز هذا، وليس له من الزرع شيء، وإنما له كراء عمله** "[3].

وإذا كانت فتاوى العلماء التي همت مسألة الخماس قد راعت البعُد العرفي للتكيف مع واقع المعيش اليومي، حتى وإن جاءت بالمخالفة لأحكام المذهب والشرع[4]، فإن ذلك لم يمنع من حدوث النزاع بين مالك وسائل الإنتاج – أي صاحب الأرض والبذر وأدوات الحرث والحصاد – وبين الخماس، حيث تتحدث النوازل عن "**مسألة خماس قلب بعض الأرض ثم ذهب للعمل مع آخر والتي أفتى فيها بعض الفقهاء بأنه إن خرج وشارك الغير باختياره فلا شيء له، وإن طرده فله أجر ما سبق، ينظر في قيمة ذلك أهل الفلاحة** " [5]. وقد يحدث أن يشترط الخماس على رب الزرع أن كل ما يعاونه به فلا يرجع عليه، فقد "**سئل عن خماس لم يقع له شرط الإعانة فحرث الخماس ما قدر عليه، فلما رأى صاحب البقر عجزه عن بقية الأرض ربط معه زوجاً، حتى كملت الأرض فطلبه بأجرة الإعانة. فأجاب : إن تطوع بالإعانة فلا شيء له، وإلاَّ حلف ويأخذ ما**

---

1 - نفسه، ص 154.

2 - نفسه، ج 7، ص 154.

3 - نفسه، ص 154 .

4 - خلص عبد اللطيف حباشي إلى أن مسألة الخماس تعتبر من التعاقدات المخالفة لقواعد الفقه الإسلامية، وذلك للجهل بقَدْر الأجرة إن تم الزرع، وللغرر ( أي التعريض للهلاك ) إن وقعت الجائحة أو الجفاف. ويعتبر الفقهاء أن عاملا الجهل والغرر، هما من عيوب العقود في الفقه الإسلامي : ولكن نظرا للضرورة والحاجة، أُجيز هذا التعاقد، وجرى به العمل عند فقهاء المغرب . راجع دراسته : " **حول صورة الفلاح في الثقافة العربية الإسلامية..**"، مرجع سابق، ص .76

5 - الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 8، ص 140 .

**يعطيه أهل المعرفة "** [1]. وقد يخرج الخماس في وقت الحصاد أو الحرث فيُمنع من العمل **"هل يلزم الجاني أن يُعطيه أجيرا يخدم في محله لأنه عطله ولا عنده ما يعيش به غير ما ذكر قال : ويظهر أنه يلزم الجاني ذلك لأنه ظالم أحق بالعمل بالحمل عليه "**[2].

كما أن جانبا من الخلافات التي كانت تقع بين الخماس ومالك الأرض ترجع إلى مرض الخماس أو سفره إلى موضع بعيد أثناء الحرث، ما يضطر صاحب الأرض إلى البحث عن خماس آخر على وجه الشركة أو يستأجر من ماله لإتمام بقية الحرث، وقد كان العلماء من جانبهم يصدرون فتاوى تتفق على أن ما حرث رب الزوج في مرض خماسه أو غيبته لنفسه فهو له[3]. وقد يعجز الخماس عن حرث كل الأرض المتفق عليها في الوقت المناسب مما يدفع مالك الأرض إلى التدخل من أجل إعانته على إكمال ما اتفق عليه. فقد "**سئل عن صاحب فدادين فشارك خماسا فيها وقال نقْدرُ على حرث جميعها، فلما حرث رآه أنه لا يقدر على إتمامها، فربط معه صاحب الزرع زوجاً آخر. فلما تمَّ الحرث قال له صاحب الزرع نكون معك شريكاً في خماستك بقدر ما أعنْتُك وطلب الآخر ما يصح بالشرع في الشركة. فأجاب : القول قوله لأن الشركة تلزمُ العقد، ويكون رب الزرع على ما تقدم إن تطوَّع فلا شيء له، وإلا فله أجرة الإعانة. قيل وعلى عدم لزومها ليس له من زرع الإعانة شيء، وصاحبه أحق به "**[4].

ومهما يكن من أمر فإن الفقهاء جوزوا المعاملات الفاسدة لمن لا يجد محيدا عنها ومنها الخماسة، لأن الناس أدرى بمعاملاتهم وما يناسبهم، رغم ما فيها من غرر وجهل بالحاصل لاضطرار الناس عليه ولم يجدوا العمل دونه[5] وللتكيف مع الواقع الاجتماعي، فهي بالقدر الذي حظيت فيه باجتهادات الفقهاء وأثارت اختلافهم أكثر من أي موضوع

---

1 - نفسه، ص 141 .

2 - التسولي ( أبو الحسن علي بن عبد السلام )، **" البهجة في شرح التحفة "**، لبنان، 1950، ج2، ص 586 .

3 - الونشريسي، **" المعيار المعرب.. "**، مصدر سابق، ج 8، ص 145.

4 - الونشريسي، **" المعيار"**، مصدر سابق، ج 8، ص 141.

5 - الجيدي عمر بن عبد الكريم، **" العرف والعمل في المذهب المالكي"**، المحمدية، 1984، ص 481.

آخر، بالقدر الذي تلخص فيه ذلك التعايش القسري بين أعراف وتشريعات متنافرة في الأصل[1]. وإذا كان مفهوما عدم التكافؤ الذي يطبع العلاقة بين فئة أرباب الأراضي المستغِلَّة وفئة الخماسين المستغَلة، فإن وضعية هذه الأخيرة كانت سيئة للغاية، ليس فقط بسبب بؤس معيشتها، وقيامها بعمل فلاحي مُرهق لا يتناسب وهزالة المقابل المادي الذي تتحصل عليه، بل أيضا بفعل أيضا لاستغلالها في إنجاز أعمال شاقة لا علاقة لها بالفلاحة[2]. ويبدو أن ذلك هو ما دفع البعض إلى القول بأن الخماس لطالما شكَّل حجر الزاوية في منظومة الإنتاج، وأن مكانه محفور ضمن علاقات إنتاج اجتماعية معقدة ومحكمة في نفس الوقت [3].

✓ **المغارسة :**

تدخل المغارسة ضمن أشكال الإنتاج التي كانت تربط بين مالك الأرض والمزارع، حيث يستأجر المالك زارعاً يُتقن غراسة الأشجار لمدة يتفق عليها الطرفين قد تصل إلى عشر سنوات، وبمقتضى العقد بينهما يسلم رب الأرض المساحة المغروسة وما يستلزمها من سقي وبذور، بينما يقدم المزارع عمله فيتعهد الأشجار بالغراسة والسقي، على أن يتقاسم الطرفان المحصول مناصفة.

قال الفقهاء : "**المغارسة عقد على تعمير أرض بشجر بقدر معلوم، كالإجارة أو كالجعالة، أو بجزء من الأصل، وهذا الحد يجمع أصنافها الصحيحة والفاسدة، وهي جائزة لمن فعَلها من مالك البُقعة من الأرض أو من العامل وهو الغارس فيها، ولا بد فيها من ضرب الأجل كالإطعام أو غيره مما يُذكر بعد، فإذا أطعمت الأشجار وكان الجعل جزءا من الأرض، فلهما أن يقسما البُقعة من الأرض إن شاءا ولهما البقاء على الشركة مُشاعة**"[4]. وأيضا تحديد مدة الغراسة إما بالسنين، كأن يتعاقدا على أن العامل هو الذي يتولى العمل وحده مدة أربع سنين أو خمس سنين أو نحو ذلك من المدة التي لا يثمر النخل ولا يطعم الشجر

---

1 - فتحة محمد، " **النوازل الفقهية والمجتمع** "، مرجع سابق، ص 380.

2 - راجع : الونشريسي، " **المعيار** "، مصدر سابق، ج 8، ص 151 .

3 - Raymond Jamous, « **Honneur et Baraka ..** », op.cit, pp : 151 – 152 .

4 - الفاسي أبي عبد الله ، " **الإتقان والأحكام..** "، مصدر سابق، ج 2، ص 236 .

قبلها[1]. وإذا ادعى أحد المتغارسين الصحة وادعى الآخر الفساد، فالقول قول مُدعي الصحة، وقيل لمدعي الفساد لغلبته في المغارسة [2].

ويبدو من خلال الإطلاع على النصوص الفقهية أن الإغتراس جائز لمن فعل ممن له البقعة أو له العمل ( الاغتراس ) " **أي العقد على غرس الأرض أصولا كرما أو تيناً أو نحوهما مما يطول مكثه سنين كقطن وزعفران في بعض الأرضين لا ما لا يطول مكثه كزرع وبقل، فلا يجوز فيه جائز** "[3]. فإن كانت في الأرض ثمرة فهي لصاحب الأرض، ولا يكون للعامل فيها حقٌّ، ولا يسوغ له أن يشترط أن يكون بينهما مع الغرس للعامل أجرة سقيها وعلاجها، وما نبت فيها في أثناء المغارسة مما لم يعلما به، وإن كان العامل لم يغرسها، فإنها تكون بينهما مع الغرس. وإن كانت المغارسة في أنواع من الثمر، فلا تجوز إلا أن يكون أمد إطعامها واحدا أو متقاربا، فإن كانت بين ذلك بعدُ، فالمغارسة فاسدة، ولا تجوز المغارسة إلا في الأصول خاصَّة[4].

وكان الحكم الشرعي من المغارسة في أرض العنوة حاضرا في فتاوى الفقهاء، مع أنه يشترط في صحتها، أن يملك العامل جزءا من الأرض والشجر والثمر وإلا فسخت. وذلك لا يتأتى هنا، إذ الذي يأخذ الأرض لايأخذها على وجه التملك، وإنما على وجه الإنتفاع [5].

ومن المسائل التي طرحت بقوة على العلماء، مدى جواز إعطاء أرض الحبس مغارسة، وعلى الرغم من أنهم أفتوا بأن الأرض المحبسة لا يجوز أن تعطى مغارسة لأنه يؤدي ذلك إلى بيع حظها[6] غير أنه جرى العمل في المغارسة على خلاف هذا الموقف الفقهي بإعطاء أرض الحبس مغارسة مما يترتب عنه بيع بعضها بانقضاء المدة المتفق عليها بين الطرفين، حيث يملك كل واحد ما يصلح له من الأجزاء. وغالبا ما يصير الأجير شريكا

---

1 - التسولي، " **البهجة..** "، مصدر سابق، ج 2، ص 196.

2 - الفاسي ،" **الإتقان والأحكام ..**"، مصدر سابق، ص 239 .

3 - التسولي ، " **البهجة في شرح التحفة** "، مصدر سابق، ص 324 .

4 - الفاسي ، " **الإتقان والأحكام ..**"، مصدر سابق، ص 237 .

5 - المجاجي عبد الرحمان بن عبد القادر( ت 1020 هـ )، " **التعريج والتبريج في أحكام المغارسة والتصيير والتوليج** "، طبعة حجرية، فاس، دون تاريخ، ص 220.

6 - الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 8، صص 171 – 172 .

بأصول الأشجار التي تعهدها [1]. فقد "**سئل عن الأرض المحبسة يعطيها الناظر في الحبس لمن يغرسها على سنة المغارسة لأجل معلوم، ويبقى الموضع بيد العامل إلى أن ينقضي الأجل المذكور، فهل يبقى بعد الأجل بيد العامل أو يرجع الموضع كله للحبس أو يعقد فيه كراء، أو كيف يكون العمل فيه، وكان الجواب أن مغارسة الأحباس يُحدد فيها الكراء بدراهم بما يستحق لمدة معلومة، ولا تجوز المغارسة في أرض الحبس، وأما المغارسة من الناس في أرض غير الحبس بشروطها، فإذا انتقضت المدة يملك كل واحد ما يصلح له من الأجزاء** " [2].

ونهى العلماء في بلاد المغرب المغارس عن عمارة الغرس بقولا بين الأشجار دون إذن المالك وإلا لزمه دفع كراء الأرض، وكذلك منع رب الأرض أيضا من زراعته الأرض المغروسة، لأنه ضرر بالغرس، إلا أن تكون عادة أهل البلد في ذلك، فقد "**سئل عن أبو الحسن الصغير عن الغارس يغرس فولاً بين الأسجار المغروسة قبل الإطعام فيطلبه رب الأرض قبل الإبان أو بعده . فأجاب بأنه متعدٍّ إذ لا شيء في الأرض إلا بعد الإطعام، فلهذا القلع في الإبان والكراء بعده. ويمنع أيضا رب الأرض من زراعة الأرض المغروسة لأنه ضرر بالغرس إلا أن تكون هنالك عادة** " [3].

يتبين أن قسمة الأرض بالمناصفة في إطار نظام المغارسة كان يؤدي إلى مشاكل في الفترات التي تعرف كوارث طبيعية، فقد " **سُئل عمن غارس رجلا إلى الإطعام مغارسة صحيحة؛ فإذا بلغته، كان بينهما بنصفين يقتسمانه، فلما بلغ ذلك، احترق فامتنع رب الأرض من إعطائه نصفها، حيث أفتى البعض بأنه إذا بلغ الغرس الحد المُشترط وجب للعامل حظُّه، فإن بقي لم يقتسماه واحترق الغرسُ أو طرأت عليه آفة، فإن**

1 - نفسه، صص 171 – 172.

2 - نفسه، ج 7، ص 157 – 158 .

3 - الونشريسي، " **المعيار المعرب ..**"، مصدر سابق، ص 174.

**الأرض تكون بينهما؛ إذ استحق العامل حظَّه منها بتمام الغرس "**[1]. وهنا تكمن فائدة دخول الأرض في عقد المغارسة لحماية حقوق العامل فيها حيث يصبح شريكا ليس فقط في أصول الأشجار وإنما في الأرض كذلك [2]. أما إذا هلكت الأشجار قبل وصولها الحد المشترط ولم يثبت منها إلا القليل، فلا شيء للعامل في ذلك القليل، وإذا ثبت أكثر الغرس فالأقل يتبع الأكثر ويثبت حق العامل في الجميع [3].

ومن القضايا التي كانت تثير خلافات بين المتعاقدين في البوادي مسألة" **من اغترس غرسا في أرض مشتركة وأدخل معه غيره، قال القاضي عياض أبو عبد الله : نزلَتْ؛ وذلك أن قرية لها شَعراء، فعمد بعضهم فاغترسها كروما، فقام غيرهم يطلب حقه في ذلك والشعراء للقرية غير الغُروس باقية، فأفتى ابن رشد بأن يدخل غيرهم معهم في الغرس، وعليهم حصتهم من قيمة الغرس قائما، أو ما أنفقوا فيه ولا قل من ذلك"**[4].

وثمة من النوازل ما يفصح عن جواز العلماء للمغارس ببيع عمله قبل إبان الغرس، ومنها سؤال أورده ابن الحاج في نوازله عن " **مُغارس يغترس الأرض بجزء معلوم، ويلقح غرسه، ويقوم عليه العام والعامين. ثم يعجز عن العمل أو يريد انتقالا عن الموضع المغترس فيه قبل تمام المغارسة، ويذهب إلى بيع ما عمل من رب الأرض أو من غيره مما يقوم على المغارسة المذكورة إلى تمامها بذلك الجزء الذي أخذها هو به. فأجاز الفقهاء بأن ذلك كله جائز ولا كلام لرب الأرض في ذلك، إن أدخل في المغارسة مكانه بشيء منه يأخذه "**[5].

---

1 - الفاسي أبي عبد الله ، " **الإتقان ..**"، مصدر سابق، ص 237 .

2 - المجاجي، " **التعريج والتبريج في أحكام المغارسة..**"، مصدر سابق، ص 177

3 - المجاجي، " **التعريج والتبريج في أحكام المغارسة..**"، مصدر سابق، ص 277.

4 - ابن الحاج، " **نوازل ابن الحاج** "، مصدر سابق، ج 2، ص 545 .

5 - الونشريسي، " **المعيار المعرب** "، مصدر سابق، ج 6، ص 202 .

✓ **المساقاة :**

المساقاة هي **أن "يدفع الرجل أشجاره إلى غيره ليعمل فيها ويصلحها بالسقي والتربية على سهم معين كنصف أو ثلث، وتكون المساقاة في الأشجار والمزارعة في الأراضي "**[1]. وعرَّفها صاحب الإتقان والأحكام بأنها" **مفاعلة في السقي، وهي استعمال رجل رجلا في نخل أو كَرْم يقوم بإصلاحهما؛ ليكون له سهم معلوم من غلتهما. إنها عقْد على عمل مؤنة النبات بقدر لا من غير غلته لا بلفظ بيع أو أَجارة أو جعل، فيدخل فيه قولها : لا بأس بالمساقاة على أن كل ثمرة للعامل، ومساقاة البعل قوله : على عمل مؤنة. أخرج به العقد على حفظ مال أو التجربة "**[2].

والظاهر أن المساقاة كانت ترتكز في الضياع والحقول الكبرى، حيث أُطلق عليها " **وكالة التفويض "**[3]، والتي كان يُشرف عليها " **المستخلص بالشرف "**[4].

وقد قصر أصحاب المذهب الظاهري[5] جواز المساقاة على النخل، بينما أجازها الإمام مالك في جميع الأشجار والزرع ما عدا البقول، أما الإمام الشافعي فقد حدَّها في النخيل والأعناب[6]. وجاء كتاب الكافي أكثر تفصيلا في الحديث في هذا الشأن، فلا تجوز المساقاة حسب ما أورده إلا في أصول الثمار الثابتة التي يتكرر ثمرتها حولاً بعد حول، كالنخيل، والأعناب، والزيتون والرمان والخوخ، والتفاح، وما أشبه ذلك من الأصول، وأما المقاثي، والزرع والبقول فلا تجوز المساقاة فيها، وقال مالك :" **لا تجوز مساقاة الزرع صغيراً قبل استقلاله فإذا استقل وعجز**

---

1 - ابن الحاج، " **نوازل ابن الحاج** "، مصدر سابق، ج 2، ص 38.

2 - الفاسي أبي عبد الله ،" **الإتقان والأحكام..**"، مصدر سابق، ص 223 .

3 - المراكشي عبد الواحد، " **وثائق المرابطين والموحدين** "، تحقيق حسين مؤنس، مصر، 1997، ص 527 .

4 - المراكشي ابن عذاري، " **البيان المغرب - ق.م** "، مصدر سابق، ص 225 .

5 - المذهب الظاهري : أحد مذاهب الفقه المعروفة في إطار أهل السنة، أسسه داوود بن علي الظاهري ( ت. 456 هـ / 1063 م ) من بعده خاصة في كتابه :" المحلى بالآثار "، وقد انتشر هذا المذهب في بغداد في وبلاد فارس والأندلس، واندرس مبكرا. بن البراء يحيى، " **ملكية الأرض في موريتانيا : أبعادها الإجتماعية والسياسية : دراسة في النصوص الفقهية والوقائع** "، الدار البيضاء، 1999، ص 34.

6 - نفسه، صص 34 – 35 .

**أربابه عن سقيه، جازت المساقاة فيه، وكذلك المقاثي، والباذنجان وسائر البقول، إذا استقلت وظهرت وعجز أربابها عن سقيها جازت المساقاة فيها، وقد روي عنه وعن طائفة من أَصحابه أن المساقاة في البقول لا تجوز بحال "** [1].

وكان على المساقي بموجب العقد الذي يربطه برب الأرض القيام **"بتلقيح النخل والآبار، والسقي، والحفظ، والجذاذ وعليه في الكرم الزبر، والحفر، والتنقية، والسد، والحفظ، والقطاف، وكذلك عليه في كل ثمرة ما تحتاج إليه من العمل المعهود حسب جري العادة في البلد في مثل ذلك، ويجب أن يكون مفهوما معلوماً في الحرث، والحفر، وسائر العمل الذي تقوم به الثمرة، وعليه من السقي فيما يشترط عليه مما الثمرة بالحاجة إليه، وليس عليه عمل ما لا تنتفع به الثمرة، ولا ما لا تنتفع به في أكثر مدته في المساقاة، كالبئر يحفرها والعين يرفعها بينهما أو شيء تبقى منفعته لرب الحائط بعد انقضاء المساقاة، ولا يجوز أن يشترط شيء من ذلك عليه، وعلى العامل حفر العين وتنقيتها وإصلاح الساقية وسد الحظار "**[2] **مقابل نصيب من الإنتاج يتراوح بين النصف حسبما ورد في الحديث، وعلى الثلث والربع وأكثر من ذلك وأقل؛ لأنها مبايعة، فجائز أن تكون من الرُّخص والغلاء على ما يتراضيان عليه، قال الإمام مالك : ولابأس أن تكون المساقاة على أن جميع الثمرة للعامل "** [3].

وكانت تحدث مشاكل بين صاحب الأرض والعامل في مجال المساقاة، كالإختلاف بينهما في نصيب العامل، أو ما يعرف في كتب النوازل بـ"دفع الثمرة "، فالقول قول العامل مع يمينه، ومراعاة العرف لأنه كالشرط، وعدم إلزام العامل بنقل الغلة إلى سكن المساقي، وعقد المساقاة ملزم لهما وليس لأحدهما فسخه إلا برضى صاحبه[4]. فالعقود كانت تتضمن من البيانات ما من شأنه حسم أي خلاف قد ينشأ بين الأطراف المتعاقدة، إذ عمد الموثقون إلى

1 - بن عبد البر أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي، **" الكافي في فقه أهل المدينة المالكي "**، لبنان، 1992، ص 381 .

2 - بن عبد البر أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي، **" الكافي في فقه أهل المدينة المالكي "**، م.س،ص 382 .

3 - الفاسي أبي عبد الله ،**" الإتقان والأحكام.."**، مصدر سابق، ص 232.

4 - بن عبد البر أبي عمر،**" الكافي في فقه أهل المدينة .."**، مصدر سابق، 382 .

تعيين الحقل وحدوده، ونوع الخدمة ومدتها، وحصة الطرفين من المحصول، ومعاينة الشهود لشروع المساقي في العمل[1].

ومن المسائل التي أثارتها الفتاوى الفقهية عقد المساقاة في الأحباس، فقد أفتى العلماء بأن عقد المساقاة على الوجه الذي كان يعقدها عليه الناظر جائز لا بأس به[2].

وثمة من النوازل ما يُصفح عن الآثار التي كانت تخلفها الأزمات المناخية على الأراضي والمساحات المشجرة، مما يجعل من عقد المساقاة محط مراجعة، فقد تتعرض الغلة للجائحة خلال مدة المساقاة، وبالتالي " **فإذا أجيح بعض الحائط سقط ما أجيح منه إذا كان لا يرجى منه ثمرة وما جذ من النخل لم يلزمه سقيها، وعليه أن يسقي ما لم يجذ حتى يجذ، وإن جذ غيره قبله، وإن أُجيح الحائط كله انفسخت فيه المساقاة، وإن أُجيح ثلثه فصاعداً، فعن مالك روايتان إحداهما أن العامل بالخيار بين فسخ المساقاة والإقامة عليها، والأخرى أن المساقاة لازمة لهما، إلا أن تكون الجائحة أتت على قطعة من النخل والشجر بعينها، فتنفسخ المساقاة وحدها دون ما سواهما، وإن أتلفت الجائحة أقل من ثلث الحائط فالمساقاة صحيحة لازمة، ولو انهارت البئر انفسخت المساقاة إلا أن يريد العامل أن ينفق من ماله في إصلاح البئر، ويكون على مساقاته، ويرتهن صاحب الحائط من الثمرة بما أنفق في ذلك** "[3].

على أية حال، فإن نظام المساقاة يبقى من الأطر التنظيمية والقانونية التي قام عليها نظام الري في البادية المغربية الوسيطية، نظرا لجمعه بين الدورين الاجتماعي والإنتاجي، الكفيلين بتطوير الزراعة[4].وعلى الرغم من أهميته الاقتصادية وبُعده الاجتماعي، فإن عجز كبار الفلاحين عن تدبير حقولهم، واختلاف أنصباء المساقين، يكشف عن طابعه الإنقاذي للأراضي التي لم يجد بعضها من يتعهدها بالخدمة، علما أن النظام نفسه قد عرف تراجعا في

1 - بنحمادة سعيد، " **الماء والأندلس...**"، مرجع سابق، صص 39 – 40.

2 - الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 7، صص 183 – 184.

3 - بن عبد البر أبي عمر،" **الكافي في فقه أهل المدينة المالكي**"، مصدر سابق، 383.

4 - بنحمادة، " **الماء والإنسان..**"، مرجع سابق، ص 39.

مجموع الغرب الإسلامي في نهاية العصر الوسيط بسبب التحولات التاريخية للمرحلة، والتي انعكست على الميدان الفلاحي، ونجم عنها سيادة زراعة الحبوب على حساب الأشجار المثمرة التي كانت تتطلب عناية أكبر وعدم إمكانية تجددها سنويا[1].

## 3. الماء بين تدبير النزاع ومظاهر التضامن بالبوادي :

تحتفظ مؤلفات الأدب الفقهي، وعلى رأسها كتب النوازل[2] بالعديد من الإشارات التي تساعد الباحثين في تسليط الأضواء على الواقع الاقتصادي والاجتماعي لمجتمع البادية المغربية، إذ أنها تغطي بعض الفراغات التي تعتري المصادر التاريخية حول حياته اليومية[3]، التي ترتكز على الفلاحة أو "**المعاش الطبيعي**"[4]، الذي يعد الماء أحد مقوماته الأساسية. والواقع أن هذه الكتب تحفل بالعديد من الفتاوى الفقهية التي كانت ترنو إلى فض المشاحنات التي كانت تندلع بين عدة أطراف، وفي مقدمتها النزاعات القبلية التي كانت وتيرتها تشتد بفعل القحوط والأمطار الزائدة عن الحاجة[5] إلى حد أنها قد تبلغ مبلغا يتعرض فيه "السلم الاجتماعي" بالبادية إلى مخاطر حقيقية[6]

---

1 - بنحمادة سعيد، **" الماء والإنسان.."**، مرجع سابق، ص 40.

2- أضحت النوازل الفقهية تشكل ركيزة أساسية في أي دراسة تاريخية لكونها من المصادر الدفينة للمغرب التي يمكن من خلالها الكشف عن مجموعة من القضايات التي أغفلتها المصادر التقليدية وملأ تلك الفراغات خاصة ما تعلق بالمجتمع وحياته الذي ظل مهمشا ولا مفكر فيه في الكتابات التاريخية، وقد شهدت الكتابة التاريخية المغربية إنجاز مجموعة من الأطاريح الأبحاث والدراسات التي قررت سبر أغوار تلك الفتاوى وتفكيك تساؤلاتها وأجوبتها لرفع الحجاب عن مجموعة من القضايا، من أبرز ما جاء في هذا الباب "**النوازل والمجتمع** **"** لعمر بنميرة. ودراسة فتحة محمد " **النوازل الفقهية والمجتمع** **"**.وهناك بعض المقالات التي حاولت إظهار مكانة النوازل الفقهية في كتابة التاريخية نذكر على سبيل المثال: - بوتشيش القادري إبراهيم، **" النوازل الفقهية وكتب المناقب والعقود العدلية مصادر هامة لدراسة تاريخ الفئات العامة بالغرب الإسلامي ( ق 5 - 6 هـ / 12 - 13م)"**، مجلة التاريخ العربي، ع 22، 1423 هـ / 2002 م، صص 247-271. - قدوري الطاهر، **" النوازل الفقهية وتنظيم التجارة البحرية بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط"**، مجلة عصور الجديدة، ع13، 1435هـ/2014م. صص 24-44. - بوداود عبيد، **" مصنفات النوازل الفقهية وكتابة تاريخ المغرب الوسيط "**، مجلة المواقف، ع 1، الجزائر، 2007 - بلهواري فاطمة، **" النص النوازلي للغرب الإسلامي أداة لتجديد البحث في تاريخ الحضارة الإسلامية "**، **مجلة عصور**، ع 17، الجزائر، 2011 م.

3- المودن عبد الرحمن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار-قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، الطبعة الأولى، الرباط، 1995م، ص67.

4- ابن خلدون، **" المقدمة "**، مصدر سابق، ص151.

5- بنميرة عمر، **" النوازل والمجتمع "**، مرجع سابق، ص305. - مزين محمد، **" فاس وباديتها.."**، مرجع سابق، ص114.

6- بنحمادة سعيد، " **أثر البنية القبلية..**"، مرجع سابق، ص44.

وخصوصا في مرحلة أفول السلطة التي "**تضعف فيها وسائل تحقيق المركزية وتمثيل الدولة لدى القبائل** "[1] في مرحلة الإنحطاط، مما كان يزيد من حدة تلك المشاحنات[2].

جدير بالإشارة أن العلاقة التي كانت تربط البوادي بالمخزن كانت ترتكز على التحصيل الجبائي، وتموين تحركاتها العسكرية وتقديم أفرادها للخدمة الحربية[3]، بينما ظل حضورها على المستوى الاجتماعي غائبا تقريبا، علاوة على ضعف التأطير الفقهي بالبوادي[4]، لأن الفقهاء الذين كان يتم تعيينهم من طرف السلطة المركزية للبث في الخلافات والمشاكل التي كانت تشجر بين الناس والحُكم فيها، يتخذون من الحواضر مسكنا لهم في أغلب الأحوال[5]، وهذا ما كان يساهم في التقليل من وزن الفقيه داخل القبلية خلافا للأشراف والمتصوفة[6]، مما شجع على الركون للأعراف في فض النزاعات حينما لا يمتثل أطراف النزاع إلى أحكام المفتين[7]، من أجل الحفاظ على لحمة التماسك الإجتماعي شريطة احترام المتنازعين لسلطة قرار الفصل الصادر عن الجماعة[8].

وإذا أسفر التشاحن عن التمرد على الأعراف القبلية، فلا بد من الرجوع إلى أهل الفتوى والقضاء والتي تكون قراراتهم ملزِمة حسب قوة شوكة السلطة القائمة[9] وهي تراعي بطبيعة الحال التنوع بين المناطق في استصدار وتنفيذ الأحكام[10]، حيث كانت تقوم على ثلاث ركائز أساسية وهي المشاركة، ثم نفي الضرر، والعمل بالعرف

---

1- التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر(اينولتان1850-1912)**، الدار البيضاء، 2011م، ص64.

2- مزين محمد، **" فاس وباديتها.."**، مرجع سابق، ص118.

3- عويناتي صباح، **"تحولات الأسر البدوية بأحواز مراكش خلال العصرين المرابطين والموحدي من خلال كتاب: "التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات"**، أعمال ندوة : **الأسرة البدوية في تاريخ المغرب**، القنيطرة، 2006م. ص31.

4- بنحمادة سعيد، **"أثر البنية القبلية في تدبير النزاعات على الماء.."**، مرجع سابق، ص41.

5- بوتشيش القادري إبراهيم، **"مباحث في التاريخ الاجتماعي "**، مرجع سابق، ص241.

6- الهلالي ياسر محمد، **" التراتب الاجتماعي في البادية المغربية أواخر العصر الوسيط"**، ندوة لأسرة البدوية في تاريخ المغرب.."، مرجع سابق، ص85.

7- البياض عبد الهادي، **" الكوارث الطبيعية "**، مرجع سابق، ص242.

8 - البياض عبد الهادي، **" تدبير النزاع بين الفلاحين في بوادي المغرب والاندلس خلال العصر الوسيط : إسهام في دراسة دور القانون والعرف في تسوية المشاكل الاجتماعية زمن السيول والجفاف**، مقال ضمن **" ندوة التاريخ والقانون.."**، مرجع سابق، ص 362.

9 - نفسه، ص 362.

10- يقول الإمام القرافي" **وجب اعتبار الحكم في العرف والفتيا، في كل حكم مدركة العادة، فإنه يتغير بتغيرها ... وعلى هذا القانون تراعى الفتاوي على طول عمل. بل إذا جاءك مستفت من غير إقليمك، فلا تفتيه على عرف بلدك، وافتيه بعرف بلده، وهذا هو**

وعدم إنكاره إذا لم يتعارض مع أصول المذهب المالكي الذي تستند عليه أحكام القضاء في بلاد المغرب[1]. إذ أنه يأخذ بالقول المالكي المأثور " **الضرورة تبيح المحظورات** " فهو كان يشكل حسب جاك بيرك Berque القوة القاهرة التي يجب الخضوع لها، لأن كل معاملة تجوز للحاجة القصوى، فمصطلح الضرورة كان في الواقع قاطرة بالنسبة للأعراف، ولذلك لطالما استخدمه الفقهاء بإسراف، وخاصة علماء فاس[2].

هذه المرونة التي يتميز بها الفقه المالكي جعلت الثابت الشرعي يواكب المتحول التاريخي بما يؤسس لفقه الواقع[3]، بالتالي تمكن الفقه من الإنصهار في الأعراف من أجل الحفاظ على الاستقرار داخل البوادي، دون صراع بينهما بل في تكامل وانسجام[4]. هذا الاستقرار ما يلبث أن يتعرض للإختلال عندما يحل القحط، فتتلاشى معه صور التضامن والتآزر التي كانت سائدة في زمن الوفرة، وبالتالي يتم العصف بكل تلك الإتفاقات المبرمة شرعية كانت أو عرفية[5].

## 1.3 النزاع بين أصحاب الأرحاء و الجنات:

يعد النزاع بين أصحاب الجنات والأرحاء من الظواهر البنيوية في المجتمع القروي المغربي[6]، نظرا لانتشار الأرحاء بشكل كبير على امتداد الأنهار، مما جعلها مهددة بالجوائح التي تضرب البلاد بين الفينة والأخرى الشيء

---

**الحق الواضح**". - محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الجليل السجلماسي العشاوي، **فتح الجليل الصمد في شرح التكميل المعتمد**، مخطوط خاص، ورقة 117. نقلا عن القاسمي العلوي هاشم، " **مجتمع المغرب الأقصى**"، مرجع سابق، ج 2، ص39.

1 - البياض عبد الهادي، " **تدبير النزاع بين الفلاحين في بوادي المغرب والاندلس...**"، مرجع سابق، ص 362.

2 - Berque ( J ), « **Nawâzil el muzâraʿa du Miʿyâr Al Wazzânî** », étude et traduction , preface de R.Maunier, Editions Felix Moncho, Rabat, 1940, pp : 39 – 40.

3- بنحمادة سعيد، " **الماء والإنسان في الأندلس** "، مرجع سابق، ص26.

4- إد الفقيه أحمد، **نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي شرعا وعرفا وتشريعا**، منشورات كلية الشريعة بأكادير، الدارالبيضاء، ص144. وتعكسه أيضا الآية الكريمة **{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ }**، **سورة الأعراف**، الآية 199.

5- البياض عبد الهادي، " **الكوارث الطبيعية** "، مرجع سابق، ص241.

أكد الطويل محمد حجاج بأن الأعراف والتقاليد التي نسجت حول عنصر الماء سرعان ما تراجعت بتراجع النشاط الزراعي، وكثرت النزاعات حول الماء منذ أواخر العصر المريني، فتم تخريب الكثير من المزارع والجنات ومنشآت السقي، فانعدم الإستقرار وتوالت سنوات القحط والمجاعات، فاستفحلت أوضاع الفئات المستضعفة وازدادت وتيرة التراجع الزراعي سرعة.

الطويل محمد حجاج، " **الفلاحة المغربية..**"، مرجع سابق، ص 97.

6- بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع** "، مرجع سابق، ص318. - الهلالي ياسر محمد، " **أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية** "، ضمن أعمال **ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب..**"، مرجع سابق، ص182.

الذي يؤدي إلى تعطيل عملها، في هذا الصدد وردت نازلة عند ابن رشد مفادها " **قل الواردون للطحن في الارحى المكتراة لجهد أصاب أهل ذلك المكان**"[1]؛ ولم تكن الأرحاء وحدها المتضرر من جراء تلك الكوارث بل حتى أصحاب الجنات تضرروا من جراء نقصان منسوب المياه فتهلك مزروعاتهم.

في ظل هذه الأوضاع حاول الكل التمسك بحقه من الماء، خاصة أنه لم تكن هناك سواقي مخصصة للأرحية بقدر ما كان تواجد هذه الأخيرة رهين بتلك المخصصة للسقي[2]، ففي بعض الفترات يعمد المزارعون إلى تغيير مجرى الساقية التي تكون مشتركة بينهم وبين أصحاب الأرحاء، مما قد يعطل عمل الأرحاء المائية، فقد سُئل عن رجل له أرض فيها ساقية مبنية قديمة يجري ماؤها لسقي جنات تحتها وطحن أرحى فأراد نقلها من موضعها أو رفعها إلى أعلى أرضه، فنازعه أصحاب الأرحى في ذلك وقالوا له ليس لك نقل مائنا عن مجراه، فأجاب : " **ليس لصاحب الأرض أن يجعل الساقية المبنية في أرضه إلى موضع آخر من أرضه وإن كانت قديمة البنيان إلا بإذن الذين تمر عليهم الساقية لسقيهم وطحن أرحائهم وإن لم يكن عليهم في ذلك من ضرر** "[3] .

هذا النزاع الذي كان ينشب بين الجانبين خاصة في أوقات ندرة المياه كان بإمكانه أن يستمر لمدة طويلة قبل أن يتم التصالح في شأنه، كما تخبرنا به إشارة وردت في إحدى النوازل من أنه "**وقع بين أصحاب الجنات والأرحاء تشاح منذ نحو عشرين سنة فتصالحوا** "[4] الشيء التي يفهم منه مدى استعصاء مثل هذه النزاعات على أهل الحل والعقد للبث فيها، رغم أنه في بعض الأحيان كان يتم اللجوء إلى توثيق حقوق الإستفادة من المياه، وذلك عن طريق إبرام عقود تنظم زمن سقي المزروعات وإدارة الأرحية، والتي لا تمنع من تجدد المشاكل بين الطرفين، نظرا لظرفية الجفاف التي كثيراً ما تسفر عن عدة توترات، يعكسها عدم الإلتزام بالاتفاقات والعقود المبرمة بين الزراع وأرباب الأرحاء بشأن تقسيم المياه، وهو ما تفصح عنه بوضوح مسألة " **في ماء عليه جنات وأرحاء**

---

1- ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، صص 1282-1283.

2- بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع** "، مرجع سابق، ص317.

3 - الونشريسي، " **المعيار** "، مصدر سابق، ج 8، ص 396 .

4- ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 2، ص 1088.

**وقعت فيه مصالحة على عادة معلومة كيف العمل إن انخرمت العادة** " والتي طرحت على ابن رشد لإبداء الموقف الشرعي منها[1].

وقد كان أصحاب الأرحاء أحيانا يظفرون بالمياه على حساب المزارعين انطلاقا من مبدأ الأقدمية "**جماعة أصحاب جنات خاصموا رجلا من أهل الأرحاء في قطعه الماء عن جناتهم، وهم محتاجون إلى السقي(...) فزعم صاحب الأرحاء أن لاحق لهم فيه، وأن أرحاءه سبقت حوز الماء المذكور، وعليه بناها، وطحنت به عدة سنين**"[2].

لكن هذه المسألة كانت تحتاج إلى إثباتها من جهة، ومن جهة ثانية لم يكن المزارعون ليقبلوا هذا الوضع، فكانوا يدافعون عن أحقيتهم في الإنتفاع من المياه، عبر تقديم شهادات تفيد أقدمية استغلالهم قبل إنشاء أرباب الأرحاء لأرحائهم. بالتالي يضطر بعض القضاة في ظل هذا التعارض في الشهادات، إلى قطع المياه على كلا الجانبين حتى ينتهي هذا النزاع، وهو ما يستشف من نص فقهي جاء فيه " **وطلب صاحب الأرحاء الشهادات..فأوقفت الماء على الأرحاء والجنات المذكورات على مجرى آخر، وأجلت صاحب الأرحاء**

---

1 - نورد هن نص هذه النازلة : " **وأما الخامسة فهي ماء عليه جنات وأرحاء لم تزل الأرحاء تطحن به والجنات تسقي منه إلى أن وقع بين أصحاب الجنات والأرحاء تشاح منذ نحو عشرين سنة، فتصالحوا على أيام معلومة تكون لأصحاب الجنات أيام شهور السقي المعلومة، وحدوها، وسائر ذلك لأصحاب الأرحاء وعقدوا عقداً بينهم بذلك تضمن قطع الحقوق بعضهم عن بعض في غير ما تصالحوا عليه، ثم إنه تحدث في بعض السنين إذا كان جدب وقحط حاجة بالجنات إلى السقي في غير الشهور المعروفة وحاجة لترطيب أرضها وتثريته للحفير، عند عدم الأمطار، فقام أصحاب الجنات بذلك، وادعوا أن الصلح إنما كان على العادة. وكيف حكم من لم يحضر هذا الصلح ولا انعقد عليه من أصحاب الجنات ؟ فلما قام قال له أصحاب الأرحاء قد جريت على عادة المصالح هذه المدة فهو رضى منه بما صالح أشراكك وجيرانك ؟ وكيف إن شهد لهؤلاء أن الجنات إن لم تسق في مثل هذه الضرورات هلكت ؟ بين لنا ذلك بفضلك ؟**

**الجواب عليها : تصفحت – أعزك الله بطاعته – سؤالك هذا ووقفت عليه. وإن كان الماء غير متملك من حق أصحاب الجنات أن يبدؤوا بالسقي به على أصحاب الأرحاء على ما يدل عليه ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قضى به في سيل مهزوز ومذينب. فالصلح الواقع بينهم إنما هو رضى من أصحاب الجنات بترك بعض حقوقهم من السقي فيلزمهم اليمين أنهم إنما رضوا بما أشهدوا به على أنفسهم من ذلك ما لم ينتقص الماء عما هو عليه انتقاصاً يضر بهم فيما يحتاجون إليه من سقي جناتهم. فإن حلفوا على ذلك بقوا على حقهم في التبدية بالسقي على أصحاب الأرحاء، وإن نكلوا عن اليمين لزمهم ما أشهدوا به على أنفسهم في عقد الصلح، ومن لم يحضره منهم فهو على حقه في السقي دون يمين تلزمه وبالله التوفيق ".** ابن رشد، **" فتاوى ابن رشد "**، مصدر سابق، ج 2، صص 1088 – 1089 .

2- ابن رشد، **" فتاوى ابن رشد "**، مصدر سابق، ج 3، ص1286.

**في البينات...إذ من حجة الآخر أن يقولوا : هذا شيء متنازع فيه يدعي فيه حقا، فلا تبقيه بيد خصمنا حتى ينقضي فيه الخصام "** [1]، الشيء الذي عارضه مجموعة من الفقهاء، حيث أفتوا بأنه "**لا يجب توقيف الماء في مدة الخصام الى انقضاء الاجل** (...) **ووجه الحكم في ذلك أن يكون كل واحد من أصحاب الأرحى وأصحاب الجنات أحق بالماء في مدة الاعذار إلى أصحابهم ولايوقف عنهم الماء جميعا**"[2]، قبل أن يتم إلغاء مبدأ الأقدمية فأضحى "**أصحاب الجنات أحق بسقي جناتهم من أصحاب الأرحى وإن كانت الأرحى أقدم من الجنات** (...) **لان الثمرات ان لم تسق في وقت سقيها هلكت، والارحى لا تهلك بقطع الماء عنها**"[3]، حتى وإن "**انشأوا جناتهم بعد انشاء اهل الارحاء لارحائهم**"[4]، أو "**كان سقي الجنات من الماء الذي تدور به الارحاء**"[5].

ورغم ذلك فإن الرحويين كانوا يطالبون بضرورة تقديم المزارعين للوثائق المتعلقة بشراء الأراضي بحقوقها المائية، حيث نستشف ذلك من إشارة ورد فيها " **وقد دعاهم صاحب الأرحاء إلى إخراج وثائق أملاكهم فوجد في بعضها الشراء بالسقي من مواضع آخر غير هذا الماء...ووجد في بعض الأشرية لبعضهم بحقوقها ومرافقها**"[6]، وتقديم عقود تثبت أقدميتهم في استغلال المياه، فقد سئل عن " **جماعة أصحاب جنات خاصموا رجلا من أهل الأرحاء في قطعه الماء عن جناتهم، وهم محتاجون إلى السقي والإنتفاع بالماء المذكور، فزعم صاحب الأرحاء أن لا حق لهم فيه، وأن أرحاءه سبقت إلى حوز الماء المذكور، وعليه بناها، وطحنت به عدة سنين كثرة** "[7]. كما تكشف النوازل أيضا عن طلب أصحاب الأرحاء من المزارعين

---

1- نفسه، ص 1286-1293.

2- نفسه، ص1294.

3- الونشريسي، " **المعيار المعرب** "، مصدر سابق، ج 8، ص389. - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج2، ص1292.

4- ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 2، ص1286.

5- القاضي عياض وولده محمد، " **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام** "، مصدر سابق، ص41-117-121.

6 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، 1289 – 1290.

7 - نفسه، ص 1286 .

بتقديم نسخ عقود الشراء، حيث يرفض هؤلاء تقديم كل نسخ عقود أشريتهم، باستثناء الفصول التي تدور حول مسألة السقي، حيث جاء هذا الرفض في نوازل ابن رشد على الصيغة التالية : " **أما نسخها كلها فلا فائدة له فيها، ولكن الفصل الذي يحتاج منها في ذكر السقي ينقله وتأخذ الشهادات عليه، إذ لا حاجة بنا بكشف جميع ما في وثائقنا** "[1]، حيث دعم ابن رشد موقفهم، حيث لا يلزم على حد تعبيره " **أصحاب الجنات دفع نسخ أشريتهم إلى أصحاب الأرحاء، ولا دفع نسخة فصل من فصولها، إذ لا حجة عليهم في شيء منها** "[2].

ورغم ذلك كله، فإن الرحويين كانوا يحاولون التحايل على أحكام الفقهاء، فيضعون أيديهم على حقوق المزارعين من مياه السقي، فيدعون حيازتها وأقدميتهم في استغلالها، آيتنا في ذلك ما دونه العلماء بخصوص " **جماعة أصحاب جنات خاصموا رجلا من أهل الأرحاء في قطعه الماء عن جناتهم، وهم محتاجون إلى السقي والإنتفاع بالماء المذكور، فزعم صاحب الأرحاء أن لا حق لهم فيه، وأن أرحاءه سبقت إلى حوز الماء المذكور، وعليه بناها، وطحنت به عدة سنين كثيرة** "[3].

وإذا كان بيع الأراضي الزراعية بحقوقها المائية عادة منتشرة في البوادي، فإن الملاحظ أن هذا البيع كان يصاحبه جهل لعدد من المزارعين للأحكام الشرعية والفقهية المتعلقة بهذه الحقوق المائية التي كان يشتريها الزراع، منها ما قد تعرفه هذه الحقوق من وقف على مستوى الإنتفاع، لما تشكله من ضرر بالطرق والممتلكات العامة، وهو ما كان يستغله الرحويون لمحاولة وضع اليد عليها، لصالح أرحاءهم[4].

---

1 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج3، ص 1290 – 1291 .

2 - نفسه، ص 1291 .

3 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج3، ص 1286 .

4 - راجع أحكام الفقهاء في مسألة " **إذا حكم القاضي بقطع جري الماء على الطريق إلى الجنات لضرر ذلك بالطريق** ". ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، صص 1288 – 1289 .

ومهما يكن من أمر فإن الرحويين لطالما واجهوا الأحكام الفقهية بعدم الإكتراث مادام يمثل بالنسبة لهم مجرد إخبار وليس إلزام[1]، كل هذا ينم عن غياب حضور الدولة الذي يتم من خلاله تطبيق هذه الأحكام، فبقيت حبيسة المصنفات دون أن تتجسد على أرض الواقع وخصوصا في أزمنة الشدة عندما تُكْسَر كل الحدود ويتم نقض كل العهود وتختل التوازنات، فساكنة البوادي كان عليهم مواجهة مصيرهم بمفردهم إبان تلك الأزمات المائية التي حاول العرف والشرع التخفيف من حدتها لا التحكم فيها.

## 2.3 النزاع بين الرحويين :

تدخل ضمن النزاعات التي كانت تشهدها البوادي المغربية المشاكل التي تحدث بين أرباب الأرحاء، فإذا كان هؤلاء الرحويين خاضعين لسلطة المحتسب في أوقات الرخاء، فإن الأمر يتغير ويشتد النزاع ما إن " **قل الواردون للطحن في الأرحى المكتراة لجهد أصاب أهل ذلك المكان** (...) **المكتري فيكون مخيرا بين أن يتمسك بكرائه أو يرده ويفسخه عن نفسه فإن سكت ولم يقم حتى مضت المدة أو بعضها لزمه جميع الكراء ولا يسقط عنه الكراء**"[2]، ولعل أوضح نموذج عن مثل هذه العلاقة وتحديد المسؤولية تلك التي وردت عند أبي الوليد الباجي حيث جاء فيها : "**استعذرت الارض المكتراة في إبان الزريعة وتمادى ذلك بها طول ابان الزريعة سقط الكراء بذلك عن المكتري فإن نضب الماء عنها في وقت يدرك المتكارى** (كذا) **زريعتها فلم يزرعها لزمه الكراء كله**(...) **وإن أمكنته الأرض من الزريعة فزرعها ثم ألحت الأمطار حتى قتل الماء الزريعة ولم يقلع المطر حتى ذهب إبان الزريعة سقط عنه الكراء فإن أقلع الماء في وقت يدرك زريعتها فلم يزرعها لزمه الكراء على ما تقدم من التفسير في تأخر الزريعة**"[3].

---

1- الجيدي عمر، " **محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي** "، الدار البيضاء، 1987م، ص 94 .

2- ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، صص 1282-1283.

3- الباجي أبو الوليد، " **فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام** "، المحمدية، 1990م، ص474.

وتشجر الخصومات أيضا كلما حاول أحد الرحويين تغيير المسار الرئيسي للساقية المشتركة إلى اتجاه آخر بهدف إقامة أرحية على مشارفها، فابن رشد يخبرنا عن رجل "**أراد نقلها ( الساقية) من موضعها، ورفعها إلى أعلى أرضه، وإخراجها بعد ذلك إلى أرض له تجاورها لينصب عليها رحى ثم ترجع بعد ذلك إلى مخرجها من أرضه الأولى، فنازعه أصحاب الأرحى في ذلك، وقالوا له : ليس له نقل مائنا عن مجراه** "[1] .أو تغيير ساقية أو سد إحدى المطاحن، ورفعها إلى أعلى، لذلك أفتى الفقهاء بمنع " **إحداث رحى على نهر فوق رحى قديمة تضر بها في نقصان طحن كثرة مؤونة أو غير ذلك ضررا بينا** "[2].فضلا عن قيام الرحويين[3] بإحداث تغييرات على السواقي من خلال رفعها عن مستواها الطبيعي " **رجل له رحى، ولرجل آخر تحته رحى، فغير الأسفل رحاه ونقلها إلى مكان آخر، وتخاصما في ذلك، فاصلحا على أن يكون مصب الماء على طريقه الأول، ثم إن صاحب الرحى الأسفل ادعى أن صاحب الرحى الأعلى إذن له أن يرفع ساقيته مقدار غلظ آجرة وجيرها**"[4].

إن الإشارات التاريخية التي تشير إلى أن فاس وحدها "**كانت تضم أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن** "[5]، وأن عدد الدقاقين بها كان كبيرا، لهم " **طواحين يستأجرونها...فيحصلون من هذه المهنة على ربح وفير**"[6] لدرجة أن "**كراؤها مرتفع يبلغ مثقالين لكل رحى** "[7]، تدل على حاجة هذا النشاط الاقتصادي إلى كثرة

---

1 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، ص 1483.

2 - ابن فرحون برهان الدين أبي الوفاء،" **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام** "، خرّج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه جمال مرعشلي، الرياض، 2003، ص 257.

3 - شهد المجال البدوي انتشار كبير الأرحية، ونظرا لتواتر موجات الجفاف بالمنطقة، والتي تسبب في تعطلها، فإن عقدها الكراء أثار العديد من التساؤلات عن مدى أهميته وصلاحيته بالنسبة للمكتري، ونستشهد في هذا الإطار بالنص التالي : " **قل الواردون للطحن في الأرحى المكتراة لجهد أصاب أهل ذلك المكان وما أشبه ذلك كان عيبا فيما اكتراه المكتري فيكون مخيرا بين أن يتمسك بكرائه أو يرده ويفسخه عن نفسه فإن سكت، ولم يقم حتى مضت المدة أو بعضها لزمه جميع الكراء ولا يسقط عنه الكراء إلا بجلاء أهل ذلك الموضع عنه حتى تبقى الرحى معطلة لا تطحن ..**" . ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، صص 1282 – 1283 .

4 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج3، ص 1587 .

5 - الادريسي الشريف، " **وصف افريقيا الشمالية والصحراوية** "، مصدر سابق، ص 50.

6 - الحسن الوزان، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 233.

7 - نفسه، ص 233.

المياه، وبالتالي حدوث نزاعات بين الرحويين حولها، حيث تخبرنا نوازل المعيار عن اختلاف أصحاب أرحية قديمة ومحدثة، متلاشية ومجددة، فقد **"سئل عن رحيَيْن أحدثتا منذ سنين كثيرة واحدة بعد أخرى، وكان هنالك رحى أخرى قديمة قد خربت وكان صاحب أقدم المحدثتين يُطحن بماء الرحى القديمة، ثم خربت المحدثتان وبقيت مدة ثم جدّد صاحب المحدثة أخيرا رحاه وطحن بذلك مدة، ثم جدّد صاحب المحدثة أولا رحاه وأراد أخذ ذلك الماء واحتج بأن رحاه أقدم من المحدثة آخراً، فهل لأرباب القديمة حق في ذلك الماء مع عدم إعادتها أم لا** ؟ ". فأفتى الفقهاء بأنه يجب النظر إلى " **الرحى القديمة منهما وقت تجديد الأخيرة، فإن كانت حينئذ من الدثور والدروس بحيث لا تترك في العادة حتى تصير إليه إلا على وجه التعطيل والترك جملة فلا حجة لأصحابها على المُجدِّد للأخيرة** "[1]. إن هذه الفتوى بنصها على إبطال حقوق المطاحن القديمة المعطلة إنما ارتكزت في حكمها الفقهي على شهادة أهل المعرفة[2] الذين يتمتعون بالعدل والصدق، بحيث يرفض القضاة "**شهودا من أهل المعرفة ليسوا مرضيين في دينهم ...إنما يشهد في هذا أهل العدل المرضيون** "[3]. فهذا الإجراء كان من شأنه أن يقصي عددا ممن يمكن أن يتعاطفوا مع الطرف الذي يدعي الضرر[4]، كما أنه دليل على أن بعض المتنازعين يعمدون أحيانا إلى الإستعانة بشهود مطعون في نزاهتهم، ولا يمكن الوثوق بهم أثناء البث في هذه القضايا الخلافية، ومنها الخصومات التي كانت تندلع بين أرباب الأرحاء المائية[5].

## 3.3 النزاع بين المزارعين :

من المهم التأكيد على أن الصراعات بين المزارعين كانت تقف وراءها عدة عوامل؛ فمنها ما هو عقاري متعلق بشراء الأراضي الزراعية بحقوقها المائية من طرف جماعة ما واقتسامها، وما يطرحه ذلك من تباينات واختلافات على مستوى الإنتفاع من الموارد المائية، حيث تنبثق العديد من المشاكل حول مسألة اعتماد مبدأ

---

1 - الونشريسي، **"المعيار المعرب .."**، مصدر سابق، ج 10، ص 290 – 291 .

2 - ابن الرامي محمد بن إبراهيم اللخمي، " **الإعلان بأحكام البنيان** "، تحقيق ودراسة فريد بن سليمان، تونس، 1999م، ص 236.

3 - الونشريسي، " **المعيار..**"، مصدر سابق، ج 7، صص 330 – 331 .

4 - محمد فتحة، **"النوازل الفقهية.."**، مرجع سابق، ص 287.

5 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، ص 1292.

اقتسام المياه بناء على قدر الحصص من الأراضي الزراعية، أم بالإعتماد على إعطاء الأولوية والأحقية للأعلى على حساب الأسفل[1].

فضلا عن العوامل المرتبطة بالمياه الغير متملكة الأًصل، والتي يعمم الانتفاع منها لصالح كل المزارعين المتواجدين على ضفاف المصدر المائي، ذلك أن الوازع الإقتصادي لأغلب الفلاحين، والذي يتجلى في إدخال أصناف جديدة من المغروسات تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه كالخضر و"المثاقل"، كان يؤدي إلى إحداث خصومات بين المزارعين الموجودين في عالية وسافلة المجرى، بسبب قيام أًصحاب العالية بالإستئثار بكميات كبيرة وإضافية أكثر من المعتاد، مما ينتج عنه تقليص الحقوق المائية لأصحاب السافلة، وهذا يؤدي إلى إتلاف مزروعاتهم، وقد ورد في كتب النوازل نص جاء فيه :" **فمنعه صاحب السفل، وقال له : لا تحدث علي ما يزيد إمساك الماء عني، وتصير ثماري التي هي أقدم من جديدك** "[2].

ومن أسباب توتر العلاقة بين بعض المزارعين، محاولة احتكار أًصحاب العالية لكل المياه المتاحة، تحت ذريعة عدم وصول ما يفضل عنهم إلى المزارعين المتواجدين في سافلة المجرى " **فقال الأعلون : إذا كان الماء لا يصل إليكم على وجهه، وإنما يصل إليكم رشحه تحت الأرض فذلك مضرة بنا بلا كبير منفعة لكم، فاتركوا فضلة مائنا ننتفع به** "[3]، إلا أن هذه المبررات التي كان يسوقها أًصحاب العالية، دائما ما تلقى اعتراضا من طرف الأسافل الذين يتشبثون بأحقيتهم في استغلال ما تبقى من مياه، حتى ولو كانت قليلة، جاء في إحدى النوازل:" **قال الأسفلون : إذا انتفعنا به فسواء كان من فوق الأرض أو من تحتها المقصود وصوله أو ما وصل منه إلينا**"[4].

---

1 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 2، ص 1140.

2 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، صص 1296 – 1297.

3 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج3، ص 1298.

4 - نفسه، ص 1298.

## 4.3 الصراع بين الملاكين والمكترين زمن الجوائح المائية :

تعتبر النزاعات التي كانت تحدث بين أصحاب الأراضي الزراعية، والمؤجرين صورة من صور الخلاف الذي كانت تعرفه الحياة اليومية بالبادية المغربية خلال العصر الوسيط، خاصة في الفترات التي تشهد فيها جوائح طبيعية، إذ أن المؤجرين كانوا يرفضون في غالب الأحيان دفع الكراء لملاك الأراضي، أو يطالبون بدفع جزء منه، فلطالما تحدثت كتب الأدب الفقهي عن المشاحنات التي كانت تتم بين الطرفين، وتدخلات القضاة والفقهاء للبث فيها لإصدار حكم الشرع منها.

على أن موقف المفتين والقضاة كان يرتبط ارتباطا شرطيا، بالتيقن من أي شكوى من الضرر، لإثبات صدقها من عدمه، فلابد أن تكون الجياحة أولا " **من أمر السماء وأما فعل الناس فلا** "[1].ثم الوقوف على مسؤولية المؤجرين؛ من حيث قيامهم بواجبهم أو إهمالهم وتقصيرهم، للتيقن من إدراكه " **إبان الحرث** " وهو " **إبان الزريعة** " [2] أم لم يدركه عند غمر السيول للحقول، فإن حصل أن " **استعذرت الأرض المكتراة في إبان الزريعة وتمادى ذلك بها طول إبان الزريعة سقط الكراء بذلك عن المكتري فإن نضب الماء عنها في وقت يدرك المتكارى زريعتها فلم يزرعها لزمه الكراء كله ...وإن أمكنته الأرض من الزريعة فزرعها ثم ألحت الأمطار حتى قتل الماء الزريعة ولم يقلع المطر حتى ذهب إبان الزريعة سقط عنه الكراء. فإن أقلع الماء في وقت يدرك زريعتها فلم يزرعها لزمه الكراء على ما تقدم من التفسير في تأخر الزريعة**[3].

ولم يكن المؤجر دائما في موضع المدعي الذي يزعم جياحة الأرض، بل كان متضررا بالفعل من غمر الفيضانات للأرض الزراعية التي يكتريها، فكان لابد للقضاة والفقهاء من الفصل في الصراع بين المتعاقدين، لتمييز

1 - ابن العطار محمد بن أحمد، " **الوثائق والسجلات** "، اعتنى بتحقيقه ونشره شالميتا وكورينطي، مدريد 1983، ص 385.

2 - المراكشي، " **وثائق المرابطين والموحدين** "، مصدر سابق، ص 451.

3 - نفسه، صص 451- 452.

الإدعاء من الحقيقة للحكم فيه، وذلك بالإستعانة بشهادة أهل البصر، فإن شهدوا بأن "**بقاء الماء فيها المدة التي بقى ينقص من أجله المستغل في تلك الأرض فتسقط عنه من الكراء بقدر ذلك النقصان** "[1].

وهناك من القضاة من أكد على ضرورة إسقاط واجب الكراء على المؤجرين، فلم يتوقف عند إمكانية إستدراكهم لزراعة البذور في حالة توقف السيل، وانتفاء قهر الطبيعة، وهو ما يستشف من مسألة وردت في حكم من اكترى أرضا فحمل السيل بعضها هل يرجع على ربها بنسبته أم لا ؟ حيث سُئل للقاضي أبو عبد الله بن علاق عن رجل اكترى من رجل آخر موضعا فأتى السيل ودخل عليه وحمل منه نحو الثلث وتعطل من غلته كذلك والمكترى منه يطلب من المكرى جملة كرائه، فكان جوابه بأنه إذا "**كان السيل دخل في ثلث الموضع قبل الزراعة ومنع من زراعته حتى خرج الابَّانُ فإنه يحط على المكتري مصابته من الكراء، وإن كان دخل بعد الزراعة والابَّان للزراعة باقٍ ولم يمكن زرعه حتى خرج الابَّان للزراعة باق ولم يمكن زرعه حتى خرج الابَّان فإنه أيضا يحط عنه مصابته، وأما إن دخله السيل بعد الزراعة وخروج إبان الزراعة فأصيب الزرع فإن المكتري لا يحط شيئا من الكراء**"[2]. وبالتالي فهو جعل حكم كارثة السيل في الأرض المكتراة سواء قبل الزراعة أو بعدها، وخروج وقت الإبان أو بقائه، خلافا للفقيه محمد الفاسي الذي أفتى بأنه " **إذا أتى مطر بعدما زرع وفات إبان الزرع، فغرق زرعه حتى هلك بذاته؛ فهي جائحة على الزارع، وعليه جميع الكراء** "[3].

وإذا كانت الفيضانات والسيول التي تغمر الحقول من أسباب المشاحنات التي كانت تنشب بين الملاكين والمؤجرين، فإن السنوات العجاف كانت بدورها مبررا يتحجج به المؤجرون للامتناع عن أداء واجب الكراء، دليل ذلك كثرة النوازل التي وردت في هذا الباب، والتي يبدو أنها تتفق على إسقاط الكراء في حالة الجفاف خلافا للاختلاف الذي يكثر في حالة الفيض، فمثلا نجد بأن صاحب الإتقان والأحكام قد أفتى بأنه إذا كانت

1 - نفسه، ص 451.

2 - الونشريسي، " **المعيار..**"، مصدر سابق، ج 5، ص 237 .

3 - الفاسي أبي عبد الله ، " **الإتقان والأحكام..**"، مصدر سابق، ص 187 .

"**الجائحة إن كانت من العطش، فإنه يوضع عن المشتري ثمن ما أُجتيح قليلا كان أو كثيرا بالإطلاق، وإن كانت من غير العطش يُفصَّل في ذلك**[1].

وبالمثل سُئل السرقسطي عن الأرض المكتراة " **بم يحط من مكتريها من أنواع الجوائح وما معنى إذا أجيحت الغلة بغير القحط فمصيبته من ربه ؟ فأجاب : الجواب أن مكتري الأرض لا يحط عنه من كرائها شيء إذا هلكت الغلة بغير قحط**[2].

وأورد المراكشي وثائق بشأن التوتر الذي كانت تتسم به العلاقة بين الملاك والمؤجرين، إذ تسلط مزيدا من الضوء حول هذه الصراعات المعقدة، حيث أفتى فيها الفقهاء بأنه "**إن امتنع زريعتها بسبب قحط أو قحطت بعد إبان الزريعة حتى أذهب القحط زرعها إلا ما لا قدر له ولا بال لم يلزمه الكراء فإن رفع فيها ما له بال وقدر لزمه من الكراء بحساب ذلك وتفسير ذلك أنه ينظر إلى تلك الأرض ما يقوم فيها على التوسط والتوسط حمل السنين بعضها على بعض** "[3]،كما أنه تحدث عن " التوسط " كوحدة قياس تعتمد في حساب حجم الخسارة الناجمة عن القحط، والذي يُفهم من إشارة نوازلية ورد فيها سؤال أحد القضاة للعدول ذوي الخبرة في الفلاحة من أهل البصر عما توصلوا إليه بخصوص المسألة المتنازع جاء فيه " **كم التوسط فيما يصاب في هذه الأرض على حال كرمها ودناءتها على ما يعرف من السنين الماضية على مثل عمارة المتقبل فيها ؟ فإن قالوا : التوسط فيها للحبة ست حبات وقد قال الشهود إنه لا يصاب فيها بتقديرهم إلا لزريعة كان على المتقبل سدس القبالة وسقطت خمسة أسداسها وإن قالوا مثلا الزريعة كان عليه الثلث ويسقط عنه الثلثان فعلى هذا يقيس ويحسب**"[4].

---

1 - نفسه، ص 559 .

2 - الونشريسي، " **المعيار..**"، مصدر سابق، ج 5، ص 237 .

3 - المراكشي، "**وثائق المرابطين والموحدين** "، مصدر سابق، ص 452.

4 - نفسه، ص 564.

وتجدر الإشارة إلى أن المتنازعين كانوا يلجؤون إلى القضاة وأهل الفتوى في حالات أخرى يشتكي فيها المؤجرون بأن محاصيلهم قد مسها الفيض والعطش في نفس الآن، وبالتالي لابد من حط واجب الكراء عنهم، فقد سُئل عن **" الزرع إذا أصابه الصّر وهو ربيع، ثم أصابه القحط بعد ذلك، هل يلزم الكراء للزراع وهو يحتج بأنه لو لم يكن قحط لانجبر ما اصابه الصر بالمطر أو كان بإثر الصر أم لا ؟** فأجاب بأنه " **إذا توالى القحط حتى علم أن الزرع لو سلم من الصر لأهلكه القحط فالكراء عنه ساقط "**[1].

## 5.3 الصراعات بين نُظَّار الأوقاف والفلاحين المكترين لأراضي الأحباس زمن الجفاف والفيضانات :

تحتفظ كتب النوازل بالعديد من الإشارات التي تفيدنا في تتبع مسألة الخصومات التي كانت تندلع بين النظار المكلفين بتحصيل مداخيل الأراضي الزراعية التي تحوزها مؤسسة الأحباس، وبين الفلاحين الذين يكترون هذه الأراضي، إذ أنهم كانوا يمتنعون عن دفع واجب الكراء تحت مبرر تعرض حقولهم ومحاصيلهم للجائحة، فقد تطرق صاحب المعيار لمسألة مكترى أرض حبس زعم أنها تلِفت بالمطر، والتي أورد فيها سؤالا طُرح على أحد الفقهاء الذين عاشوا في القرن 8 الهجري بخصوص **"قوم اكتروا أرضا محبسة فلما حل عليهم الكراء ادعوا أن الأرض أسرعت بالمطر في إبان الزراعة فمنهم من رأى أن ذلك منعه من زراعة موضعه وذكر آخر أنه لم ينبت وادعى آخر أنه كان نبت خفيفاً وغلبه الرفيع وفسد جملة وأثبتوا بأهل البصر أن ذلك بتوالي المطر في إبان الزراعة وادعى أهل الأحباس أنه كان منهم تفريطٌ في المعالجة "**. فأجاب بأن" **من أثبت من المكترين أن الأرض التي اكتراها استعذرت بالماء في إبان الزراعة كله حتى خرج الإبان ولم يمكنه زرعها فيه بسببه**

1 - ابن رشد، **" فتاوى ابن رشد "**، مصدر سابق، ج 3،ص 1284.

**بطول الإبان دون ما سوى ذلك لأن المكتري قد حصل على من يتأتى ازدراعها في أول الإزدراع فبهذا يجب الكراء في هذه المسألة"**[1].

ومن الملفت للنظر أن نص هذه النازلة يبين بأن حُكم القاضي الذي بث في هذه النازلة، كان لصالح ناظر الأوقاف على الرغم من أن شهادة أهل البصر قد أقرت بتعرض الأراض المكتراة لجياحة السيول، وبالتالي التأكيد على صحة اتهامات المكلفين بالأوقاف للمكترين للأراضي بالتقصير والإهمال في معالجة الأراضي الزراعية المحبسة. لكن يحدث أحيانا أن لا يقتنع القاضي بادعاءات ناظر الأوقاف، ويرفض مبرراته كالإختلاف بينهما حول الفترة التي يحل فيها العارفون من أهل التجربة والخبرة بأمور الفلاحة – للوقوف على الأرض التي ألمت بها الجائحة، وتدوين ما توصلت إليه جهوده – كما يُفهم من جواب القاضي سيدي عيسى بن علال جاء فيه " **وأما ما أشرتم إليه في الوثائق المجموعة أن الوقوف في زمن الربيع، وقلتم أن الجائحة لا تثبت إلا في زمن الربيع، وأما الآن ( الصيف ) فلا يمكن ادعاء الجائحة فلا يعول عليه، بل ينظر إلى ذلك في أي وقت تحصل معرفة ما حط من الوسط المعتاد. وإذا تقرر ذلك فينظر إلى ما حصل من الصابة بعد الدرس، فإن كان أقل من الوسط فيحط عنه بقدر ما نقص والله أعلم"**[2].

وبالمثل نجد بأن أثر "**جياحة** "[3] القحط على الأراضي الزراعية المحبسة، والمرتبطين عقاريا بأراضي الأحباس بعقود كرائية كان حاضرا في كتب الأدب الفقهي، والتي توقفت عند لجوء الفلاحين إلى تقديم الشكاوى للناظر باعتباره الشخص الذي يتولى تسيير الأحباس بصفة مباشرة[4]. وبناء عليه تقوم مؤسسة الأحباس كمؤسسة أوقاف القرويين بفاس بمعاينة هذه الأراضي لتقييم حجم الجياحة من طرف عدول مختصين في الفلاحة، وعند الاقتضاء

---

1 - الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 8، ص 370 .

2 - الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 8، ص 171 .

3 - جمع جوائح، وهي الآفة التي تصيب الزرع والثمار فتهلكها دون أن يكون للإنسان دور فيها.

4 - بنعلة مصطفى، " **المؤسسات الحبسية والتخفيف من حدة الجفاف من خلال الحوالات الحبسية وبعض النوازل المرفقة بها** "، ضمن أعمال **ندوة المجاعات والأوبئة**، مرجع سابق، ص 230.

يتم إرسال أشخاص غير عدول من أهل المعرفة والتجربة في أمور الفلاحة، حيث يتم الوقوف على المحصول السنوي في الصيف للتعرف على نسبة الخسائر، إذ يتم التخفيض من قيمة الكراء للأراضي المحبسة حسب درجة الجياحة، فمثلا إذا جاحت الأرض بنسبة النصف يُحط الكراء بالمثل[1]. وهذا دليل على أن المؤجرين كانوا يستفيدون من حط واجب الكراء أو قسط منه، شريطة تقديمهم أدلة قوية على وقوع الجياحة، وأنهم تعهدوا الأرض بالخدمة اللازمة، فضلا عن "**أن يشهد عدلان من أهل المعرفة أن سبب نقصان الغلة عن القدر الوسط من المعتاد قلة المطر، فإذا ثبت ذلك بما لا مدفع فيه للناظر، سقط عن المكتري بقدر ما نقص، ولا يلتفت إلى شهادة غير العدول مع وجود العدول، ولا حجة للمكتري في امتناع العدول** [2].

إن المشاحنات التي كانت تحدث بين نظار الأوقاف والمؤجرين تبقى من أوضح صور التوترات التي تقف وراءها الجوائح المائية، وأن أحكام القضاة كانت عموما لصالح النظار، والذين كانوا متشددين بشأن مداخيل الأحباس، ولا تنقصهم المبررات لرد مطالب المتقبلين بالحط من قيمة الكراء[3]. كما يمكن القول بأن هذه الصراعات لا تختلف كثيرا عن الخصومات التي كانت تطبع العلاقة بين مُلاك الأراضي الزراعية والمؤجرين، فأداء واجب الكراء كاملاً أو منقوصا، أو عدم دفعه بالمرة، هو حجر الزاوية فيها، كما اتضح بأن أهل الفتوى والقضاة كانوا يستعينون بشهادات العدول من العارفين وأهل الخبرة بأمور الفلاحة لتحديد حجم الخسارة الناجمة عن انحباس المطر أو كثرته أو ما يُعرف في كتب النوازل بـ"**التطبيل** " .

## 6.3 الصراع حول المياه بين البادية والمدينة:

تميزت العلاقة بين البوادي المغربية وحواضرها بالتوتر في بعض المحطات التاريخية، فإذا كانت البوادي قد عرفت عدة صراعات حول المياه زمن الجوائح، فإن دائرتها تتسع بصورة واضحة حينما تنشب بينها وبين المدن،

1 - نفسه، صص 236 – 238 .

2 - الونشريسي، " **المعيار المعرب** "، مصدر سابق، ج 7، صص 330 – 331 .

3 - فتحة محمد، " **النوازل الفقهية** "، مرجع سابق، ص 287.

وإن كان من الصعوبة بمكان وضع حدود للمجالين نظرا للتداخل الكبير بينهما[1]؛ فالعلاقة بينهما خلال هذه المرحلة هي علاقة عضوية لدرجة يمكن القول معها أن استمرارية بعض الحواضر كانت رهينة بما توفره لها باديتها[2]، على اعتبار أن أهل البوادي كانوا يزودون المدينة بما تحتاج إليه من المؤونة والجند والجبايات، وبغياب ذلك الدعم تسقط تلك الحواضر السلطانية ومعها السلطة القائمة تباعا كما حدث للمرابطين مع القبائل المصمودية .

ولم يكن عنصر الماء ليشد عن هذه القاعدة، فهو مورد حيوي تغذي به البوادي حواضرها، ورغم أن أحد الباحثين سجل بأن "**المصادر الفقهية لم تتحدث عن تحكم البادية في المدينة عن طريق سيطرتها على الماء**"[3]، لكن ذلك لا يمنع من محاولة البحث في تلك العلاقة خاصة وأن معظم مصادر المياه تأتي من خارج المدن وعلى مسافات طويلة قبل أن تصل إليها، وبالتالي فذلك من شأنه أن يجعل حاجيات المدن من الماء خاضعة لنفوذ البوادي من خلال التحكم فيها وتوجيهها خاصة في أوقات الجفاف[4]، كما هو الشأن بالنسبة لمدينة مكناس التي "**يجلب اليها الماء بواسطة قناة من مسافة ثلاثة أميال خارج المدينة**"[5]، أو مراكش التي يأتي شرب أهلها من مدينة أغمات على مسافة تقدر بأربعة وعشرين ميلا[6]، وإذا علمنا أن العلاقة الرابطة بين المدينة والبادية كانت تتحقق عبر وسيط ألا وهو الجهاز المخزني، فإن أي توتر في العلاقة بين ساكنة البادية والسلطة تتضرر معه المدينة بأكملها[7]، كما هو الشأن بالنسبة لمدينة تازة التي كان تزودها بالمياه رهين بحسن إدارة القبائل المجاورة لها[8]، فحينما يغير الجبليون مجراه" **عندما يختصمون مع سكان المدينة، ويصرفونه إلى مكان**

---

1- بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع..**"، مرجع سابق، ص320.

2- عويناتي صباح، " **تحولات الأسر البدوية بأحواز مراكش...**"، مرجع سابق، ص26.

3- بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع** "، مرجع سابق، ص324.

4- بنحمادة سعيد، " **الماء والإنسان في الأندلس..**"، مرجع سابق، ص90.

5- الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج1، ص 216.

6- نفسه، ص136.

7- المودن عبد الرحمن، "**التوتر والإنفراج في علاقات البادية والمدينة في مغرب ما قبل الإستعمار-فاس وتازة وأريافهما بين ق16و19م**"، ضمن ندوة **تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي**، الرباط، 1988م، ص37.

8- المودن عبد الرحمن، " **البوادي المغربية قبل الإستعمار..**"، مرجع سابق، ص368.

**آخر فتتأذى المدينة كثيرا، إذ لا يمكن حينئذ طحن الحبوب ولا الحصول على ماء صالح للشرب"**[1] مما يظهر أن هذه البوادي اتخذت من الماء أحد وسائل الضغط على المدينة ومحاولة إعادة التوازن بين المجالين[2]. فـ"**العالم القروي كهامش مجتمعي ظل عبر تاريخ المغرب محور مختلف رهانات الهيمنة والتطويع، فهو عالم يحوز تاريخا طويلا من التمردات والثورات ضد المخزن، ويختزن في نفس الوقت الخيرات التي يحتاجها المركز**" [3].

يظهر إذن بأن العامل السياسي كان حاسما في وضح حد لأي صراع يمكن أن يشجر بين أهل المدينة وبواديها[4] يكون للماء دخل فيه، وذلك يعود إلى الخوف من غضب السلطان الذي اعتمد في تحكمه فيها على الرصيد الإسلامي[5]، أما في وقت الجوائح فإن المدينة كانت تشكل الملاذ الوحيد لفرار أهل البادية من هول المجاعة المترتبة عن السيول والفيضانات أو الناتجة عن شح السماء[6]، وبالتالي فإن منع هذه التنقلات البشرية كان سيؤدي حتما إلى ضمور ديمغرافي لساكنة البوادي، إضافة إلى زعزعة الاستقرار السياسي والاجتماعي.

## 7.3 الماء والتضامن بالبادية :

لم تكن البادية المغربية دوما مسرحا للصراع حول الماء، بل كانت تشهد مظاهر التضامن بين الأفراد والجماعات في تدبير المسألة المائية، فقد كان الفلاحون يتعاونون من أجل جلب المياه من مصادرها، من خلال شق السواقي والقنوات التي كانت تفرض تظافر المجهودات من أجل في إنجازها، كما هو الأمر بالنسبة لـ" **قوم اتفقوا على حفر ساقية في أرض رجل وإقامة رحى** "[7]، لكن يحدث أن يواجه بعض المزارعين مشكلة وجود

---

1- الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج1، ص254.

2- بنحمادة سعيد، " **الماء والإنسان في الأندلس..**"، مرجع سابق، ص92.

3 - العطري عبد الرحيم، " **المسألة القروية في المغرب** "، مرجع سابق، ص 30.

4- بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع..**"، مرجع سابق، ص325.

5- المودن عبد الرحمن، " **البوادي المغربية قبل الإستعمار** "، مرجع سابق، ص230.

6- المودن عبد الرحمن، "**التوتر والإنفراج في علاقات البادية والمدينة..**"، مرجع سابق، ص38.

7- الونشريسي، " **المعيار المعرب ..**"، مصدر سابق، ج 8، ص 407 .

أراضي في ملكية الغير على طول المسالك التي سيشقون فيها السواقي لجر المياه من مصادرها لإيصالها إلى مزارعهم[1]، فيتوفقون في الحصول على إذن المرور، وهذا دليل على التفاهم والمرونة في العلاقة بين ساكنة البادية، فقد سئل عن " **رجل له ساقية رحى تمر على أرض رجل آخر** "[2]،كما أن تشييد الأرحاء المائية كان يستدعي التعاون والشراكة، نظرا للنفقات المهمة التي تتطلبها، وهو ما يُستشف من هذا النص : " **يشهد من تسمى في هذا الكتاب من الشهداء أنهم يعرفون الرحى المحدثة التي هي على الوادي شبيرة ويعرفون المحدث لها محمد بن يحيى ومن شركه فيها قد أحدثوا سدا في أرض محمد بن خلف** "[3].

هذه القيم التضامنية يعكسها تداول فضلة المياه، والإرتفاق[4] فقد سئل عن قوم " **اقتسموا ماء الساقية بين دورهم ليشربوا منه، ثم إن من كان فوقهم ممن حفرت الساقية في أرضه بنى دارا، وأراد أن يرد من ماء تلك الساقية شيئا ينتفع به** "[5]. ونفس الوضع بالنسبة لمن " **رغبوا إلى جارهم أن يمدهم من فضل مائه ليخلص لهم ما جعلوه من الخضر، فتوسع لهم مدة طويلة** "[6].

كما تكشف العديد من المعاملات كالكراء والشراء والبيع[7] عن حضور التعاون المشترك في الإستفادة من الموارد المائية، فالمزارعون الذين ليسوا في حاجة إلى المياه في إطار نوبتهم ودولتهم، يلجأون إلى بيعها أو كرائها إل

---

1- تجدر الإشارة إلى أن مياه السواقي التي تمر بجانب الحقول والجنات تقوم بترطيب التربة، وتساعد في محافظة الثمار على طراوتها. راجع : القاضي عياض، " **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام** "، مصدر سابق، صص 105 – 106 .

2- ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 2، ص 1109 .

3 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 1، ص 171 .

4 - يعتبر حق الإرتفاق من المياه " **حق العطش** " سواء للشرب أو سقي بعض المزروعات حسب العديد من الدارسين من أهم المعاملات التي انتشرت في العالم الإسلامي.

Menesson D, « **L'irrigation dans le monde islamique : l'eau, élément culturel** », C.I.H.E.A.M , Options Méditerranéennes, N0 14, Paris , 1972, p : 15 .

5- ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، ص 1575 .

6 - ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 1، صص 186 – 187 .

7- نورد في هذا الصدد نصا يتحدث عن كتابة عقود بيع المياه، جاء فيه : " **عقد اشترى فلان من فلان شرب العين أو الماء أو البئر بكذا أو نصف شرب جميع أرضه أو ربعه أو شرب كل يوم جمعة من عين كذا أو شرب ساعتين أو ثلاثة من ماء كذا ما تعاقب الليل والنهار نصف من ذلك ما يجب، وتبين الوقت ثم تقول : اشتراء صحيحا عرفا قدره بثمن كذا، وتبنى على ما تقدم..** ". ابن سلمون

من جاورهم من مزارعين، وذلك من أجل إنقاذ غلالهم من التلف، وهو ما يظهر في إشارة نوازلية جاء فيها " **وأراد أن يأخذ الشرب الذي له فيسقي به أرضا له أخرى أو يبيعه أو يهبه** "[1]. وفي نفس السياق، هناك من" **يأخذه** ( الماء ) **على يوم معلوم يصرفه فيه، أو غير معلوم متى اتفق له كراؤه ممن يكري ماءه، إذ جرت عادتهم بكرائه بينهم**"[2].

إن هناك ممارسات اجتماعية أخرى تُظهِر بجلاء ذلك التكافل والتآزر بين القرويين، مثل ظاهرة السلف في الماء بين المزارعين ذوي الحقوق المائية في المصدر المائي المشترك، والتي تكشف أيضا عن الرغبة في الحفاظ على مصلحة أفراد الجماعة القبلية وتماسك نسيجها الاجتماعي، وهو ما يظهر من خلال ما جاء عند صاحب المعيار، حيث سئل عن " **مسألة الماء بين الأشراك يقتسمونه على دول معلومة فيسلف بعضهم بعضاً دولته من الماء على أن يصرفه إليه بعد أيام في يوم بعينه له من أيام القرب أو على أن يشتريه له إن لم يكن له حظ في ماء القرية**"[3]. فالجواب فيها أن ذلك جائز على " **أن يرده إليه في يوم من الأيام التي له فيها الشرب يسميه قُرب أو بُعد إلا أن يستلفه منه في الفصل الذي تقل الحاجة فيه إلى الماء على أن يصرفه في الفصل الذي تكثر فيه الحاجة إلى الماء ..**"[4].

وعلى أية حال، يمكن القول بأن عنصر الماء نسجت حوله شبكة من العلاقات السوسيو اقتصادية في البادية المغربية، والتي تكشف هذه المرة ليس عن علاقته بالصراع والتشاحن، بل عن حضور قيم التضامن والتكافل في تدبيره بين أفراد الجماعة القبلية، سواء من حيث تشييد المنشآت المائية أو ما يهم تداول حصص توزيع المياه، بما يتخللها من معاملات وذلك من أجل المحافظة على تماسك مكوناتها، ولتحقيق مصلحتها المشتركة في استغلال

---

الكناني، أبي محمد عبد الله ( ت. 741 هـ )،" **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام** "، تحقيق محمد عبد الرحمان الشاغول، القاهرة، 2011 م، ص 216.

1- ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج 3، صص 1316 – 1317 .

2- نفسه، ص 1307 .

3- الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 8، ص 395 .

4 - نفسه، ص 395 .

المجال الذي تستقر فيه كلما أمكنها ذلك، وحسب الظروف الطبيعية السائدة، فمستويات التوتر والتوافق كما أرينا كانت خاضعة بشكل أساسي لتقلبات المناخ وحدة الجوائح المائية أكانت قحوطا أو فيضانات وسيول، وآثرها على وسائل الإنتاج.

**جدول : أهم الجوائح الطبيعية التي شهدها المغرب ما بين القرنين 5 – 8 هـ / 11 – 14 م**

:

| نوع الجائحة | تاريخ وقوعها | المكان | المصدر / المرجع |
|---|---|---|---|
| مسغبة عامة ووباء | 407 هـ | المغرب | ابن أبي زرع،" **روض القرطاس** "، م.س، ص 118 . |
| قحط | 411 هـ | المغرب | ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، م.س، ص 118 . |
| جفاف ومجاعة | 457 هـ | المغرب | ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، م.س، ص 112 . |
| زلزلة عظيمة | 472 هـ | المغرب | ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، م.س، ص 168. |
| قحط | 498 هـ | المغرب | ابن عذاري، " **البيان** "، م.س، المجلد 3، ص 37. |
| قحط ووباء | 524 هـ | فاس | ابن القطان، " **نظم الجمان** "، م.س، ص 217. |
| سيل عظيم | 532 هـ | طنجة | ابن عذاري، م.س، ص 80. |
| جدب | 534 هـ | مراكش وأحوازها | بولقطيب، " **جوائح وأبئة في عهد الموحدين** "، م.س، ص 45. |
| مجاعة | 535 هـ | أزمور | التادلي، " **التشوف** "، م.س، ص 183. |
| أمطار غزيرة وسيول شديدة | 536 هـ | شمال المغرب | ابن عذاري، م.س، ص 84. |

| | | | |
|---|---|---|---|
| جدب | 559 هـ | داي | التادلي، " **التشوف** "، م.س، ص 138. |
| وباء وطاعون شديد | 571 هـ | مراكش وأحوازها | ابن عذاري، م.س، ص 237 و ص267 . |
| قحط | 591 هـ | مراكش | التادلي، " **التشوف** "، م.س، ص 298. |
| جفاف وجوع | 595 – 596 هـ | فاس وباديتها | ابن أبي زرع، م.س، ص 270 .<br>بولقطيب، " **جوائح وأوبئة** "، م.س، ص 45. |
| مسغبة ومجاعة | 607 هـ | المغرب | ابن عذاري، م.س، ص 373. |
| قحط ومجاعة عظمى، وباء مفرط وجراد | ما بين عام 610 - 637 هـ | المغرب | ابن أبي عذاري، م.س، ص 382 .<br>ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، م.س، صص 41 – 42، ص 49، ص 255، صص 273 – 274، ص 277. "**الذخيرة السنية**"، م.س، ص 37، ص 54.<br>الجزنائي، " **جني زهرة الآس** "، م.س، ص 45.<br>البادسي، " **المقصد الشريف** "، م.س، ص 61.<br>الحميري، " **الروض المعطار**"، م.س، ص 605. |
| مجاعة شديدة | قبل عام 650 هـ | بادس | البادسي، " **المقصد الشريف** "، م.س، صص 61 – 62. |
| أمطار وخصب | 656 هـ | المغرب | ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، م.س، ص 44. |
| قحط ومجاعة شديدة ووباء عظيم | 683 هـ | المغرب | ابن أبي زرع، م.س، ص 340، ص 384، ص 409. |
| ريح شرقية شديدة وقحط | ما بين عام | المغرب | ابن أبي زرع، م.س، ص 408 . |

| | | | |
|---|---|---|---|
| | 687 – 690 هـ | | |
| مجاعة شديدة ووباء عظيم | 693 هـ | المغرب | ابن أبي زرع، م.س، ص 384، ص 409 . |
| أمطار ورخاء | 694 هـ | المغرب | ابن أبي زرع، م.س، صص 384 – 385 . |
| قحط | 711 هـ | المغرب | ابن أبي زرع، م.س، ص 398. |
| ريح شديدة | 722 هـ | مكناسة، فاس، تازة وأحوازها | ابن أبي زرع، م.س، ص 412 . |
| أمطار عظيمة وثلوج كثيرة | 723 هـ | المغرب | ابن أبي زرع، م.س، ص 412 . |
| برَد عظيم وسيول ورياح هائلة | 724 هـ | فاس | ابن أبي زرع، م.س، صص 413 – 414 . |
| قحط شديد ومجاعة | - | معظم بلاد المغرب | ابن أبي زرع، م.س، ص 399، ص 401، ص 413. |
| سيل وثلج ورياح | 725 هـ | فاس وأحوازها | ابن أبي زرع، م.س، صص 413 – 414. |
| وباء | 740 هـ | فاس | ابن مرزوق،" **المسند الصحيح**"، م.س، ص 261. |
| قحط شديد | 744 – 745 هـ | درعة | Bois ( Ch ), « **Années de disette**, **année d'Abondance**, **sécheresse au Maroc** », **Revue pour l'étude des calamités**, Genève, 1949, N° 26 **–**27, p : 4. |
| مجاعة كبيرة ناتجة عن غزو | 748 هـ | الواحات | البزاز، " **أوبئة ومجاعات** "، م.س، ص 44. |

| | | | |
|---|---|---|---|
| الجراد | | | |
| الوباء الجارف ( الطاعون الأسود ) | 750 هـ | المشرق والمغرب والأندلس ومعظم بلاد العالم | ابن الخطيب، " **الإحاطة**"، ج 3، صص 184 – 185. - ابن الأحمر، " **بيوتات فاس** "، م.س، ص 43.<br>ابن بطوطة، م.س، ص 666 .<br>ابن خلدون، " **العبر** "، م.س، ج 7، صص 375 – 376، ص 411. " **المقدمة** "، م.س، صص 42 – 43.<br>الناصري أحمد، "**كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**"، م.س، ج 4، ص 82 .<br>ابن القاضي، " **جذوة الإقتباس** "، م.س، ج 2، ص 445.<br>البزاز، " **أوبئة ومجاعات** "، م.س، ص 50. |
| غيث | 757 هـ | شمال البلاد | بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع** "، م.س، ص 286. |
| أمطار عاصفية، وبرد شديد | 758 هـ | نواحي وادي إسيلي | ابن الحاج النميري، " **فيض العباب** "، م.س، ص 490. |
| جفاف عظيم وطاعون | 763 هـ | مكناسة وفاس وتازا ومحلة سفيان، وماغوس ( منطقة بتامسنا ) | ابن الخطيب، " **نفاضة الجراب** "، م.س، ج 2، ص 318 .نفسه، ج 3، ص 61، ص 90، ص 95. |

| | | | |
|---|---|---|---|
| وباء | 764 هـ | المغرب | الهـلالي ياسـر، " **مجتمـع المغـرب الأقصـى** "، م.س، ص 371. |
| وباء | 765 هـ | مراكش | البزاز، " **أوبئة ومجاعات** "، م.س، ص 62. |
| قحط ومجاعة | 775 هـ | المغرب | بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع** "، م.س، ص 286. |
| المجاعة العظيمة | 776 هـ | المغرب | ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير** "، م.س، ص 105 . الناصري، " **الإستقصا** "، م.س، ج 4، ص 83. |
| جفاف ومجاعة | 795 هـ | توات | Bois ( Ch ), « **Op**.**cit** , p : 4. |

# الفصل الثالث : الجوائح المائية بالبادية المغربية وأساليب المواجهة الرسمية والشعبية

لقد بات من المعلوم أن القحوط والمجاعات كانت ذات أثر واضح في توجيه الحدث السياسي وتعطيل عجلة الانتاج الاقتصادي وما يواكبه من تراجع في دينامية المجتمع البدوي الذي تضرر بشكل أعمق وحفرت في مخياله نتوءات وكرست التفاوتات الاجتماعين بينه وبين مجتمع الحاضرة[1].

لقد كان مجتمع البادية المغربية في العصر الوسيط يعاني في توفير ضروريات الحياة اليومية خلال الأزمنة العادية، فبالأحرى زمن الشدة بحيث تصير هذه الفئة تعاني الأمرين، جوائح سماوية وفقر شديد، ما يُسفر عن

1- المحمودي أحمد، **"عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي "**، مرجع سابق، صص 29-35.

انعكاسات تضرب عمق هذا المجتمع إن على مستوى نظامه الغذائي أو سلوكياته، خاصة أن الدولة الحاكمة كانت في أغلب الأحوال تنظر إلى العامة **"كيف النعجة منها الصوف منها الخروف منها السمن منها اللبن منها اللحم"**[1]، إن هذه الأزمات[2] لم تفن هذا المجتمع البدوي بقدر ما أكسبته خبرة ودراية واسعتين للتكيف مع هذه الظروف الاستثنائية وحاولت التأريخ لها[3].

إن تتبع حياة مجتمع البادية الوسيطية وسبر أغواره لن يتأتى الا من خلال كشف النقاب عن ازدواجية العلاقة بين المدينة والبادية، تلك العلاقة التي تعد من الأمور المعقدة جدا نظرا لعدم وضوح حدود المجالين هذا من جهة، ومن جهة أخرى أثر هذه الأزمات على البادية التي لا تخبرنا المصادر عنها إلا بالنزر اليسير خاصة ما له علاقة بالجوائح المائية، وبالتالي فإن ما نسعى إليه هو رصد انعكاساتها على هذا المجتمع القروي الهش البنية، مادامت الكتب الإخبارية دأبت على الإطناب في الحديث عن الخصب والوفرة، الذي لم يكن ليتجاوز دائرة البحائر السلطانية في مجمل الأحوال. وعلى ضوء ما سبق يمكن لنا أن نتساءل عن انعكاسات الجوائح المائية على البوادي المغربية؟ وما هي طرق وأساليب مواجهتها من طرف شرائح مجتمعها ؟

## المحور الأول : أثر الأزمات المائية على الأسعار

إن دراسة الأسعار في البادية المغربية الوسيطية، لا يمكن أن يتم بمعزل عن وضعية الأسعار بالبلاد بصفة عامة خلال زمن الجوائح والتي كانت لها آثار وخيمة على الساكنة، صحيح أن معرفة المستوى المعيشي لهؤلاء

---

1- الشادلي عبد اللطيف، **"التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري"**، الدار البيضاء، 1989، ص 216.

2- في حقيقة الأمر لا أثر لهذا المفهوم (الأزمة) في مصادرنا التاريخية فالمفردات المعبرة عن هذا الواقع والواردة في متوننا المصدرية نوعان: إما تعبيرات أدبية على شاكلة انقلاب الاحوال الإدبار النقص، الضعف، الموتان، الكارثة، النكبة، الجائحة، الموتان (...) وإما تعبيرات خصوصية قحط جدب، جفاف، فيضان، سيول، مسغبة، لكن هذا لا يعني نفي وجود أشكال مختزلة أو مصغرة أو مقربة لما ندعوه اليوم بالأزمة، وبالتالي فإننا سنعمل على المراوحة بين مفاهيم الفاعلين ومفاهيم الباحثين المعاصرين لأنه بهذه الطريقة يكون بصدد إعادة كتابة تاريخ هذه الظاهرة أو تلك بمنهجية ورؤية ومفاهيم اصطلاحية تضمن عدم السقوط في الاجترار والكرار وتعد بتقديم الإضافة. راجع : بوجرة حسين، **"مفهوم الأزمة الديمغرافية في المصادر التاريخية المغاربية"**، ضمن أشغال **الندوة الدولية " الأزمات في تاريخ المغرب الكبير "** ،تونس 2011، صص 37-70. راجع أيضا : زنيبر محمد، **" المغرب في العصر الوسيط – الدولة- المدينة- الاقتصاد"**، الدار البيضاء، 1999م، صص265-279.

3- المكني عبد الواحد، **"العامة وتمثل أزمات الطقس بالمغارب خلال القرن التاسع عشر: ملاحظات أولية"**، ضمن أشغال **الندوة الدولية : "الأزمات في تاريخ المغرب الكبير"**، مرجع سابق، ص 226 .

يقترن أولا بوجود قوائم بأثمان الموارد والحاجات الأساسية[1]، وثانيا بالدخل الفردي للشخص، لكن من العسير جدا تحقيق ذلك للمجتمع المغربي الوسيط مدنه وبواديه، لأسباب في مقدمتها أن المصادر ركزت على ذكر الأسعار في أوقات الشدة دون الأوقات العادية[2]، علاوة على أن هذه الأسعار لم تكن محددة القيمة نظرا لكون أنظمة الكيل والوزن المستعملة كانت كثيرة ومتنوعة، تختلف حسب المناطق بل وداخل المنطقة الواحدة – لذلك أكد نيكولا ميشيل Nicolas Michel بأن هذا الأمر "**يشهد على سيادة التقاليد المحلية، ويكشف أيضا عن ضعف اندماج السوق الداخلي** "[3]– والأصعب من ذلك أنها كانت تحدد في غالب الأحيان بالإستناد إلى العرف[4].

تعددت الأسباب التي كانت تؤدي إلى ارتفاع الأسعار أو انخفاضها كما تعددت تفسيرات هذا الأمر، فابن خلدون يقول مفسرا "**إذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت اسعار الضروري من القوت وما في معناه وغلت أسعار الكمالي من الأدم والفواكه وما يتبعها، وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الامر بالعكس**"[5]، في حين يصرح المقريزي بالقول أن الغلاء " **إنما يحدث من آفات سماوية في غالب الامر** (...) **وعدم نزول المطر** "[6]، أما ابن هيدور فقال " **إن الغلا لحدوثه سببان: إما لاحتباس المطر، وإما لظهور الفتن والحروب**"[7]، مما يتبين معه أن الجوائح المائية كان لها تأثير واضح على الأسعار.

---

1- التوفيق أحمد، " **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر..**"، مرجع سابق، ص324.

2- زنيبر محمد، " **المغرب في العصر الوسيط** "، مرجع سابق، ص267.

3 - Nicolas Michel , « **Poids et mesures de l'agriculture et de l'alimentation dans le Maroc précolonial** », **Revue Hespéris Tamuda**, XXXI , 1993, fax, Unique, p : 77- 78.

4- الشريف محمد، "**تدقيقات حول المسكوكات الموحدية من خلال تقييد جديد حول النقود والأوزان والمكاييل المغربية من القرن 7هـ/13م**"، **مجلة مواسم**، طنجة، 1996م. ص48. - موسى عز الدين ، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص297.

5- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص453.

6- المقرزي تقي الدين، " **إغاثة الأمة..**"، مصدر سابق، ص115.

7- ابن هيدور علي بن عبد الله التادلي، "**الأمراض الوبائية** "، مخطوط خ.ح-الرباط، رقم 9605، ورقة2.

إن قضية ضبط الأسعار والحيلولة دون ارتفاعها دائما ما كان خاضعا لسلطة الدولة الوسيطية على اختلاف فتراتها إن مع المرابطين[1]، أو الموحدين خلال فترة حكم المنصور الموحدي الذي كان يأمر **"أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم"**[2]، واستمر الوضع قائما مع الدولة المرينية، من خلال جهاز الحسبة[3]، الذي تتجسد مهمته الأساسية في الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله[4]، و كان من المناكر التي تسعى مؤسسة الحسبة النهي عنها والزجر فيها ارتفاع الأسعار.

**جدول رقم2: أسعار بعض المواد الغذائية خلال الجوائح المائية في العصر الوسيط**

| السنوات | السعر | وحدة الوزن[5] | المواد | المصدر |
|---|---|---|---|---|
| 444هـ/1052م | درهم | أوقية | الدقيق | – ابن أبي زرع، "**روض القرطاس**"،114.<br>– ابن عذاري، "**البيان** "، ص255. |
| 534-<br>1140/540م-<br>1146م. | مثقال<br>حشمي<br>ذهبي | ربع واحد | الدقيق | – ابن عذاري، "**البيان.ق.م**"، ص 16. |
| 1142/536م | 3دنانير | السطل الواحد | الشعير | – البيذق،" **أخبار المهدي** "، ص53. |

1- موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص294.

2- المراكشي عبد الواحد، " **المعجب..**"، مصدر سابق، ص236..

3- **"ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب** "، اعتنى بتحقيقه ودراسته الفنية واللغوية والتاريخية والإجتماعية ليفي بروفنسال، مصر، 1955م، ص22.

4- البركة محمد، **"النظام الغذائي من خلال التراث النوازلي مقاربة عمرانية لفتاوى أبي عمران الفاسي"**، ضمن **كتاب النظام الغذائي بالمغرب والأندلس ..**"، مرجع سابق، ص15.

5- **"بالمغرب صاع هو أربعة أمداد من مد أبي حفص يسمى في مراكش السطل. وعندهم صحفة فيها ثلاثة أصوع من هذا الصاع، وذلك اثني عشر مدا من مد أبي حفص، وعشر صحاف من هذه هو المدي، وذلك مائة وعشرون مدا منه. ويقال القفيز أيضا** " . مجهول، "**تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية وتبيين مقاديرها من أقوال العلماء المعتنين بتحقيق ذلك**"، تقديم وتحقيق الشريف محمد، ضمن **مجلة التاريخ العربي**، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، ع11، الدار البيضاء، 1999م.، ص130.

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| 1149/543م | 30 دينار مومنية | زيتون وفواكه | | – مجهول، " **الحلل** "، ص 146 |
| 1172/566م | درهمين | ربع واحد | الدقيق | –ابن صاحب الصلاة،" **المن بالإمامة** "، صص 351-355 |
| | درهم | 25 مدا | الشعير | |
| | درهم | 60 أوقية | اللحم | |
| 1176/571م | غلاء عظيم | – | | – ابن أبي زرع، "**روض القرطاس**"، ص 267 |
| 1185/580م | درهم واحد | 12 مدا | الشعير | – ابن عذاري، " **البيان المغرب–ق.م** "، ص160. |
| | درهم واحد | 15 مدا | القمح | |
| | درهم واحد | – | ثور | |
| | 3دراهم | – | بقرة سمينة | |
| 616- 1220/624م | غلاء شديد | – | | – ابن عبد الملك، "**الذيل والتكملة** "، ص 175 |
| 1227/624م | 15 دينارا | قفيز واحد | | – ابن أبي زرع، "**روض القرطاس** "، ص 274 |
| 1233/630م | 30دينارا | وسق واحد | | – ابن أبي زرع، "**روض القرطاس** "، ص 276 |
| 1235/632م | 3 دنانير سبعة | ربع واحد مد واحد | الدقيق اللطيف الفاسد | – ابن عذاري، "**البيان المغرب–ق.م** "، صص 318-325. |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | دراهم كبارا | | القمح الفحصي | |
| 631-<br>1234/640-<br>1243م | غلاء مفرط | - | | - ابن عبد الملك، " **الذيل والتكملة** "، ص 242. |
| 1237/634م | 37 درهما | ربع واحد | الدقيق | - بن عذاري، "**البيان، ق.م** "، ص339. |
| 1238/635م | درهم واحد<br>30 دينارا<br><br>ارتفاع السعر | 3 أمداد حفصية<br>قفيز واحد<br>- | القمح<br>القمح<br><br>- | - ابن عذاري، " **البيان ق.م** "، ص 347.<br>- ابـــن أبي زرع، "**روض القرطـــاس** "، ص255. |
| 1241/638م | رخص الاسعار | - | - | - ابن عذاري، "**البيان–ق.م** "، ص 357 |
| 646-<br>1249/665-<br>1267م | رخاء مفرط | - | | - ابــن أبي زرع، " **روض القرطــاس** "، ص 259 |
| 1264/662م | غلاء | - | | - ابن عذاري، "**البيان، ق.م** "، ص 434. |
| 708-<br>710هـ/1308-<br>1310م | كانت كلها غالية | - | - | - ابـــن أبي زرع، " **روض القرطـــاس** "، ص395. |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| 723هـ/1323م | درهمين | للرطل | البياض[1] | – ابـــن أبي زرع، " **روض القرطـــاس** "، ص 413 |
| 724-725هـ/1324-1325م | تسعين دينار | صحفة | القمح | –ابـــن أبي زرع، "**روض القرطـــاس** "، ص413-414 |
| نفس السنة | 15 درهما | مد | القمح | –ابـــن أبي زرع، "**روض القرطـــاس** "، ص413-414 |
| نفس السنة | درهم | أربع أواقي | الدقيق | –ابـــن أبي زرع، "**روض القرطـــاس** "، ص413-414. |
| نفس السنة | درهم | خمسة أواقي | اللحم | –ابـــن أبي زرع، "**روض القرطـــاس** "، ص413-414 . |
| نفس السنة | درهم | أوقيتان | الزيت | –ابـــن أبي زرع، "**روض القرطـــاس** "، ص413-414 . |
| نفس السنة | درهم | أوقيتان | العسل | –ابـــن أبي زرع، "**روض القرطـــاس** "، ص413-414 . |
| نفس السنة | درهم | أوقية ونصف | السمن | –ابـــن أبي زرع، " **روض القرطـــاس** "، ص413-414. |

1- الفحم.

يظهر من خلال الإشارات التاريخية التي بين أيدينا أن أسعار الأقوات زمن الجوائح المائية كانت تعرف ارتفاعا مطردا، والذي مس الأطعمة الأساسية للساكنة التي كان قوامها الحبوب.

إن ارتفاع أثمان المواد الاستهلاكية لا يمكن إرجاعه فقط للعامل المناخي، بل كانت للإنسان أيضا طولى في حدوثه[1]، ونقصد هنا ظاهرة الاحتكار التي تشتد خلال فترات الأزمة؛ فانحباس المطر كان يتخذه البعض خير وسيلة لاحتجان الثروة وإن على حساب موت الآخرين[2]، من خلال قيام التجار بتجفيف الأقوات من الأسواق، دون رقيب ولا حسيب[3]، فهم كانوا يرون في كل أزمة مناسبة لتوسيع هامش الربح لديهم الشيء الذي يترتب عنه تحول كبير في الأسعار[4]، متجاوزين في ذلك المحاذير الشرعية[5]. وكان من دوافع هذا الاحتكار أيضا هاجس التوجس من الجوائح المؤدية في غالب الأحيان إلى مجاعات[6] كما تنبه إلى ذلك ابن خلدون "**وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وثيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوي ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبته، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار[7] فإذا**

---

1- بولقطيب الحسين، **"جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين "**، الدار البيضاء، دون تاريخ، ص65. الحسين أسكان، "**المجاعات والأوبئة بين الآفات.."**، ضمن **ندوة المجاعات**..،مرجع سابق، ص133.

2- فرانسيس مولابيه و جوزيف كولينز، **" صناعة الجوع: خرافة الندرة "**، ترجمة أحمد حسان، تقديم فؤاد زكرياء، ع64، الكويت، 1986م، ص75.

3- البياض عبد الهادي، **" الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان.."**، مرجع سابق، ص115.

4- رابطة الدين محمد، **"مراكش زمن حكم الموحدين "**، مرجع سابق، ج2، ص61.

5- "**علة الإحتكار هو إمساك الطعام عن البيع وانتظار الغلاء مع الاستغناء عنه وحاجة الناس إليه، وهو محرم في الشريعة لما ورد من حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب منها: (عن معمر بن عبد الله رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يحتكر إلا خاطئ)** . صححه الألباني ناصر الدين، "**غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام "**، المكتب الإسلامي بيروت، 1400هـ، حديث صحيح، ص325. و **(عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من احتكر على المسلمين طعاما ضربه الله بالإفلاس أو بجذام)** . الألباني نصر الدين، **" الأجوبة النافعة عن أسئلة لجنة مسجد الجامعة "**، بيروت، 1400هـ، إسناده صحيح، 1/82.

6- البزاز الأمين محمد، **"حول المجاعات والأوبئة بالمغرب.."**، مرجع سابق، ص97. - بولقطيب الحسين، **" جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين "**، مرجع سابق، ص66.

7- إذا كان ابن خلدون يعرف الاحتكار بقوله **"هو التسلط على ما بأيدي الناس بشرائها بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم لشرائها بأرفع الأثمان، وجه الغصب والإكراه في البيع والشراء"**، فإنه يقصد بالاحتكار في هذا الموضع الادخار. - ابن خلدون، **" المقدمة "**، مرجع سابق، ص357.

**فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا**"[1]، لحسن الحظ فالمصادر الوسيطية سلطت الضوء على ظاهرة الإحتكار، والتي كانت حاضرة في المجتمع المرابطي إلى درجة "**أن بعض المتصوفة كانوا يأخذون الطعام وقت رخصه ويتاجرون به أيام غلائه**"[2]، وقد نبه ابن عبدون إلى ضرورة أن "**لا يباع من الحنطة ممن يعرف انه محتكر اكثر من قفيز** (...) **وينهى الدلالون ان لا يبيعوا من محتكر اكثر من عولته، ويتوقف ذلك منهم، فهو سبب لغلاء السعر**"[3]. ولذلك كان" **ينبغي لوالي السوق أن يمنع الاحتكار ويضرب عليه من اعتاده ويخرج الطعام من يد من احتكره في كل وقت**"[4].وذلك بالموازاة مع تدابير أخرى للتخفيف من الظرفية العسيرة التي فرضها القحط، من قبيل ما ذكره ابن الحاج في نوازله ، فقد سئل عن " **أنَّ للإمام أن يأمر بإخراج الطعام المخزون إلى الأسواق عند الغلاء واشتداد الحاجة** "[5]، فأجاب بأنه " **إذا كان بالبلد طعام مخزون وكان الغلاء واحتاج الناس إليه فلا بأس أن يأمر الإمام أهله بإخراجه إلى السوق فيباع، وليس يُفعل هذا في كل زمان ولكن عند حاجة الناس** "[6].

ولم يشد العهد الموحدي عن هذا الوضع، خاصة في فترة تراجع ظل الدولة الحاكمة، وضعف سلطانها بالحواضر والبوادي على حد سواء، فقد كانت "**الاسعار قائمة النفاق والبلاد قد تضيقت في كل ما يؤول الى الارتفاق**"[7]، مما اضطر بالمستنصر بالله الموحدي إلى محاولة كبح جماح المحتكرين و"**بسط السطوة على من كان منهم بمدارج الضرر اجمعين واوقع العقاب منهم بالمستهزئين**"[8]، كما أعطى أوامره خلال المجاعة العظمى

---

1- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص376.

2- موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص296.

3- " **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب** "، مرجع سابق، ص44.

4 - ابن الحاج، " **نوازل ابن الحاج التجيبي** "، مصدر سابق، ج 2، ص 346.

5 - نفسه، 346.

6 - نفسه، ص 346.

7- ابن عذاري، " **البيان..**"، **قسم الموحدين**، مصدر سابق، ص259.

8- نفسه، ص259.

لعام 616هـ/1219م إلى عمال وولاة دولته بـ"**بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام ففتحت للعامة وفرقت عليهم فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء، وبغير ثمن للضعفاء (...) فحسنت أحوال الناس بذلك**"[1].

وقد أشارت بعض المصادر إلى فئة من المحتكرين أُطلق عليهم " **القشاشون**"[2] الذين يتسلطون " **على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان**"[3]، فصار " **الناس من ذلك في جهد عظيم ومحنة شديدة** "[4]. وفي المقابلة تمكن القشاشون من الإرتقاء في سلم الهرم الاجتماعي، آيتنا في ذلك ما صرح به صاحب الذيل والتكملة من "**اتساع أحوالهم وبنائهم بما صار اليهم في تلك المدة من الفوائد لتوالي غلاء الاسعار، ونفاق سلعهم، وارتفاع اثمانها الى حد لم يعهد مثله فيما تقدم**"[5].

فكان رد فعل الناس قطع أي شكل من أشكال التعاون مع القشاشين –كما حدث في مكناسة – فـ"**اشتغل بعضهم بطلب المعايش وتعلقوا بالحرف والصنائع** "[6]، وترك الناس مزارعهم حتى " **تبورت، فصلحت بسبب المقاطعة أحوال الناس ونمت أموالهم وامتدوا في الأحياء والغراسات وعمرت المدينة والحوائر والبسائط ونفقت الأسواق وقويت التجارة وصار المسافرون ينزلون بالمدينة ويبيعون ويشترون وكانت في المدينة بداوة ثم تمدنت واكتسبت حضارة** "[7]. أما بالنسبة للعهد المريني فقد عانت الأسواق من جراء ارتفاع الأسعار زمن السنوات العجفاء، والتي كان يساهم فيها أيضا المحتكرون للسلع والمواد الغذائية القادمة

---

1- نفسه، ص267.

2- يصفهم ابن غازي بأنهم "**قوما لا خلاق لهم يقال لهم القشاشون فتستطيل ايديهم على حظوظ الرعية ويضيقون عليهم حتى يبيعوا منهم حظوظهم بثمن بخس**". - ابن غازي، " **الروض الهتون** "، مصدر سابق، ص10 . بينما عرَّف ابن مرزوق القشاشين بأنهم: "**هم المتصرفون في بيع الأملاك وابتياعها والمعرفة بقدر غلاتها**". - ابن مرزوق أبو عبد الله محمد، " **المسند الصحيح الحسن..**"، مصدر سابق، صص311-312.

3- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص357.

4 - ابن غازي، " **الروض الهتون** "، مصدر سابق، ص 10.

5- ابن عبد الملك المراكشي، " **الذيل والتكملة..**"، مصدر سابق، ص178.

6 - ابن غازي، " **الروض الهتون** "، مصدر سابق، ص 10.

7 - ابن غازي، " **الروض الهتون** "، مصدر سابق، ص 10.

من البادية في مقدمتهم أصحاب الدور والفنادق[1]، فقد أعطيت الأوامر السلطانية لصاحب السوق **"أن يأمر البدويين إذا اتوا بالطعام، ليبيعوه فلا يتركوه في الدور والفنادق، وأن لا يبيعوه في الفنادق ولا في الدور، وأن يخرجوه إلى أسواق المسلمين حيث يدركه الضعيف والعجوزة الكبيرة"**[2].

كما تدخلت الدولة أيضا لكسر حاجز الغلاء المفرط في الأسواق زمن الكوارث لإغاثة المستضعفين، وما يقف قرينة على هذا الكلام ما قام به السلطان المريني أبي سعيد إبان المجاعة والغلاء المفرط اللذين عانى منهما المغرب الأقصى في سنتي 724-725هـ/1324-1325م لمواجهة المحتكرين؛ بحيث أمر **"بفتح أهراء الزرع .. فبيع أربعة دراهم للمد، والناس يبيعونه بخمسة عشر درهما"**[3]. وكان من حسن أعمال أبي الحسن المريني وابنه أبي عنان دأبهما على إغاثة المعسرين زمن الجائحة، **"فكم من سنة مسغبة عال فيها إمامنا رضي الله عنه محاويج أهل بلاد المغرب عموما، يخرج زرعه المختزن الخاص به، فيقيم به أود المحاويج عموما في كل ليلة بطول الجدب، وجرى على سنته في ذلك ولده المرحوم أبو عنان، فكان يطعم بين يديه ويتولى القيام عليهم بنفسه ويلزم قواد قصب البلاد بذلك طول الجدب "**[4].

ولما كانت الرعية تنتظر تدخل الدولة على مستوى آخر كتسعير السلع الأساسية لاحتواء غلاء الأسعار، فإننا لم نصادف في مصادرنا أي تدخل من هذا النوع بالرغم من تجويز بعض الفقهاء للأمر زمن القحط كابن

---

1- ارتبطت الفنادق بالنشاط التجاري حيث كانت مكانا لتخزين السلع والمواد التجارية القادمة من البوادي أو من خارج المدن الأخرى، كما كانت محطة لاستراحة التجار والغرباء، ونظرا لدورها الرئيسي فقد أبدى السلاطين في العصر الوسيط اهتماما كبيرا بتشييد الفنادق، خاصة بالحواضر كفاس ومراكش ورباط الفتح وسبتة. الأنصاري . راجع : الأنصاري ابن القاسم محمد، **" اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار "**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983م، ص38-39. وأيضا حسن الوزان، **" وصف إفريقيا "**، مصدر سابق، ج 1، ص240-241.

2- الونشريسي، **" المعيار المعرب .."**، مصدر سابق، ج 6، ص 426.

3- ابن أبي زرع، **" الأنيس المطرب "**، مصدر سابق، ص401.

4 - ابن مرزوق، **" المسند الصحيح "**، مصدر سابق، ص 191 .

عبدون الذي قال "**لابأس بالتسعير إذا كان الامام عدلا وكل ذلك نظرا وصلاحا للمسلمين**"[1]، بالتالي فاجتهاده الفقهي لا يتعارض مع ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن[2].

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة هي نفسها كانت مسؤولة عن ارتفاع أسعار المواد الاستهلاكية زمن الجوائح المائية، من خلال سوء تدبير فترة الرخاء، والتهافت على بيع المواد الغذائية إلى الخارج، بالإضافة إلى تلك الحركات السلطانية[3] التي كانت تتم بين الفينة والأخرى، وما تتطلبه من توفير المؤونة للجند[4]، كلها إذن اعتبارات تؤدي إلى نفاد المواد الغذائية الأساسية من المخازن والأهراء، و خلق بيئة مواتية لتفشي المجاعة، وتأزيم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للرعية.

فمن تداعيات الارتفاع المهول للأسعار على الإنسان المغربي خلال العصر الوسيط، رواية ابن عذاري حول جفاف ومجاعة عام 632هـ/1235م الذي ضرب مراكش وأحوازها بحيث" **تغيرت الصورة الجميلة وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة واذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه، وإنهم لقيام ينظرون وما يصل اليه الا الكفاة الذين لهم تجلد على الاقتحام والصبر، ثم لا يعدم**

---

1- **" ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب "**، مصدر سابق، ص88.

2- يستند الفقهاء في ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حيث قال: **(غلا السعر في المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله قد غلا السعر فسعر لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله هو المسعر القابض الباسط الرزاق، إني لا أرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال)** . أنظر الترمذي، " **صحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي : أبواب البيوع "**، مصر،1931م، 53/6.

3- الحركة هي تلك التنقلات التي كانت تقوم بها السلطة السياسية في مناطق نفوذها وقد شهدت الفترة الموحدية تداول هذا المصطلح، هذه الحركات انحصرت خلال هذه الفترة أدوارها في إما صد العدوان، أو زيارة قبر المهدي ابن تومرت، أو لإخضاع القبائل العربية، أو من أجل الاستجمام، وهي ضرورية لممارسة الحكم وتعبير عن قوة الخليفة، وكل تخل عنها يعتبر عيبا ونقصا في شخصه، هذه الحركات تخضع لتنظيم محكم حتى تمر في أحسن الظروف. - للمزيد حول هذا الموضوع أنظر: حقي محمد،" **الحركة أسلوب للحكم في المغرب والأندلس في العصر الوسيط -سلطة الرموز "**، بني ملال، 2016م.

4- ابن صاحب الصلاة، **" المن بالإمامة "**، مصدر سابق، ص148- 435. - ابن عذاري، **" البيان- قسم الموحدين "**، مصدر سابق، ص186. - الناصري، **" كتاب الإستقصا "**، مصدر سابق، ج2، صص135-136.

**الذي يتوصل اليه ان يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء المساكين حتى ينتزعوه منه قهرا وأما شيخ أو عجوز أو طفل أو ضعيف فانه لا يصل الى شيء"**[1].

وما يمكن قوله هو أن القحوط كان تعلب دورا حاسما في ارتفاع الأسعار، إلى جانب عوامل أخرى ( بشرية، سياسية..)، والتي كانت تزيد من تأزيم أوضاع الرعية، حينما تتسع دائرة الأزمات الغذائية بالبوادي وحواضرها على حد سواء، رغم بعض محاولات السلطة لضبط الأسعار ومحاربة الإحتكار، وتوزيع الطعام على المنكوبين، فطول أمد الجفاف كفيل بأن يكبح أعمال الغوث والتكافل بغض النظر عن الجهة التي تقف وراءها.

## المحور الثاني : العوائد الغذائية زمن القحط :

لا شك أن ارتفاع أسعار المواد الغذائية بالأسواق وشحها، دفعت الناس إلى محاولة البحث عن أغذية تسد رمقهم، وتحدي الموت جوعا[2] وإن كان ذلك مخالفا للفطرة البشرية، كيف لا و**"الجوع قوة اجتماعية بوسعها أن تسلك بالجماعات البشرية مسالك غريبة (...) لإشباع الجوع القاتل الذي يعذبها"**[3].

فالإشارات التاريخية التي تشير إلى النظام الغذائي في الاسطغرافيا التقليدية، كان حضورها متفاوت الأهمية من مُصنف إلى آخر، فالمصادر الإخبارية لا تذكر غذاء الساكنة في أغلب الأحوال إلا في حال حدوث مجاعة، أسفرت عنها ظرفية طبيعية أو سياسية، وكتب المناقب والتراجم تقدم بعض الأغذية التي كان يتناولها الصلحاء ورجالات التصوف، لكن العامة كانت على هامش التدوين في كتاباتها باستثناء حالات نادرة.

وفي المقابل حظيت التغذية في تاريخ المغرب، باهتمام الدراسات المعاصرة باعتبارها لغة ومؤسسة وموقف[4]، هذا الموقف الذي يتغير حسب الظروف وكذا الوضع الاجتماعي[5]. ويستمد موضوع الأغذية زمن

---

1- ابن عذاري، **" البيان- ق.م "**، مصدر سابق، ص325.

2- بروديل فرنان، **" البحر المتوسط والعالم المتوسطي "**، مرجع سابق، ص65.

3- دي كاسترو جوزويه، **"جغرافية الجوع "**، ترجمة زكي الرشيدي، مراجعة محمود موسى، القاهرة، 1970م، ص158.

4- السبتي عبد الأحد و الخصاصي عبد الرحمان، **" من الشاي إلى الأتاي-العادة والتاريخ "**، الرباط، 1999م، ص33.

5- بوتشيش القادري إبراهيم، **" المغرب والاندلس في عصر المرابطين : المجتمع - الذهنيات - الأولياء "**، بيروت، 1993م، ص70.

الجوائح المائية مشروعيته من خلال ما يترتب عنه من أزمات غذائية كان لها أثر كبير على حياة الساكنة خاصة في البوادي[1].

وقد كانت تتحكم في هذه الأقوات ثنائيات متباينة، فلم تكن هذه الأطعمة على نفس النمط، فأغذية البادية ليست كأغذية الحاضرة، ويزداد الأمر تعقيدا أكثر حينما نعلم أن أنواع هذه الأغذية تختلف بين المناطق الباردة والحارة، وتلك الغنية والفقيرة من ناحية الموارد الطبيعية[2]، وبالتالي فإن طبيعة أغذية الرعية كان يتحكم فيها الثقافي والعرفي و الإقتصادي، ومنها ما يتصل بالذهنيات[3]. ناهيك عن مأكولات زمن الجوع، والتي سينصب عليها تركيزنا.

ثمة فائدة للتذكير بأن المجتمع المغربي مجتمع زراعي بالدرجة الأولى، شكلت المواد الفلاحية أساس موائده مما جعله مهددا بنفاد تلك المنتجات تحت وطأة الجوائح المائية من قحط أو سيول كانت تتلف كل شيء؛ فالحبوب وفي مقدمتها القمح والشعير[4] كانت المادة الرئيسية في إنتاج أنواع الخبز[5] فـ"**صار لابد لهم منها في الاغتداء**

---

1- البياض عبد الهادي، **" الطعام والإطعام زمن المجاعات بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط بين التدبير الرسمي والتضامن الشعبي"**، ضمن **كتاب النظام الغذائي بالمغرب والأندلس**، مرجع سابق، ص89.

2- أجميلي حميد،**" جوانب من التاريخ الديموغرافي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط (ق6-8هـ/12-14م)-رصد أولي لبعض قضايا الديمغرافية التاريخية "**، أرفود، 2016م، ص65.

3- مجموعة مؤلفين، **" النظام الغذائي بالمغرب والأندلس "**، مرجع سابق، ص6.

4- رويان بوجمعة، **" الطب الكولونيالي .."**، مرجع سابق، ص27.

5- تعددت أنواع الخبز بالمغرب فعامة الناس كانوا يعتمدون على خبز الشعير سواء في البسائط أو في الجبال على مدار السنة ويليه خبز الذرة فالدخن وهو ما اصطلح على تسميته بالخبز الأسمر أو الأسود، ويقوم جبلون في بعض المناطق بخلط الدخن مع بذور العنب لاستخراج دقيق يصنع منه خبز يقول عنه الوزان "خبزا اسودا كريها شنيعا حقا". وكان الخبز يحظى بأهمية قصوى في المناطق التي اشتهرت بإنتاج الحبوب ونقصد سهل تامسنا ودكالة والحوز والتي كانت المزود الرئيس للمدن والبوادي على حد سواء من حاجياتها منه، أما المناطق الصحراوية القاحلة فان الرحل من الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب منهم من يقضي عمره وما رأى خبزا ولا أكله، وبدل الخبز تصنع قبائل لمطة وصنهاجة الحنطة المجلوبة طعاما ويسمى عند الادريسي بأسول، وأما غالبية أهل درعة فكانوا يعتمدون في غذائهم على التمر لاسيما في الأيام التي لا يأكلون غيره، ويقتاتون بحساء الشعير وغيره من الأشياء البسيطة، أما الخبز فلا يأكلونه الا في الاعياد والولائم"كما شكلت العصائد أحد أهم أنواع الأغذية للفقراء وتختلف مكوناتها حسب الفصول وكانت تتناول في وجبة العشاء، وهناك أنواع أخرى كخبز التابودا، وخبز المدينة المشوك، والرغيف، وخبز سميد الحنطة وخبز الدرمك وخبز الأرز، وغيرها من الأنواع التي لا يسع المجال للتفصيل فيها. - انظر الوزان الحسن، **" وصف إفريقيا "**، مصدر سابق، ج2، ص119. - بنحمادة سعيد، **" الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط مدخل لدراسة العوائد والقيم"**، ضمن **" كتاب النظام الغذائي بالمغرب والأندلس "**، مرجع سابق، ص61-62. - رابطة الدين محمد، **" مراكش زمن حكم الموحدين "**، مرجع سابق، ج2، ص46-47. - فقادي الحسين، **" من مظاهر التغذية في العصر الوسيط"**، ضمن **مجلة أمل**، العدد 16، 1999م، ص36.

**وربما مر عليهم زمن طويل لايأكلون اللحم لقلة اعتيادهم له لا لقلة غذائه ولكنهم لايستطيعون الاستغناء عن الحبوب التي يستعمل منها الخبز**"[1]. وما يؤكد ذلك هو كثرة الأفران والأرحاء[2] الشيء الذي يظهر مدى الحضور القوي لهذه المنشأة في النسيج الإقتصادي والإجتماعي للساكنة[3]، وإن كان هؤلاء أنفسهم مهددين بالسنوات العجاف حين يتوقف الإنتاج وتتوقف معه عجلة الطاحونة[4]، مما يظهر مرة أخرى تأثير الماء في النشاط الإقتصادي من الإنتاج إلى الإستهلاك.

وكنتيجة لاختيار الخبز ركيزة أساسية في الغذاء فقد كان مصير هؤلاء "**إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم**"[5] الشيء الذي يؤدي إلى خلخلة منظومة الغذاء ككل حينها يبادر سكان المغرب الأقصى إلى إنقاذ أنفسهم من خلال اللجوء إلى أكل الحشائش البرية وجعلها بديلا في صناعة الخبز[6] منافسين في ذلك الحيوانات العاشبة في مواردها الغذائية الطبيعية[7]، فبرزت أنواع خبز جديدة من بعض النباتات التي تتكاثر في أوقات الضنك وتكييفها وفق نظامه الغذائي[8]. دليلنا في ذلك ما ساقه التادلي بخصوص مجاعة عام 541هـ/1146م إذ ذكر أن هناك من اتخذ " **أقراص من دقيق البلوط فكان يجعل معه أوراق اللبلاب ويطحنها فيقتات به وما كان يأكل الا من نبات الارض**"[9]. وتخبرنا بعض المصادر عن كيفية تحضير البلوط، حيث يقوم ساكنة الأرياف بنشره حتى يجف، ثم يسحق ويُدق، ويتم مزجه بحشائش أخرى

---

1- الخطابي محمد العربي، " **كتاب الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي**، بيروت، 1990م، ص199.

2- الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج1، ص233.

3- كنتوري عائشة، "**الطواحين المائية بفاس : إشكالية التأصيل والتثمين**"، مقال غير منشور، ص5.

4- ابن رشد، " **فتاوى ابن رشد** "، مصدر سابق، ج3، صص1282-1283.

5- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص 112.

6- بوتشيش القادري إبراهيم- البياض عبد الهادي، "**ثقافة الطعام ..**"، مرجع سابق، ص34.

7- البياض عبد الهادي، " **الكوارث الطبيعية** "، مرجع سابق، ص184.

8- البياض عبد الهادي، "**الطعام والإطعام زمن المجاعات بالمغرب ..**"، مرجع سابق، ص125.

9- ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، 215.

ويصنعون منه دقيق الخبز، حيث صنفته إلى بلوط حلو " **ثمره طويل وآخر قصير، وآخر شديد السواد غليظ الجِرم، وآخر أصهب وآخر شديد الصفرة** "[1].

ذكر ابن عذاري أنه في عام 632هـ/1235م تهافت المتضورون جوعا على صُنع"**خبز يعمل من تابودا التي تنبت في الصهاريج والأنهار والسواقي، وهو شبه من القصب سم من السموم يتخير منه ما جف ويطحن كما تطحن الحنطة**"[2]، وهناك نوع من الأطعمة المستخرجة من عروق الأرض إبان المجاعات فقد جاء في ترجمة أحد المتصوف " **أصابنا جذب شديد فاحتجنا الى استخراج أصول النبات التي نأكلها في أعوام المجاعة**"[3]، وهو ما يطلق عليه اسم " **أرني** "[4] والتي يصنع منها رغيف لسد الرمق[5]، ويتحدث الغساني عن هذه النبتة بالقول أنها تُعرف كذلك ب" **لوف**" أو " **آيَرْنا** "، وهي " **معروفة عند الناس يُصنع منها الخبز في زمان الجدب والغلاء**"، على الرغم من أنها " **تضر بالحلق وتنفطه**"[6].كما عمد آخرون إلى أوراق الشجر لتجفيفها وأكلها[7].

لجأ أهل البوادي إلى صنع العصائد من نوار الخروب[8]، وأخذ "**جاوَرس**" وهو نوع من الحبوب التي يتم ادخارها، حيث يُطبخ مع اللبن، ويُتخذ من " **دقيقه حساءٌ ويُصيِر معه شيء من الشحوم ليُغذَي بها البدن**

---

1 - الغساني أبو القاسم بن محمد الشهير بالوزير ( ت، 1019 هـ / 1611 م )، " **حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار** "، تحقيق محمد العربي الخطابي، بيروت، 1990، ص 57.

2- ابن عذاري المراكشي، " **البيان-ق.م** "، مصدر سابق، ص325.

3- ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص263.

4 مصطلح لنبتة شائعة بالمغرب والأندلس كان يأكلها الناس زمن الشدة.

5- بوتشيش القادري إبراهيم- البياض عبد الهادي، " **ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها..** "، مرجع سابق، ص37.

6 - الغساني، " **حديقة الأزهار** "، مرجع سابق، ص 161.

7- ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 419.

8- بوتشيش القادري إبراهيم/البياض عبد الهادي، " **ثقافة الطعام..** "، مرجع سابق، ص35.

**غذاء صالحا** "[1]. كما سارع آخرون إلى إنقاذ حياتهم من خلال تناولهم " **فيتور الزيتون وغيره، فهو كان غذاء الناس لأنه كثير بالبوادي الخالية فتجلبه الضعفاء ويقتاتون منه ويبيعون فضلاتهم**"[2].

تخبرنا تخريجات مصدرية أخرى على البدائل الغذائية للمغاربة زمن المسغبة، إذ أن كل رجل كان عليه أن يخرج من أجل "**حفر قوته وقوت عياله من البقول والأصول زمن الجدب** "[3]. كما هو الشأن بالنسبة لأحواز فاس، حيث كان أهلها يقتاتون على نبات يعرف عندهم بـ"**جُمَّيز**"؛ "**يشبه ثمرة التين.. ويؤكل في السنين الجدبة الكثيرة الجوع لأنها تلد في العام ثلاث مرات أو أربع**"[4]. فضلا عن تناولهم لحبوب نبات " البُهمى " أو " البُهميً"، وهو " **نبات كنبات الزرع..وله سنبلة كسنبلة الشيلم...وتنقل حَبه النمل إلى بيوتها. فإذا كانت السنُون الجدباء، حفر الناس بيوتها وأخرجوا منها ذلك الحب وأكلوه وتقوّتوا به** "[5]. أما بالنسبة لسكان المرتفعات الجبلية الذين يعرفون بضيق مجالهم الزراعي فإنهم عمدوا في أوقات الجوع إلى "**الدخن الذي يخلطونه مع بذر العنب ويستخرجون منه دقيقا يصنعون منه خبزا أسود كريها شنيعا حقا**"[6].

تحت وطأة نفس الصعوبات الغذائية زمن القحط، لجأ البعض إلى أكل الجراد، فكان يؤكل مقليا وممحلا، كما هو الشأن بالنسبة لأحواز مراكش وسوس[7] التي كان يباع فيها منه كل يوم "**الثلاثون حملا فما دونها وفوقها بقبالة عليه**"[8]. كما كان البعض يضطر إلى أكل الزرع قبل نضجه[9]. أو استهلاك الفول قبل يبسه بدافع

---

1 - الغساني، " **حديقة الأزهار**"، مصدر سابق، صص 73 – 74 .

2- ابن عذاري، " **البيان-ق.م** "، مصدر سابق، ص325.

3 - الفاسي محمد العربي، " **مرآة المحاسن ..**"، مصدر سابق، ص 99 .

4 - الغساني، " **حديقة الأزهار**"، مصدر سابق، ص 81 .

5 - الغساني، " **حديقة الأزهار..**"، مصدر سابق، ص 67 .

6- الوزان الحسن، "**وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج1، ص257.

7- الإدريسي الشريف، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص78.

8- نفسه، ص86

9 - الحميري، " **الروض المعطار..**"، مصدر سابق، ص 306 .

الحاجة والجوع، وهذه المسألة كانت تُطرح على العلماء لمعرفة الحكم الشرعي منها فقد "**سئل عمن وصلته الحاجة وله زرع أخضر فأكل منه شيئاً قبل يبسه، هل يجوز أن يخرج زكاته حينئذ وهو أخضر أم لا**"؟[1].

وكلما طال أمد القحط، وعجزت الرعية أمام " **تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا علموه** "[2] كما حدث عام 607 هـ / 1610م إلا وتغيَّرَ معه سلوك الإنسان إلى القيم الحيوانية الدنيئة، وتتحطم شخصيته الإنسانية، فلا يتورع حينذاك عن القيام بأي عمل شاذ[3] أو سلوك يمتح جوهره من الغريزة الحيوانية. ولذلك حرص الفقهاء في زمن المجاعات من خلال الفتاوى التي كانوا يصدرونها على اتباع المرونة والإجازة أحيانا بتجاوز مساحة المحرم من الأطعمة تحت مبرر الضرورة[4]. فوصل الأمر ببعضهم إلى الإجازة بأكل الضفادع و الحيات إذا احتيج لها[5].

ومن أكثر أنواع الأطعمة خروجا عن المألوف وانسلاخا عن الطبيعة الفطرية للإنسان إبان المجاعات "**أكل خسيس الحيوان** "[6] وفي 535 هـ / 1141 م انحبس المطر فـ" **بلغ جهد الجوع بهم، فكانوا يكسرون عظام الجيف البالية من حفير مراكش ويطلبون مخاخها** "[7]، والمسغبة قد طال أمدها[8]. فاضطر البعض إلى أكل الفضلات والإتجار فيها[9].

---

1 - الونشريسي، " **المعيار المعرب والجامع المغرب..**"، مصدر سابق، ج 1، ص 390 .

2 - ابن عذاري، " **البيان** "، مصدر سابق، ص 373 .

3- دي كاسترو جوزويه، " **جغرافية الجوع** "، مرجع سابق، ص59.

4- بوتشيش القادري إبراهيم/البياض عبد الهادي، " **ثقافة الطعام..**"، مرجع سابق، ص41.

5- البرزلي، " **فتاوى البرزلي** "، مصدر سابق، ج1، ص637-639.

6- ابن غازي، " **الروض الهتون..**"، مصدر سابق، ص 9.

7- ابن زهر أبو مروان، " **كتاب التيسير في المداواة والتدبير** "، تحقيق وتعليق محمد عبد الله الروداني، الرباط، 1991م، ص460.

8- ابن عذاري، " **البيان- قسم الموحدين** "، مصدر سابق، ص16. - ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص183.

9- ابن عذاري، " **البيان - ق.م** "، مصدر سابق، ص325.

من نتائج المجاعات التي عرفها المغرب في عهد علي بن يوسف المرابطي أكل الناس بضعهم بعضا[1]. كما حدث منطقة الريف سنة 635هـ/1237م[2] وقام البعض الآخر ببيع "**أنفسهم للنصارى ليشبعوا عندهم الطعام**"[3].

إن استنفاد كل الآليات الكفيلة بدرء الجوع تدفع أيضا بعض الأناسي إلى الاقتيات على الحشرات والحيوانات الضارة والهوام[4]، وهذه الحالات كانت أقصى سقف وصل إليه "**الانسان في رد فعله اتجاه المجاعات وتعبر في ذات الوقت عن سلوك عدواني لم يكن ليصل إليه إلا بعد انهيار توازنه النفسي وبلوغه درجة عالية من الهياج العصبي غير العادي، واستحكام صورة اليأس المتناهية والتوتر في حواسه مما يولد له تبلدا في الاحساس**"[5]، فالجوع وحده كفيل بتبدل الروابط الاجتماعية والعوائد، والانتقال من التضامن إلى الفردانية في السلوك[6].

يمكن القول بأن تاريخ سكان المغرب هو تاريخ النضال من أجل خبزه اليومي[7]، اكتسب من خلاله مهارات مختلفة تتداخل فيها كلها الإعتبارات المناخية والثقافية والذهنية من أجل تحضير أغذية نباتية لسد رمقه، أظهر من خلالها مخزون الذاكرة التاريخية لديه خاصة في فترات المجاعة والقحط[8].

صحيح أنه "**ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان**"[9] آية ذلك ظرفية القحوط والمجاعات ومستويات حدتها، بحيث كانت تتحكم في أنماط التغذية لدى ساكنة المغرب الأقصى في العصر الوسيط، فتؤدي إلى تحول في نظامهم

---

1- ابن زهر أبو مروان، " **كتاب التيسير..**"، مصدر سابق، صص459-460.

2- ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص362.

3- البادسي عبد الحق بن اسماعيل، " **المنزع اللطيف والمقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف** "، تحقيق سعيد أعراب، الرباط،1993،ص61.

4- بوتشيش القادري إبراهيم/البياض عبد الهادي، " **ثقافة الطعام..**"، مرجع سابق، ص38.

5- دي كاسترو جوزويه، " **جغرافية الجوع** "، مرجع سابق، ص61.

6- بنحمادة سعيد، " **الأغذية والمجتمع بالمغرب..**"، مرجع سابق، ص93.

7- البزاز محمد الأمين، " **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب** "، مرجع سابق، ص29.

8- القاسمي العلوي هاشم، " **مجتمع المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ج2، ص297-299.

9- فرانسيس مولابيه و جوزيف كولينز، " **صناعة الجوع..**"، مرجع سابق، ص7.

الغذائي المألوف، والإنتقال إلى أطعمة الإضطرار[1]. هذه الوضعية عبرت عنها إحدى الأمثال الشعبية بتعبير بليغ "**بالجوع كيرضى السبع بالجيفة**"[2]. في ظل ضعف التدخل الرسمي للسلطة الحاكمة في تقديم الطعام والغوث خاصة لأهل البادية، إلى درجة أن خطاب الطعام في الموروث الشعبي يشير صراحة إلى أن الدولة نفسها تشكل عبئا مضافا على كاهل السكان بقولهم " **إيلا جاع المخزن جوعنا** "[3].

## المحور الثالث : الإدخار والتخزين كأساليب للتخفيف من ظرفية الندرة :

ظل هاجس القحط يخالج ساكنة المغرب الأقصى ويشغل بالها، ما فرض عليها استغلال زمن الخصب والوفرة، من أجل مواجهة ظروف الجوع العسيرة، بحيث عمد أهل البوادي إلى اتخاذ مجموعة من التدابير لمواجهة قلة الطعام كالإدخار والتخزين، باعتبارهما من الثوابت التقليدية[4]، إسوة بأجهزة السلطة في الحواضر والدوائر المقربة منها[5].فابن أبي زرع ذكر بأنه أهل فاس اتخذوا " **مطامير**[6] **في بيوتهم للخزن والطحن والطبيخ**"[7]. نفس الأمر

---

1 بنحمادة سعيد، " **الأغذية والمجتمع بالمغرب..**"، مرجع سابق، ص87.

2- فقادي الحسين، "**من مظاهر التغذية في العصر الوسيط**"، مرجع سابق، ص49.

3- بوتشيش القادري إبراهيم/البياض عبد الهادي، " **ثقافة الطعام..**"، مرجع سابق، ص45.

4- البزاز محمد الأمين، " **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب** "، مرجع سابق، ص353.

5 - هناك العديد من الإشارات التاريخية التي تدل على حضور ثقافة التخزين والإدخار عند الدولة المتعاقبة على المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، خاصة في الحواضر الكبرى. "**عدمت الحنطة باسرها وطلب اسحاق مخازن ابيه فلم يجد فيها شيئا** ". ابن عذاري، " **البيان - قسم الموحدين** "، مرجع سابق، ص 27 . جاء عند صاحب الحلل قوله : "**استولى عبد المؤمن على خزائن علي بن يوسف ودخائر لمتونة مما يقصر على وصفه اللسان**". مجهول، " **الحلل الموشية** "، مصدر سابق، ص 44.

" **كان هربان مبنيان كذلك بسقف مقوس، في كل هري طبقة علوية، يوضع العلف في الطبقة الأرضية، ويخزن في إحدى الطبقتين العلويتين الشعير للخيل. ويخزن القمح في الأخرى. تسع كل من الطبقتين أكثر من ثلاثين ألف كيل من الحبوب**". راجع : الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص133.

6- " **المطمورة تسمى بالأمازيغية تسرفت وهي مخزن محفور ومبني تحت الأرض قصد الإحتفاظ بالحبوب لمدة طويلة قد تصل إلى عشرين سنة، وكانت المطمورة إلى جانب الحقل تمثل عنصرين أساسيين في الريف المغربي، وقد تكون جماعية عندما تتعدد إلى مطمورات كثيرة وفي هذه الحالة تسمى المطامير الجماعية** ". القاسمي العلوي هاشم، " **مجتمع المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ج2، ص284.

وجاء في تعريف آخر بأنها عبارة عن " **حُفر كبرى تغطى جوانبها بالتبن، كما تعلوها صخرة منبسطة، يوضع فوقها غطاء حتى لا تنفذ إليها المياه وتفسد الحبوب، وقد كانت هذه التجاويف الباطنية تحافظ على المحصول لمدة قد تصل إلى 20 سنة، دون أن يتعرض للتلف والضياع** ".

Savine Albert , « **le Maroc il y a cent ans ; souvenirs du chirugien W.Lemprière** », annotés d'après les documents d'archives et les mémoires, société des Editions Louis Michaud , Paris, 1911, p : 29 .

7- ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص114.

بالنسبة لبعض أهل أحوازها فحسب الوزان توجد في **"جبل من حجر كلسي توجد حفرة عميقة تحفظ فيها الحبوب سنين عديدة، وتبلغ سعة بعضها أكثر من مائتي مد من الحبوب"**[1]، فضلا عن المخازن الجماعية[2]، وإغرم[3]. فقد أشارت المصادر إلى أن أهل فازاز كانت لديهم **" قلاع في هذا الجبل يخزنون فيها طعامهم ومحارثهم"**[4].

1 - الوزان الحسن، **" وصف إفريقيا "**، مصدر سابق، ج 1، ص194

2- تشير مونيي (Meunié) إلى أن أصول المخزن الجماعي تتميز بالغموض، والفترة أو المكان الذي ظهرت فيه هذه المؤسسة غير معروف، أما بالمغرب فقد كانت تشييدها القبائل المستقرة بالمناطق الجبلية جنوب البلاد ويضم كل مخزن جماعي طبقتين أو ثلاث، وتملك فيه كل أسرة محلا لادخار المواد الغذائية من حبوب، وعسل، وزيت وتمور ولحوم مجففة، وقد يصل عدد هذه المحلات إلى 200 أو 300 محل أحيانا، وتتخذ هذه المخازن الجماعية شكل قلاع محاطة بأبراج مراقبة، حيث بنيت في مناطق وعرة ومرتفعة، كما أن تسييرها كان خاضعا للقبيلة التي تقوم بمحاسبة ومعاقبة كل من تبث في حقه أي اعتداء على هذه المنشأة.

-Meunié Jacques (Mme),**«Greniers Collectifs»**, **Revue Hespéris Tamuda**, T.XXXVI, 1e et 2e trimestre, 1949, p 102-107-109

يشير نور الدين امعيط إلى أن مصطلح المطمورة الذي ساد بالمغرب والأندلس وإفريقية خلال فترات مختلفة من العصر الوسيط قد حمل دلالة الحفرة الموسعة الأسافل، والتي كانت مخصصة لحفظ الأقوات من حبوب وقطاني وثمار، وتحفر بالبيوت والأجنة، وقد كانت الحاجة تشتد لها أكثر زمن المسغبة والاضطرابات السياسية. امعيط نور الدين، **" الادخار بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط : المصطلحات المتداولة والتقنيات المستعملة "**، ضمن أعمال : **الندوة الدولية " المخازن الجماعية في الأطلس الكبير المركزي : تراث مادي ورأسمال رمزي "**، بني ملال، 2017، صص 158 - 159 . أما فيما يتعلق بمواد بناء هذه المطامير فقد ذكر بأنها نفسها المستعملة في تشييد المخازن، وتتكون من الطين والشطب وخشب الأرز والحجر والجير والجص ومعدن الحديد، حيث كانت تشيد من طرف عرفاء البنائين والطوابين ( صانع الطوب والطابية ) . نفسه، ص 154 .

3- لا يختلف عن الأكادير هندسيا كثيرا، لكنه يتميز بكونه يجمع بين التحصين الدفاعي وتخزين المؤن الجماعية يتخذ شكل دار مربعة لها باب خارجية واحدة تؤدي إلى ساحة مركزية تفتح منها أربع أو خمس طبقات من الغرف الصغيرة التي يصعد إليها بسلاليم وطرق معلقة تربط بينهما وتقوم في أطرافها أبراج تحتوي في الغالب على مسجد وهري عام وغرفة للحراسة ودار الندوة للأعيان وفي وسطها صهريج يحفظ الماء للحاجة. - القاسمي العلوي هاشم، **" مجتمع المغرب الأقصى "**، مرجع سابق، ج 1، ص288. - بنعبد الله عبد العزيز، **"معطيات الحضارة المغربية"**،الرباط، 1963، ج 1، ص111.

4 - ابن سعيد المغربي، **" كتاب الجغرافيا "**، حققه إسماعيل العربي، بيروت، 1970 م، 141.

هذه الأقوات المخزنة في البوادي هي التي ساعدت الموحدين أثناء حملاتهم الحربية وخاصة زمن الجفاف وشح الأقوات، فقد كانوا "**يسيرون في الجبال المنيعة حيث الأرزاق الواسعة**"[1]، حيث كان عمالها يشيدون الأمراس[2] و الأهراء[3] والآبار للإستفادة منها أعوام المسغبة، على طول المسالك والطرق في السهول والجبال، كما حدث حينما أراد عبد المؤمن بن علي الكومي فتح إفريقية عام (554هـ/1158م) بحيث أمر عماله " **بحفظ جميع ما يتحل من الغلات وأن يترك الزرع في سنبله ويخزن في مواضعه وأن يحفروا الآبار في الطرق، ففعلوا جميع ما أمرهم به، وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق وطينوا عليها وصارت كأنها تلال**"[4].

أولى الخاصة والعامة[5] أهمية كبرى للتخزين، ومن أمثلة ذلك تشييد المخازن بفاس أثناء دخول الموحدين إليها[6]، حيث " **زادت المخازن وفورا** "[7]، في فترة الوفرة والخصب التي عرفها المغرب تزامنا مع وصول الدولة لأقصى مراحل قوتها ورخاءها، وهي التي ستساعد الرعية على تحمل ويلات القحط الذي كان يتردد على البلاد[8]، واكتساب خبرة في أساليب الإدخار، وطرق التعامل مع المصاعب المناخية، كما هو الشأن بالنسبة لقحط عام 637هـ/1240م حيث صاروا " **يختزنون الطعام في المطامير في كل عام حيطة على أنفسهم من مثل هذه**

---

1- مجهول، " **الحلل الموشية** "، مصدر سابق، ص130. - ابن عذاري، " **البيان- ق.م** "، مصدر سابق، ص15.

2- اسم يطلق على المكان الذي يضم عددا من المطامير لخزن الحبوب، وقد تكون هذه المطامير أو الأمراس في ملكية عائلة أو عشيرة أو قبيلة أو دوار، وقد تكون أمراسا رسمية تابعة للدولة، يتم فيها خزن ما جمع من مستحقات وما تفرضه على القبائل من ضرائب عينية خاصة القمح والشعير، وقد تكون في ملكية السلطان أو الأمراء أو الوزراء، لا وجود لهذا المصطلح في المصادر قبل العصر المريني. راجع : الطويل حجاج محمد، "**المرس**"، ضمن **معلمة المغرب**، ج21، مطابع سلا ، 2005م، ص7086.

3- هري: كلمة لاتينية الاصل تجمع في عامية المغرب على هريان مخازن للزرع والسلع. - هامش رقم 71، الأنصاري، " **اختصار الأخبار ..**"، مصدر سابق، ص38.

4- الناصري،" **كتاب الإستقصا** "، مصدر سابق، ج2، ص 121 .

5- القادري بوتشيش إبراهيم، "**معمار مراكش في عصر المرابطين والموحدين من خلال النصوص الأثرية في المصادر المكتوبة**"، ضمن **مجلة المناهل**، ع 74/73، 2005م، ص283.

6- البياض عبد الهادي، " **الكوارث الطبيعية** "، مرجع سابق، ص208.

7- ابن عذاري، "**البيان-ق.م** "، مصدر سابق، ص99.

8- الحسين أسكان، "**المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية..**"، مرجع سابق، ص145.

**المجاعة التي لم يعهد مثلها في الاعوام الفارطة "**[1]، واشتهرت سبتة وأحوازها بأنها " **الأمينة على الإختزان القويمة المكيال والميزان"**[2]، حيث بلغ عدد المطامير بها " **أربعون ألفا مفترقة بالديار"**[3]، ونفس الحالة تنطبق على أهل فاس بحيث " **ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره"**[4].

وقد ذكر الجزنائي بأن مستودعات خزن الحبوب بها وصلت في عهد الناصر إلى نحو " **أربعمئة وتسعة وستين"**[5].

أما بدكالة التي كانت تعاني من مشكلتين كبيرتين، الأولى تتعلق بقلة المياه ومحاولة تخزينها[6]، والثانية تتجسد في إدخار الحبوب وخزنها لمواجهة سنوات القحط[7]، فبخصوص المشكلة الأولى يحدثنا التادلي بأن حدة الجفاف دفعت أحد الأولياء إلى دعوة قومه لأن "**يستقوا من الحفرة التي أعدها لماء المطر**"[8]، أمر سجله أيضا ابن الخطيب لما زار المنطقة مؤكدا بأن فيها "**نطاف عذبة تختزن بها بركات الأمطار فيقع بها أمنهم والاجتراء الى زمن المطر**"[9]. أما فيما يخص المشكلة الثانية، فقد أشار صاحب وصف إفريقيا إلى أن ساكنة دكالة كانت تستغل سنوات الوفرة لادخار الفائض من الإنتاج الزراعي، فأهل منطقة مائة بير كانت تحتوي على " **عدة مطامير تعود السكان أن يخزنوا فيها حبوبهم. ويقول سكان هذه البلاد بأن القمح يحفظ في هذه المطامير مائة سنة دون أن يفسد أو تتغير رائحته. لكثرة هذه المطامير التي تشبه الآبار تسمى هذه المدينة مائة بير "**[10]

.

---

1- ابن عذاري، " **البيان - قسم الموحدين** "، مرجع سابق، ص351.

2- ابن الخطيب، " **معيار الإختيار** "، مصدر سابق، ص146.

3- الأنصاري، " **اختصار الأخبار..**"، مصدر سابق، ص42.

4- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص109.

5- الجزنائي، " **جني زهرة الآس..**"، مصدر سابق، ص44.

6- ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، ص 71 .

7- الطويل حجاج محمد، "**دكالة بين الشدة والرخاء**"، مرجع سابق، ص47.

8- ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص235.

9- ابن الخطيب، " **نفاضة الجراب** "، مصدر سابق، ص69.

10 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 153.

لقد استعملت المطامير والأهراء بكثرة في العهد الموحدي وما بعده، ويبدو أن الأهراء ماهي إلا تطوير للمخازن الجماعية التي كانت معروفة ومستعملة لدى المصامدة بالبوادي قبل انتقالها للمدن، هذه المستودعات والمطامير كانت تراعى في بناءها عدة شروط[1]، كأن يتكون المكان من تربة معينة وصخور تمتص الرطوبة كالطفل والصخور الجيرية [2]ويبدو أن بعض المناطق توافرت فيها على غرار سبتة[3]، آسفي[4]، مكناسة[5]، وتازة[6]. وعلى النقيض من ذلك عُرفت بعض المناطق بفساد مخزونها كما هو الحال بالرباط[7]، وأنفا[8]. وعلى الرغم من إشارة البعض إلى أن أهل المناطق التي تتميز بمناخها الحار قد" **غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من أسواقهم**"[9]، فإنهم يلجأون في العديد من الفترات لخزن القمح[10]، أو خزن التمور في دنانات كما هو الحال بالنسبة لأهل جنوب البلاد[11]، فمنطقة درعة على سبيل المثال كان محصولها من التمور موجها للاستهلاك المحلي والتصدير إلى الخارج أحياناً، حيث تُسقى بمياهها "**حقول كثيرة من النخيل تنتج أجود ما يوجد في إفريقيا كلها من التمر، وهو رفيع إلى درجة أن أدنى رطوبة تذيبه كالسكر، لذلك يصدر القليل منه إلى أوربا بعد أن يجفف جيدا قبل أن يحمل إليها**"[12].

---

هذه الوفرة في الإنتاج ساهمت فيها أيضا التربة الخصبة التي تتوفر عليها المنطقة، رغم قلة مياهها، يقول ابن قنفذ : " **على ساحل البحر المحيط، جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر.. وليس بها نهر ولا عين إلا آبار طيبة..وعجب ( أبو بكر بن العربي ) من قلة مائها وكثرة خيرها. وقال : رأيتها أنبتت ثاني يوم المطر** ". راجع : " **أنس الفقير وعز الحقير** "، مصدر سابق، ص 71 .

1- " **ينبغي أن يختار لاختزان الفواكه وغيرها المواضع الباردة (ذوات) الرائحة النظيفة، وذوات الفوائح (غير) القبيحة**". ابن العوام الإشبيلي، " **الفلاحة الأندلسية** "، مصدر سابق، ج3، ص242.

2- الطويل حجاج، " **الفلاحة المغربية..**"، مرجع سابق، ص 84.

3- " **كان يمكث الزرع في هذه المطامير الستين سنة والسبعين سنة لا يلحقه تغير، لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية** ". الأنصاري ابن القاسم محمد، " **اختصار الأخبار** "، مصدر سابق، ص42.

4- "**صابرة على الاختزان**". ابن الخطيب، " **معيار الإختيار** "، مصدر سابق، ص160.

5- ابن الخطيب، " **نفاضة الجراب** "، مصدر سابق، ص372.

6- "**حبوبه تدوم على الخزن**". ابن الخطيب، " **معيار الإختيار** "، مصدر سابق، ص182.

7- "**والخزين بها فاسد**". - ابن الخطيب،" **معيار الإختيار** "، مصدر سابق، ص155.

8- " **الخزين بها لا يلبث** ". - نفسه، ص158.

9- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص109.

10- دوفيردان كاستون، " **تاريخ مراكش..**"، مصدر سابق، ج 1، ص259.

11- الإدريسي الشريف، " **وصف افريقيا الشمالية والصحراوية** "، مصدر سابق، ص77.

12 - كاربخال مارمول، " **إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 2، ص 113.

يعد استعمال الأواني الفخارية لخزن الحبوب تقنية متبقية عن القرون الأولى لاكتشاف الزراعة والفخار، حيث كان الإنتاج ضئيلا لا يكاد يفي بحاجيات الأسرة، ثم تحول إلى ما يشبه السلال الكبيرة المبلَّطة بالطين أو المبنية بالحجارة على شكل جرة كبيرة تشبه أفران شوي الأغنام المستعملة اليوم في البوادي، ثم استعملت الكهوف لخزن الحبوب والتبن في أوقات الاضطرابات السياسية، وفي المناطق الجبلية الباردة استعدادا لفصل الشتاء، ثم تطورت الأساليب إلى المخازن الجماعية ( إغرم وأكادير )[1]. والتي كانت منتشرة بالبوادي المغربية فقد عملت القبيلة على حمايتها خوفا عليها من الإغارة ووضعت بعض القبائل بالبوادي حراسا مسلحين على أمراسها[2]، كما كانت تخضع لتقاليد وأعراف تنظم هذه المهام، ومن الأمثلة الدالة على ما أوردناه بخصوص قلاع بجبال فازاز التي يتحصن فيها بعض أهل هذا الجبل ويخزنون فيها طعامهم، وهناك أيضا قلعة تزوطة التي اتخذها بعض قبائل بني مرين كموضع كانوا " **يخزنون فيها حبوبهم وأمتعتهم** "[3]، بالإضافة إلى جبال تسكدلت التي كان يحمل إليها "**أهل البادية.. جميع حبوبهم خوفا من أن يسلبهم إياها الأعراب** "[4]، مما يؤكد أن العصبية القبلية تمثل الرابطة التي تجمع أفراد القبيلة وتُوحِّدهم، بالإضافة إلى المصلحة المادية المشتركة والتي تمنح لتلك الرابطة فاعليتها لتمثل وحدة سياسية تعبر عنها بالانتماء المكاني لمساحة من الأرض تعتبرها موطنا لها.

من المرجح أن هذه الأهراء والمخازن كانت تخضع لإشراف شخص مُعين، يطلق عليه " **أمين المخزن** " الذي ورد في إشارة عابرة عند صاحب المن بالإمامة[5]. فتقلد منصب حراسة المخازن كان من الخطط الإدارية الهامة نظرا لحساسيتها[6] تعرف بـ"**مخازن السلطان**"[7]، ويدعى القائم بها "**صاحب الطعام**"[8] ومن هؤلاء من حظي بتعيين

1 - الطويل حجاج، " **الفلاحة المغربية..**"، مرجع سابق، ص84.

2- نفسه، ص 84.

3 - مارمول كربخال، " **إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 2، ص 264.

4- الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 104.

5 - ابن صاحب الصلاة، " **المن بالإمامة..**"، مصدر سابق، ص 396 .

6- البياض عبد الهادي، " **الكوارث الطبيعية** "، مرجع سابق، ص203.

7- ابن عذاري، " **البيان-ق.م** "، مصدر سابق، ص259.

8- نفسه، ص137.

السلطان[1]، حيث كانت تمارس عليهم رقابة شديدة، فكل من " **يسعى في نوع من أنواع الفساد** (...) **وتمتد ايديهم الى المخازن هنالك فيعيثون فيها ويتحكمون ويجرؤون في التعدي عليها... فاتقوا الله تعالى فيها** (...) **وبادروا الى كف كل معتد وقبضه ولاسبيل لكم أن تنفذوا منها قليلا ولا كثيرا إلا بعد استئذاننا** (...) **وهذا أمر منا لكم ولكل من وقف على كتابنا هذا**" [2]، فأثناء تفقد أبي يعقوب يوسف المخازن سنة 579هـ-1183م - بالتزامن مع تفشي المجاعة - بغية فتحها للحط من ارتفاع الأسعار[3] اكتشف بأنها تعرضت للنهب فما كان منه إلا أن عاقب المتورطين فيها، وأشار ابن عذاري إلى أن نفس الأمر قد حدث في عصر الخليفة الناصر لما مر بالطريق على "**المنازل التي كانت تستمد منها الرفاق**(...) **ويدخر منها الازودة**(...) **فألفها وقد جف معينها وخف بتوالي العدوان قطينها ولم يبق منها لمخازن السلطان الوافرة اثر ولا يتضح لخازنها دليل ولا نظر واستولى على عموم المحلة الاقتار**(...) **واحفظ الناصر ما رأى من هذا الاهمال وشد اغفال المكلفين بالاعمال فبسط السطوة على من كان منهم بمدراج الضرر أجمعين وأوقع العقاب منهم** "[4]. كما أن ابن أبي زرع تحدث عن لجوء السلطة إلى فتح مخازن الزرع سنة 724 هـ / 1323 - 1324 م إذ أخرجته للبيع بأربعة دراهم للمد، في الوقت الذي كان يُباع فيه في الأسواق بـ 15 درهما [5]، وهذا أمر بديهي بالنظر إلى أن السلطة الحاكمة خلال العصر الوسيط كانت أكبر مُخزن للأقوات بالبلاد[1].

---

1- ابن عذاري، " **البيان - ق.م** "، مصدر سابق، ص201.

2- راجع : " **رسائل موحدية-مجموعة جديدة** "، ج1، مصدر سابق، صص 67-68.

3 - يبدو أن مصطلح المخزن الذي عرفت به الدولة الموحدية يدل في أصله على وظيفة اجتماعية، كون التخزين الرسمي يهدف إلى ضمان إمداد الأسواق بالأقوات والحد من موجات الغلاء في أزمنة الجوع والقحط . راجع : البزاز محمد الأمين، " **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب** "، مرجع سابق، ص363. - التوفيق أحمد، " **المجتمع المغربي..**"، مرجع سابق، ص64.

4- ابن عذاري، " **البيان - قسم الموحدين**، مصدر سابق، ص158.

5 - يقول ابن أبي زرع في هذا الشأن : " **وفي سنة أربع وعشرين وسبعمئة وصدر من سنة خمس وعشرين كانت المجاعة بالمغرب، وارتفع السعر في جميع البلاد، وغلت الأسعار في جميع الأمصار، فوصلت صحفة القمح تسعين دينارا، ومد القمح خمسة عشر درهما، والدقيق أربع أواقي بدرهم، واللحم خمس أواقي بدرهم، والزيت أوقيتان بدرهم، والعسل كذالك، والسمن أوقية ونصف بدرهم، وعدمت الخضر بأسرها، دام ذالك من أول سنة أربع وعشرين إلى شهر جمادا الأولا من سنة خمس وعشرين، فأغاث الله عز وجل بلاده، ورحم عباده، وصنع أمير المسلمين في هاذه الشدة والمجاعة مع رعيته من الخير ما لا يقدر واحد عل وصفه، فتح لهم**

تجب الإشارة إلى أن الإدخار والتخزين كان يشمل أيضا الخضراوات والفواكه وأنواعا أخرى من الثمار، حيث تخبرنا كتب الفلاحة عن تقنيات اختزانها، كالعنب الذي تتم تغليته، ثم تبريده بعد ذلك، ثم تنزل العناقيد فيه، وتجفف بعد إخراجها منه، وتوضع في تبن الشعير، حيث يبقى صالحا لمدة طويلة[2]. والتين حيث "**يجمع إذا سقط في الأرض بعد تناهي نُضجه، ويُفرش له على ديس ( حلفاء ) يابس، ويعرَّض للشمس..ويُرش عند اختزانه بماء بعد أن يُحلَّ فيه ملحٌ رشا خفيفا، مثل الرّش بماء الورد بعد أن يخلط بدُهن وخل، فيحفظه من السُّوس، ولا يلحقه تغير**"[3]. أما التفاح فيتم نشره متفرقا تحت طين يابس، ثم يُجفف، ليوضع في إناء فخاري، حيث يُصَبُّ عليه" الصعتر" للحفاظ عليه من التلف لفترة طويلة[4]. وبالنسبة للبصل والباذنجان والقثاء والقَرْع والخيار فكان يتم الحفاظ عليها بالخل[5]، وهي التقنية الأكثر تداولا لحفظها مدة ليست بالهينة، بينما كان الزيتون الأسود الذي كان يُسمى بـ" المِشَمَّر " [6] – يُملح ويُدَّخر في آوان فخارية مع العسل والخل[7].

---

**أهراء الزرع وأخرجه للبيع، فبيع أربعة دراهم للمد، والناس يبيعونه بخمسة عشر درهما، وأمر بالصدقات..".** أنظر : " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص 401 .

1 - Rosenberger Bernard, « **Société, pouvoir et alimentation : nourriture et précarité au Maroc précolonial** », publié avec le concours du service de coopération et d'action culturelle de l'ambassade de France au Maroc, Alizés, 2001, p : 72.

2 - بن العوام، " **الفلاحة ..**"، مصدر سابق، ج 3، ص 485.

3 - نفسه، ص 501.

4 - بن العوام، " **الفلاحة ..**"، مصدر سابق، ص 504.

5 - بن العوام، " **الفلاحة ..**"، مصدر سابق، صص 523 – 525.

6 - أشار نور الدين امعيط إلى أن مصطلح التثمير ظل يُقصد به تقنية تجفيف الزيتون، حيث كان متداولا بالأندلس مصطلحا ومفهوما في أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين، قبل أن ينتقل إلى المغرب، مؤكدا على هذا الأمر باستمراريته إلى يومنا الحاضر على ألسنة العديد من أهالي المغرب، فهم يسمون الزيتون الذي خضع لتقنية التثمير " **تامتامرت** "، ولعله تحريف للمصطلح الفلاحي الأصل "**التثمير** " اقتضته فقط طبيعة اللسان الأمازيغي . راجع دراسته : " **الإدخار بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط..**"، مرجع سابق، ص 163.

7 - بن العوام، " **الفلاحة..**"، مصدر سابق، ج 3، صص 531 – 533.

عموما، يمكن القول بأن سلوك التخزين والإدخار شكل وسيلة من بين وسائل أخرى كانت ترنو التخفيف من ظرفية الجوائح المائية، فالتقنيات التي تم توظيفها في هذه العملية هي في واقع الأمر موروث ثقافي استمر تداوله تطبيقا وممارسة خلال العصر الحديث والمعاصر لما أثبتته هذه الأساليب من فعالية ضمانا لحفظ الأقوات وعدم فسادها، ما يعني تجذرها في الذاكرة الجماعية، لدرجة إضفاء طابع المقدس عليها[1]، ومنحه مكانة عليا[2]. وقد ترجمت ثقافة الادخار ضمن أمثال المغاربة التي ظلت تحفز على الخزن والادخار للنجاة زمن المسغبة[3]، ولذلك عد أحد الدارسين سلوك التخزين من ضروريات الحياة[4]، ولم يكن التعويل في ذلك على الدولة عكس ما ذهب إلى أحد الباحثين من كون الرعية لم تكن لديها أساليب ادخار لمواجهة الكوارث الطبيعية[5].

---

1 - نستشهد في هذا الباب بوصية عبد الله بن محمد بن أبي بكر البوشواري عام 1071 هـ / 1661 م التي تحث على ادخار الأطعمة والأعلاف، وضرورة الاقتصاد وتحذير المسرفين من عاقبة التبذير زمن الخصب، من أجل تدبير الظروف الصعبة التي تعرفها السنوات العجفاء، لدرجة إضفاء القدسية على سلوك الادخار، حيث جاء فيها : **" وهناك وصية أوصى بها...قال الله تعالى كلوا واشربوا ولا تسفروا انه لا يحب المسرفين .وقد فسر الدهر ذلك لنا تفسيرا. فان سني المجاعة لا تجد فيها الا ما ادخرته في السنين المخصبة .فعليك بالادخار ثم اياك واياك السرف. فادخر ما أمكنك من الادام والزرع والجلبان واللفت اليابس والهرجان والخروب وغير ذلك وزريعة كل شيء ثم اياك ثم اياك التفريط في التبن فهو تبر لا تبن وهو اساس كل شيء... ومن لم يدخر شيئا فالويل له والثبور والفضيحة في الدنيا والآخرة ... وادخر الزرع بقدر الامكان فان كان ولابد من بيعه للفساد فبدله بنوى الخروب أو بالذرة فانها لا تسوس أو الجلبان أو بالادام... واياك وسلف الزرع وافساد التبن، فاخزنه متى تجد شيئا منه. فانك ستندم اذا لم تخزنه في وجوده..".** السوسي محمد المختار، **" المعسول "**، الدار البيضاء، 1961 م، ج 17، صص 256 – 258 .

2 - نشير في هذا الإطار إلى أن ادخار الطعام في منطقة سوس، كان أيضا مؤشرا على التمايز الاجتماعي، فقد كان الشعير الذي يظل مُخزنا لعدة سنوات في المطامر والمخازن، والذي يسمى **" أبلاغ "**، يشكل **" معيشة أثرياء المعدريين إذذاك ( كذا ) بل يلزمون من لا يأكل منه بأنه معوز فقير لا ثروة له "**. راجع : السوسي محمد المختار، **" المعسول "**، مصدر سابق، ج 13، ص 153.

3 - تعددت الأمثال المغربية التي تدعو إلى الخزن و الإدخار ، ومنها : **"اللي يوفر عشاته لغداته الأيام اعطاته * ألي دس من عشاه لغداه ما يتشفى فيه اعداه ". - " على قدر فراشك مد رجليك ". - " البس قدك يواتيك ". - " اعمل لو خويتم على قد يدو ". - " من ماع ما يبيع، إس يضيع "**. راجع : دراسة :

Brunot ( L ), « **Proverbes et dictions arabes de Rabat** », **Revue Hesperis - Tamuda**, vol 8, 1928, p : 71.

كان أهل البلاد المزابية عبر تاريخهم الطويل يُفْرطون أحيانا في تخزين القمح، تحسبا لحلول القحط، ولايبيعونه حتى ولو بدأت تظهر عليه آثار السوس، حيث يقولون " : **سوسو أخير من فلوس** . " الحجاجي محمد غازي،" **خروج السمايم نقايم وخروج الليالي نعايم : الأمثال الشعبية بمنطقة الدار البيضاء والشاوية حسب المواسم الفلاحية "**، ضمن **سلسلة الشاهد في تاريخ وتراث الدار البيضاء والشاوية**، الرباط، 2015 م، ص .87

امعيط نور الدين، **"الإدخار بالمغرب .."**، مرجع سابق، ص 161 و ص 164 .

4- البزاز الأمين محمد، **"حول المجاعات والأوبئة بالمغرب.."**، مرجع سابق، ص102 .

5- جسوس عز الدين، **" الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها.."**، مرجع سابق، ص70.

إن هذه الأساليب هي نتاج لقهر الطبيعة بدرجة أولى، ودليل على سيادة اقتصاد المعاش وثقافة الندرة، وهي تكشف أيضا عن أنماط العيش ووسائل الإنتاج وتدبير المجال والمعيش اليومي، وروح التضامن بين القبائل[1]، كما تعكس الخضوع لثقافتها المشتركة وتقاليدها[2]. وإنتاج الأعراف التي تنظم الحياة الاقتصادية والاجتماعية داخل القبيلة. على أن نجاعتها كانت رهينة بعدم طول السنوات العجاف.

## المحور الرابع : دور المناخ في التنقلات البشرية بالمجال المغربي :

تؤشر الهجرة دوما " **على نوع من الحراك الإجتماعي داخل المجال، والذي يفترض انتقالا اجتماعيا من فضاء لآخر، ومن ثقافة لأخرى .مما يعني أن الهجرة في مطلق الأحوال تنتج ظواهر وحالات مجتمعية أخرى بحكم انطوائها على السبب والنتيجة في نفس الآن، فهي نتيجة منطقية لتظافر عوامل متعددة، وسبب طبيعي لانبناء وانوجاد ظواهر أخرى** " [3].

من هذا المنظور، فالتنقلات البشرية كانت تقف وراءها عدة عوامل؛ منها ماهو مرتبط بنمط عيش الساكنة أو الدولة الحاكمة، وما له علاقة أيضا بموجات الجفاف الحادة، وراء هجرة الأفراد والجماعات إلى المناطق التي لم تمسها الأزمة، يأو التي شهدتها، لكن بصورة أخف وطأة.

وإذا أرادنا تتبع هذه التنقلات خلال فترة الدراسة سنجد عدة صعوبات على رأسها الاسطغرافيا التاريخية التي اقتصرت على الإشارة بصورة عابرة للهجرات الداخلية أو الخارجية الكبرى[4]، التي كانت في أوقات عادية دون التعرض لتلك الناتجة عن أزمات مناخية رغم أنها هي الأخرى كانت تدفع الإنسان دفعا نحو البحث عن مناطق

---

1- بوتشيش القادري ابراهيم، " **البنية القبلية بالمغرب..**"، مرجع سابق، ص83.

2 - سعاد بلحسين، " **مخازن أوجكال : المعيش اليومي وآليات تدبير المجال** "، ضمن **ندوة المخازن الجماعية**...، مرجع سابق، ص 68.

3 - العطري عبد الرحيم، " **المسألة القروية في المغرب ..**"، مرجع سابق، ص 173 .

4- أجميلي حميد،" **جوانب من التاريخ الديموغرافي بالمغرب الأقصى..**"، مرجع سابق، ص89.

الماء والكلأ[1]، وقد أشار أحد الدارسين أن المغرب خلال هذه الفترة من تاريخه كان يشهد تحركات بشرية متقلبة وشديدة التنوع[2]، كان للجوائح المائية دور فيها، بحيث أدت إلى زعزعة الإستقرار بالبلاد لسنوات طويلة[3].

فالتيارات المتتالية من الهجرة لعبت دورا كبيرا في تعمير البلاد وازدياد ساكنته إلا أنها خلقت حالة من عدم الإستقرار وعرقلت تمركز نمط معين من العيش فيها، وبالتالي فإنها لم تترك الفرصة الكافية لتبلور عمل الإنسان، وبالتالي فإن مجهوداته لإخضاع الطبيعة سرعان ما تعرقلها وتضايقها موجة الهجرات التي تدفع بالإنسان المغربي المستقر إلى مناطق أخرى غير منطقته الأصلية، فيبدأ من جديد عملية التكيف والتلاؤم وتتحول المناطق السابقة من مناطق مستثمرة بكيفية جيدة إلى مناطق للرعي، هذا التنوع والتجدد في العناصر السكانية المكوِّنة للمغرب أعطى خليطا من أنماط العيش تتحكم فيها الظروف البشرية أكثر من الظروف الطبيعية[4].

لقد ظل الإنسان المغربي في صراع بنيوي مع الطبيعة، التي كانت تدفعه للبحث عن مسالك ومناطق يلجأ لها زمن الشدة من خلال التنقل والترحال بحثا عن مصادر للغذاء وتعويض ندرة الموارد لديهم[5]، أو طرد قبائل للحلول مكانها، حيث بات من المعروف أن جنوب البلاد، سواء في المناطق الجبلية أو المناطق الصحراوية كانت بمثابة خزانات بشرية تنطلق منها هجرات جماعية إلى السهول لتعميرها، وترميم النقص الديمغرافي الذي عرفته. وقد فسر أحد الباحثين هذه المسألة، بالإشارة إلى أن هزالة الموارد التي تعاني منها الجبال والمناطق الصحراوية، لا يمكنها سد الحاجة من الطعام لساكنة تتكاثر أعدادها بوتيرة سريعة جدا، ما يدفعهم لاختيار الهجرة إلى السهول[6].

---

1- أسكان الحسين، **" المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة.."**، ضمن ندوة المجاعات والأوبئة..، مرجع سابق، ص138. - بوتشيش القادري ابراهيم، **" البنية القبلية بالمغرب .."**، مرجع سابق، ص22.

2- القبلي محمد، **" حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن 12م ونهاية القرن 13م"**، ضمن : **كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط : علائق وتفاعلات "**، الدار البيضاء، 1997م، ص41.

3- اجميلي حميد، **" جوانب من التاريخ الديموغرافي.."**، مرجع سابق، ص179. - المغراوي محمد، **"المغرب في العصر الموحدي: جدلية القوة والأزمة "**، ضمن : **ندوة المجاعات والأوبئة**، مرجع سابق، ص92.

- 4الطويل حجاج، **" الفلاحة المغربية.."**، مرجع سابق، ص 54.

5- الناصري محمد، **"الكوارث الطبيعية.."**، مرجع سابق، ص80

6 - حالي محمد، **" المجتمع والأزمات الديمغرافية في تاريخ المغرب في القرن الثامن عشر ( 1727 – 1757 ) : مساهمة في الديمغرافيا التاريخية "**، دمشق، 2013، ص 190.

ما يقف قرينة على هذا الطرح نجده بين دفوف المصادر التاريخية التي تحدثنا عن أول تحرك للساكنة في العهد المرابطي والذي كان جراء ما لحقهم من القحط الذي ضرب البلاد في سنة (450هـ/1058م) " **فأمر ابن ياسين ضعفاءهم بالخروج إلى السوس وأخذ الزكاة** "[1]، رأى فيها البعض أكبر هجرة صنهاجية باتجاه الشمال لدرجة أنها غيرت خريطة المغرب السلالية[2]. وقد لفت أحد الدارسين الإنتباه إلى أن قيام كل دولة يؤول في الواقع إلى انتصار تحرك بشري غالب يرمي إلى اتجاه معين غالب كذلك، ومعنى هذا أن لكل تحرك غالب تحركات مواكبة وأخرى مناوئة أو معارضة قد تختلف أهميتها باختلاف الظرفية والأحوال[3].

لقد أدت سيطرة المرابطين على السلطة وتوحيد البلاد إلى انتقالهم من السفوح الشرقية والجنوبية لدرن نحو الداخل والمناطق الشمالية، فقد استقرت بعض قبائلهم منذ وقت مبكر ببعض البوادي في جنوب وادي سوس كلمطة وجزولة. وجنوب جبال غمارة، والسفح الشمالي لدرن، كما أصبح جبل فازاز منطقة سكنية صنهاجية، وتقدمت قبيلة لمطة شمال الحوز في بداية أمر الموحدين، ثم استقرت شمال فاس، ونتيجة هجرات قبائل صنهاجة، تقلص مجال تنقلات قبائل غمارة، حيث كان يمتد قبل ذلك إلى سهول أزغار، لكنه انحسر في الزاوية الشمالية الغربية من جبال غمارة[4] .

ساهمت هذه الموجة الجديدة من الهجرات في تعمير مناطق جديدة كانت فيما سبق أقل سكانا كجبل فازاز وتوسع تعمير المناطق القديمة الإستقرار، حيث نشطت حولها الزراعة ولعبت دورا كبيرا في تحويل القبائل الصنهاجية الطارئة على المنطقة إلى قبائل مُستقرة، يتزايد اعتمادها على النشاط الزراعي وتربية المواشي بدل الرعي الواسع[5].

---

1- ابن الأثير أبو الحسن، " **الكامل في التاريخ** "، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، لبنان،1987م. ج 8، ص329.

2- الطويل حجاج محمد، "**منطقة عبدة وأحمر خلال العصر الوسيط: المجال والإنسان**"، ضمن : **كتاب تاريخ إقليم آسفي..**"، **مرجع سابق**، ص87. - بوتشيش إبراهيم القادري، " **مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس** "، مرجع سابق، ص20.

3 - القبلي محمد، " **التحركات البشرية..**"، مرجع سابق، ص 49.

4 - حجاج الطويل، " **الفلاحة المغربية...**"، مرجع سابق، ص 57.

5 - حجاج الطويل، " **الفلاحة المغربية...**"، مرجع سابق ، ص 57.

عرف التعمير والزراعة أقصى اتساعهما في العهد الموحدي، لكون المصامدة كانوا أكثر تجمعات البربر عددا في المغرب وأقدمهم استقرارا بالبوادي وتمرسا بالنشاط الزراعي بالرغم من ضيق المجال الزراعي خاصة بالجبال وسفوحها[1]. ونظرا لهذه الوضعية المعقدة للقبائل المصمودية فقد حاول الموحدون تعمير دكالة وتامسنا بالعنصر العربي الذي تم إدخاله للمغرب[2]، غير أنه فشل في ذلك لأنه لم يتكيف مع البيئة الجديدة بالسرعة المطلوبة فاستمر على نمط عيشه القديم المعتمد على الرعي والتنقل. هذا الانقلاب في التركيبة السكانية تعزز بعد ضعف الدولة الموحدية والمرينية بدخول قبائل أخرى من العرب والرحل ونعني بهم عرب معقل الذين انتقلوا من المناطق الصحراوية نحو الداخل، فأصبح العنصر العربي يحتل الرتبة الثانية في البلاد من حيث العدد.وتم تعريب مناطق شاسعة في المغرب بداية بدكالة، ثم باقي السهول المحيطية بعد ذلك، إذ أصبحت القبائل العربية تتقاسم البلاد مع سكانها وتتبادل التأثير عبر صراع طويل بين العُنصرين[3].

لقد كان للقحوط التي ضربت المغرب زمن الموحدين دور كبير في تحريك العنصر البشري ليس داخليا فقط بل حتى خارجيا[4]، ففي عام 534هـ/1141م حين ضرب البلاد قحط حاد، كان من نتائجه أن " **انجلى أهل المغرب انجلاء عظيما إلى الأندلس** " [5]، وفي عام 545هـ/1152م يحدثنا أحد الإخباريين أن بعض المناطق لم يعد فيها "**إلا القليل من الناس في مخيمات..والأرض موحشة قفرة**"[6]، وهذا يوضح فعلا مدى الفراغ الذي أحدثته هذه الهجرات على المستوى المحلي تحت وطأة الجائحة، ولقد سجل أحد الباحثين أن الفراغ السكاني الذي كانت

1 - حجاج الطويل، " **الفلاحة المغربية..**"، مرجع سابق، ص 58 .

2 - حجاج الطويل، "**دكالة بين الشدة والرخاء**"، مرجع سابق، ص44.

3 - حجاج الطويل، " **الفلاحة المغربية...**"، مرجع سابق، ص 59.

4- البياض عبد الهادي، " **الكوارث الطبيعية** "، مرجع سابق، ص116.

5- ابن عذاري، " **البيان- ق.م** "، مصدر سابق، ج4، ص98.

6- نفسه، ص44.

تعاني منه بعض البوادي لعبت الكوارث الطبيعية التي ألمت بالمغرب الأقصى خلال هذه المرحلة دورا بارزا في حدوثه[1].

كان للظروف الطبيعية الأثر الكبير في تغيير الخريطة السياسية والديمغرافية للمغرب الأقصى، وما يقف قرينة على هذا الطرح أن القبائل الزناتية وهم برابرة رعاة رُحَّل من المنطقة الشرقية استغلوا ظرفية الوباء الذي هزَّ أركان الدولة الموحدية عام 610 هـ / 1213م وباد بسببه أهل المغرب ورجاله **"فأقاموا بمكانهم، وبعثوا إلى إخوانهم وأخبروهم بحال البلاد وخصبها وطيب مزارعها وسعة مراعيها وكثرة مياهها.. واطراد عيونها وأنهارها، وقالوا لهم أسرعوا إليها، فليس بها من يصدكم عنها ولا من ينازعكم فيها"**[2]. وهذا ما حدث بالفعل، حيث قصدت عدة جماعات بشرية مناطق تواجد أبناء عمومتهم من الزناتيين القدامى، بحيث تمركزت هذه القبائل الجديدة في جبال غمارة والمغرب الشرقي وناحية سايس، وصالحوا أهل فاس ورباط تازة على أموال معلومة يؤدونها لهم كل سنة خفارة على بلادهم، مما يبين أن هؤلاء الرحل كانت لديهم أطماع تتمثل في ضم المناطق الخصبة رغم نمط عيشهم القائم على الانتجاع[3]، لكن توسعاتهم كان لها أثر سلبي على الاستقرار والتعمير، بحيث عرف العهد المريني انكماشا واضحا في الرقعة الزراعية إما بسبب القحوط كالجائحة التي ضربت المغرب ما بين 775-776هـ/1373-1374م التي نتج عنها حدوث مجاعة رهيبة أفنت عددا كبيرا من السكان ومن بقي منهم حيا آثر الفرار والهجرة[4]، أو بفعل طبيعة الدولة القائمة على الرعي، أو نظرا لانعدام الإستقرار الناتج عن الحروب المستمرة التي خاضها المخزن المريني ضد خصومه في الداخل، ونتج عن ذلك اختلاط المجموعات وتكوين الإتحادات والتحالفات القبلية الكبرى التي لا تجمعها إلا روابط المصلحة المشتركة والدفاع عن النفس رغم انضوائها

---

1- البياض عبد الهادي، **" الكوارث الطبيعية.."**، مرجع سابق، ص119.

2 - ابن أبي زرع، **" روض القرطاس "**، مصدر سابق، ص 282.

3- جون برينيون وإبراهيم بوطالب وأخرون، **" تاريخ المغرب "**، تعريب محمد الغرايب، عبد العزيز بل الفايدة، محمد العرجوني، الرباط، 2018 م، ص 186.

4- ابن قنفذ القسنطيني، **" أنس الفقير وعز الحقير "**، مصدر سابق، ص105.

تحت إسم واحد[1]. من أهم نتائج الهجرات التي عرفها العصر المريني ذلك الإختلال الذي بدأ يتسرب إلى التلاؤم البشري مع البيئة وانقلاب التوازن العمراني، فاتجهت حياة الإستقرار وممارسة النشاط الزراعي إلى المناطق الأقل خصوبة[2]، وأُفرِغت المناطق الخصبة من سكانها لتصبح مجالا للرعي والترحال، فالهجرات المستمرة للجماعات والقبائل المتخصصة في زراعة الأرض لصالح القبائل المرينية وحلفائهم، عرقلت تركز البنيات الاقتصادية وتطويرها وخاصة في الميدان الفلاحي[3].

كان للتحركات البشرية التي شهدتها البلاد تأثيرا على الحياة الزراعية بالبادية المغربية، بفعل التيارات البشرية الوافدة، سواء من المدن، أو من باقي أقطار الغرب الإسلامي، حيث شهدت هذه البوادي تقنيات زراعية وطرق جديدة للإنتاج، وغراسة الأشجار المثمرة، وابتكار أساليب الري المختلفة، فأهل الأندلس لما وفدوا على المغرب الأقصى " **مال أهل البادية في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحية الطاحنة بالماء وغير ذلك**"[4] كما ساهموا إلى جانب الصنهاجيين والزناتيين على نشر تربية الإبل والأغنام بشكل واسع داخل البلاد، وأدخل العرب أنواعا من الخيول والأغنام[5].

إن التنقلات البشرية الموحدية والمرينية تقودنا إلى التأكيد على تعارضهما شكلا ومضمونا، فالتحركات الموحدية قد تعاملت مع مجال المغرب الأقصى من خلال "دولة ثيوقراطية توسعية تعتبر في الواقع هي الأصل المحرك لهذه التحركات البشرية، واحتفظت بالجبل كقاعدة انطلاقها الأولى كمجال حيوي رئيس مفضل، خلافا للتنقلات المرينية التي كانت تحركات قبلية برغماتية أدت في النهاية إلى توزيع مجال المغرب الأقصى بين مجال مركزي احتفظ به المرينيون لأنفسهم، وبين مجال جانبي تم التخلي عنه كليا في مرحلة أولى لفائدة المنافسين"[6].فدخول العنصر

---

1- حجاج الطويل، " **الفلاحة المغربية...**"، مرجع سابق، صص 59 - 60.

2- الطويل حجاج محمد، **"دكالة بين الشدة والرخاء"**، مرجع سابق، ص44.

3 - الطويل حجاج، " **الفلاحة المغربية..**"، مرجع سابق، ص 61.

4- المقري، " **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** "، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1988م، المجلد 3، ص 152 .

5 - الطويل حجاج، " **الفلاحة المغربية..**"، مرجع سابق، ص 63.

6 - القبلي محمد، " **التحركات البشرية ...**"، مرجع سابق، ص 59.

العربي قلب التوازن الذي كان قائما بين الجبل والسهل، وذلك بحرمان القبائل الجبلية من مشاتيها ( أزغار ) فأصبحت المناطق الجبلية والوعرة التي كانت شبه فارغة في بداية العصر الوسيط، أكثر سكانا من السهول، فأغلبية التجمعات السكنية التي ذكرها الحسن الوزان تقع في هذه المناطق.

ومن إيجابيات هذه الظاهرة أنها دفعت السكان إلى استغلال المناطق الأقل خصوبة والتي كانت مجالا للرعي، بل ودفعتهم للتلاؤم مع البيئة الجديدة باستغلال معطياتها الطبيعية إلى أقصى حد ممكن، بيد أنه كلما احتبس المطر" **في وقت نزوله وقلت المياه، كان الناس يرحلون من بلادهم إلى مواضع المياه** "[1]، ومنهم من استمر على نمط العيش القائم على الرعي والترحال وقطع الطرق ومهاجمة المستقرين، مما أفقد البادية المغربية إمكانيات زراعية هائلة[2].

الراجح أن هذه الحركية في التعمير والهجرات تدفعنا للقول بأن هذه القبائل سواء المستقرة أو الطارئة على البادية المغربية لم تحافظ على أصولها وتعدادها " **وذلك بسبب تعاقب الأعصار و تناسخ الأجيال وتوالي المجاعات والانتجاعات** "[3]، فقبيلة سفيان الهلالية انتقلت إلى شمال وادي أبي رقراق وخلفتها في المنطقة قبائل عبدة واحمر[4]، وكذا قبائل الخلط الذين استقروا ببلاد تادلا الغنية فلاحيا والتي كانت أشد المناطق تضررا من الجوائح المائية التي كانت تعصف بالبلاد[5]، هذه التنقلات أدت إلى اندماجهم و تلاشي عصبيتهم[6].

يمكن القول أن العلاقة بين الماء والهجرة علاقة جدلية، وأن الأفراد والجماعات الذين كانوا يتنقلون داخل المجال الجغرافي المغربي كان دافعهم نحو ذلك تلك الجوائح الدورية التي كانت تنيخ بكلكلها، فنجد قبائل قد هاجرت وأخرى استوطنت مكانها، وهو مشهد مألوف في تاريخ التنقلات البشرية. لكننا لا ننكر أن تدخلات الدول

---

1- ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص235.

2- الطويل حجاج، " **الفلاحة المغربية**.."، مرجع سابق، ص 63.

3- الناصري، " **كتاب الإستقصا** "، مصدر سابق، ج4، ص67.

4- الطويل حجاج ، "**منطقة عبدة واحمر..**"، مرجع سابق، ص91.

5- "**رسائل موحدية-مجموعة جديدة ج 1** "، مصدر سابق، ص232.

6- أبو ضيف مصطفى، " **القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين** "، الجزائر، 1982م، ص321.

المتعاقبة على حكم المغرب قد كان لها هي الأخرى دور بارز في رسم معالم الخريطة البشرية والديمغرافية للبلاد سعيا منها لتدارك ما خلفته الجوائح من تدمير للبنية السكانية وفراغ المجال.

فالدولة الموحدية سعت إلى ترميم الفراغات السكانية الناتجة عن الهجرة من خلال قرارات تهدف إلى إعمار المناطق المنكوبة[1]، فما بين سنوات 625 - 630 هـ/1228- 1233م " **خلا أكثر بلاد المغرب** " [2]، " **وكثر فيها الجوع والوباء والغلاء**"[3]، بفعل الكوارث الطبيعية المتعاقبة على البلاد[4]، وهو ما دفع الخليفة الموحدي سنة 637هـ/1240م إلى إصدار ظهير يقضي بتهجير جماعي لسكان شرق الأندلس صوب المغرب لتعمير رباط الفتح "**واتخاذ مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم** (...) **وأن يتوسعوا في الحرث** (...) **ويتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم**"[5]، وهي السنة نفسها أيضا التي عانت منها سبتة من هول مجاعة عظيمة[6] إلى أن صارت " **البلاد خاوية من أجل الجوع** "[7]. مما دفع البعض إلى القول بأن حركات الهجرة وعمليات التهجير التي عرفها المجال المغربي خلال العصر الوسيط قد جعل من هذه المرحلة التاريخية " **فترة إرهاصات متماسكة وتحول بطيء مستتر**"[8].

ومهما يكن الحال، فإن القحوط قد لعبت دورا هاما في انتقال الإنسان المغربي من منطقة إلى أخرى، فلا يعدو الأمر مجرد بحث عن ظروف معيشية أفضل، أو لتغيير نمط أو أنماط مُعينة من الإنتاج، بل يبقى هاجس البقاء هو المفسر لهذا السلوك الاجتماعي، والدافع المحرك لمعظم هجراته مهما اختلفت طبيعتها.

---

1- البياض عبد الهادي، " **الكوارث الطبيعية** "، مرجع سابق، ص120.

2- ابن أبي زرع، " **الذخيرة السنية ..**"، مرجع سابق، ص37.

3- ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، صص276-277.- الحميري، " **الروض المعطار..**"، مصدر سابق، ص605.

4- ابن عبد الملك، " **الذيل والتكملة** "، مصدر سابق، ص 242.

5- " **رسائل موحدية-مجموعة جديدة، ج1** "، مصدر سابق، صص 393-395.

6- ابن عذاري، " **البيان - قسم الموحدين** "، مصدر سابق، ص351.

7- البادسي، " **المقصد الشريف والمنزع اللطيف..** "، مصدر سابق، ص61.

8 - القبلي محمد، " **التحركات البشرية ...**"، مرجع سابق، ص 59.

## المحور الخامس : التحصيل الضريبي بين تدابير السلطة والمصاعب المناخية ما بين القرنين 11 و 14 م :

### 1. أثر الظروف المناخية والسياسية على التحصيل الجبائي :

في البداية لابد أن نشير إلى أن البحث في مسألة الجباية خلال العصر الوسيط لا يخلو من عسر، ذلك لأن الإشارات التي جاءت في المصادر التاريخية حول هذا الموضوع تتصف بشحها، وحضورها كان عابرا، وهو ما يشرح " **أزمة الرقم** " التي تعتري هذا الموضوع[1]. على الرغم من أن التحصيل الضريبي يعكس طبيعة العلاقة التي كانت تربط بين السلطة المركزية والرعية، أكانت علاقة يشوبها التوتر والرفض، أو علاقة توافق وتراضٍ.

إن موضوع الجبايات متشعب للغاية كونه يرتبط بالعديد من المؤثرات الطبيعية والبشرية، التي تتحكم فيه، فالجباية كما هو معلوم ضرورية لمالية السلطة المركزية[2] بحيث تستفيد منها في تدبير شؤون الرعية وتكثير العمارة[3]، وكلما ازدادت قيمتها إلا وانقلبت لضدها فيضعف الإقتصاد ويحل الخراب، هذه الجبايات التي تنقسم إلى جبايات شرعية تكون في أول الدولة[4] وأخرى غير شرعية تكون في آخر الدولة، والتي تثير سخطا وتذمرا عارما في أوساط المجتمع، خصوصا حينما تتزامن مع الجوائح المائية، فتكون بمثابة الفتيل الذي يشعل نار الثورة على العصبية الحاكمة التي تكون أصلا قد دخلت طور الإحتضار، لتحل محلها عصبية أخرى تتطلع إلى السلطة، تجعل من تخفيف الضرائب شعارا لها .

---

1 - الهلالي محمد ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين..**"، مرجع سابق، ص 309.

2 - أكد حميش سالم أن الدولة في الغرب الإسلامي كانت تقوم على ركيزتين : مالية وعسكرية، وأهميتها من الكبر بحيث إن أي خلل يمس الواحدة لا يلبث أن ينتقل إلى الأخرى؛ وبعبارات مرادفة، فانسجام الجيش وقوته تتعلقان دوما بحالة الخزينة والجبايات .
راجع دراسته : " **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ** "، لبنان، 1998 م، ص 119.

3- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص344.

4- حدد الشرع الإسلامي موارد الجبايات تجاوزا لأي ضرر قد يلحق بالرعية وأجملها في : الزكاة، الفيء: هو عبارة عن مال وصل من المشركين من غير قتال، الغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار قهرا وقتالا، ثم هناك الجزية: هي الموضوعة على الرؤوس فاسمها مشتق من الجزاء على كفرهم بنص شرعي، الخراج: ما يوضع من الضرائب على الأرض ومحصولاتها مقدرة باجتهاد، العشور: هو نوع من أنواع الزكاة تأخذ وفق مقاديرها و تسمى عشورا على سبيل المجاز. - انظر الماوردي، " **الأحكام السلطانية** "، مصدر سابق، ص161-181.

لقد بلغ التحصيل الضريبي الذي فرضته القبائل الزناتية على المجتمع المغربي خلال النصف الأول من القرن (5هـ/11م) مبلغه، والذي تزامن مع المصاعب المناخية، مما أدى إلى كبح أي نشاط اقتصادي للبلاد[1]، فاستغلت الدولة المرابطية ذلك لتجعل من رد المظالم ورفع المغارم شعارا لها[2]، ففي عهد يوسف بن تاشفين " **لم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية إلا ما أمر الله به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين**" [3].

فالدولة لا تزال في بدايتها وتعمل على اكتساب قلوب الأنصار[4]، كما أن الموارد المالية الهامة التي تحصلت عليها الدولة الناشئة من المعارك التي خاضتها جعلها في غنى عن فرض ضرائب غير شرعية[5]، مما ساعد على انتعاش النشاط الفلاحي ورواج التجارة بالمغرب الأقصى خاصة مع تعاقب أعوام خصبة [6]. وانعكاس ذلك على مالية الدولة، فحسب المصادر أنهم وجدوا في " **بيت المال بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آالاف وأربعين ربعا من دنانير الذهب المطبوعة** "[7]. تم إنفاقها في تشييد مجموعة من المشاريع المائية كالقناطر والجسور والبحائر[8] .

---

1- عز الدين موسى، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص163. - جسوس عز الدين، " **موقف الرعية من السلطة السياسية** "، مرجع سابق، ص99، - حركات إبراهيم، " **المغرب عبر التاريخ** "، مرجع سابق، ج 1، ص157.

2- القبلي محمد(إشراف وتقديم)، " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** "، مرجع سابق، ص176.

3 - إبن أبي زرع، " **روض القرطاس..**"، مصدر سابق، ص 137.

4- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص344.

5- "**اتسمت سياستهم بالرفق والتسامح لكونها صادرة عن الخصال الحميدة التي هي نتاج البداوة ولأن الغنائم وموارد الحروب كانت لاتزال تدر فائضا على البيت المال لذلك سعت الدولة في هذه المرحلة إلى كسب قلوب الناس هذا ما يفسر إلغاء الضرائب غير الشرعية**". - بوتشيش إبراهيم القادري، "**مقالات في تاريخ الغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين**"، مكناس، 2007م، ص77.

6- حركات إبراهيم، " **المغرب عبر التاريخ** "، مرجع سابق، ج1، ص221.

7 - إبن أبي زرع، " **روض القرطاس..**"، مصدر سابق، ص 137.

8- حركات ابراهيم، " **المغرب عبر التاريخ** "، مرجع سابق، ج1، ص213.

إذا كان الحال على هذا النحو في بداية الدولة[1]، فإن الأمر سيتغير في فترة حكم علي بن يوسف[2] بفعل تظافر العوامل السياسية – أي ظهور أمر المهدي ابن تومرت وما صاحب ذلك من حروب ترتب عنها توقف الزراعة وتخريب المنشآت المائية – والإكراهات الطبيعية بحيث " **توالى الجدب حتى جفت في الارض مذانبها واغبرت جوانبها وقلت المجابي بهذه الفتن**" [3]، واكتساح أسراب الجراد للمحاصيل والمساحات الخضراء، بالإضافة إلى الآثار الكارثية التي خلفتها السيول والفيضانات على الأراضي الزراعية، كلها عوامل أثرت على السياسة الجبائية للدولة المرابطية، ففرض عليها تعاظم نفقاتها مزيدا من الضغط على القطاعات الاقتصادية الأساسية في مقدمتها الفلاحة التي قلت مجابيها[4].

فقد تم فرض ضريبة "**الخراج**" [5] كما وجدت ضريبة أخرى تسمى " **الرحاب** " وهي ضريبة فرضها المتقبلون على الفلاحين[6]، كان من نتائج ذلك أن قرر العديد من الفلاحين وصغار الملاك ترك مزارعهم

---

1- جسوس الدين، " **موقف الرعية من السلطة السياسية** "، مرجع سابق، ص100.

2- موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص169. - بوتشيش إبراهيم القادري، " **مباحث في التاريخ الاجتماعي..**"، مرجع سابق، ص205.

3- ابن عذاري، " **البيان ق.م** "، مصدر سابق، ص15.

4 موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص172.

5- الخراج **لغة**: الكراء والغلة، ومعنى خرجا، أجرا ونفعا، والفرق بين الخرج والخراج، أن الخرج في الرقاب والخراج في الأرض، وفي **المعجم** الوسيط الخرج بما ما يخرج من الأرض وغيرها من غلة، والإتاوات السنوية" الضريبة" فلكلمة الخراج إذا معان ثلاث وهي: الاجر، الغلة، والإتاوة، **وشرعا** هو ما يفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة أو صلحا، فهو يأخذه السلطان من وظيفة الأرض، أي ما وضع على رقاب الأرضين من حقوق تؤدى عنها. راجع : " **المعجم الوسيط** "، م.س، ص ص 224-225. غيداء خزنة، " **الخراج مند الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري الممارسات والنظرية** "، بيروت، 1997، صص 101-102.

وجاء في صيغ أخرى أن الخراج هو كل ما يتحصل من استغلال الدولة لأملاكها المختلفة وخاصة العقارية منها، ونميز في هذا الاستغلال بين ثلاثة أشكال رئيسية وهي: الاستغلال المباشر من طرف الدولة لأملاكها، أو عن طريق كرائها، والثالث هو استغلالها عن طريق الشركة مع الغير وهي المعروفة إما بالمقاسمة أو المشاطرة أو المغارسة في الميدان الفلاحي" ولعل هذه الأخيرة هي التي انتشرت خلال الفترة الموحدية. راجع : اسكان الحسين، " **المالية الموحدية** "، مرجع سابق، ص92 . موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص175.

نلفت الإنتباه هنا إلى أن جسوس عز الدين يقول بأن " **الخراج في العهد المرابطي لا حاجة له بالمعنى المعروف للخراج..بل هو ضريبة مفروضة على الأراضي وعلى الماشية وعلى التجارة وعلى الصناعات الحرفية** " . راجع دراسته : " **موقف الرعية من السلطة السياسية** "، م.س، ص102-103. ويؤكد بعض الدارسين بأن الخراج ظهر خلال عهد الموحدين، وتحديدا في عهد عبد المؤمن بن علي الكومي، وذلك سنة 555 هـ . راجع هامش ص 271 . " **المن بالإمامة** "، مصدر سابق.

6- بوتشيش القادري إبراهيم، " **مباحث في التاريخ الاجتماعي ..**"، مرجع سابق، ص206.

وضياعهم[1]، ما دامت تأخذ أكثر مما تنتج، ولم تسلم التجارة من هذه الإجراءات فكانت هناك منها ضريبة المكس، والتي كانت من أشد الضرائب على الرعية، وضريبة القبالة التي كانت مفروضة على جل البضائع[2].

كان من نتائج ذلك أن تراجع الإقتصاد وبرزت ظاهرة اغتصاب الأموال من طرف قابض المال[3] مما يعكس السياسة الضريبية الجائرة التي توضح التناقض والتنافر السائد بين الدولة والمجتمع[4]؛ وعلى الرغم من ذلك فالمصادر لم تسجل أي رفض أو ثورات قامت ضد هذه السياسة، وإن كانت في ظروف مناخية غير ملائمة[5].

نظرا لتفاقم المشاكل وعجز السلطة القائمة والرعية، اتجهت هذه الأخيرة نحو سلطة جديدة تزيل عنها أغلال هذه الضرائب التي ضاقت بها ذرعا. وبالتالي فتحت الباب لبروز حركة جديدة جعلت وضع حد للتجاوزات الجبائية المفروضة حيزا ضمن برنامجها الرامي لتغيير المنكر[6]، وحمل المصامدة على عاتقهم هذه المسؤولية جاعلين من قطع المغارم شعارا لهم، "**فلما ولي المصامدة وصار الأمر اليهم. قطعوا القبالات بكل وجه. واراحوا منها**"[7].

سجلت الدولة الموحدية في بداية أمرها عدالة ضريبية استعانت بها من أجل إقامة مشاريع عمرانية متعددة[8]، ساهمت فيها الظروف المناخية الملائمة[9]، حيث اقتصر التحصيل الضريبي على الجبايات الشرعية، منها

---

1- دندش عصمت عبد اللطيف، " **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين** "، مرجع سابق، ص33.

2- الإدرسي الشريف، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص86.

3- "**ويجب أن يحد للقباض أيضا أن لا يهينوا أحدا ولا يتعدوا عليه في شيء، وكذلك الأعوان، أن لا يعتدوا أكثر من الحفز فقط، وهذا يجب أن يكون كله تحت نظر القاضي وشدته ورقبته عليهم**". ابن عبدون، " **ثلاث رسائل أندلسية** "، مصدر سابق، ص7.

4- القبلي محمد(إشراف وتقديم)، " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** "، مرجع سابق، ص177.

5- جسوس عز الدين، " **الكوارث الطبيعية والأوبئة ..**"، مرجع سابق، ص67.

6- القبلي محمد، "**حول الإصلاح وإعادة الإصلاح..**"، مرجع سابق، ص9.

7- الادريسي الشريف، " **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، مصدر سابق، ص87.

8- زنيبر محمد، " **المغرب في العصر الوسيط** " ، مرجع سابق، ص269.

9- لم يتم تسجيل سوى جفافين عرفتها الدولة الموحدية في طور الدولة . انظر: السملالي بن ابراهيم، " **الإعلام..**"، مصدر سابق، ج10، ص204. - ابن الزيات، " **التشوف** "، مصدر سابق، 298.

الزكاة[1] التي استدعت استعمال القوة في جبايتها، وتوظيف بعض القبائل في عملية التحصيل [2]ولعل هذا التعنت كان نتيجة لأسباب طبيعية مناخية[3]، بالإضافة إلى الخراج[4]، هكذا كانت الأمور قبل أن يشرع عبد المؤمن عملية التكسير؛ حيث " **أمر عبد المومن بتكسير بلاد افريقية والمغرب وكسرها من بلاد افريقية من برقة الى بلاد نول من السوس الأقصا بالفراسخ والأميال طولا وعرضا، فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات والحزون، وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب**"[5]. هذه العملية[6] تعد استحداثا ينافي الشرع[7] في دولة مبادئها الأولى والأخيرة " **تنزيل القضايا الشرعية منازلها من الأحكام والأعمال** "[8]، وعدم الخروج عما نصت عليه الشريعة الاسلامية في كل شؤونهم، وهو اجتهاد فيه كثير من الجور، وذلك راجع إلى الأراضي الشاسعة التي أضحت تحتلها الدولة

---

1- ابن صاحب الصلاة، " **المن بالإمامة** "، مصدر سابق، ص211.

2 - كانت بعض القبائل مكلفة بجمع الضرائب لصالح السلطة المركزية، هذه الوظيفة جعلت علاقتهم تتوطد بالمخزن، مما خوَّل لهم الحظوة والجاه اللذين تمظهرا في حضورهم للبيعة، واستشارتهم في أمور الدولة. راجع : بوتشيش القادري، " **الحياة الاجتماعية..**"، مرجع سابق، ج 2، ص 624.

3- كرراز فوزية، " **الموارد المالية بالدولة الموحدية** "، **مجلة عصور الجديدة**، العددان 16-17، الجزائر، 2015م، ص185.

4- أشار عبد الهادي التازي إلى أن الخراج لم يظهر في المغرب خلال العهد المرابطي، بل ظهر خلال العهد الموحدي، حيث يعد عبد المومن بن علي الكومي أول من أحدثه . راجع : هامش الصفحة 271 من كتاب " **المن بالإمامة** ".

5 - ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص199.

6- لقد أثارت قضية التكسير وجعل هذه الأراضي خراجية نقاشا بين مجموعة من الباحثين خاصة وأن ابن ابي زرع انفرد بروايتها، فقد اعتبرها البعض مجرد وظيفة فرضها الموحدون من قبل وليس بمفهومه الآخر، في حين أن البعض الآخر برر آخرون ذلك بالمسألة العقدية باعتبار أن السكان لم يكونوا موحدين حقيقيين فلا تطبق عليهم القواعد الشرعية، وبالتالي فعملية التكسير هذه ليس التنويه بعبقرية عبد المومن التنظيمية بل التنديد ببدعة لم يسبقه إليها أحد وهو قرار فيه الكثير من الإجحاف والشطط. هذا الرأي عارضه آخرون بالقول أن ربط مسألة الخراج بالتوحيد أو التكفير مستبعدة لأن هذا التصنيف يستدعي فرض الجزية، وهذا ما لم تشر إليه المصادر. القبلي محمد، "**حول الإصلاح وإعادة الإصلاح..**"، مرجع سابق، ص190. - العروي، "**مجمل تاريخ المغرب** "، مرجع سابق، ج2، ص161. - موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص174. - بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع** "، مرجع سابق، ص139.

7- كرراز فوزية، " **الموارد المالية..**"، مرجع سابق، ص187.

8- "**مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية** "، مصدر سابق، ص52.

الموحدية، وبما أن عبد المومن هو الحاكم فقد كان لزاما عليه البحث عن السبل الكفيلة بتوفير موارد مالية للقيام بمجموعة من الأشغال، التي لم تكن الضرائب الشرعية لتغطي نفقاتها، فوجد في التكسير ضالته[1].

وحينما وصلت السلطة إلى ابنه أبي يعقوب يوسف الموحدي، تزامن ذلك مع أعوام خصبة، فحصد الفلاحين بالبوادي لمحاصيل مهمة، مما أفاد مداخيل خزينة دولته، فـ"**جمع الأموال الكثيرة .. يجبا اليه خراج ذلك كله دون مكس ولا جور، فكثرت الأموال في أيامه وتمهدت البلاد**"[2]، بل سجلت لنا المصادر التاريخية أنه عمد إلى تسبيل الجسور دون قبالة ولا إجارة عمالة[3]، فكان من نتائج سياسته الجبائية وتحسن أحوال المناخ، حسب إبن صاحب الصلاة أن " **زادت المخازن إثر ذلك وفورا، ونمت الارزاق، وعمرت الأسواق، بالبيع والتجارة الرابحة ودرَّت على الناس الخيرات دروراً، واغتبط العالم..وكثُر المال في الأيدي.. وابتنوا بمراكش الديار العتيقة، واغترسوا خارجها أينع حديقة**" [4]. فأدى ذلك إلى انتعاش مداخيل السلطة المركزية، فـ" **نمت الجبايات والخراجات**"[5]، والتي خصص لها الموحدون تنظيما خاصا لاستخلاصها كأصحاب الأشغال[6] والعمال والمشرفين، الذين يتم تعيينهم على رأس الولايات والأقاليم الكبرى قصد القيام بالمراقبة المالية[7]، وكانوا هم كذلك خاضعين لسلطان الدولة التي عملت على وضع سياسة متشددة معهم ومحاسبتهم، فكانوا يسألون الرعية عنهم ويستدعونهم بعد ذلك لمراجعة أعمالهم، وتفقد سيرتهم في الناس[8]، حسب ما احتفظت لنا به الرسائل الموحدية[1]، كما هو

---

1- طويلب عبد القادر، " **النظام المالي في الدولة الموحدية وأثرها عليه-القبالات نموذجا** "، **دورية كان التاريخية**، العدد25، سبتمبر 2014م، ص155.

2- ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص206.

3- موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص271. - طويلب عبد القادر، " **النظام المالي في الدولة الموحدية..**"، مرجع سابق، ص155.

4- ابن عذاري، " **البيان. ق-م** "، مصدر سابق، ص99.

5 - نفسه، ص 198 .

6 - "**وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها في مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال**". - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص304.

7- القبلي محمد(إشراف وتقديم)، " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** "، مرجع سابق، ص175.

8- موسى عز الدين، " **النشاط الاقتصادي** "، مرجع سابق، ص177.

الشأن بالنسبة لسطوة أبي يعقوب يوسف بعمال فاس[2]. ومن تم فقد كانت أموال التجار الأثرياء خلال هذه الفترة، عرضة للتعسف من قبل الدولة، من أجل إنفاقها على مشاريعها[3]، مع العلم أنها تقدم أحيانا على انتزاع الأموال وغصب المواشي والغلال والأصول المحبسة[4].

لكن بعد هزيمة العُقاب ( 609 هـ / 1212م) والكوارث الطبيعية التي أعقبتها، وسُخط الرعية من سوء الأوضاع العامة في البلاد، سيكون الإصلاح الضريبي أهم أداة لجأ إليها المخزن لإعادة كسب ثقة المجتمع، كما حدث مع الخليفة الرشيد الذي عمل على طمس "**رسم الخراج بالكلية وتعطل بكل مكان ودعت لهذه ضرورة الاحتياج**"[5]، كما أن أبو دبوس آخر خلفاء الموحدين نفذ أمره "**فرفع عنهم الكلف والمحدثات بالبوادي.. واقتصر على الحقوق الواجبة التي جرى عليها قديما العمل المتواثر(...) وسرح الأبواب للداخل والخارج دون غرم شيء من الاشياء لا في سلاع ولا في زرع ولا غير ذلك مما كان يغرم من قبل ذلك من مدد الامراء، كما امر برفع غرم الابواب كذلك امر برفع المعونة في الرحاب**"[6]، سعيا منه إلى العودة بالإنتاج إلى سابق عهده من خلال ترغيب المزارعين في تعمير أراضيهم من جديد.

مهما يكن الأمر، فقد كانت الجبايات تمثل الشعار الأوحد الوحيد من أجل شحد الأنصار، فمحو المكوس وإلغاء المغارم المستحدثة كان شيئا مشتركا[7] بين المرابطين والموحدين من أجل الوصول إلى السلطة، لكن سرعان ما كانت

---

1- "**مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية** "، مصدر سابق، ص134. - " **رسائل موحدية-مجموعة جديدة ج 1** "، مصدر سابق، ص65.

2- ابن عذاري، "**البيان. ق-م** "، مصدر سابق، ص158.

3- بولقطيب الحسين، " **المصامدة والنشاط التجاري..**"، مرجع سابق، ص93.

4- القبلي محمد (إشراف وتقديم)، " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** "، مرجع سابق، ص177.

5- ابن عذاري، " **البيان. ق-م** "، مصدر سابق، ص333.

6- نفسه، صص448-449.

7- القبلي محمد، "**حول الإصلاح وإعادة الإصلاح..**"، مرجع سابق، ص11.

هذه الشعارات تذروها الرياح عندما يحل تطرف مناخي، أو حينما تصل الدولة مرحلة الترف الشيء الذي يؤدي بنا إلى تسجيل تناقض بين أولية الدولة وطورها النهائي[1].

أما إذا أردنا أن نتحدث عن الجباية في عهد الدولة المرينية، سنجد بأن تجربتهم كانت مخالفة تماما لسياسة المرابطين والموحدين الضريبية، حيث أثقلوا كاهل الرعية بالضرائب منذ بداية دولتهم، رغم ما عرفه هذا العهد من قحوط ومجاعات، تشهد على ذلك نصوص الإخباريين الذين عاصروا فترة حكمهم، خاصة أنهم ينتمون للطبقة التي تدور في فلك السلطة القائمة، فصاحب الذخيرة السنية أورد بأن عثمان بن عبد الحق : " **سار يشق بلاد المغرب...فمر على جميع قبائله وأوديته وجباله..فوضع على كل قبيلة مالا وزرعاً معلوما يؤدونه كل سنة خفارة على بلادهم .. وصالح أشياخ مدينة فاس ومكناسة ورباط تازة وقصر كتامة على أموال معلومة يؤدونها في كل سنة خفارة على بلادهم** "[2]. وأورد صاحب العبر بأن محمد بن عبد الحق عمل على " **تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم والوضائع**"[3] .

وهناك إشارات مصدرية تتحدث عن بعض الإصلاحات الضريبية التي قام بها السلطان يوسف ين يعقوب حيث سهر على" **رفع الأنزال عن ديار الرعية، وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس، وأزال المكوس...وأزال أكثر الرتب والقبالات التي كانت بالمغرب** "[4]. وحاول وقف تعسفات العمال والمتنفذين في حق ساكنة البوادي، يقول صاحب الذيل والتكملة في هذا الصدد أنه" **استعمل أبا علي المليانى على جباية المصامدة فباشرها مدة، ثم سعى به شيوخ المصامدة عند السلطان بأنه احتجن المال لنفسه، فأمر السلطان بمحاسبته فحوسب، وظهرت مخايل صدقهم عليه فنكبه السلطان يوسف أولا ثم قتله ثانيا** "[5].

---

1- القبلي محمد(إشراف وتقديم)، " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** "، مرجع سابق، ص176.

2 - ابن أبي زرع، " **الذخيرة السنية..**"، مصدر سابق، صص 36 – 37 .

3 - ابن خلدون، " **العبر**"، مصدر سابق، ج 7، ص 226.

4 - إبن أبي زرع، " **روض القرطاس..**"، مصدر سابق، ص 375.

5 - ابن عبد الملك ، " **الذيل والتكملة...**"، مصدر سابق، ص 69.

لكن من الواضح أن هذه السياسة الإصلاحية للضريبة كانت ذات أثر محدود، ولم تدم طويلا، فسرعان ما عاد المخزن إلى إثقال الرعية بالضرائب غير الشرعية، في عهد كل من السلطانين أبو ثابت عامر، وأبي الربيع سليمان، دليل ذلك ما رواه ابن مرزوق بخصوص حجم معاناة الناس خصوصا في الأعوام الجافة ( ما بين 705 - 709 هـ/ 1307 – 1310م )كما هو الشأن بالنسبة لأهل فاس وباديتها، فقد" **تشوقت نفوسهم لرفع ما نالهم من المضار...وكانت عليهم ضريبة مسانهة يؤدونها على حسب أغراض العمال، وقد حملوا منها طول الأزمان أثقل أحمال..**" [1].فرفع السلطان المريني أبو سعيد عثمان عن الفاسيين بمجرد وصوله إلى سدة الحكم "**ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية في كل سنة**"[2]، في بادئ الأمر، ثم قام بعد ذلك **بـ"حط المغارم والمكوس** "[3] عن أهل البوادي بسائر البلاد. لكن يبدو أن هذه السياسة كانت ظرفية، ولم تكن قاعدة ثابتة في سياسته حسب شهادة ابن فضل الله العمري[4]. بل سرعان ما لجأ إلى فرض ضرائب ثقيلة تضرر منها الفلاحون بشكل كبير، نظرا للقحوط التي شهدها المغرب في عامي 711 – 712 هـ / 1312 – 1313 م، وعامي 722 – 723 هـ / 1322 – 1323 م - وقد أورد في مؤلفه لائحة تضم قيمة المجابي التي فرضها أبو سعيد على أصحاب الماشية من الإبل والبقر والغنم رغم هذه الظروف العسيرة، وهي كالتالي [5]:

| المجال الجغرافي | القيمة |
|---|---|
| فاس | 150 ألف مثقال |
| مراكش | 150 ألف مثقال |
| سبتة | 50 ألف مثقال |

1 - ابن مرزوق التلمساني محمد، " **المُسند الصحيح ..**"، مصدر سابق، ص 119.

2 - إبن أبي زرع، " **روض القرطاس..**"، مصدر سابق، ص 397.

3 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح..**"، مصدر سابق، صص 117 – 118.

4 - دليلنا في هذا الحكم، ما أورده ابن فضل الله العمري - في سياق حديثه عن إبنه السلطان أبي الحسن - حيث يقول : " **ولقد كان الناس في زمن أبيه في جور حتى وُلّي فبسط بساط العدل، وحمل على محجة الإنصاف، وأبطل المظالم على يد كل ظالم، وأسقط المكوس، ولم يدع إلا الخراج والزكاة والعشر وما يوجبه طلب الشرع وحلّ عقد الضمان، وكان سببا للظلم والطلب المجحف** ". راجع : " **مسالك الأبصار**"، مصدر سابق، ج 4، ص 95 .

5 - ابن فضل الله العمري، " **مسالك الأبصار..**"، مصدر سابق، ج 4، صص 95 – 96 .

| | |
|---|---|
| آسفي | 25 ألف مثقال |
| أغمات | 25 ألف مثقال |
| آنفا | 40 ألف مثقال |
| أزمور | 20 ألف مثقال |
| طنجة | 30 ألف مثقال |
| مكناسة | 60 ألف مثقال |
| سجلماسة ودرعة | 150 ألف مثقال |
| صفرو | 6 آلاف مثقال |
| تيط | 5 آلاف مثقال |
| تيجيساس ( نواحي تطوان ) | 5 آلاف مثقال |
| تازة | 30 ألف مثقال |

يمكن القول أن معظم سلاطين الدولة المرينية خلال المرحلة التي سبقت فترة حكم السلطان أبي الحسن المريني، لم يقتصروا في عملية التحصيل الضريبي على مداخيل الجبايات الشرعية كالزكاة[1] والخراج، والجزية[2]، بل عملوا على

1 - **الزكاة : "ركن من أركان الإسلام، فرضت تطهيرا للمال وحفاظا على حياة المحتاجين من المسلمين، حماية لهم من مذلة الفقر والتسول، فهي حق المجتمع في مال المسلم وليست تفضيلا".** راجع : النعيم عبد العزيز العلي، **" نظام الضرائب في الإسلام ومدى تطبيقه في المملكة العربية السعودية مع المقارنة "**، السعودية، 1985، ص 95.

- **" لقد تم اعتماد الزكاة رغم طابعها الاستثنائي الذي ميزها خلال الفترة الأولى لدخول الإسلام إلى المغرب الأقصى، فقد تمسكت جميع فئات المجتمع المغربي بالزكاة بما فيها المخزن، الذي كان يُذكر المكلَّفين في كل مناسبة بوجوبها، فقد شكلت الزكاة والعشر مصدرين هامين لدخل المخزن".** أنظر: خالد عبد الغني، **" تاريخ السياسة الجبائية بالمغرب القرن التاسع عشر "**، الدار البيضاء، 2002، صص 12-20.

2 - **الجزية : " في اللغة فعل من الجزاء، جمعها جزى، وهي عبارة عن المال الذي يعقد الكتابي عليه الذمة في جزاء عن قتله، وشرعا هي الوظيفة المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام، وقد يطلق عليها الخراج، بحيث تشمل خراج الأرض وما يؤخذ من الذمي (خراجه رأسه)، والجزية ليست من وضع المسلمين، فقد سنها قبلهم النبي سليمان، وكانت مقررة عند مختلف الأمم السابقة كبني إسرائيل واليونان والبزنطين والفرس ".** أنظر النعيم عبد العزيز العلي، **" نظام الضرائب في الإسلام ..."**، مرجع سابق، ص80 و ص339.

- **" لقد ارتبط تطبيق الجزية في المغرب بالفتح الإسلامي لهذه البلاد، وباليهود المغاربة، فهم الطائفة التي حافظت على دينها ولم تدخل في الدين الإسلامي، وبهذا تحملت هذه الطائفة بصفتها مجموعات محمية أداء الجزية لبيت المال، مقابل الاستفادة من حماية المخزن، بموجب وضعية الذمي التي حكمت العلاقات بين السلطان ورعاياه غير المسلمين، إلا أن وضع الذمي لم يكن يخضع فقط لمقتضيات الشرع، بل كان يكيف أيضا من طرف المخزن وفق الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تمتاز بها البلاد، فقد كان اليهود المغاربة يؤدون سنويا عن كل رأس ذكر بالغ، كما كانوا يرغمون على أداء مبالغ إضافية في مناسبات**

إجبار الرعية بقوة السلاح خاصة عن طريق ماُ عرف بـ"الحرْكات السلطانية"[1] والمصادرات[2]، على دفع ضرائب غير شرعية تزامنت مع سلسلة من القحوط، ويوضح الجدول التالي صورة عامة عن ألقابها ووظيفتها وجغرافيتها.

| إسم الضريبة | تعريفها | المصدر / المرجع |
|---|---|---|
| **مزغدان** | مزغدان أو إيمزغدن باللسان البربري معناها السكان ولكنها هنا إسم مغرم من المغارم : " وهو عبارة عمن خرج عن وطنه لفقره وحاجته.ولم يترك مستغلا. يطلب حيث كان من البلاد، وإن كان قد فارق وطنه السنين الطائلة، وربما ينتهي العمل إلى طلب ذريته، فيؤخذ منه ما يوظف على كل واحد ممن هو في ذلك الوطن يستغل ماله، وهي أحدوثة عظيمة في الإسلام، وقعت فيها من الهموم والشناعات ما لا يُحصى، حتى إن الشخص يغرم مع الموضع الذي رحل عنه، والموضع الذي رحل إليه ". | عبد الله الزرهوني الكفيف، **" ملعبة الكفيف الزرهوني "**[3] |

---

**مخصوصة أو في حالات طارئة، إلى جانب المصادرات والذعائر والسخرة والهدايا، التي تقدم في الأعياد الإسلامية الكبرى للسلطان ".** مليح هشام، "**المخزن والجباية في مغرب ما قبل الحماية**"، الرباط، 2016، صص 89-90.

1 - **الحرْكة: "مصطلح مخزني - بسكون الراء - وتعني ما يشبه الغزوة أو المسيرة العسكرية، والمشارك فيها يسمى الحارك.. وقد كانت الحركات السلطانية توجه ضد القبائل من أجل دفع ما عليها من واجبات كالزكاة والأعشار التي هي ضرائب شرعية تكون أساسا مهما من أسس بيت المال.. وتستدعى عدة أنشطة واستعدادات تستدعي عمل عدة حرفيين مثل خياطي الخيام، وكان أغلبهم من اليهود، وصناع الدوم لتهيئة الشواريات والحصائر، وصانعي الحبال ذات السمك المختلف حسب الحاجة لشد الخيام، كما تدخل فيها عملية جمع الحبوب كعلف للهائم، وطحن القمح للتموين، ولإحصاء الخيل والبغال والإبل الموجودة تحت أيدي عمال القبائل. قبل انطلاق الحركة كان يسبق مهندس لمعاينة الطرق الصالحة لمرورها وتقسيم مراحلها بالساعات والدقائق، ووصفها من أجل تعيين مكان للاستراحة، ومواضع الماء، وتقييد القبائل التي سوف يكون المرور بمجالها، وعادة كل قبيلة في الحركة وما تقوم به من الخدمات. ووما يلزم الحارك من التموين وما يكفي لعلف الدواب.."** . عبد الإله الفاسي، **" الحركة "**، معلمة المغرب، حرف الحاء، العدد 10، سلا، 1998، صص 3378-3381.

جاء في إحدى الدراسات أن **" تداول هذا المصطلح يرجع للعهد الموحدي، وأن هذه الحركات انحصرت خلال هذه الفترة أدوارها في إما صد العدوان، أو زيارة قبر المهدي ابن تومرت، أو لإخضاع القبائل العربية، أو من أجل الاستجمام، وهي ضرورية لممارسة الحكم وتعبير عن قوة الخليفة، وكل تخل عنها يعتبر عيبا ونقصا في شخصه ".** راجع : حقي محمد، **" الحركة أسلوب للحكم في المغرب والأندلس في العصر الوسيط : سلطة الرموز "**، بني ملال، ص 75.

2 - نستشهد هنا بنص للوزان الحسن جاء فيه : **" وللملك خمسون فارسا تحت إمرة قائد، مكلفون بالإشعار بالضرائب من قبل كاتب الملك وباسم الملك، وقائد آخر ذو مكانة متميزة، هو رئيس الحراس الخاص بالملك له صلاحية إصدار الأمر باسم الملك للموظفين المكلفين بمهمات القتل ومصادرة الأموال ".** راجع : **" وصف إفريقيا "**، مصدر سابق، ج 1، ص 287 .

[3]- عبد الله الزرهوني الكفيف، **" ملعبة الكفيف الزرهوني "**، مصدر سابق، ص 113.

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| **السخرا** | السخرا : السخرة وهي معروفة | الكفيف، م.س، ص 113. |
| **القبالة** | " في الأصل الضريبة التي تدفع لبيت المال، وقد أطلق استعمال هذا اللفظ على الضرائب الزائدة على ما يقضي به الشرع، وكانت هذه الكلمة تستخدم في المغرب والأندلس للدلالة على الضرائب التي يؤديها أهل الحرف أو بائعو السلع الرئيسية". | راجع : هامش رقم 4، ابن القطان، م.س، ص 193 |
| **الذمة** | " الذمة ( الدية في الأصل ) مغارم توظف على الرؤوس " | الكفيف، م.س، ص 113 |
| **الخطيا** | الخطيا : الخطيئة من المغارم التي كانت مفروضة على أهل البوادي. | ملعبة الكفيف، م.س، ص 113 |
| **التخريص** | التخريص : ومما رفع عنهم الخرص في الجنات، وكان عظيم المضرة، يوظف على الناس وظائف في جناتهم، ربما تعجز الجنات عن التوفية بها، فأدى ذلك إلى أن قطع كثير من الناس جنته ليسقط عنه الخرص. | ملعبة الكفيف، م.س، ص 114. |
| **المكوس** | وضع صاحب المعيار تعريفا للمكس، في باب " حقيقة المكس وبدعيته " ، وذلك حسب مجموعة من العلماء والفقهاء جاء فيها :<br>"ومنها المكوس ومحدثات المظالم...فإنها أمور جدت في الناس وكثر العمل بها وشاعت فلحقت بالبدع وصارت كالعبادات.. وصورة المكس على ما نقله الشيخ أبو محمد المرجاني عن بعض العلماء أن يحكر شخص واحد أو أكثر منه | الونشريسي، " المعيار.."، م.س، ج 2، صص 492 – 493.<br>نجيدي محمد، **"مفهوم المكس بالمغرب في** |

| | | |
|---|---|---|
| | سلعة لا يبيعها أحد غيره أو غيرهم أو من يختاره أو يختارونه وان كثروا بشرط ألا يأخذوا السلعة إلا من جهة، فهذا هو الذي لا يجوز الشراء منه. ومثله لابن عرفة فإنه قيل عنه إن المكس منع الناس من التصرف في أموالهم بالبيع وغيره ليختص المانع بنفع ذلك. وقال الطيبي : المكس الضريبة التي يأخذها العشار. فعلى تفسير الطيبي فأخذ الفوائد في الأبواب والقاعات واكتراء الأسواق والرحاب مكسٌ، وهو الذي كثر استعماله في العرف..".<br>عَّرف عمر بجيدي المكس بأنه : ضريبة غير شرعية كانت تجبى على بضائع التجارة الداخلية، وهي محرمة بنص شرعي من حديث عقبة ابن عامر الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا يدخل الجنة صاحب مكس". | **القرن التاسع عشر"**، ضمن أعمال **ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب**، ج1، صص227-228. |
| **أزرزي** | أزرزي هي كلمة بربرية معناها الكلفة أو الفرض أو المغرم عامة ومنها الزرزاي أي الحمال | الكفيف، م.س، ص 114 |
| **المسانهة** | "وكانت عليهم ( أهل فاس ) ضريبة مسانهة يؤدونها على حسب أغراض العمال، وقد حملوا منها طول الأزمان أثقل أحمال.." ص 119. | ابن مرزوق، م.س، ص 119 |
| **الخرص** | " وكان عظيم المضرة، يوظف على الناس وظائف في جناتهم ربما تعجز الجنات عن التوفية فأدى ذلك إلى أن قطع كثير من الناس جنته ليسقط عنه وظيف الخرص هكذا غير واحد من الفاسيين وهو كالجزاء بإفريقية.." | ابن مرزوق، " المسند الصحيح.."، م.س، صص 282 – 283. |

| | | |
|---|---|---|
| **استغراق السلع** | "ومن جملة ما رفع عنهم وظائف استغراق السلع إذا ظهر الولاة على أن التجار تحملوا في سرقتها المخزن فكانوا يجعلون عقوبة ذلك أخذ السلعة كلها أو تغريم خمسة مخازن، وهو تضعيف المغرم المعهود خمس مرات فكان الولاة يجمعون في ذلك أموالا جمة ". | ابن مزروق، م.س، ص 283. |
| **اكتراء الولاة للبلاد** | اكتراء الولاة للبلاد فإنهم كانوا يلتزمون مجابي البلاد التزاما...امتدت أيديهم وكثرت عاديتهم وظلمهم" | ابن مزروق، م.س، ص 283 |
| **مغرم الجمون** | " المغرم الذي تعود أهل سجلماسة وسائر بلاد القبلة، فإنهم كانوا يغرمون مغرما يسمونه الجمون في النخل والزرع، يجتمع فيه كل سنة أحمال من الذهب مغرما ألفوه، وفي بلاد النخل والزرع عرفوه.." | ابن مروزق، م.س، ص 283. |
| **المغارم** | " في جميع بلاد القانون، وهي البلاد التي ترجع لجباية معلومة، كانوا يوظفون فيها المغارم على الرؤوس فيجعلون على كل شخص، صغيرا أو كبيرا قويا أو ضعيفا حتى الرضيع ". | ابن مرزوق، م.س، ص 284. |
| **الفطرة** | " والفطرة التي كانت تؤخذ في رمضان.." | ابن مرزوق، م.س، ص 284. |
| **الرتب** | ضرائب فرضت على الطرق مقابل الإستفادة من المعالم التي شيدها المخزن على جنباتها لمساعدة التجارة، وإرشادهم صوب المناطق التي كانوا يريدون التوجه إليها. وكانت تنتزع من التاجر كلما دخل مدينة أو دائرة من الدوائر التي لم تكن لها حدود واضحة، كما كان العساكر الذين يسهرون على الأمن في الطرقات يأخذونها من المسافرين من غير التُّجار، والأصل في هذه الضريبة أنها | المنوني محمد، " **ورقات عن حضارة المرينيين** "، م.س، ص 122. السلامي رشيد، " **وثائق مرينية : مراسلات،** |

| | | |
|---|---|---|
| | لا تدخل بيت المال، وبذلك يكونون قد منحوا أنفسهم الرواتب دون أن ينتظروا صاحب تنفيذ الجيش حتى يمدهم برواتبهم الشهرية. وهي من المغارم التي ألغاها السلطان أبي عنان المريني، ثم عادت للظهور أيام السلطان عبد العزيز الأول المريني، حيث كانت موضوع حوار مكتوب بين هذا السلطان وخطيب جامع القرويين محمد بن إبراهيم النفزي الرندي الشهير بابن عباد. | **معاهدات، ظهائر** "، دراسة وتحقيق، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد الخامس بالرباط، ج 2، 1989 م، ص 353 . |
| **الخرص والبرنس والضيافة والانزال والقاعة والخطيئة** | ومما رفعه رضي الله عنه ( السلطان أبو الحسن المريني ) عن أهل البوادي جملة ألقاب لا تحصى كالخرص والبرنس والضيافة والانزال والقاعة والخطيئة، وهذه كلها ألقاب يعرفها أهل المغرب، يجتمع فيها الأموال ذوات العدد " | إبن مرزوق، م.س، ص 284. |
| **مغرم الماء** | "وظيفة مغرم الماء وكان سقي الجنات يضطر فيه إلى مغرم للبراءة، ولصاحب الحوز والحراس، ويجري فيه من المصائب/ الخسارات والغبن ما لا يدخل تحت حصر " | إبن مرزوق، م.س، ص 285. |
| **الحبل والمطوى وإيزغدن** | "وظفت فيه مغارم مهلكة كالحبل والمطوى واللقب الذي يسمى باللسان البربري " إيزدغن وهو عبارة عمن خرج عن وطنه لفقره وحاجته، ولم يترك مستغلا يطلب حيث كان من البلاد، وإن كان قد فارق وطنه السنين الطائلة، | إبن مرزوق، م.س، ص 285. |

| | | |
|---|---|---|
| | وربما ينتهي العمل إلى طلب ذريته، فيؤخذ منه ما يوظف على كل واحد ممن هو في ذلك الوطن يستغل ماله، وهي أحدوثة عظيمة في الإسلام، وقعت فيها من الهموم والشناعات ما لا يُحصى، حتى إن الشخص يغرم مع أهل الموضع الذي رحل عنه، والموضع الذي رحل إليه ". | |
| **مغرم على الحطب البيض والدجاج والتبن** | كالمغرم على الحطب والبيض والدجاج والتبن وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف " | إبن مرزوق، م.س، ص 285. |

يظهر أن معظم الضرائب التي جاءت في الجدول قد مست بدرجة أولى الفلاحين بالبوادي المغربية، ثم يليهم التجار، فقد أشار صاحب المسند الصحيح إلى هذه الجبايات الثقيلة التي فُرضت على " **أهل البوادي كالبرنس والضيافة والانزال والقاعة والخطيئة..أحدثها الولاة ..فهلك الخلائق بسببها** "[1]. وضرائب على استغلال مياه الري، أبرزها ما عُرف ب"مغرم الماء" ف"**سقي الجنات يضطر فيه إلى مغرم للبراءة، ولصاحب الحوز والحراس، ويجري فيه من المصائب والخسارات والغبن ما لا يدخل تحت حصر** "[2]، فضلا عن ضريبة "الخرص" التي تم فرضها على حقول الفلاحين، مما أدى إلى أن قطع كثير منهم " **جنته ليسقط عنه وظيف الخرص هكذا غير واحد من الفاسيين**"[3] . فالزروع كانت تُخَرَّصُ ( تُقَّدر ) قبل حصادها، وأحيانا كان الجابي

1 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 284.

2 - نفسه، ص 285.

3 - نفسه، صص 282 – 283 .

يسبق عمل الفلاح، فيطالبه بدفع الوظيف قبل إبانها دون مراعاة ما إذا كان حرثه سيثمر[1]، أو الأخذ بعين الإعتبار القحوط أو السيول والفيضانات وغيرها من الآفات الطبيعية التي من شأنها إتلاف المحاصيل الزراعية، وبالتالي ظل الفلاح تحت رحمة؛ إما تطرف مناخي حاد، أو سلطان ووالٍ جائر أو هما معاً.

إذا كانت هذه المرحلة الأولى من العهد المريني على هذا النحو، فإن المرحلة الثانية التي تمثل مرحلة حكم السلطان أبي الحسن قد شكلت ثورة همت إصلاح السياسة الجبائية، حيث اكتفى بمداخيل الضرائب الشرعية، وألغى الضرائب غير الشرعية، فاستفاد المزارعون من إصلاحاته، فقد " **رفع عنهم الخرص في الجنات، وكان عظيم المضرة، يوظف على الناس وظائف في جناتهم ربما تعجز الجنات عن التوفية** "[2] ، كما هو الحال بالنسبة لأهل سجلماسة وسائر بلاد القبلة[3] الذين تنفسوا الصعداء بعد أن " **كانوا يغرمون مغرما يسمونه الجمون في النخل والزرع، يجتمع فيه كل سنة أحمال من الذهب مغرما ألفوه.. فرفعه ( أبو الحسن ) بجملته ورده إلى الخرص الشرعي وسبيله السوي**"[4] إذ اكتفى بمداخيل " **الزكاة والعشر** "[5].

ويبدو أن سجلماسة قد نالت اهتماما كبيرا في هذه الإصلاحات نظرا لدورها الريادي والمتميز في التجارة القفلية الصحراوية – التي تعد مداخليها من أهم مصادر تمويل خزينة المخزن خلال العصر الوسيط – باعتبارها أبرز محطة على الطريق التجاري المؤدي إلى بلاد السودان، وبفضل المنتجات الفلاحية وبعض المواد المصنعة التي

---

1 - عمر بنميرة، " **النوازل والمجتمع..**"، مرجع سابق، ص 104. الهلالي ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى..**"، مرجع سابق، ص 320.

2 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، صص 282 – 283.

3 - ذكر الأستاذ حافظي حسن علوي أن بلاد القبلة هو اصطلاح عام يطلق على مناطق واسعة من الجنوب المغربي، واقتصر مدلوله في غالب الأحيان على منطقتي درعة وسجلماسة. غير أن تشابه التطورات التاريخية على أكثر من مستوى بهذا المجال جعل أخبار بلاد القبلة متداخلة لدرجة يصعب معها التمييز أحيانا بين الخاص بسجلماسة والخاص بدرعة، مستشهدا بنموذج أخبار أولاد حسين من عرب المعقل الذين كانت لهم الغلبة والنفوذ بالمنطقتين معا خلال القرن 8 هـ / 14 م، علاوة على أن بلاد القبلة كانت تمثل منطقة جبائية موحدة دون تمييز في العهد المريني، وهذا ما يعكس العلاقة التي كانت تجمع بين المنطقتين في أكثر من مجال . راجع مقالته الموسومة بـ " **النشاط التجاري بسجلماسة وعلاقته بمجالها القروي** "، ضمن أعمال ندوة " **التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة** "، مرجع سابق، ج 2، ص 20.

4 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 283.

5 - نفسه، ص 284 .

اشتهرت بها سجلماسة والقرى المحيطة بها، والتي لعبت دورا مهما في التبادل التجاري على الصعيد الداخلي والخارجي[1].

كما كان من بين اهتمامات السلطان أبو الحسن دعم الفلاحين الصغار والمحرومين من "**سائر القبائل بما يتمشى به أحوالهم ويستغنون به عن التكفف والعالة، فسوغ لهم فيما علمت محرث زوجين ومجباها في كل وطن بحسن خراجه وجبايته**"[2]. وهذه الإجراءات تتماشى مع توجيهات الحكماء المسلمين لأولي الأمر بـ"**تكثير الغراس، وإقطاع الاقطاعات في الأرض الموات ويجعلوا لكل واحد ملك ما عَمَّر ويعينه على ذلك، فبذلك ترخص الأسعار، ويعيش الناس والحيوان ويعظم الأجر، ويكثر الأغنياء ويكثر ما تجب فيه الزكاة** "[3].

---

1 - ذكر الأستاذ ياسر الهلالي أن سجلماسة أهم منطقة رعاها السلطان أبي الحسن المريني بإصلاحه الضريبي، ولذلك جعل من أهم أولوياته إلغاء الضرائب التي كانت تفرض على التجار العابرين لهذه المنطقة الإستراتيجية، والسيطرة على زمام الأمور بها، والتصدي لقطع الطرقات وعمليات النهب والمصادرة التي كانت تقوم بها القبائل العربية لغلات مزارعيها، والقوافل التجارية. راجع دراسته : " **مجتمع المغرب الأقصى..**"، مرجع سابق، ص 314.

- أشار **Jean Devisse** إلى أن الحفاظ على المركز المتميز لسجلماسة في التجارة الصحراوية كان يفرض على السلطة الحاكمة السيطرة على المناطق المجاورة لها، فالمجال الإقتصادي الذي كان عليها أن تراقبه باستمرار كان يتشكل من مرتفعات الأطلس الكبير الشرقي في الشمال حيث تتوفر المنتوجات الحيوانية من لحوم وجلود، فضلا عن المعادن ومنطقة تدغة ودادس وبعض مناطق درعة الغنية كزكورة وأكدز في الغرب والجنوب الغربي وأخيرا المناطق الصحراوية في الجنوب والشرق التي تعتبرها المسالك التجارية . أورده حافظي علوي حسن في دراسته :" **النشاط التجاري بسجلماسة .. "**، مرجع سابق، ص 19.

- في نفس الإطار علق الأستاذ حافظي علوي حسن على هذه المسألة بأن الهيمنة على سجلماسة ومجالها القروي كان يسهل مراقبة المناطق الواقعة إلى الشمال منها حتى حدود خط تقسيم المياه بين واد زيز وملوية، وبالتالي الإستفادة من ثروة حيوانية خاصة وأن هذه المناطق كانت مجالا لتنقل الرحل بقطعانهم من الغنم نتيجة ما يوجد بها من مراعي. واستغلال بعض المناجم، وخلص إلى أن الحفاظ على ازدهار سجلماسة وحيويتها كان مرتبطا بشكل أساسي بمدى تحكمها في المجال المحيط بها، وهذا ما يفسر تراجع مكانتها في أواخر العهد المريني، نظرا لخروج هذه المناطق عن سلطة الدولة بفعل وهن أجهزتها، وخضوعها لسيطرة القبائل العربية، وبالتالي اتجهت القوافل التجارية تدريجيا نحو الجنوب الغربي للمغرب الأقصى. أنظر دراسته : " **النشاط التجاري بسجلماسة..**"، مرجع سابق، صص 34 - 35 - 36.

2 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 420.

3 - ابن رضوان المالقي أبي القاسم، " **الشهب اللامعة في السياسة النافعة** "، تحقيق علي سامي النشار، الدار البيضاء، 1984م،ص 232.

وإلى جانب الفلاحين، استفاد التجار بدورهم من إسقاط المغارم التي كانت تثقل كاهلهم، ومنها" **المكوس في البوادي والحواضر**"[1]. وضريبة استغراق السلع التي كان الولاة يجمعون من خلالها أموالا جمة على حسابهم[2]. وإلغاء " الإلتزام "، أي أن الولاة كانوا يلتزمون لمالية الدولة باستخلاص قدر معين من الضرائب في المناطق الخاضعة لنفوذهم، بيد أنهم كانوا يستخلصون قيمة أكبر بكثير مما التزموا به[3]، وذلك من أجل احتجان الثروة لصالحهم، وهذا يبين كيف أن الإلتزام شكل أداة تعسفية في حق الفلاح والتاجر والحرفي على حد سواء، خصوصا حينما يتعدد الوسطاء المشرفون على هذه العملية، ذلك أن بعض العمال كانوا يشترون مجابي بعض المناطق مقابل قدر من المال لاستخلاصها لفائدتهم، ولذلك عمل السلطان أبو الحسن على إلغاءه باعتباره جورا وخيانة للأمانة الملقاة على عاتقهم حسب شهادة صاحب المسند حيث يقول : " **ومما رفعه، وكان شائعا شنيعا، اكتراء الولاة للبلاد فإنهم كانوا يلتزمون مجابي البلاد التزاما، وكان سبب هذا تمالئهم على الخيانة في ولايتهم على سبيل الأمانة فإذا تولوها التزاما امتدت أيديهم وكثرت عاديتهم وظلمهم. فإذا زجروا، اعتلوا بالإلتزام. فأسقط رضي الله عنه عنهم هذا اللقب ولم يبق له أثر في المغرب** "[4].

---

1 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، م.س، صص 282 – 283.

2 - نفسه، ص 283.

3 - وهناك صيغة أخرى من صيغ نظام الإلتزام كان يتبعها المخزن المريني، وهي أن السلطان " **يُنَصِّب في كل مدينة عاملا يستغل إيرادها مقابل التزامه بالإنفاق على عدد من الفُرسان** ". راجع الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 286 .

4 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 283.

نشير في هذا الصدد إلى أن العهد المريني عرف كذلك " الإقطاع الضريبي "، والذي شكل إلى جانب " الإلتزام " وسيلة للتعسف الضريبي، حيث جاء في كتاب العبر : " **ولأولاد حسين هؤلاء استيلاء على هذا الوطن ومن بإزائه في فسيح جبلة من قبائل البربر صناكة وغيرهم. ولهم عليهم ضرائب وخفرات ووضائع. ولهم في مجابي السلطان أقطاعات ويجاورهم الشبانات من أولاد حسان من ناحية الغرب، فلهم بسبب ذلك على درعة بعض الأتاوات. وأما الأحلاف من ذوي منصور وهم العمارنة والمنبات فمواطنهم مجاورة لأولاد حسين من ناحية الشرق. وفي مجالاتهم بالقفر تافيلالت، وصحراؤها. وبالتل ملوية وقصور وطاط وتازي وبطوية وغساسة. لهم على ذلك كله الأتاوات والوضائع، وفيها الأقطاعات السلطانية** ". ابن خلدون، " **العبر**"، مصدر سابق، ج 6، ص 89.

ويمكن القول بأن المرحلة الثانية، والتي تدخل ضمن عهد السلطان أبي الحسن المريني قد شكلت فترة إصلاح حقيقية همت القطاع الضريبي – رغم بعض التجاوزات التي وقعت خلال آخر سنوات حكمه[1]، والتي فرضتها على ما يبدو تداعيات الجفاف الذي ضرب المغرب ما بين أعوام 1344- 1347 م – إذ كبحت جماح فساد العديد من الأشياخ والمتنفذين في جهاز السلطة وتحجيم دورهم، فأصبح المسؤولون عن الأجهزة المكلفة باستخلاص المجابي خاضعين للرقابة، ومعرضين لمختلف أنواع العقاب، إذا ثبت احتجانهم للأموال لفائدتهم، وتعسفهم في حق الرعية، ولذلك كان حريصا على أن" **يقلد هذه الأعمال للعدول والقضاة والأمناء والثقات**"[2]. فحسب ابن خلدون "**كان من سنن أبي الحسن في دولته بالمغرب وفود العمال عليه آخر كل سنة لإيراد جبايتهم والمحاسبة على أعمالهم**"[3].

ومن المرجح أن تكون هذه السياسة وراء تشبث المناطق المعروفة بثقلها الاقتصادي بالولاء لأبي الحسن ومناصرته أثناء صراعه مع إبنه أبي عنان على العرش[4].فهل ستستمر هذه السياسة التي تبناها أبو الحسن خلال المرحلة الثالثة، والتي تشمل باقي السلاطين الذين تعاقبوا على حكم المغرب الأقصى بعد ولايته ؟

---

1 - نستشهد في هذا الإطار بإشارتين تؤكد هذه الفكرة جاء في الأولى : " **الفقيه أبي محمد عبد العزيز القوري نفع الله به، وهو الذي قال له السلطان أبو الحسن المريني : تخرج مع عامل الزكاة. فقال له عبد العزيز هذا : أما تستحي من الله تعالى، تأخذ لقبا من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم** ". ابن قنفذ،" **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، صص 23 - 24.

- وجاء في الثانية أن " **الرتب التي كانت تؤخذ بالطرقات، أمر ( أبو عنان ) أيده الله بمحو رسمها...قال ابن جزي : ولو لم يكن من رفق مولانا أيده الله برعيته إلى رفعه التضييف الذي كان عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا** ". ابن بطوطة، " **رحلة ابن بطوطة : تحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**"، قدَّم له وحققه الشيخ محمد عبد المنعم العريان، بيروت، 1987 م، ج 1، ص 675.

2 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 284.

3 - ابن خلدون، " **العبر**"، مصدر سابق، ج 6، ص 526.

4 - كما هو الشأن بالنسبة لسجلماسة، حيث يقول ابن خلدون " **وقطعوا المفاوز إلى سجلماسة في القفر. فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفَرَاش، وخرج إليه العذارى من وراء ستورهن صاغية إليه. وإيثارا لإيالته..**". راجع : " **العبر**"، مصدر سابق، ج 7، ص 378.

- ونفس الأمر ينطبق على سبتة ، ذلك أن " **أواخر أيام أبي الحسن كان ابنه أبو عنان قد انتقض عليه وبايعه معظم جهات المغرب إلا سبتة فإنها تمسكت بطاعة أبي الحسن ولم تسارع بمبايعة أبي عنان** ". بن تاويت محمد، " **تاريخ سبتة** "، مصدر سابق، ص 142.

حاول السلطان أبو عنان تبني إصلاحات جبائية سيرا على نهج والده، وأسقط الجبايات التي عرفها المغرب في أواخر عهد والده – أشرنا إلى أنها كانت تجاوزات استثنائية ظرفية، وليست قارة –كمغرم " **الرتب التي كانت تؤخذ بالطرقات، أمر أيده الله بمحو رسمها، وكان لها مجبى عظيم، فلم يلتفت إليه**"[1]، بالإضافة إلى "**التضييف الذي كان عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا.. ورفع الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم...وشمل الأمر بذلك جميع الأقطار**"[2]. ولذلك وصف ابن الحاج النميري " **متصير مجابيه بالمجموعة بالعدل الثابت الأحكام**"[3]. ولم يتردد في التنكيل بمن ثبت جوره من أصحاب النفوذ من عمال وقضاة وأشياخ بني مرين ووجهاء القبائل [4].

لكن هذه الإصلاحات سرعان ما تبددت بعد وفاة أبي عنان، خصوصا مع تعاقب فترات الجفاف، فقد عمد كل سلاطين بني مرين الذين حكموا البلاد بعده إلى إعادة فرض ضرائب مُجحفة في حق مختلف الأنشطة الاقتصادية، وفي مقدمتها الفلاحة، فلم تسلم المواشي والأراضي الزراعية بالبوادي من مختلف الجبايات غير الشرعية[5]، وما زاد

---

1 - ابن بطوطة، " **رحلة ابن بطوطة ..**"، مصدر سابق، ص 675.

2 - نفسه، ص 675.

3 - ابن الحاج النميري، " **فيض العباب..**"، مصدر سابق، ص 165. وقد أشار ابن الحاج النميري أيضا إلى أن أبا عنان قد أسقط الضرائب الثقيلة التي كانت القبائل العربية تستخلصها من الرعية الخاضعة لسيطرتها، فقد" **اعتادوا باذرائه نيل المنى بالمنايا، ورعي الحكم والتحكم في الرعايا، والدنو من الدنايا، وأخذ المرباع والصفايا. فضربت المحلات المنصورة خيمها بتلك الأباطح والهضاب، وآذنت دولة الأعراب بالانقضاء.. ولم ينشب أيده الله أن أمر بإقامة البريح بأن مطالب العرب قد ارتفعت عن الأوطان، وأكفهم قد كفت عن الأقاليم والبلدان. وضرائبهم قد أزيلت، وأحوال خفاراتهم قد أحيلت..**" . راجع : " **فيض العباب** "، مصدر سابق، ص 282.

4 - ابن بطوطة، " **رحلة ابن بطوطة..**"، مصدر سابق، ص 675.

5 - فضلا عن الضرائب غير المباشرة المعروفة بـ " **الهدية** " - **وهي متنوعة بتنوع المناسبات والأهداف، ومن أشهرها على الإطلاق الهدايا التي كان تقدمها الرعية بمناسبة الأعياد الدينية الثلاثة، وهي عيد المولد النبوي وعيد الفطر وعيد الأضحى. وكانت العادة المتبعة في تقديم الهدايا أن يتوجه وفد رسمي يمثل أعيان القبيلة أو المدينة..بإشراف القائد أو من ينوب عنهم، رفقة عدد من المخازنية، إلى حيث يكون السلطان مستقرا، وذلك من أجل تجديد الولاء والطاعة من جهة، ومشاركة السلطان أفراحه واحتفالاته من جهة أخرى، وكانت تضم هذه الهدايا أجود وأشهر ما كانت تنتجه القبيلة أو المدينة من خيول وبغال وسروج ومنسوجات صوفية وقطنية وحريرية وبلاغ وفخار وشمع وإماء أحيانا...**". أنظر : الخمليشي عبد العزيز، " **الهدية** "، ضمن " **معلمة المغرب** "، حرف الهاء، العدد 22، مرجع سابق، صص 7498-7499.

راجع أيضا : الهلالي ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ص 316 .

ذكر الوزان الحسن بأن سكان جبل آيشتوم بشمال المغرب، كانوا " **يقدمون كل سنة على سبيل الملاطفة لملك فاس هدايا حسنة وافرة** ". "**وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 335 . راجع أيضا : ما أورده بخصوص أهل جبل مسطاسة. نفسه، ص 368.

وضعهم المعيشي تأزما ليس فقط الكوارث الطبيعية، بل أيضا خصائص هذه المرحلة المتميزة بالفتن والحروب، فلم تكن هناك حلول أخرى أمام المخزن يستنجد بها من أجل مواجهة كل هذه النوائب والأزمات غير فرض مزيد من الضرائب على الفلاحين والتجار، وهو ما سجله ابن الخطيب باعتباره شاهد عيان على هذه الفترة[1].

## 2.عوامل فشل السياسة الجبائية :

كان البيت الحاكم يفرض الجبايات بمنطق يغلب عليه التمييز بين القبائل، فلم تكن جغرافية التحصيل الضريبي على قدر واحد، ذلك أن السلطة كانت تعمل على إعفاء بعض المناطق من أداء " المجابي " نظرا لأنها تضم شخصيات ذات جاه[2] ومركز مرموق في التراتبية الاجتماعية القبلية[3]، وذلك على الرغم من انتكاسة النشاط الاقتصادي، وسوء الأحوال المناخية بالعديد من جهات البلاد، كجبل آيشتوم الذي كان معفيا من كل " **الإتاوات**"، بسبب إقامة العديد من الأعيان بمجاله[4]، أو تستفيد من تخفيف الضرائب عنها لدرجة تجعل قيمتها رمزية، فلم تكن ساكنة جبل بني يَدَّر– رغم كثرة عدد أفرادها وقراها وخصوبة أراضيها – تدفع" **ماعدا ربع مثقال تقريباً عن كل مدشر**"[5].

---

1 - نستحضر هنا نصا لابن الخطيب يتحدث فيه عن عهد السلطان أبي سالم إبراهيم المريني جاء فيه " **والقبائل التي أخذت عفو طاعته وخفت إلى بيعته لم يقسم الله لها حظا من رفقه، ولا هضما من غُرمه ولا مزية من مُلكه . والرعايا استولت عليها المغارم ونزفها الحلْب حتى عجزت عن الفَلْح وضعفت عن الإثارة والبذر، يستصفى أموالها بعصاب الضيق والإلحاح...وأخذ الناس حرمان العطاء، فلا يلمحون للإسعاف مخيلة، ولا يترشفون للإحسان بُلالة..**". راجع بن الخطيب لسان لدين، " **نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب** "، مصدر سابق، ص 270.

كما تحدث ابن الخطيب عن التعسف الجبائي الذي مس التجار بدورهم، ف"**الأسواق التي ثمرات كل شيء منها قد جبيت** ". راجع كتابه : "**معيار الإختيار ..**"، مصدر سابق، ص 175.

2 - مع العلم بأن ابن خلدون قد أشار إلى أن" **صاحب الجاه والحُظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه** " . راجع : ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 2، ص 76 .

3 - هذا الأمر يجد تفسيره في النصائح التي تزخر بها كتب الآداب السلطانية، والموَجَّهة من قبل مؤلفيها إلى الحكام على غرار القرن 14م، والتي تدعو السلطان إلى معاملتهم معاملة خاصة، "**وأن يصطنع وجوه كل قبيلة، والمقدمين من كل عشيرة...فمن كمال السياسة والرياسة أن يبقي على كل ذي رياسة رياسته..**" . ابن رضوان، " **الشهب اللامعة في السياسة النافعة** "، مصدر سابق، صص 421 – 422.

4 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 334.

5 - نفسه، صص 333 - 334 .

أو يحدث أحيانا أن تعفى ليس بفضل عاملي الجاه والنسب فحسب، بل أيضا بفعل المصاهرة مع السلطان والقرابة منه، كما هو الأمر بالنسبة لسكان جبل بني توزين، فهم " **أحرار يزرعون أرضهم دون أداء أية إتاوة...ويجاملهم السلطان لأنهم أصدقاء أسرته منذ القديم...ولأن أم أبي سعيد ثالث ملوك هذه الدولة (بني مرين ) بنت وجيه كبير من هذا الجبل** " [1]. وجبل بني جبارة الذي كان إقطاعا " **لأحد أقارب الملك يغِلُّ منه نحو ألفي مثقال في السنة** "[2].وبالمثل كان السلطان يُخصص إيراد سايس وآدخستان ( جنوب شرق خنيفرة ) " "**لهذا أو ذاك من إخوته، ويغل كل سهل عشرة آلاف مثقال** "[3]. أما سكان "بني مَسْكلدة " ( من قبائل جبالة) فكانوا يدفعون نزرا قليلا من المغارم، " **لأنهم ينفقون على الفقهاء والطلبة** "[4].

وهناك عامل هو آخر وهو العامل الديني؛ فالإنتماء إلى أهل الصلاح والعلم كان كفيلا بالتمتع بالتفضيل الجبائي، حيث تخبرنا المصادر بأنه على الرغم من توفر جبل بَقُّوية على أراضي خصبة، إلا أن أهله" **لا يؤدون كثيرا من الخراج لأن وليا مدفونا في بادس أصله من بلاد بقوية** "[5]. كما تم إعفاء ساكنة جبل بني يرزو (بناحية شفشاون ) من كل الضرائب لأنه يتوفر على مدرسة لطلبة علم الكلام[6].

إن تضرر مالية السلطة المركزية، وانهيار المحاصيل الفلاحية بالمناطق السهلية، لم تمنع من إعفاء الجُند من دفع الجبايات، فصاحب وصف إفريقيا يتحدث عن عدم أداء أهل جبل شفشاون " **أي خراج لأن معظمهم جنود ومشاة وفرسان** "[7].بل يصل الأمر في العديد من الأحيان إلى السماح لهم باستخلاص ضريبة "**الرتب** "

1 - نفسه، ص 346.

2 - نفسه، ص 332 .

3 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 300.

4 - نفسه، ص 339.

5 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 330.

6 - نفسه، ص 332.

7 - نفسه، ص 332.

لفائدتهم حينما تعجز عن تسديد رواتبهم[1]. وإقطاع مناطق ذات مؤهلات فلاحية وطبيعية مهمة لصالح العمال والولاة، كما هو الحال بالنسبة لعامل فاس الذي كان يستفيد من مغارم سايس[2].

تجدر الإشارة إلى أن بعض الشخصيات تمتعت بدورها من الإعفاء الضريبي، كما هو الأمر بالنسبة للفقيه عبد الجليل بن وبجلان في علي بن يوسف المرابطي[3]، ونفس الأمر بالنسبة لأبي الأمان ابن مشو في عهد الناصر الموحدي[4]، وتقدم لنا المصادر المرينية إشارات أكثر وضوحا في هذا الشأن، حيث تخبرنا بأن السلطان المريني أبو زيان محمد ظهيرا عام 763 هـ / 1362 م يقرر فيه تعيين مرتب ثلاثمائة دينار من الفضة في كل شهر لابن الخطيب ولولده " **من مجبى مدينة سلا... ورَفْعُ الاعتراض عنه ببابها فيما يُجلب إلى منزله من الأُدْمِ والأقوات على اختلافها، من حيوان وسواه، وفيما يستفيده خدامه بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان، وفاكهة وخضر وغير ذلك، فلا يُطلب في شيء من ذلك بمغرمٍ ولا وظيف، ولا يُتوجَّهُ إليه فيه بتكليف، يتصل له حكم جميع ما ذُكر في كل عام تجديدا تاما، واحتراما عاما..وأن يُحمل جانبه فيمن يُشركه أو يَخْدُمُه مَحْمل الرعي والمحاشاة من السَّخَر مهما عرضَتْ، والوظائف إذا افتُرِضَت..وتُحرَّر له الأزواج التي حرثها بتالمَغْت من مغرم أو ضريبة**"[5].

تقف وراء فشل التحصيل الجبائي أيضا عوامل طبيعية حيث ذكر الوزان مجموعة من البوادي الشمالية، والتي كانت تستفيد من وقوعها في مناطق جبلية وعرة يصعب الوصول إليها من طرف جند المخزن، وبالتالي كانت لديها الجرأة للإمتناع عن أداء الجبايات – رغم أنها تتوفر على أراضي خصبة تنتج كميات مهمة من الحبوب والثمار ورؤوس المواشي – حتى ولو كانت شرعية، خصوصا في مراحل وهن الدولة، والتي تختل فيها موازين القوى

---

1 - الهلالي ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع..**"، مرجع سابق، ص 320.

2 - راجع : الوزان الحسن، "**وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 299.

3 - فرحات حليمة والتريكي حميد، " **كتب المناقب كمادة تاريخية** "، ضمن ندوة " **التاريخ وأدب المناقب** "، الرباط، 1989 م، ص 54 .

4 - نفسه، ص 54 .

5 - لسان الدين بن الخطيب،" **نفاضة الجراب..**"، مصدر سابق، ص 67.

لصالح القبائل التي تتوفر على المال والمحاربين، فأهل جبل بني رزين يجنون القمح والزيتون ويملكون كروما كثيرة بفعل خصوبة مجالهم، لكنهم لا يؤدون أي خراج لأن جبلهم حصين[1]، ونفس الأمر بالنسبة لقرى بني سعيد التي " **ينبت فيها كثير من الشعير، والماشية وفيرة بسبب السهل الكبير الذي يستغله أهل البلاد، والذي لا يشكو أبدا من قلة الماء، لكنهم لا يدفعون أية ضريبة**"[2]. وجبل لوكاي، فعلى الرغم من أن " **سكانه أثرياء جدا لأنه ينتج كثيرا من العنب والتين واللوز والزيتون والسفرجل والليمون وبه أعيان وفرسان..إلا أنهم لم يقبلوا قط أداء أية إتاوة فالطبيعة والجبل يحميانه حماية تامة** "[3]. ونفس الأمر ينطبق على قبائل بوادي مطغرة[4] وغياثة[5] البْرانس[6] وبني مْراسَن[7] ومَسْطاسة[8].

ويبدو أن كل هذه الإمتيازات الضريبية قد فوَّتت على مالية الدولة موارد مهمة[9]– خصوصا في أزمنة الوفرة والخصب[10]، وهو ما يشرح مشكلة الجباية، ويُفسر في نفس الوقت دوافع الشطط الضريبي في حق المناطق التي ظلت خاضعة لنفوذ المخزن، وبالتالي يمكن أن نتصور حجم الإنهاك الذي مورس في حقها[11]، خاصة خلال عهد

---

1 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 331.

2 - نفسه، ص 344.

3 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 335.

4 - " **لا يدفع سكانه خراجا...وقلما يحترمون ملوكهم** ". نفسه، ص 356.

5 - " **لا يخضعون لملك. ولا يقدمون له أية ضريبة** ". نفسه، ص 356.

6 - " **وتسكنه قبيلة غنية قوية تملك الكثير من الخيول ولا تؤدي أية ضريبة** ". نفسه، ص 357.

7 - " **لا يؤدون أي ضريبة...لأن جبلهم منيع، ولكونهم أغنياء يدافعون عن أنفسهم** ". نفسه، ص 368.

8 - يتصف بـ" **كثرة السكان وثرائهم ونبلهم وتوفرهم على عدد عظيم من الخيل والبغال ولا يؤدون أية ضريبة** ". نفسه، ص 368.

9 - فإيراد تيكريكرة التي تضم سهلين، يخصص فيها " **إيراد أحد هذين السهلين لهذا أو ذاك من إخوته. ويغِلُّ كل سهل في المتوسط من السنين عشرة آلاف مثقال** " . نفسه، ص 300.

ونفس الأمر بالنسبة لجبل بني جبارة، والذي كان " **إقطاعا لأحد أقارب الملك يغلُّ نحو ألفي مثقال في السنة** " . نفسه، ص 332.

فضلا عن سكان جبل بني وليد الذين " **لا يؤدون أي خراج للسلطان...فلو كان هذا الجبل يعترف بسلطة ملك...لأمكنه أن يجبى منه ستة آلاف مثقال، لأنه يضم ستين قرية كلها غنية** " . نفسه، ص 334.

وينطبق نفس الوضع على جبل بن يدر، " **فلو كان يعترف بسلطة ملك لأمكنه أن يجبى منه ستة آلاف مثقال لأنه يضم ستين قرية كلها غنية** ". نفسه، ص 334.

10 - كما هو الشأن بالنسبة لأعوام 677 هـ / 1278 م؛ 725 هـ / 1325؛ 763 هـ / 1362 م؛ 775 هـ / 1373 م.

11 - كان أهل أزغار " **يؤدون خراجا مرتفعا** " . الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 301 . وعان أيضا سكان جبل بني خالد من " **فقرهم والضرائب التي تثقل كواهلهم** " . نفسه، ص 330 . ولطالما فُرضت على ساكنة "جبل بني زَرْويل " بناحية

بني مرين نظرا لكثرة الإنفاق الذي عرفوا به على الفقهاء والشرفاء وأهل الولاية[1]، وكبار المسؤولين في الدولة[2]، وأشياخها[3]، وحتى المرتزقة النصارى[4]، فضلا عن الموارد التي تم صرفها في تشييد العديد من العمائر الدينية والعلمية[5]. والتقلص المستمر لمداخيل التجارة الصحراوية مقارنة مع العهد المرابطي والموحدي[1].

---

شفشاون_" **إتاوات ثقيلة بحيث لا يستطيع هؤلاء أن يوفروا شيئا** ". نفسه، ص 331. واعتاد المخزن أن يستخلص من ناحية بني مسكلدة " **ضرائب جسيمة يجد الذرائع دائما للزيادة فيها** ". نفسه، ص 339.

1 - " **وأما صدقاته الجارية ( أبو عنان ) وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر.. ومنها بناء المرستانات في كل بلد من بلاده..**". راجع ما أورده ابن بطوطة، " **رحلة ابن بطوطة ..**"، مصدر سابق، صص 674 – 675 .

- " **وكان السلطان المرحوم أبي عنان فارس، ابن السلطان أبي الحسن المريني يُجل هذا الشريف ( أبي العباس أحمد الحسيني ) ويعترف له بالفضل، ويعطيه العطاء الجَزْل، وكان يستدعيه كل سنة إلى حضرته فاس، ولحضور المولد السعيد...ويخلع عليه الخِلع الملوكية، ويُعدُّ له دينارا مسكوكا يُصنع بمدينة مراكش، زنته مئة دينار ذهبا، يدفع له ذلك مع جائزته، إلى غير ذلك مما يُتحفه به** ". المقري التلمساني، " **أزهار الرياض في أخبار عياض** "، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، القاهرة، 1939 م، ج1، ص39.

- " **وأما جميل اعتقاده ( السلطان أبو سعيد ) في الصالحين وحسن ظنه فيهم، فكان في ذلك آية..وصنيعه من مع من أتى ..على أمواله..حدثني الشيخ الصالح أبو عبد الله المكناسي، وكان من ملازميه ومن المذك1رين الوعاظ، قال : ما استفتحت قط موعظة بمحضر السلطان أبي سعيد، فأتممتها رحمة له** ". راجع ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 122.

" **ولم يزل أمير المسلمين أبو سعيد عثمان أطال الله أيامه من أول خلافته إلى الأن ..يشهد جنائز الصلحاء ويعطي الشرفاء والفقهاء والصلحاء في كل سنة الأموال والخلع والزرع وجميع ما يحتاجون إليه** " . ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص 399.

" **أمر ..أبو الحسن ..ببناء المدرسة غربي جامع الأندلس بفاس.. ورتب بها الفقهاء للتدريس..وأجرا عليهم الانفاق والكسوة** ". راجع : إبن أبي زرع، " **روض القرطاس..**"، مصدر سابق، ص 412.

2 - " **فالمقربون إلى السلطان يكون لكل واحد منهم ستون مثقالا من الذهب في كل شهر...وأما قاضي القضاة، فله في كل يوم مثقال من الذهب..وأما كاتب السر، فله في كل يوم مثقالان من الذهب، وله قريتين يتحصل منهما متحصل جيد، مع رسوم كثيرة له على البلاد ومنافع وإرفاقات..**" . راجع ما ذكره : القلقشندي أحمد، " **صبح الأعشى..** "، مصدر سابق، ج 5، صص 204 - 205.

ثم جاء في كتاب وصف إفريقيا ما نصه : " **وما إن يتم الإعتراف به ( السلطان ) حتى يُعين مستشاره الكبير من أعيان حاشيته....ويخصص له ثلث إيراد مملكته...ثم يُنصب في كل مدينة عاملا يستغل إيرادها** ". راجع : الوزان الحسن،" **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ص 286.

3 - ذكر القلقشندي أن " **للأشياخ الكبار الإقطاعات الجارية عليهم : لكل واحد منهم في كل سنة عشرون ألف مثقال من الذهب، يأخذها من قبائل، وضياع، وقلاع؛ ويتحصل له من القمح والشعير والحبوب من تلك البلاد نحو ألف وَسْق...وللأشياخ الصغار من الإقطاع والإحسان نصف ما للأشياخ الكبار**". راجع كتابه :" **صبح الأعشى ..**"، مصدر سابق، ص 204.

4 - تحدث ابن مرزوق ( عهد أبي سعيد عثمان ) عن " **مال جسيم يصرف في مرتبات النصارى الملازمين للخدمة، وهو مال طائل ينتهي عدد النصارى إلى ثلاثة آلاف فارس...ورواتبهم كبيرة من الخمسين دينارا من الذهب إلى خمسة دنانير ذهبا في كل شهر غالبا** " . راجع : " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 282 .

5 - " **قد قدمنا أن إنشاء المدارس. كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا ( أبو يوسف يعقوب ) مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس وبعدوة القرويين منها. ثم أنشأ مولانا السلطان أبو سعيد ..مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء..ثم أنشأ..مدرسة الصهريج،ثم أنشأ المدرسة الكبرى مدرسة الوادي ..**". نفسه، صص 405 – 406.

" **فأنشأ ( أبو سعيد ) مدرسة المدينة البيضاء ومدرسة القرويين، ولا مثيل لهما في الإحسان وتأنق الصنائع** ". نفسه، ص 122.

" **وإنفاقه ( أبو الحسن ) الأموال الجسيمة لم يزل دأبه..حال امرته وخلافته، فله بمدينة فاس..الآثار الجميلة والبنايات الحفيلة..**". نفسه، صص 401 – 402.

## 3.أثر السياسة الضريبية والجوائح على الفلاحين والتجار :

كان من نتائج التعسف الضريبي الذي نهجته السلطة انتشار مظاهر البؤس والبوار في البوادي، فكان أكبر المتضررين هو الفلاح المغربي، هذه الوضعية خلَّفت صداها في كتب الرحلات بتكرار عبارات من قبيل "**الفقر المدقع** "[2]. فجبل بني وريا كَل الذي كان يتميز بإنتاج فلاحي مهم خلال السنوات المطيرة، مسَّه تعسف المخزن وسطوته على أموال المزارعين، فبدل " **أن يكونوا أغنى الناس أضحوا في الحقيقة أفقر الناس**"[3]. وبالمثل كانت فلاحو جبل بني زرويل يمتلكون أرضا طيبة صالحة للزيتون وغيره من الأشجار المثمرة، لكنهم فقراء بسبب المغارم المجحفة التي تُفرض عليهم، " **بحيث لا يستطيع هؤلاء أن يوفروا شيئا** "[4].

والحال هذه، أن الوضع الاجتماعي للفلاح كان يزداد سواء كلما استمر إمساك السماء عن الغيث، وهو ما عبرت عنه أيضا كتب النوازل، فقد "**سُئل عن رجل أعار لرجل ثورا ليحرث به مواضع معلومة** "[5]. وبالتالي كان الثقل الضريبي والمصاعب المناخية، وضعف المستوى المعيشي العديد من الفلاحين يدفعهم إلى استعارة وسائل الإنتاج وفي مقدمتها دواب الحرث، فلاريب أن هذه التعسفات كان تُغيِّب روح المبادرة لدى الفلاحين، وتُثْبطُ همتهم للإنتاج خصوصا في السنوات التي تَقِلُّ فيها الأمطار، فبعضهم "**غلبهم اليأس وعزموا الهجرة**"[6] عبر

---

**" وفي سنة احدا وعشرين وسبعمئة أمر الأمير...أبو الحسن علي ..ببناء المدرسة غربي جامع الأندلس بفاس، فبنيت على أتم بناء وأحسنه وأتقنه، وبنا حولها سقاية ودار وضوء وفندقا بسكنا طلبة العلم، وجلب الماء إلى ذالك كله من عين بخارج باب الحديد من أبواب مدينة فاس، وأنفق في ذلك أموالا جليلة تزيد على مئة ألف دينار".** ابن أبي زرع، **" روض القرطاس "**، مصدر سابق، ص 412.

1 - خاصة بعد ضعف المخزن المريني، وفقدانه السيطرة على مسالك التجارة القفلية بالجنوب، فعلى سبيل المثال كان أهل جبال زيز، وهم **"قوم من قبيلة زناكة.. يعطون رخص المرور لقوافل التجار الذين يؤدون لكل قبيلة من قبائل هذه الجبال حق مرور خاص، وإلا تعرضوا للنهب "**. راجع : الوزان الحسن، **" وصف إفريقيا "**، مصدر سابق، ج 1، صص 369 - 370.

2 - نفسه، صص 337 - 338 و ص 370 .

3 - الوزان الحسن، **" وصف إفريقيا "**، مصدر سابق، ج 1، ص 337.

4 - نفسه، ص 331.

5 - ابن هلال السجلماسي، **" الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير "**، طبعة حجرية، مكتبة آل سعود، 1319 هـ / 1901 م، ص 134.

6 - الوزان الحسن، **" وصف إفريقيا "**، مصدر سابق، ج 1، صص 349 – 350.

مختلف المسالك" **يمينا وشمالا، ولحقوا بالجبال المنيعة لتكون حصنا لهم ومآلا**"[1]. فتعرضت أراضيهم للبوار، فأضحت "**خالية موحشة**"[2]. كما هو الأمر بالنسبة لعهد أبي سالم المريني، الذي قاست فيه الرعية الشدائد جراء الجدب، و"**استولت عليها المغارم ونزفها الحلْب حتى عجزت عن الفَلْح وضعفت عن الإثارة والبذر**"[3].وعمد آخرون إلى إتلاف محاصيلهم وأشجارهم المثمرة لإسقاط الوظائف عنهم[4]، بينما ارتأى البعض منهم الإحتماء بالمتنفذين وذوي الجاه، وعرضوا عليهم كراء أراضيهم على أن يضمنوا لهم عدم الزيادة في الجبايات أو الإشتغال لصالحهم مقابل حمايتهم [5].

وتحول بعضهم إلى مجرد خُدام يقومون بأعمال السُّخرة لدى بعض القبائل العربية كما هو حال مُزارعي گرسَلوين قرب ضفاف نهر زيز[6]. وبادية گرسيف التي كُلفت بـ"**حراسة الحبوب المخزونة في القصر لحساب الأعراب**"[7]، سجل ابن خلدون دور القبائل العربية في الضمور الديمغرافي للسهول الصالحة للزراعة، واضمحلال حركة التعمير والعمران، وذلك منذ بدايات قدومهم إلى المغرب الأقصى، يقول في هذا السياق " **فانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان..كيف تَقَوَّضَ عمرانه، وأَقْفَرَ ساكنه، وبُدلت الأرض فيه غير الأرض...والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المئة الخامسة، وتمرسوا بها لثلاث مئة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا**"[8]. نفس الملاحظة سجلتها كتب الرحلات بالنسبة للعديد من المناطق كمنطقة توريرت، فبعد أن

---

1 - بن آبي زرع الفاسي، " **روض القرطاس..**"، مصدر سابق، ص 283.

2 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، صص 349 – 350.

3 - بن الخطيب لسان الدين، " **نفاضة الجراب** "، مصدر سابق، ج 2، ص 270.

4 - راجع : ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، صص 282 – 283 .

5 - الهلالي ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ص 327 .

6 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 370 .

7 - نفسه، ص 351 .

8 - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 1، ص 288 .

كانت آهلة بالسكان، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف كانون[1]، فإنها ستصبح بمجرد وصول بني مرين إلى السلطة" **موضع نزاع وميدان وحروب...إلى أن دمرت وهجرت عام 780 للهجرة. وبعد ذلك أقطعوها لأحد رؤساء الأعراب...فغلبهم اليأس وعزموا الهجرة وتركها....فبقيت تاوريرت خالية**"[2]. كان من نتائج سوء أحوال المناخ، وكثرة الضرائب الفلاحية التي فرضت في أواخر العهدين المرابطي والموحدي، وخلال أغلب أطوار دولة بني مرين، كثرة الديون المتراكمة على المزارعين، فاختار بعضهم أسلوب التخلي المؤقت عن أراضيهم، أو ما عُرف بالبيع بالثُّنيا[3] – من أجل أداء الديون المتراكمة عليهم[4]– رغم تحريمه من قبل الفقهاء باعتباره من" **البيوع الفاسدة** "[5]. واختار بعضهم بيعها بصورة نهائية بأبخس الأثمان[6]، أما البعض الآخر فقد اختار طريق اللصوصية والسطو على ممتلكات الناس[7]، أو حتى الدخول في انتفاضات مسلحة ضد السلطة[8].ونتيجة لذلك بلغت الزراعة مبلغا واضحا من الضرر، فانحسرت مساحة الأراضي الزراعية لصالح سيادة الرعي، فتحولت السهول لمراعي كسهل

---

1 - الكانون وحدة سكانية تساوي 10 أفراد . راجع : المنصوري عثمان، " **بعض قضايا البحث الديمغرافي في الفترة الحديثة ( القرن 16 نموذجا )**"، ضمن **مجلة كنانيش**، ع 1، وجدة، 1999 م، ص 85 .

2 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، صص 349 – 350.

3 - " **هو البيع بشرط أن البائع متى ردَّ الثمن يردُّ المشتري المبيع إليه** ". راجع : الرصاع أبي عبد الله محمد الأنصاري ( ت.894 هـ / 1489م)، " **شرح حدود ابن عرفة : الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية** "، تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، القسم الأول، لبنان، 1993 م، ص 354.

على خلاف التعريف الذي وضعه سعدي أبو جيب، والذي جاء فيه بأن " **البيع بالثنيا هو البيع جزافا، أي دون القيمة الحقيقية للأرض** ". راجع كتابه : " **القاموس الفقهي لغة واصطلاحا** "، دمشق، 1988 م، ص 29.

4 - بنميرة عمر، " **النوازل والمجتمع ..**"، مرجع سابق، ص 98 .

5 - الرصاع محمد ،" **شرح حدود ابن عرفة ..**"، مصدر سابق، ص 354. -الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 6، ص 116 .

6 - أشار العديد من الباحثين إلى أن الأعوام العجفاء لعبت دورا كبيرا في بيع الأرض من قبل الفلاحين المتضررين من نضوب الموارد المائية لفائدة كبار الملاكين ممن يتوفرون على قاعدة مادية صلبة، مما كان يُمثل فرصة سانحة أمام هؤلاء من مراكمة أصولهم المادية، وبالتالي ظهور بوادر التفكك في البنيات الاجتماعية، ومن ثمة بروز عدد من أسر الأعيان فوق باقي أفراد القبيلة . راجع : الهلالي ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى..**"، مرجع سابق، ص 101 .

7 - كأهل جبل بني خالد الذين تحولوا إلى " **لصوص سفاكين بسبب فقرهم والضرائب التي تثقل كواهلهم** ". الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 330.

8 - من أوضح أمثلتها انتفاضة قبائل شمال البلاد على السلطان أبي سالم المريني واغتياله، بفعل كثرة الضرائب التي فرضها على أراضيهم الفلاحية، حتى توقفوا عن العمل، وبارت أراضيهم، رغم أنها كانت من أشد القبائل المؤيدة لسلطانه. راجع : ابن الخطيب، " **نفاضة الجراب**"، مصدر سابق، ج 2، ص 31 و صص 270 - 275.

الشاوية[1]. لكن هذا لا يعني أن وضعية الرعاة كان أحسن حالا من المزارعين، فـ"**الرعاة سواء منهم سكان الجبال وسكان السهول يعيشون معيشة ضنكاً ويبقون في بؤس وخصاصة على الدوام** "[2].فضلا عما يجابهونه من مصاعب خلال سنوات الجدب والوباء[3]، وخاصة أزمات الأقوات، وهو أمر يُعزى بدرجة أولى إلى توقف العديد من الفلاحين عن الإنتاج بفعل التعسفات التي ذكرناها، ودوره في وقوع نزيف ديمغرافي، لم تسلم منه بطبيعة الحال الأيدي العاملة، يقول ابن خلدون "**فأما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفَلْح في الأكثر، بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات..وأما كثرة الموتان : فلها أسباب من كثرة المجاعات..أو كثرة الفتن أو وقوع الوباء**"[4]، ولذلك حذرت كتب السياسة الشرعية من أنه " **إذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها، فتخرب الأرض، ويهرب الزراع، فتضعف العمارة، فيضعف الخراج، وينتج عن ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع العدو**"[5]، ونفس القاعدة تسري على التجار، فقد خلفت الجبايات الثقيلة آثارا فادحة على معيشتهم، إذ ساهمت المكوس في كساد الأسواق، مع استمرار السلاطين في فرضها" **على المبايعات وفي الأبواب...ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه، حتى تثقل المغارم على الرعايا**"[6]، وتزداد ثروة السلطان وحاشيته، وهي في واقع الحال"**أحقر مما لو كانت أموالاً مسروقة**"[7] فينتج عن كل ذلك تسرب اليأس في نفوس التجار "**فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار جملة، فتنقص جملة الجباية.. ويعود وبالُ ذلك على الدولة** "[8]، ولعل ما يشرح أيضا عمق الأزمة المادية الخانقة التي مسَّت التجار والفلاحين على حد سواء، هو لجوء البيت

---

1 - الناصري، " **كتاب الاستقصا** "، مصدر سابق، ج 4، ص 66.

2 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 88.

3 - ابن الخطيب، " **نفاضة الجراب** "، مصدر سابق، ج 3، ص 90.

4 - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 1، ص 499.

5 - ابن رضوان، " **الشهب اللامعة..**"، مصدر سابق، صص 231 – 232.

6 - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 1، ص 468 .

7 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 289.

8 - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 1، ص 468 .

الحاكم إلى الاستثمار في الفلاحة والتجارة واحتكار الأسواق النافقة " **لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلاَّت مع يَسَارة أموالهم..فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع، والتعرض بها لحوالة الأسواق** "[1]. مما ينتج عنه ضرر عظيم، وذلك لمضايقة الفلاحين والتجار في شراء المواشي ومختلف السلع ومزاحمة السلطان لهم، وهو صاحب الموارد المالية الأكبر، " **فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته، ويدخل على النفوس من ذلك غمٌ ونكد. ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرَّض له غضّاً أو بأيسر ثمن إذ لا يجد من ينافسه في شرائه، فيبخس ثمنه على بائعه** ."[2]

ولا يقتصر السلوك السلبي للسلطان – وحاشيته – على مزاحمة الفلاحين والتجار في معاشهم، وشراء منتجاتهم التي توفرها لهم سني الوفرة، بأبخس الأثمان فحسب، بل إنه لا يعرض أصلا هذه السلع في الأسواق لتسري عليها قوانين العرض والطلب، إذ أنه يستدعي التجار ويلزمهم بشرائها بأثمان باهظة، فتمتص بذلك أموالهم، وتبقى هذه البضائع جامدة بأيديهم، إذ لا يجدون من يشتريها منهم بأثمان مجزية فتتعطل تجارتهم التي فيها كسبهم ومعاشهم، وهو ما نبه إليه ابن خلدون بالقول :" **ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومُغلها كله من زرع أو حرير أو عسل أو غير ذلك من أنواع الغلات، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة، فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع، ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد، فيستوعبون في ذلك ناضَّ ( الدرهم والدينار ) أموالهم، وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضا جامدة ويمكثون عُطَّلاً من التجارة التي فيها كسبُهم ومعاشهم. وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن. وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم يما يُذهب رأس ماله، فيقعد عن سوقه، ويتعدد ذلك**

1 - نفسه، ص 471.

2 - نفسه، ص 471.

**ويتكرر، ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الجباية"**[1]، مما يؤدي إلى إفلاسهم ومن تم، حرمان مالية الدولة من الجبايات التي يؤدونها. وقد حذر ابن خلدون من نتائج هذه السياسة، مشددا على أن **"التجارة من السلطان مُضرة بالرعايا"**[2]، ومذكِّراً بأن" **معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار..فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة، وقعد التجار عن التجارة، ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش "**[3] . إن بعض التجار كانوا يستخدمون بعض الأساليب للتملص من دفع الجبايات، كالإحتماء بالشرفاء لما لهم من حظوة لدى السلطة المركزية، كما هو الشأن بالنسبة لتجار سبتة مع الشريف أبي العباس أحمد الحسيني، حيث ذكر المقري بأن السلطان المريني أبي عنان كان " **يُجِلُّ هذا الشريف، ويعترف له بالفضل، ويعطيه العطاء الجَزْل، وكان يستدعيه كل سنة إلى حضرته فاس لحضور المولد السعيد..ويصحبه في وِجْهَته تلك من الضعفاء والتجار ما لا يُحصى كثرة...ويرفع عنهم اللوازم المخزنية، فكان التجار لأجل ذلك يَرصُدون وقت سفره وقُفوله"**[4]. كما يعمد بعض التجار القادمين من البوادي صوب المدن إلى إخفاء بضائعهم في أبوابها لكي لا ترصدها أعين المكلفين بجبايتها، وهو ما يُستشف من رواية ابن مرزوق حول ما كانت تشهده " **الأبواب من التفتيش الذي لا يحترم فيه من الناس أحد، فيتولى المسلم نصراني ويهودي وخارجي ويحيطون به فيفتشون من رأسه إلى قدمه ظاهرا وباطنا لما عسى أن يدخل به من السلع التي يوظف عليها مغرم من المغارم "**[5]، وقد لاتقتصر هذه العمليات على الأبواب، بل تشمل مناطق بعيدة عنها، فقد كان حراس فاس يذهبون **"أحيانا إلى خارج**

---

1 - ابن خلدون، " **المقدمة** "،ج 1، ص 473 .

2 - نفسه، ص 473 .

3 - نفسه، ص 473 .

وقد شدَّدت كتب السياسة الشرعية على ضرورة أيضا " **الاعتناء بأمور التجار الذين يضربون في الأرض في طلب رزق الله من حلال المكاسب وصونهم من أيدي الظلمة. وفي ذلك استمالة القلوب النازحة واستجلاب الذخائر الخطيرة، والأحجار النفيسة** ". ابن رضوان، " **الشهب اللامعة** "، مصدر سابق، ص 314.

4 - المقري التلمساني، " **أزهار الرياض في أخبار عياض..**"، مصدر سابق، ج 1، ص 39.

5 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 285.

**المدينة لملاقاة البغالين حتى لا يخفوا شيئا من البضاعة، وإذا أخفوا شيئا أدوا عنه أضعاف الرسوم مضاعفة"**[1].

بينما لجأ بعض التجار إلى إعطاء الرشاوى لرجال السلطة لإتقاء شرورهم وتعسفاتهم[2]، خاصة أن مجموعة من الفقهاء قد أفتوا بجوازها، إذا كان من شأنها حماية النفس والمال تحت ما يُسمى بـ"**مُدارات الظلمة**"[3].

هناك عدة مواقف صدرت من الفقهاء والعلماء يستنكرون فيها التعسف الجبائي للمخزن الذي لم يكن يُراعي حتى السني التي تحل فيها جوائح سماوية، فقد نعت ابن عبدون المتقبلين بكونهم شر خلق الله وطالب بتنزيلهم منزلة اليهود والنصارى في اللبس خزيا وعارا[4]. وعارض محمد ابن الفراء وأبو بكر الطرطوشي فرض يوسف بن تاشفين ضريبة المعونة على الرعية، والتي قاست الجوع في " **الأعوام الشهباء** "[5]، وأفتى الشيخ أبو القاسم السيوري بخصم قدر المغارم التي تم استخلاصها من الفلاحين من قيمة الزكاة الواجبة عليهم[6]، ثم استنكر الفقيه أبي محمد عبد العزيز القروي اتخاذ الزكاة شكل ضريبة غير شرعية[7]، كما عارض سياسة التفضيل الضريبي بين فئات

---

1 - الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 251.

2 - الهلالي ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ص 327 .

3 - سئل ابو الفضل راشد بن ابي راشد الوليد عن "حكم مداراة الظَّلَمة " : " **فأجاب : رحمه الله بما نصه : أما مدارات الظلمة إذا خفت على نفسك أو مالك أو على أبويك فذلك مما يجوز لك** " . راجع : الونشريسي، " **المعيار المعرب..**"، مصدر سابق، ج 11، ص 217 .

4- " **هذا هو شر خلق الله، وهو بمنزلة الزنبور الذي خلق للضرر، لا للنفع! فهو يجري ويسعى لضرر المسلمين أبدا** ". ابن عبدون، " **ثلاث رسائل أندلسية** "، مصدر سابق، ص 30.

5 - لعب الفقهاء خلال العصر المرابطي دورا هاما في مراقبة الأمور الإدارية والمالية، خاصة فيما يتعلق بطرق ترشيد إدارة بيت المال، وعلى رأسهم الفقيهين إبن الفراء وأبو بكر الطرطوشي، حيث وجَّه كل منهما رسالة إلى يوسف بن تاشفين تنتقد سياسته الضريبية والمالية، وتدعوه إلى إسقاط ضريبة المعونة، لأن في ذلك تجاوزا لحقوق الرعية وعدم مراعاة لمصالحها، وقد استندا في ذلك على مختلف الحجج وأدوات الإقناع بالرجوع إلى النواحي العقائدية والسلوكية التي نصَّت عليها الشريعة.
بوتشيش القادري إبراهيم، " **دور الفقهاء في الرقابة المالية بمغرب العصر الوسيط على ضوء رسالتين موجهتين ليوسف بن تاشفين** "، السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب، **أعمال مهداة إلى الأستاذ أحمد عزاوي**، القنيطرة، 2013 م، صص 199 – 215 .

6 - جاء في نص النازلة : " **وسئل عن أهل الزرع والزيتون يحرز عليهم الأعراب والسلطان الزرع والزيتون قبل حصاده أو قطافه وعصره، ويجعلون عليهم مالاً كثيرا عيناً، ويؤخرون قبضه بعد حصاده بشهر أو شهرين، هل يسقط عنهم من الزرع بقدر ما ألزموا من المغارم ويزكى ما بقي ؟ أو يزكى ذلك كله ؟ . فأجاب : يسقط من الزكاة بقدر ما أخذ منهم وإن لم يؤخذ من عينه** ". الونشريسي، " **المعيار المعرب** "، مصدر سابق، ج 1، 365.

7 - ابن قنفذ،" **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، صص 23 - 24.

المجتمع[1]، وبالمثل أدرج الونشريسي المكوس في خانة البدع ومحدثات المظالم[2]، أما الشيخ محمد بن عباد فقد وصف ضريبة الرُّتب بـ"**المفسدة العظيمة** "[3]، وصنَّفها ضمن " **رسوم الجور** " [4]، التي أحدثها" **أمراء لا يعرفون دينا ولا مذهبا** "[5]، وعمال لا يعدون كونهم من" **أراذل الناس وسفهائهم** "[6]، فوجَّه رسالة ينصح فيها السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز برفعها، مُعززا طلبه بمجموعة من نصوص القرآن والسنة والأقوال المأثورة، وبوقائع شهدها التاريخ الإنساني، ثم أرسل كتابا آخر[7] يُجدد فيه مناشدته للسلطان برفع " **ضريبة الرُّتب** "، وينصحه فيه بتفقد أحوال رعيته، ومراعاة عدة شروط أثناء تولية عماله وولاته[8]، فضلا عن التصدي لتعسفاتهم على الرعية، وخيانتهم للأمانة، مُحذرا إياه من عواقبها على سلطانه[9]، ولافتا انتباهه إلى ضرورة تصريحهم بأصولهم وممتلكاتهم قبل تسلمهم

---

1 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير..**"، مصدر سابق، ص 24 و صص 99 – 100.

2 - الونشريسي، " **المعيار**"، مصدر سابق، ج 2، ص 492 .

3 - السلامي رشيد، " **وثائق مرينية ..**"، مرجع سابق، ص 354 .

4 - نفسه، ص 365 .

5 - نفسه، ص 353.

6 - نفسه، ص 359 .

7 - أهم ما جاء فيها " **وقد كنت طلبت منكم في آخر كتاب كتبته لكم أن تزيلوا مظالم الرتب.. وأخبرناكم بما شاهدنا فيها من المفاسد المشينة لحسن دولتكم، والمكدرة صفاء حالكم، فلم تسعفوا طلبنا بذلك...وأنا الآن أجدد الرغبة إليكم في ذلك والأخبار بحالها، فاعلم يا أمير المؤمنين أن من تولى ذلك من أهل الفساد والشر قد انتشروا في بسيط الأرض.. وحازوا منهم في الأموال الحرام بالنهب .. حيث لا تنالهم أحكامكم.. لم يدينوا الله بدين ولا دخلوا في غمار المسلمين** ". راجع : السلامي رشيد، " **وثائق مرينية..**"، مرجع سابق، ص 359 .

8 - وهي " **أن يكون صادق اللسان، ظاهر الأمانة، عفيفا عن المحارم.. بعيدا عن التهم والرِّيَب، مأمونا في الرضى والغضب، مستعملا لخصال المروءة الدينية والدنيوية، فهذه الخصال هي التي ذكر العلماء أن باجتماعها تكون العدالة في الولاة، فإذا تكاملت فيهم صحت ولايتهم، ونفذت أحكامهم، وإن انخرم منها وصف لم تمض له ولاية، ولا ينفذ له حكم، فعليكم أن تولوا أعمالكم من اجتمعت فيه هذه الخصال** ". راجع : السلامي رشيد، " **وثائق مرينية..**"، مرجع سابق، صص 361 – 362 .

9 - " **عليكم أن تتفقدوا عمالكم.. فإنه قد ظهر منهم الغش وعدم النصيحة لكم ولرعيتكم، وحاصل أمرهم أنهم تمكنوا من الرعية كل التمكن، وأحدثوا سننا غير مشروعة وفعلوا عليه مما يوافق أغراضهم مما يكسبهم المال والجاه، وتوصلوا بذلك إلى جباية أموالهم، والإستيلاء على رقابهم بالجبر والقهر.. وصار في ذلك لهم ولأتباعهم وأشياعهم مأكل وتوسعات لم ينالونها بكد ولا تعب..غير مكترثين بكم، ولا حامدين ولا شاكرين لكم، وأعظم المصائب سؤال الله لكم عن ذلك، ودعاء المظلومين عليكم**". السلامي رشيد، " **وثائق مرينية..**"، مرجع سابق، ص 361 .

لهذه الوظيفة الهامة في سلم الهرم الاجتماعي للجهاز المخزني، وهو ما سيوفر لمالية الدولة موارد هامة، دون الحاجة لفرض الضرائب غير الشرعية على رعيته[1].

إن هذا الموقف القوي للإمام ابن عباد وجرأته في رسائله للسلطان، ومواقف العديد من الفقهاء[2] قد جاءت استجابة لمطالب الفئات المتضررة من التحصيل الضريبي، للتدخل لدى السلطة من أجل رفع الحيف عنهم، ومراعاة الجوائح التي تتضرر منها مصادر أرزاقهم، فلطالما قام الأولياء بأدوار الوساطة بين السلطة والرعية لإسقاط الضرائب غير الشرعية عنهم، فقد تكررت هذه الظاهرة في عهد تاشفين بن علي[3]، وخلال زمن الناصر الموحدي، كما حدث مع أهل تاجنيت من بلاد تادلا في عام جدب، حينما أخذ عامله إسحاق بن يحيى " **دوابهم في وظيف وظفه عليهم من الجباية، مبلغه مائتا دينار. فشكوا إلى أبي الأمان بذلك. فكتب لهم إلى إسحاق كتابا بالشفاعة فيهم** "[4].

بل أنهم تصدوا أيضا للتعسفات الجبائية للأعراب، ووقفوا إلى جانب أهل البوادي في رفض تأديتها، كما هو الأمر بالنسبة للصالح إبراهيم بن عيسى بن أبي داود، فخلال المجاعة الشديدة التي ضربت الريف عام 650 هـ/ 1252 م" **أتاه يوما جماعة من العرب المتغلبين على الريف حين ضعف أمر الموحدين فيه وكان أولئك العرب يجبرون الناس على مغرم يأخذونه فطالبوا قبيل بني ورترد بالمغرم، فأبوا عليهم وتمنعوا ببعض**

---

1 - " **فعليكم يا أمير المؤمنين أن تتصفحوا أحوالكم، وتتفقدوا عمالكم، وتكفوا أيديهم، وتستخرجوا منها ما خانوكم فيه أنتم ومن تقدمكم، وذلك بأن تتعرفوا مقدار ما كان يملك أحدهم من المال قبل الولاية، وتأخذوا ما زاد عليه وتجعلوه في بيت مال المسلمين كما كان يفعله الخلفاء الراشدون.. ولا شك أنكم تملؤون بذلك بيوت الأموال، وتستغنون بذلك الإستغناء التام عما أحدث من المظالم والمراسم والمغارم الضارة برعيتكم**" . السلامي رشيد، " **مرجع سابق** "، ص 362 .

2 - يرى أومليل علي أن دور الفقهاء لم يكن مؤثرا في قرارات السلطة، وفي توجيه الأحداث السياسية والاجتماعية، فعلى حد تعبيره " **فإن واقع أمرهم أنهم تزين بهم مجالس السلطان، وإن القلائل منهم هم الذين استطاعوا التأثير في واقع السياسة، فإن ذلك لم يكن بفضل علمهم المحض، بل لاستنادهم إلى قوة اجتماعية ( عصبية )** ". راجع دراسته : " **السلطة الثقافية والسلطة السياسية** "، لبنان، 1997م، ص 12.

3 - حليمة فرحات وحميد التريكي، " **كتب المناقب كمادة تاريخية..**"، مرجع سابق، ص 54 .

4 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 442 .

**معاقلهم..فقال العرب للحاج إبراهيم : حاول الصلح بيننا وبينهم، وأرادوا منه الوصول إليهم، فامتنع كل الإمتناع"**[1].

إن موقف العديد من الفقهاء والمتصوفة المعارض للشطط الجبائي المخزني، لا يجعلنا ننفي وجود فئة منهم لطالما وقفت بجانب تدابير السلطة وتعسفاتها، ومنها تزكية سياستها الجبائية مهما بلغت من صلف، كما هو الشأن بالنسبة لبعض فقهاء وأشراف فاس كالفقيه أبي القاسم الشريف التلمساني الذي عاش خلال القرن 8 هـ حيث وصفته المصادر المعاصرة بالداعم للسلطة " **وممن يوالي أهل الدنيا** "[2]، مما جعل عامة أهل فاس وأحوازها يتخذون موقفا يطبعه الإستنكار والامتعاض من هذه الفئة، فهذا ابن السكاك يتحدث عن هذه العلاقة السيئة بين الطرفين بالقول : " **وفي الدسائس الشيطانية أيضا التي سرى سمها في غالب الأنفس أن أكثر الناس يتحملون الضيم والذل من الشرطي وخدمةالوالي ووصفان أهل المخزن...فإذا نالهم من شريف من أدنى سبب من نظرة أو كلمة جارحة قامت عليهم القيامة وعظم ذلك الأمر إبليس على الأنفس حتى ربما آل الأمر إلى ما يساوي الكفر**" [3] ويفسر اتهامه لهؤلاء الفقهاء بالفساد بأنهم لطالما " **استعانوا على ذلك بموالاة أهل سلطته أو من له ضخامة جاه أو فرط خدمة لأهل الحل والعقد من ولاة الأمر أو من كان تحت سلطتهم**"[4]. ومنهم أيضا " **جل قضاة البادية..فمعلوم منهم من أخذ الرشا على ذلك** "[5].

إن هذا الإصطفاف وراء السلطة[6] زاد من شعبية المتصوفة بالبوادي، نظرا لما كان يتضمنه موقفهم من تضامن مع كل الفئات التي عانت من ويلات السياسة الضريبية الجائرة خصوصا في زمن الجدب، وعلى رأسها

---

1 - البادسي، " **المقصد الشريف** "، مصدر سابق، صص 60 – 61 .

2 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير**"، مصدر سابق، ص 81 .

3 - ابن السكاك المكناسي محمد بن أبي غالب ( ت . 818 هـ )، " **نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام**"، تحقيق وضبط نزيهة المروني العلمي الإدريسي، الناشر: دار الإمام المخلوفي، وجدة، 2016 م، صص 105 – 106 .

4 - نفسه، ص 118 .

5 - الونشريسي، " **المعيار**"، مصدر سابق، ج 3، ص 98 .

6 - تجب الإشارة إلى أن السلطة نفسها لم تدخر جهدا في سبيل استمالة بعض الفقهاء والأشراف وشيوخ القبائل ورؤسائها بشتى الوسائل؛ ترغيبا بمنحهم الإمتيازات والإغراءات المادية كالهبات والإقطاعات والأعطيات والإعفاء الضريبي، وترهيبا يعكسه الخوف من

الفلاحين ومن تم، يمكن فهم تعاظم نفور العامة وبعض الخاصة من الداعمين لهذه السياسة مهما كانت مكانتهم الروحية والرمزية، فكانت النتيجة أن تقلص نفوذ الشرفاء عموما ليس فقط في المجال البدوي، بل حتى داخل الحواضر، مع استمرار ما أسماه أحد الدارسين بـ"**انغماس أيدي الشرفاء عموما في أموال مشبوهة**"[1].

يمكن القول بأن الجبايات كانت خاضعة لتقلبات المناخ، فكلما جادت السماء بغيثها، إلا واقتصرت على ما هو شرعي، وكلما حل القحط زادت دوافع فرض الشرعي والغير شرعي منها، كما تعكس أحيانا رغبة الحاكم المتغلب على إبراز جبروته وإخضاع المحكوم بالقوة والقهر، وهذا " **دليل صريح على أن المغرم موجب للذلة** "[2]. من تم، يمكن تسجيل أن العصبية الصنهاجية والمصمودية قد اتخذتا في مراحل تطلعهم للسلطة وبداية حكمهم " **هد المروس والمكوس وحط المغارم**" كشعار سياسي وديني لنيل ثقة والتفات الرعية حولهم، إلا أن مرحلة ضعف دولتهم عرفت عودة التعسف الضريبي تحت ضغط المصاعب المناخية والأزمات الساسية.

في حين أن التجربة الزناتية المرينية اتخذت منحا مخالفا لهمها، فتعسفت منذ البداية في فرض مختلف الضرائب الشرعية وغير الشرعية زمن الوفرة والندرة على حد سواء، ومرورا بمختلف سلاطين الدولة، كقاعدة ثابتة، باستثناء عهد أبي الحسن المريني الذي شكل مرحلة إصلاح ضريبي حقيقي، سرعان ما تبددت تدابيره بعد وفاة خليفته أبي عنان، بل يمكن القول بأنها من أهم الأسس المادية التي ارتكزت عليها دولة بني مرين في قيامها، وفي الحفاظ على استمراريتها.

لقد مثلت الجباية عموما مشكلة للدولة المغربية خاصة في فترات التطرف المناخي المتعاقب، وأن الإخفاق في حل مشكل التعسف الجبائي قد أدى إلى إفلاس العديد من التجار، وتوقف معظم الفلاح عن العمل، أو

---

جور السلطان واتقاء لشره، وبالتالي ضرورة نيل رضاه والتماهي مع سياسته إلى حد تزكيتها وتبريرها حتى ولو كانت جائرة متعارضة مع مصالح العامة. مع التنبيه إلى أن هذه الإستمالة كانت تتحول إلى تدخل سلطوي مباشر غايته التحكم في قرارات هؤلاء، هذا الأمر يتجلى في صور مختلفة من أهمها التدخل المباشر في اختيار رؤساء القبائل والقضاة وتعيينهم أو عزلهم. راجع : ابن خلدون، " **العبر**"، مصدر سابق، ج 6، ص 190 و صص 63 – 64. راجع أيضا : الونشريسي، " **المعيار**"، مصدر سابق، ج 3، صص 97 – 98.

1 - القبلي محمد، " **مراجعات حول المجتمع..**"، مرجع سابق، ص 113.

2 - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 1، ص 276.

فقدانهم للحافز ورهن أنفسهم في علاقات هي أقرب للسخرة، فبقي" **الغارم ذليلا بائسا مما تناولته أيدي القهر والاستطالة** "[1]، ومن ثمة يمكن فهم أحد الأسباب الرئيسية لعدم تطوير بنيات الإنتاج، وجعل الخزينة في تذبذب[2].وسيادة الركود الاقتصادي، فلا شك " **أن الظلم مؤذن بخراب العمران** " [3] على حد تعبير ابن خلدون.

وإذا كانت هذه التعسفات قد خلقت ردود أفعال رافضة لها، بدوافع اختلفت حسب الفئات الاجتماعية، فهناك مواقف كانت بدافع اقتصادي كما هو الشأن بالنسبة للفلاحين والتجار ..، ومواقف أخرى بدافع سياسي رفضت من خلاله القبائل القوية دفع الجباية ولو كانت شرعية، للتعبير عن عدم خضوعها للسلطة القائمة وسحب المشروعية عنها، ثم مواقف جاءت بدوافع دينية صدرت عن العلماء والفقهاء والمتصوفة فقدموا مختلف القرائن الشرعية والأخلاقية الرافضة لجور السلطة الجبائي، وحذروا من آثارها على التعمير والعمران، وعجلة الإنتاج، بل تنذر بوهن الدولة، وسقوطها.لكنها فشلت في أغلب الأحوال، وظل التعسف هو القاعدة الثابتة، في حين الإصلاحات كانت مجرد إجراءات ظرفية.

1 - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 1، ص 82 .

2- كرراز فوزية، " **الموارد المالية بالدولة الموحدية..**"، مرجع سابق، ص180.

3 - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 1، ص 477.

# الفصل الرابع : الماء بين الوفرة والندرة :

# دراسة في الطقوس والذهنيات وأنماط التفكير

## 1. ممارسات عملية وتفسيرات خرافية للجوائح المائية :

من الصعوبة اختزال التاريخ في عملية سرد الأحداث فقط وإقصاء التصورات الرمزية التي تكونها الذهنية، باعتبار أن المعنى الرمزي في كل مجتمع هو الذي يكون تاريخه ليتحول من المعنى الخبري إلى ما تنتجه العقلية من تصورات ورموز تتجدد وتتطور وتغير وقائع الحياة اليومية[1]، فالرمزي يشكل سلطة لا مرئية ومؤثرة في الآن ذاته، وبات من الضروري البحث وباستمرار عن البنيات الخفية التي تتحكم في كل إنتاج رمزي[2]، ومن هنا بدا لنا أن للظروف الطبيعية دورا هاما في تكوين الذهنية المغربية وأسهمت في توجيه سلوك مغاربة العصر الوسيط بعدما عجز عن تجاوزها، فاضطر لتفسيرها من خلال تبنيه للفكر الغيبي حينا، والمعتقدات الشعبية حينا آخر، وفي أحسن الأحوال تفسيرات دينية في محاولة لنسيان الواقع المزري الذي يتخبطون فيه[3].

كان العامة أكثر الناس تصديقا وإيمانا بالخرافات بحكم تدني مستوى الوعي لديهم[4] وتقبلهم لأفكار الخلاص[5]، ويمكن فهم ذلك أيضا من خلال الخلفية "السوسيو–اقتصادية" والمناخ السياسي الذي أفرزها[6]، عقلية الخرافات هذه غذتها السلطة المركزية نفسها رغبة منها في امتصاص غضبهم وسخطهم وتحريفه عن وجهته[7]، أوليس في "**تفقه الرعاع فساد الدنيا وتفقه السفلة فساد الدين**"[8].

فذهنية الإنسان المغربي بالبادية لا تختلف كثيرا عن نظيرتها بالحواضر إذا ما سلمنا بوحدة التربة والمنشأ وكذلك الحركية والدينامية التي يتميز بها هذا المجتمع، وما يرافق ذلك من نقل بعض العادات والتقاليد والخرافات

---

1- القاسمي العلوي هاشم، "**مجتمع المغرب الأقصى**"، مرجع سابق، ج 1، ص13.

2- العطري عبد الرحيم، " **من ثراء الثقافة المغربية، الحكاية الشعبية وتقديس الماء في مجتمعات الندرة** "،**مجلة الثقافة المغربية**، ع 18، 2018 م، ص 80 .

3- المحمودي أحمد، " **عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي** "، مرجع سابق، صص 105-115.

4- الهلالي ياسر محمد، "**التراتب الإجتماعي في البادية المغربية..**"، مرجع سابق، ص83.

5- البياض عبد الهادي، " **الكوارث الطبيعية** "، مرجع سابق، ص133.

6- بوتشيش القادري إبراهيم، "**الفكر السحري والعرافة بالمغرب والأندلس خلال العصر المرابطي**"، ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية تيارات الفكر في المغرب والأندلس-الروافد والمعطيات، أعمال **الندوة الرابعة** التي نظمت أيام 26-27-28 أبريل 1993م، الدار البيضاء، 1995، ص345.

7- البياض عبد الهادي، " **الكوارث الطبيعية..**"، مرجع سابق، ص141.

8- الطرطوشي أبو بكر، " **كتاب الحوادث والبدع** "، تحقيق محمد الطالبي، تونس، 1955م، ص72.

عبر التيارات الحضارية والثقافية، ونظرا لأن أهل البادية المغربية كانت تعتمد بشكل أساسي على النشاط الزراعي، فقد حاولوا – في غياب عقلية نقدية فاحصة فضلا عن انعدام أي تبرير أو تعليل يستند إلى أسس علمية منطقية – البحث عن السبل الكفيلة بإنقاذهم ومواجهة تلك الأضرار الناجمة عن الجوائح المائية، والتي كانت تخلف وشما في الذاكرة الجمعية لإنسان المغرب الوسيط، فعلى سبيل المثال" **دأبت العامة على التشكي من التقلبات الجوية وربطت الجفاف ببعض العادات الاجتماعية كالتشاؤم من قلب الثياب لغير صلاة الاستسقاء، أما عند حلول القحط فكانوا يقومون بالاستغفار بصوت واحد والطواف على الأزقة والمساجد رافعين أصواتهم بالدعاء والذكر**"[1]. ويعمد اعتباراً لذلك إلى تفسير كل ما يصادفه في حياته من عوائق، كالكوارث الطبيعية والأمراض والأزمات، بكونها تجليات قوى غيبية صادرة عن إرادة إلهية. ويكون ذلك التفسير منطلَقا لعبادات تتخذ ذريئة للخوف ومطية لمواجهة الأزمات[2].ومن تم، من الواضح أن تعاقب الأزمات المائية بالخصوص قد تركت تداعيات فكرية وروحية في الشخصية المغربية، وساهمت في تشكيل مواقف ذهنية خرجت من رحم ذلك المناخ المتأزم، وما يترتب عنها تراجع ديموغرافي. وطبيعي أن تخلف هذه الأزمات المركبة إرباكا واضطرابا في نفسية ومتخيل العامة، فظل التفسير الخرافي شفيع تفكير المغاربة إزاء استعصاءات الطبيعة، حيث تواترت ظواهر التبرك والإيمان بالأساطير والخوارق التي يزعم أدعياء الصلاح والولاية امتلاكها خلال العصر الوسيط، وارتسمت ممارسات وطقوس فردية وجماعية عكست في واقع الأمر الفشل الفردي والجماعي في مواجهة تداعيات هذه الكوارث على معيشته اليومية، والبحث عن آليات وطرق تكفل تدبير ظرفية الأزمة.

ساد ببلاد غمارة طقس "الرقادة " التي كانت تشكل نوعا من الممارسات الغريبة والقريبة من السحر والشعوذة؛ والتي تعكس ارتباط السحر بالوفرة والندرة، وهي قضايا شكلت الهاجس الأساسي للساكنة[3]، الشيء

---

1- بنحمادة سعيد، **" أثر التقاويم في تطوير البستنة بالأندلس والمغرب خلال العصر الوسيط"**، ضمن : **مجلة عصور الجديدة، العدد 14-15**، أكتوبر 1435هـ/2014م، ص117

2 - الشادلي عبد اللطيف، **" التصوف والمجتمع "**، مرجع سابق، ص 111 .

3- بوتشيش القادري إبراهيم، **" الفكر السحري والعرافة بالمغرب.."**، مرجع سابق، ص349.

الذي يعزز الطرح القائل بأن انتشار وبروز مثل هذه الممارسات له ارتباط بالأزمة[1]، وقد استغرب البكري من هذا النوع من الطقوس بقوله : " **ومن أعاجب غمارة أن عندهم قوما يعرفون بالرقادة يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ، ولو بلغ به أقصى مبلغ من العذاب، فإذا كان بعد ثلاثة من غشيته استيقظ كالسكران...فإذا أصبح في اليوم الثاني أتى بعجائب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جدب وهذا عندهم مستفيض مشهور** "[2].

هذا الطقس يعكس في واقع الحال عن رغبة دفينة لقبائل غمارة لتعديل المناخ، وتغيير حال القحط الجاثم على المنطقة الشمالية للمغرب من خلال الانسحاب من مواجهة الواقع الكارثي المتردي، ذلك أن تعاقب السنين العجاف قد حفرت نتوءات في المخيال الجمعي للقبائل الغمارية، بدليل اتخاذهم لموجاتها الكبرى كما هو الشأن بالنسبة لجائحة سنة 637 هـ / 1239 م، منطلقا للتقويم والتأريخ نظرا لوقعها الواضح على معيشتهم وسلوكهم الاجتماعي[3].

كما انتشر التطير رغم المحاذير الشرعية الواردة بخصوصه[4]، ومن أمثلة ذلك أن شجر النارنج الذي كان يعتمد عليه من أجل المحافظة على منسوب المياه ويحول دون تبخرها، صار نذير شؤم ومرادف للكارثة[5]؛ وتم

---

1- بوتشيش القادري إبراهيم، " **الفكر السحري والعرافة بالمغرب..**"، مرجع سابق، ص 352.

2- البكري، " **المسالك والممالك** "، مصدر سابق، ص 778 .

3 - يقول ابن عذاري في هذا الصدد : " **وفي سنة سبع وثلاثين وست مئة كان الغلاء المفرط والمجاعة العظيمة بمدينة سبتة، حتى عُدم فيها الطعام بالكلية في هذا العام، وكانوا يسمونه بعام سبعة، وهو مشهور عندهم يتمثلون به بينهم، ومن هذا العام صار أهل سبتة يختزنون الطعام في المطامير في كل عام حيطة على أنفسهم من هذه المجاعة التي لم يعهد مثلها في الأعوام الفارطة** ". أنظر كتاب :" **البيان المغرب - قسم الموحدين** "، مصدر سابق، المجلد 3، ص 483 .

4- جاء عند ابن رشد قوله " **من تطير فقد أثم**"، وأضاف أن السبب في ذلك يرجع إلى "**ارتكاب ما نهى عنه عمر بن الخطاب من أن أهل الذمة لايجاورون المسلمين**". ابن الحاج أبو عبد الله محمد العبدري المالكي الفاسي ( ت. 737 هـ )، " **المدخل** "، القاهرة، ج1، دون تاريخ، ص271.

5- "**إن المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب حتى إن كثيرا من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور تطير به (...) وهذا الطور الذي يخشى معه هلاك المصر و خرابه**" - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص467.

التعاطي لضرب خط الرمل[1] والقرعة والفأل والنظر في كتف الشاة[2]، كما شاع بين العوام من أهل البوادي أن سقوط الأمطار مرتبط بسقوط نجم من النجوم، وهو المعروف عندهم بالأنواء، لدرجة صار عندهم من المسلمات أنه لا بد للنجوم أن يكون مع أكثرها نوء من مطر أو رياح أو عواصف فمنهم من يجعله لذلك الساقط ومنهم من يجعله للطالع لأنه هو الذي ناء أي نقص فينسبون إليه المطر[3].

وكثيرا ما ربط الإنسان بين الجفاف وبين أسبابه من الأرواح الشريرة الكامنة في أنواع معينة من الأعشاب وفي بعض الحيوانات كذلك، وفي اعتقاده أن السماء لا ترسل غيثها إلا بإراقة دم حيوان متهم باحتضانها، أو بتقديمه قربانا للنار للقضاء على الأرواح الشريرة الجالبة للقحط. وغالبا ما كان يصاحب هذه العملية مشاركة واسعة في الطقوس الإحتفالية؛ في سياق الإسهام بالحضور لطرد الأرواح المانعة للغيث بزعمهم[4]. وكانت هذه الطقوس الإحتفالية تتخللها أهازيج مصاحبة لإراقة الدم، أو حين إضرام النار في الحيوان القربان، والتسابق للقفز فوق ألسنة النيران[5]. ولهذا حافظت بعض القبائل العربية بمغرب العصر الوسيط على نزر يسير من هذه الطقوس المكافحة للجفاف، على غرار قيامهم " **بربط بعض فروع أشجار العُشَر والسَّلَع في أذناب البقر[6] ويصعدونها**

---

1- "**نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما فكانت ستة عشر شكلا** ". – ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، صص 137-138.

2- المحمودي أحمد، " **عامة المغرب الأقصى..**"، مرجع سابق، ص105.

3 - النباهي أبو الحسن، " **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا** "، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م، ص175.

4 - البياض عبد الهادي، " **أثر التغيرات المناخية في التمثلات الشعبية بالمغرب ..**"، مرجع سابق، ص 32.

5 - "**شكلت النار منذ العصور القديمة وسيلة للإستمطار، فإذا أراد الناس الإستسقاء في السنة الشهباء، جعلوا النيران في أذناب البقر وأطلقوها، فتُمطر السماء، لأن الله يرحمهم بسبب ذلك** " . راجع : بنعبد الله عبد العزيز، راجع دراسته : "**الماء في الفكر الإسلامي والآدب العربي** "، المحمدية، 1996 م، ج 2، ص 405 .

6 - ذكر بنعبد الله محمد بن عبد العزيز أن هناك علاقة قديمة بين البقر والمطر، إذ يمثل هذا الحيوان قوة تتحكم في السحب وتنزل المطر، وما استسقائهم بالبقر إلا من مخلفات عبادة الثور، وما يرمز إليه من الخصب والإرواء، ويبدو أن النار المضرمة في حطب السلع والعشر إنما هي تطور لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله " الثور " . راجع دراسته : " **الماء في الفكر الإسلامي** "، ج 2، م.س، ص 394.

**إلى جبل مرتفع ويضرمون النار فيها زعما منهم أنهم يمطرون من وقتهم"**[1]، فمثل هذه الطقوس هي بمثابة **"تفسير لظاهرة مستمرة يتكرر حدوثها في حياة الناس، ويستمر هذا التفسير مقبولا لفترات طويلة"**[2]، لسلوكيات كان يرى فيها معظم العوام مفتاحا لرفع الجدب وإغاثة العباد[3]. بينما شكلت بالنسبة للبعض الآخر وخصوصا الفئات العالمة مجرد خرافات لا يُرجى منها نفع، وجب استنكارها وعدم الإعتقاد بها [4].

كما تم إرجاع مسببات الجوائح إلى فساد البيت الحاكم ونهجه للتعسف والجور[5] أو إلى انحراف المجتمع عن الطريق المستقيم؛ فالسلطة المركزية لطالما حملت الرعية مأساة ما وصل إليه الوضع، ولذلك سنجد بأنها سعت لتمرير أفكارها الداعية للخضوع إلى منطقها وترسيخ فكرة علاقة تلك الجوائح بالخروج عن تعاليم الدين مثلما حدث مع الخليفة المستنصر " **وفي سنة سبع عشرة وستمائة في اوائلها اشتدت الحال في تناهي غلاء الاسعار بالبلاد الغربية والاندلسية الى ان فرج الله سبحانه عن المسلمين بالرخاء والعافية. وفيها امر امير الموحدين المستنصر بالله يوسف ابن الناصر بالكتب الى البلاد الغربية والاندلسية بأخذ الناس باقامة الدين والحفز في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**"[6]، كما سارت الفئة المثقفة داخل هذه المجتمعات الصغيرة بقصد أو من دون قصد على نفس النهج والمتمثل في تشجيع الذهنية الساذجة، فاتسعت بذلك دائرة التعليل

---

1 - البياض عبد الهادي، " **أثر التغيرات المناخية في التمثلات الشعبية بالمغرب والأندلس..**"، مرجع سابق، ص 32. – بنعبد الله عبد العزيز، "**الماء في الفكر الإسلامي** "، مرجع سابق، ج 2، صص 405 – 406 .

2 - عيسوي عبد الرحمن، " **سيكولوجية الخرافة** "، بيروت، 1974 م، ص 18.

3- بنعبد الله عبد العزيز، " **الماء في الفكر الإسلامي** "، مرجع سابق، ج 2، صص 406 – 407 .

4 - حيث أطلقوا أشعارا تسخر من هذه الطقوس، ومؤكدين على أن المطر بيد الله ينزله متى يشاء، ومنها :

| | | |
|---|---|---|
| **شفعنا ببيقور إلى هاطل الحيا** | ** | **فلم يغن عنا ذاك، بل زادنا جدبا** |
| **فعُدنا إلى رب الحيا، فأجارنا** | ** | **وصير جدب الأرض من عنده خصبا** |
| **لا در در رجال خاب سعيهم** | ** | **يستجلبون نزول الغيث بالعشر** |
| **أجاعل بيقورا مسلعة** | ** | **وسيلة لك بين الله والمطر** |

البيقور : يعني جماعة من البقر.

راجع : بنعبد الله عبد العزيز، " **الماء في الفكر الإسلامي** "، مرجع سابق، ج 2، صص 405 – 407 . البياض عبد الهادي، " **أثر التغيرات المناخية في التمثلات الشعبية** "، مرجع سابق، ص 33 .

5- "**إذا جار السلطان قحط المطر**" - ابن الأزرق، " **بدائع السلك في طبائع الملك** "، مرجع سابق، ص 69 .

6- ابن عذاري، " **البيان- ق.م** "، مصدر سابق، ص267.

الخرافي في صفوف الفلاحين خاصة الذين ارتبطت حياتهم بكرم السماء. فالجوائح في نظرهم لا تنزل فجأة من السماء بل هي مرتبطة أشد الارتباط بأعمال الناس السيئة، وتكون بمثابة عقاب لهم على تصرفاتهم وشرورهم[1]. فصاحب مخطوط العطاء الجزيل يؤكد ذلك بالقول" **فلما أعرضنا بحلول النعم وأعرضنا عن شكر النعم وأفضنا في الأشر والغمط أًصبنا بالجرب والقحط**"[2].

الواقع أن الطبيعة أثرت في ذهنية ساكنة البادية المغربية، إذ أنها ولدت لديه هاجس الخلاص من ويلاتها، فدبت في أوصال المجتمع الروح الاستسلامية والنزعة القدرية الرافضة للتعايش مع هذه الجوائح التي كانت تدمر البنية الإنتاجية للمجتمع، مما جعل غالبيتهم يتصيدون كل إشارة مهما كانت بسيطة كإخبار بموعد الوفاة[3]، هذه الوفاة التي تغيرت صورتها في مخيال هؤلاء حين كانت قدرا محتوما، لتظهر بصورة أكثر قساوة[4]، بدليل تلك المقابر الجماعية التي أجازها الفقهاء خاصة وقت الحروب والأوبئة والمجاعات كما حدث في مجاعة (635هـ/1238م) بمراكش حين كان " **يدفن في الحفرة المئة من الناس**"[5]، وكآية على كثرة الموتان انتشار حرفة الغسالين الذين احترفوا تغسيل الميت لدرجة أصبح لكل درب من الدروب غاسل خاص به، بل هناك من الأسر من توارث هذه الحرفة[6].

يزداد المشهد وضوحا حين نقوم بإحصاء أعداد المقابر التي تتوفر عليها بعض المناطق كدليل مادي على استفحال الموتان إبان الأزمات، فبسبتة سجل الأنصاري "**بداخل المدينة وخارجها ثلاث عشرة**"[7] مقبرة، أما في مراكش فقد تم إحصاء ما يقرب عن ستة عشرة مقبرة بين عامة وخاصة طيلة خلال عهد المرابطين، مع تسجيل

---

1- البزاز الأمين محمد، " **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب** "، مرجع سابق، ص347.

2 - البلوي أبو القاسم، " **العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل** "، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 6148، ص 128 .

3- حقي محمد، " **الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط** "، بني ملال،2007، ص20.

4- نفسه، ص 161.

5- ابن أبي زرع، "**روض القرطاس**"، مصدر سابق، ص277.

6- حقي محمد، " **الموقف من الموت...** "،مرجع سابق، صص54-55.

7- الأنصاري، " **اختصار الأخبار..**"، مصدر سابق، ص50.

توسع وتزايد في أعدادها في العهد الموحدي، أرجعه البعض إلى سببين اثنين : الأول يتمثل في سلسلة الأزمات التي تعرضت لها، والثاني سياسي مرتبط بأزمة الحكم[1].

كان من نتائج كل ذلك أن تَطَلَّعَ الكافة وزاد حنينهم إلى المهدي المنتظر الذي سيخلص الناس من الشرور والآثام[2]، ففكرة المهدوية تعد وسيلة قصوى للتعبير عن المعارضة السياسية للنظام القائم[3]، فالعامة من أكثر الشرائح الاجتماعية قبولا لها، وذلك ما عبر عنه ابن خلدون بالقول "**وأما ما تدعيه العامة والأغمار والدهماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يفيده فيجيبون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان**"[4]، وهو شيء طبيعي لكون المهدوية أصلا ولدها وغذاها مجتمع يبحث عن نظام سياسي عادل يحقق طموحاته[5]، وكانت غالبا ما تنطلق من البوادي التي كانت تعيش ظروفا غير مأمونة بسبب الكوارث والمجاعات[6].

كان الجنوب المغربي من أكثر المناطق تأثرا بالظاهرة ولعب دورا حاسما في نجاح دعاة المهدوية[7]، فمنه خرج المهدي ابن تومرت الذي مزج بين الفكر الصوفي والمهدوية وآمال العامة[8]، مستغلا قيام معارضة تزعمها المتصوفة مستندا في ذلك إلى إمامه الغزالي[9]، كلها عوامل استطاع أن يستغلها من أجل القضاء على المآسي التي أضحى يعاني منها المجتمع خلال أواخر العهد المرابطي، مستثمرا في ذلك اسمه وعلمه، إنه "**مهدي حالفه النجاح**"[10] بفعل سوء

---

1- رابطة الدين محمد، "**مراكش زمن حكم الموحدين** "، مرجع سابق، ج1، ص75-78-80.

2- البزاز محمد الأمين، " **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب** "، مرجع سابق، ص67.

3- زنيبر محمد، " **المغرب في العصر الوسيط**"، مرجع سابق، ص 152.

4- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص408.

5- زنيبر محمد، " **المغرب في العصر الوسيط** "، مرجع سابق، ص 133.

6- بوتشيش القادري إبراهيم، " **المغرب والأندلس في عصر المرابطين** "، مرجع سابق، ص121.

7- فرحات حليمة، "**أدب الحدثان والمجال المقدس في المغرب نموذج ماسة**"، ترجمة عبد العزيز بل الفايدة، **مجلة المناهل**، ع80-81، 2007م، ص55.

8- الحداد حميد، "**المتصوفة ومحنة السجن في الغرب الإسلامي**"، **دورية كان التاريخية**، ع22، ديسمبر2013م، ص73.

9- فرحات حليمة، "**الصلحاء والسلطة بين الرفض والإغراء في المغرب الوسيط**"، ترجمة محمد الغرايب، السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص138.

Ferhat Halima et Triki Hamid, « **Faux prophétes et Mahdis dans le Maroc médiéval** », **Revue Hespéris-Tamuda**, Vol XXVI-XXVII, Fascicule unique, 1988-1989, p : 11 .

10 - Ibid, p : 11, p : 13 .

معيشة الرعية، وتعاقب سنوات الجدب وما صاحبها من إجحاف ضريبي واهتزاز أركان الدولة، كلها عوامل من بين أخرى رأت في فكرة المهدوية المنقذ الذي يحقق خلاص الأمة والعدالة الإجتماعية[1]، "**ويُفعم قلوب المؤمنين بالاطمئنان والفرح بعد أن نال منها اليأس كل منال** "[2]، فاعتبرها بذلك البعض " **النموذج الأسمى للمطالب الشعبية** "[3].

ويُقدم لنا ابن عذاري إشارة تاريخية غنية، مفادها أن القحط الذي شهده المغرب عام 541 هـ / 1147 م أسفر عن مجاعة عظيمة واكبتها ثورة " **الدعي الماسي ببلاد السوس وتسمى بالهادي وهو محمد بن عبد الله بن هود قام في الشهر الذي دخلت فيه مراكش. وكان هذا الدعي الشقي قصاراً على ضفة بحر سلا... فادعى الهداية وسمى نفسه بالهادي واستقر برباط ماسة.. فأقبل الناس المُغترون به من كل مكان وقبيل إليه فاجتمعوا بشقاوتهم عليه اجتماعا طار له الذكر في الآفاق وتحدثت به الرفاق وكثروا عنده واستندوا له فقامت بدعوته جموع لا تحصى**"[4].

كما شهدت فترة حكم الموحدين أنفسهم أناس ادعوا الهداية، مهاجمين التباين الإجتماعي[5] وانحراف الدولة عن مبادئها الأولى[6]، فازداد عدد المهدويين مع بداية عهد المنصور وشاعت الظاهرة بعد وفاته بالبوادي[7]، حيث وصفتهم المصادر بـ" **الضلال الجُهَّال أهل الجبال** "[8].وكان على رأس هؤلاء عبد الرحمان الجزيري[9] وابن أبي

---

1 - Ferhat Halima et Triki Hamid, « **Faux prophétes et Mahdis ..**» op,cit, p : 11 .

2- زنيبر محمد، " **المغرب في العصر الوسيط** "، مرجع سابق، ص151.

3 - Ferhat Halima et Triki Hamid, « **Faux prophétes et mahdis..** », op.cit, p : 11 .

4 - ابن عذاري، " **البيان المغرب - قسم الموحدين** "، مصدر سابق، صص 30 – 31 .

5- المحمودي أحمد، " **عامة المغرب الأقصى**"، مرجع سابق، ص150.

6- الحداد حميد، " **المتصوفة ومحنة السجن..**"، مرجع سابق، ص73.

7- فرحات حليمة، " **أدب الحدثان والمجال المقدس..**"، مرجع سابق، ص54.

8 - ابن عذاري، " **البيان ..**"، مصدر سابق، المجلد 3، ص 203.

9- تزعم عبد الرحمن الجزولي المعروف بأبي قصبة ثورة قوية ضد الموحدين في السنوات الأولى من خلافة الناصر، وتأتي هذه الثورة في سياق عدد من الثورات والانشقاقات التي عرفتها الدولة الموحدية في أوج قوتها، وانطلقت هذه الثورة من السوس، وتمكن من إلحاق هزائم بالجيش الموحدي في بداية الأمر قبل أن يتم القبض عليه واحتزاز رأسه وتعليقه على باب الشريعة . راجع : المغراوي محمد، " **الموحدون وأزمات المجتمع** "، مرجع سابق، صص 61-62.

الطواجين الكتامي[1]، كما شهدت منطقة اغمارة قيام مجموعة من التمردات والفتن التي قادها أشخاص عرفوا بادعائهم الهداية والإتيان بالخوارق والمعجزات، ومن أشهر هؤلاء سبع ابن منخفاد[2].

كما تزامنت فترة الإنتقال الموحدي المريني مع سلسلة من الكوارث الطبيعية، والتي كان من أشدها مجاعة عام 612هـ / 1215 م التي ألمت بالبلاد، حيث من الملفت للنظر تزامنها مع ظهور " **دعي ببلاد جزولة يدعي فيه مذهبه بدواعي المُحال، وتبعه ناس كثيرة من الضُلال والجُهال، وذكر لهم بِزعمه أنه فاطمي، وشاع الخبر عنه في البلاد أنه عُبيدي من ذرية عبيد الله الشيعي** " [3].

إن هذه الظواهر كانت تقف وراءها عوامل متداخلة، أهمها العوامل المناخية في بلاد كان المطر فيها لا يفي بمواعيده[4] وما صاحب ذلك من خوف وترقب،كان يغذيها وهن العصبية الحاكمة، كما يمكننا أيضا تفسير طغيان هذه الأفكار والاعتقادات بانحطاط الحياة العلمية [5] الذي تزامن في العديد من المحطات مع ظرفية القحط وأزمات الأقوات، بحيث تندثر مدارس العلم، ومختلف أماكن الدرس ومجالسه، وتتحول بعض المساجد إلى خراب بعد أن كانت تستقطب طلبة العلم، وحفظة القرآن[6]. وتتفشى ممارسات طقوسية خرافية "**تبحث في الخوف من أسرار الطبيعة..وتسكين مخاوف الإنسان أمام المجهول..وتساعد على إنكار وإبطال تأثير الإختيارات المؤلمة**

---

- Ferhat Halima et Triki Hamid, «**Faux prophétes et mahdis ..**», op,cit, p : 16.

1- Ferhat Halima et Triki Hamid, « **Faux prophétes et mahdis .. »,** op.cit, p : 20.

2- "جاءت هذه الثورة في وقت جد حساس بالنسبة للدولة الموحدية، حيث تزامنت مع المرحلة الإنتقالية في دواليب السلطة من عبد المؤمن إلى ابنه أبو يعقوب يوسف، وشكلت تهديدا حقيقيا للسلطة المركزية حيث أنها كانت تنذر بفصل اغمارة عن المغرب الأقصى قبل أن يتم القضاء عليها واستباب الأمن بالقضاء على قائدها سبع ابن منخفاد وهي كلمة مركبة حسب ما أشار إلى ذلك أحمد التوفيق من منغ: ومعناه قاتل، وفاد: التي تعني العطش". - المغراوي محمد، " **الموحدون وأزمات المجتمع..**"، مرجع سابق، صص 58-59. - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص440.

3 - ابن عذاري، "**البيان** "، مصدر سابق، المجلد 3، ص 380 .

4- زنيبر محمد، " **المغرب في العصر الوسيط** "، مرجع سابق، ص135.

5- المحمودي أحمد، " **عامة المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ص112.

6 - سجلت أيضا مصادر العصر الحديث ذلك الترابط بين أزمنة الجدب وتردي الحياة الفكرية والثقافية بالمغرب، فعلى سبيل المثال يقول العياشي بخصوص مجاعة عام 1661 – 1662 م : " **ظهر الجوع ببلاد المغرب فأخذت عمارة مساجدها في النقصان والاضمحلال وانتقلت أحوال أهلها من حال إلى حال حتى لا تكاد تبصر في مسجد من مساجدها طالبا ولا تسمع قارئا** ". العياشي، عبد الله بن عمر، " **الإحياء والإنتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش** "، م.خ.ع. الرباط، رقم 1433د، ص 136.

**التي يفرضها الواقع على الإنسان "**[1]. وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها بعض الفقهاء من أجل إعادة المجتمع المغربي الوسيطي إلى إيمانه والتشبث بدينه، فإنهم لم ينجحوا في ظل الظروف العسيرة، والتي كانت فيها نهاية العالم أقرب من أي وقت مضى[2]، أي بداية القرن 7هـ/13م الذي اعتبره البعض زمن النكبات والكوارث بامتياز [3]. وبشكل أكثر انهيارا وتأزما خلال النصف الثاني من القرن 8 هـ / 14 م، الذي " **انقلبت فيه أحوال المغرب، الذي نحن شاهدوه، وتبدلت بالجملة..إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المئة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيَّف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلَّص من ظلالها، وفلَّ من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والإضمحلال أموالها...وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن..**" [4].

## 2. الإستسقاء بأهل الولاية والصلاح :

كان تأخر الأمطار من علامات الإغراق في المناكر والابتعاد عن الدين حسب متخيل العامة، في حين أرجع البعض احتباس " **المطر لشح الناس فلو تصدقوا لمطروا، فقل لاصحابك من الفلاحين تصدقوا، بقدر ما انفقتم تمطروا**" [5]، ومهما تعددت التفسيرات فإنها كانت تجند المؤمنين من أجل الاستغفار وطلب التوبة وأداء صلوات الاستسقاء[6]، أملاً في نزول المطر، فكان يعقبها في أغلب الحالات نزوله بعد طول معاناة لتترسخ في العقلية الجماعية رحمة الله ونجاح الوسيلة ، ولا غرو أن تكرار صلاة الاستسقاء، كان دليلا على الصبر إلى حين أن يمَس كرمُ السماء البلاد والعباد ولكي تكون لهذه الصلاة قيمة وتحقق مضمونها، كان من الضرورة أن يشارك فيها

---

1 - لوليدي يونس، " **الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية** "، فاس، 1996 م، ص 12 .

2 - Ferhat Halima et Triki Hamid, « **Faux prophétes ..**»,op.cit, p : 12, p : 22.

3- فرحات حليمة، "**أدب الحدثان والمجال المقدس..**"، مرجع سابق، ص55.

4 - ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ج 1، صص 120 – 121 .

5- التادلي، " **التشوف**"، مصدر سابق، ص466.

6- البزاز محمد الأمين، " **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب** "، مرجع سابق، ص349.

أكبر عدد من المؤمنين وأن يترأسها ولي صالح مستجاب الدعوة[1]، فكان اللجوء إلى الأولياء في طلب نزول الغيث من الهياكل الثابتة داخل المجتمع[2].

لم يكن المعتقد الشعبي المتعلق بتقديس الأولياء وليد دخول الإسلام إلى المغرب، بل قدَّس المغاربة أناسا وأشياء منذ العصور القديمة لإيمانهم بقدرتها على طرد الشرور[3]، من خلال طقوس وشعائر تُحقق " **العبور من الزمن العادي إلى الزمن القدسي**"[4]. والذي يُعد " **تمظهرا للإلهي في المكان والزمان** "[5].وبالتالي فالطقوس الدينية الخرافية ظلت متجذرة على أرض الواقع ولم يستطع الإسلام القضاء عليها[6]. فبول باسكون P.Pascon صرح بأن المغرب يعتبر أكثر بلد إسلامي " **يبجل أكبر عدد من الأولياء، فلا وجود فيه مطلقا لهضاب لا يتوجها مزار، وقليلة هي القرى أو المقابر التي لا يوجد بها ضريح يمجد وليا أو أكثر من ولي. وقد لا يكون الشعار القائل بأن المغرب بلد المائة ألف ولي " شعارا مغاليا**"[7]. فالمتصوفة كانوا يشكلون حسب الذهنية المغربية المنقذ والمخلص الذي بإمكانه القيام بهذا الدور، وإذا كنا نفتقر إلى كل التواريخ التي أقيمت فيها هذه الصلوات، فإن تكرارها يظهر على أنها أضحت مسألة مألوفة لدرجة نشعر معها أن المغرب الأقصى خلال هذه المرحلة كان يعرف تواليا لسنوات الجفاف[8]، فكان الاستسقاء يتم بهؤلاء المتصوفة.

---

1- البزاز محمد الأمين، " **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب..**"، مرجع سابق، ص349.

2- العامري نللي سلامة، " **الولاية والمجتمع-مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي** "، لبنان،2001، ص317.

3 - Alfred Bel, « **La religion musulman en Berbérie** », **Revue d'art Oriental et d'archéologie**, publiée sous le patronage du Haut Commissaire de l'Etat français en Syrie , Tome XXI, fascicule 3 – 4 ,Paris, 1940, pp: 349 – 350.

4 - Mircea Eliade, « **Le Sacré et le profane** », Editions Gallimard, Paris, 1965, p : 63 – 64.

5 - Ibidem.

6 - Alfred Bel, « **La religion musulman en Berbérie** », op.cit, pp: 349 – 350.

7 - بول باسكون، " **الأساطير والمعتقدات بالمغرب** "، تعريب مصطفى المسناوي، **مجلة بيت الحكمة**، الدار البيضاء، العدد الثالث، 1986، ص 96 .

8- الحسين أسكان، "**المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية..**"، مرجع سابق، ص136.

ويحتفظ لنا كتاب التشوف بالعديد من النماذج بهذا الشأن، فقد استسقى أهل تادلة بأبي الحسن علي الصنهاجي " **في عام جدب...استقبل القبلة ورفع يديه إلى السماء وقال : قنطنا يارب، قنطنا يارب، قنطنا يارب، فأغثنا ! فوالله ما أكمل كلامه حتى سمعت وقع القطر وامطرت السماء مطرا وابلا** "[1]. وبالمثل حدث مع أبي وكيل ميمون ابن تاميمونت الأسود ببلاد دكالة، إذ " **أن المطر احتبس في وقت نزوله وقلت المياه. فكان الناس يرحلون من بلادهم إلى مواضع المياه. فأمر أبو وكيل قومه أن يستقوا من الحفرة التي أعدها لماء المطر. فقالت له زوجته: ما هذا الذي تفعله ؟ أتريد أن يتم الماء فنرحل كما رحل الناس ؟ فأعرض عن قولها. فلما نفد ماؤه أتت إليه وقالت له: أنظر في الرحيل فقد نفد ماؤنا. فجاء إلى خيمته لينفضها ويرحل . فأمسك حبلا منها ورمق بطرفه السماء وقال: أغثني يارب يا مغيث ! فنشأت سحابة صغيرة وهمهم الرعد وتدلى السحاب وهطل بالأمطار. فروي الناس وامتلأت صهاريجهم فرجع الناس إلى بلادهم**" [2].

تحت قهر الجدب، أجمع أهل تادلا طلب الاستسقاء "**فدعوا وتضرعوا والسماء صاحية لا غيم فيها. فقالوا : يا أبا زكرياء استسق لنا! فقام أبو زكرياء ورمى قلنسوته عن رأسه إلى الأرض وكان أقرع وقال: يا رب هذا الأقرع يسألك الغيث. فوالله ما نزل الناس عن ذلك المكان حتى مطروا مطرا غزيرا ...**"[3] . وكذلك كان الأمر مع أبي العباس السبتي الذي كان مقصودا في حياته مستغاثا به في الأزمات[4]. وهناك من استمر الاستسقاء بهم حتى بعد وفاتهم[5]. لكون" **الكرامة لا تنقطع بالموت** "[6].

---

1 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 255.

2 - نفسه، ص 235 .

3 - نفسه، صص 138 - 139.

4- بنحمادة سعيد، "**المجال الحيوي للأولياء الأدوار الدينية والعسكرية والإجتماعية**"، ضمن **كتاب التصوف السني في تاريخ المغرب : نسق نموذجي للوسطية والإعتدال**، الدار البيضاء، 2010م، ص245.

5- الهلالي ياسر، " **التراتب الإجتماعي..**"، مرجع سابق، ص82. - بنحمادة سعيد، "**المجال الحيوي للأولياء..**"، مرجع سابق، ص246.

6 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، ص 9 .

على أننا نسجل حالات استثنائية رفض من خلالها بعض الأولياء طلب العامة للاستسقاء بهم، كنموذج الصالح ابن شَبَّة الذي روى صاحب المستفاد بأن أهل فاس "**قحطوا في وقته قحطا شديدا، فأرادوا الاستسقاء، فأجمعوا على أن يستسقى بهم ابن شبة..فقالوا له : أما ترى ما نحن فيه من الشدة والقحط ؟ وجئنا لتخرج معنا نستسقي بك. فرجع إلى منزله وهو يقول : ابن شبة يُستسقى به ! ..وفر من ذلك الموضع، ولم يجتمع بهم، وما رأوه بعد ذلك** " [1].

لم يكن الجميع على قدم المساواة في الاستفادة من الأمطار يسجل لنا البادسي أن أحد الأولياء "**كانت ارضه مجاورة لأرض غيره وهما شيء واحد في الجودة والسقي فتصلح ارضه في كل وقت وتقحط التي هي مجاورة لأرض غيره**"[2]، كما أن الاستجابة برفع القحط وسقوط الغيث لا تكون على قدم المساواة بين المتصدقين، وهو ما يُفهم من نص مصدري جاء فيه : "**تصدقوا، بقدر ما انفقتم تمطروا** (...) **فقال: لن يصدقني أحد، ولكن امرني في خاصة نفسي فما أمرتني به أفعله، فقال: تصدق بمثل ما أنفقت... وتصدق بها كما أمره– قال أبو الحسن فخرجت إلى البحيرة التي كنت اعتمرتها والشمس شديدة الحرارة وقد أيست من المطر، ورأيت جميع ما غرسته قد أشرف على الهلاك، فأقمت ساعت فرأيت سحابة قد أمطرت البحيرة إلى أن رويت وبلت ثيابي وظننت أن الدنيا كلها قد أمطرت، فلما خرجت من البحيرة رأيت المطر لم يجاوزها**"[3]، ونظرا للعلاقة المتينة التي كانت تربط أهل العدوتين، فقد عمد أهل إشبيلية في أحد السنوات الشديدة إلى تنظيم صلاة الإستسقاء "**لأهل قصر كتامة لما احتاجوا إلى المطر**"[4].

---

1 - التميمي، " **المستفاد** "، مصدر سابق، ج 2، ص 194 .

2- البادسي، " **المقصد الشريف** "، مصدر سابق، ص105.

3- التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص467.

4- ابن عربي، " **رسالة القدس** "، نشر أسين ميكل بلاثيوس، ص10. نقلا عن بنحمادة سعيد،"**المجال الحيوي للأولياء..**"، مرجع سابق، ص252.

سيرا على درب الكرامات أضحى لأبي العباس السبتي القدرة على تحديد علامات المطر، أمر يؤكده بنفسه بالقول **"مرت به ريح باردة في خدي فلما وجدت بردها رفعت بصري الى السماء فرأيت سحابة بطرف جبل درن فعلمت أنها سحابة مطر"**[1]، وكانت له القدرة أيضا على تحديد أيام هطول أيام المطر، فقد حدث أن **" كان وقت جدب ( فتساءل الناس ) متى يستسقي لنا الفقيه أبو العباس؟ (...) بل سقينا في غير هذه الأرض وغدا نسقى (...) قال والله لقد مطرنا في اليوم الثاني مطرا وابلا، وسألت عن تلك الجهات الواصلين منها فأخبروني أنهم مطروا قبلنا بيوم".**[2] – وهو ما تكرر مع أبي يحيى زكرياء، فقد جاء في كتاب التشوف ما نصه :" **أجدب الناس جدبا شديدا بداي فجاؤوا إلى أبي زكرياء (...) فسأله الناس أن يستسقي لهم فوعدهم أن يتربصوا إلى يوم السبت فتربصوا فاستسقى لهم يوم السبت فسقوا"** وأبا العباس السبتي[3]، ولا يفوتنا أن نسجل كذلك الاستجابة الفورية لدعاء هؤلاء الصلحاء بسقوط الغيث الذي تتوقف عليه سعادة أهل الحاضرة والبادية، وحُسن حالهم، يقول ابن قنفذ في هذا الصدد : " **ورأيت منهم شيخا صالحا من المصامدة لا يألف إلى إنسان ولا إلى مكان... في منزل من منازل البادية جلست معه بعد صلاة المغرب ذلك اليوم خارج مسجد المنزل ومعنا إمام المسجد وبعض أهل الدار، فقال لهم : كيف أنتم ؟ قالوا له : بخير إذا أمطرنا الله تعالى. وكان ذلك في أبريل، فقال : اللهم أمطرهم الليلة الليلة الليلة، ولم تكن علامة البتة وافترق الناس، فلما كان، والله لا إله إلا هو، آخر الليل أنزل الله المطير الكثير "**[4]، ونفس المشهد تكرر بكل من مراكش[5] وسجلماسة[1].

---

1- التادلي، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص468.

2- التادلي، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص138.

3- نفسه، ص474.

4 - ابن قنفذ، **" أنس الفقير وعز الحقير"**، مصدر سابق، ص 82 .

5- **"ثم قال لنا –أبو العباس السبتي- بادروا المطر وخذوا نعالكم بأيديكم (...) فوالله ما وصلنا باب الدباغين حتى غيمت السماء وانهملت الامطار".** – التادلي، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص468.

لم يكن المخزن بدوره يقف موقف المتفرج، بل وجدنا بأن أعلى شخص في هرم السلطة ينزل بصورة طوعية إلى مرتبة أشد تواضعا طلبا للاستمطار، بمعية حاشيته وكبار مسؤولي دولته وجُنده، حيث يتصدرون الخارجين إلى صلاة الاستسقاء؛ كما حدث في عهد الخليفة أبي يعقوب المنصور الموحدي في إحدى سنوات الجدب حين "**أمر الناس بالخروج حتى لم يبق احد في المدينة وخرج إليها اليهود والنصارى والبهائم والنساء**"[2]. ونفس الحالة تنطبق على قحط عام 711 هـ / 1312 م الذي " **استسقا الناس له، فخرج أمير المسلمين عثمان إلى إقامة سنة الاستسقاء، فمشا على قدميه حتى وصل المصلا والفقهاء والصلحاء والقراء بين يديه بالذكر، كل ذالك خضوعا لله تعالى وتواضعا لجلاله وإقامة لسنة نبينا محمد صلا الله الله عليه وسلم، وقدم بين يدي نجواه الصدقات، وفرق الأموال في ذوي الحاجات، وكان خروجه للاستسقاء..في جميع جيوشه حتى وصل إلى جبل الكندرتين لزيارة قبر الشيخ الصالح أبي يعقوب الأشقر نفع الله به، فدعا الله تعالا هنالك، فقبل المولا دعاءه، ورحمه ورحم بلاده، وأغاث عباده، ولم يرجع من هنالك إلا بالمطر العام بجميع البلاد** " [3].

أرجع بعض المتصوفة سبب انقباض المطر إلى رفع الدوائر المسؤولة وعلى رأسها ولي الأمر يد العون عن تقديم الغوث والمساعدة للفقراء والمحتاجين، ودعوا إلى ضرورة مساندة هؤلاء زمن الشدائد وهو ما حدث بمراكش حين امتثلت السلطة الحاكمة لهذه الدعوة في إحدى السنين العجاف، ف"**أمطرت السماء بماء منهمر ثلاثة أيام**

---

1- " **مر بي أبي العباس[من أهل سجلماسة] والوادي لاماء فيه فقال لي إذا جاء الوادي فأخرج منه ما تسقي به أرضنا (...) فلما صعد المنبر يوم الجمعة خطيبا، استسقى على المنبر فلم ينزل عنه حتى سقي الناس وجاء السيل في الوادي يوم السبت**". – نفسه، صص140-141.

2- السملالي ابن ابراهيم، " **الإعلام بمن حل مراكش..** "، مصدر سابق، ج1، ص271.

3 - ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص 398 .

ويضيف ابن أبي زرع أنه خلال " **سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة كان القحط الشديد بالمغرب فاستسقا الناس وخرج أيضا أمير المسلمين ( أبو سعيد عثمان ) إلى إقامة سنة الاستسقاء وقدم بين يديه الصدقات** " . راجع : " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص 401 .

**بلياليها حتى أشفق الناس من الغرق والهدم** (...) **ونزل المطر بقصر الملك حتى روي**"[1]، ونفس الأمر تكرر مع أبي بكر بن يوسف الكومي الذي كانت له دار الأشراف، و لما أصاب أهل مراكش القحط في إحدى السنوات، تقابل هذا الرجل مع أبي العباس السبتي " **وأشار له إلى السماء كأنه قال له: تصدق ليسقي الناس، فقال له أبو يحيى إن الله غني عنا**"[2]، فانتهى به الحال إلى العزل من منصبه.

شكلت الجوائح المائية إذن "مجالا حيويا"[3] استغله المتصوفة لصالحهم من خلال السهر على القيام بصلوات الاستسقاء التي مثلت عين الكرامات التي يظهرها الأولياء في الأزمات والشدائد الملازمة للقحوط والمجاعات[4] كونها تقدم العزاء النفسي للجياع والمتضررين، وتوفر للسلطة المركزية هامشا إضافيا من الوقت لانتظار جود السماء والقيام ببعض التدابير[5]، هذه الصلوات التي يباركها المتصوفة غالبا ما تنتهي بنزول الغيث وتقلص فرص استحواذ المجاعات على العامة، فالأزمات تفسر إلى حد كبير بخضوع النشاط الفلاحي خضوعا تاما لتقلبات المناخ، ليأتي دور الصالح هنا ليمثل الرغبة الجماعية لتجاوز ذلك الخضوع، عن طريق الحلم بالتحكم في المناخ، نظرا للقدرة التي يتمتع بها الصالح لغيث الناس[6]، وتحقيق الخلاص الجماعي[7]، ونشر قيم التكافل بعيدا عن ثقافة "**البخل المؤدي إلى الجدب**"[8].

وواضح أن مسألة التشفع بالولي لحصول الأمطار مسألة خاضعة للمعطيات الخاصة بكل منطقة، فكرامات السقيا التي وقفنا عليها مرتبطة بمجالات شبه جافة، وهي كلها حصلت في مناطق زراعية. يظهر دور الصالح في

---

1- التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 469 .

2- نفسه، ص469.

3- يُقصد به " **سوسيولوجية الكرامات الصوفية ودرجاتها وفعاليتها وامتدادها الجغرافي وعمقها الاجتماعي، بغض النظر عن الانتماء القبلي أو العرقي للولي**". بنحمادة سعيد، " **المجال الحيوي للأولياء..**"، مرجع سابق، ص146.

4- نفسه، ص227.

5- بولقطيب الحسين، " **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين** "، مرجع سابق، ص66.

6 - الشادلي عبد اللطيف، " **التصوف والمجتمع ..**"، مرجع سابق، ص 115 .

7- بوتشيش القادري إبراهيم/ البياض عبد الهادي، " **ثقافة الطعام..**"، مرجع سابق، ص43.

8- التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص475.

مجموعته، كملجأ أخير لحل مشكلة نقص المطر، وتبقى كرامة الاستسقاء إذن تعبيرا عن رغبة في تجاوز هذا المشكل[1].

إن التيار الصوفي بالمغرب الأقصى أضحى البديل المؤثر في الواقع[2]، خاصة وأنه ربط دعوته برحمة السماء رحمة للعباد[3]، الأمر الذي يعززه قول الرصاع في الفهرست **"رحم الله الأولياء والأصفياء أوتاد الأرض الذين ينزل الله بهم الأمطار ويجري بهم الأنهار"** [4].

## 3. الدور التكافلي للأولياء والمتصوفة زمن المجاعات:

لم يقتصر دور أهل الولاية [5] على طلب المطر ودفع الآفات السماوية بل امتد ليتوغل في الجانب الاجتماعي، خاصة وأن الحاجة إلى تضامن الإطعام كانت مرتبطة بإحدى الضروريات الخمس في الإسلام ألا وهي حفظ النفس، وفي هذا الصدد تجب الإشارة إلى أن ثنائية الأغذية والتصوف، ما هي إلا انعكاس لترابط عضوي يرتكز على محورية البعد الروحي للعادات الغذائية لدى المتصوفة، مما يضفي صبغة قدسية عليها، فهو يرصد لنا مدى تأثير المعاش اليومي للنساك في تحقيق الولاية، ويمنح للكرامة[6] الصوفية بُعدا حقيقيا يجعلها تتعارض

---

1 - الشادلي عبد اللطيف، **" التصوف والمجتمع .."**، مرجع سابق، ص 115 .

2- بنحمادة سعيد، **" المجال الحيوي للأولياء.."**، مرجع سابق، ص251.

3- بوتشيش القادري إبراهيم، **" القيم الإنسانية في الممارسات الصوفية خلال القرن 6هـ -قيم الخير والإحسان نموذجا "**، ضمن **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش**، ع12، 1995م، ص39.

4- الرصاع محمد الأنصاري، **" فهرست "**، تحقيق محمد العنابي، تونس،1967م، ص194.

5 - **" تحيل الولاية على القرب والنصرة، فالولي في قواميس اللغة هو الكفيل والنصير والصديق، كما تدل على الإمارة والسلطان. أما الولي اصطلاحا فهو العارف بالله تعالى.المواظب على الطاعة المجتنب للمعاصي، المعرض عن الإنهماك في اللذات، ويسمى وليا لأن الله تعالى تولى أمره، فلا يكله إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة. والولي الصالح تبعا لما نحتته الكتابات المناقبية هو " من توالت طاعاته من غير تحلل معصية، وهو من تولى الحق حفظه، فأولياء الله هم أحباء الله وأعداء نفوسهم، فهم خُلص المؤمنين لقربهم من الله سبحانه وتعالى"** . أنظر: الكيالي عاصم إبراهيم، **" الولاية والولي عند السادة الصوفية في الشريعة والطريقة والحقيقة "**، بيروت، 2010 م، ص 19.

6 - ذكر القدوري عبد المجيد أن الكرامة **"دلالة ورمز لإعادة توازن بيئي أو اجتماعي يكون منكسرا، وترمز كذلك إلى كل وضع يختل فيه توازن القوي، ويحتاج إلى توازن لئلا تختل نواميس الكون والمجتمع".** القدوري عبد المجيد، **" عودة إلى ظاهرة الزوايا في مغرب العصر الحديث "**، ضمن **ندوة " وقفات في تاريخ المغرب "، دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب**، الدار البيضاء، 2001، ص 405.
في حين أن زيعور علي يعرف الكرامة بأنها **" تمتزج بالبطولة الدينية، وتترك العنان للخيال، وتربط الفرد بالمطلق، وتعبر عن تجارب روحية، نفسية، دفاعية أو تكيفية، كما ترتبط بالمعتقدات الدينية، فتعيد وتثبت ما جرى من معجزات للأنبياء، وما حصل عند**

موضوعيا مع مفهوم الخرافة[1]. خاصة أن مسألة الإطعام الدينية تعتبر من أسباب الارتقاء في سلم المقام الصوفي[2]، ومن هذه الزاوية، يمكن استيعاب هذا السلوك، واعتباره قاعدة في التربية المناقبية للصلحاء بوجه عام، فابن العريف أصدر فتوى تقول "**أن خدمة الفقراء ومساعدة الضعفاء وقضاء حوائجهم من الأمور المفضلة على الحج**"[3].

الأمر الذي يساعدنا على فهم حيوية المجال الصوفي وثقل وزن الصلحاء بالمغرب الأقصى من خلال ربط جسور التكافل ومد يد المساعدة للمتضررين، في مجتمع يعتبر الولي الصالح " **وسيلة من وسائل مواجهة الجوع**"[4]. فتصوفهم لم يكن تصوفا سلبيا استحب العزلة عن الواقع[5]، وإنما انخرط بإيجابية في إصلاح المجتمع والتخفيف من همومه[6]، خاصة من خلال الدور التضامني الذي لطالما لعبه على أكمل وجه كما تشهد بذلك كتب التصوف.

إن كتب المناقب[7] أفصحت عن أن طعام أهل الولاية لم يتجاوز سقف سد الرمق للبقاء على قيد الحياة[8]، وما يقف قرينة على ذلك أن أبي العباس السبتي جلس " **يوما بدكان صديقه أبي يعقوب الحكيم إلى أن جاءه رجل**

---

**نشوء الاحتفالات والطقوس والعبادات. وهي ظاهرة اجتماعية ذات صفة تعاضدية لا تفهم بمعزل عن الظواهر الأخرى؛ بيد أنها تبقى ألصق بالعنديات، فتظهر تعبيرا رمزيا عن رغبات مكبوتة عند إنسان يسعى لتملك مثل عليا بواسطة تجربة التحقق ".** راجع دراسته : **" الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم : القطاع اللاواعي في الذات العربية "**، لبنان، 1984، صص 19 - 20. للمزيد حول الموضوع راجع : صص 19 - 85 .

أما حجازي مصطفى فيقول بأن الكرامات قد تكون **" إجابة دعوة ( تحقيق أمنية أو رجاء ) أو إظهارا للطعام في أو أن الفاقة، وتفجر ماء في زمن عطش، أو تخليصا من عدو. وكلها بالطبع تدل على قوة، هي على النقيض تماما من عجز الإنسان المقهور وقصوره، وكلها تدل على ارتفاع مكانة وحظوة، هي أيضا على النقيض تماما من ضعف الإنسان المقهور ومهانته ".** راجع : **" التخلف الإجتماعي : مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور"**، منشورات المركز الثقافي العربي ،ط 9، 2005، ص 143.

1 - يشير زيعور علي إلى أن الخرافة، هي تلك **" القصة الغريبة اللاممكنة، وتعبير عن حاجة رئيسية في الفكر البشري، وعن رغبة في تفادي الإقرار بالعجز ".** زيعور علي، **" الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم : القطاع اللاواعي في الذات العربية "**، لبنان، 1984، ص 27 .

2- التادلي، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص223.

3- ابن العريف، **" مفتاح السعادة وتحقيق الإرادة "**، ص29. نقلا عن بنحمادة سعيد، **" المجال الحيوي للأولياء.."**، مرجع سابق، ص225.

4 - الشادلي عبد اللطيف، **" التصوف والمجتمع .."**، مرجع سابق، ص 116.

5- المحمودي أحمد، **" عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي "**، مرجع سابق، ص131.

6- بنحمادة سعيد، **" المجال الحيوي للأولياء بالمغرب .."**، مرجع سابق، ص223.

7- التادلي، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص 93-120-145-147-151-170-181-207-216-218. -التميمي، **" المستفاد "**، مصدر سابق، ج2، ص111.

8- بوتشيش القادري إبراهيم/ البياض عبد الهادي، **" ثقافة الطعام..."**، مرجع سابق، ص42.

**خليع فقال له: أطعمني فإني جائع، فقال له أبو العباس: ليس عندي شيء. ثم عاد عليه ثانيا وثالثا وهو يقول: ليس عندي شيء"**[1]، ونفس الحال بالنسبة لأبي عبد الله محمد الزاهد الذي دأب **"وبالغ الوصال في الصوم إلى أن جفف الرطوبات من بدنه فأحدث ذلك عنده يبساً"**[2].

فالجوع بالنسبة لبعضهم يشحذ الذكاء ويوقظ الذهن، باعتباره **" من حالات الصالحين، ومقام من مقامات السالكين، وهو ركن من أركان المجاهدة، فإن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن شهوة البطن، فوجدوا ينابيع الحكمة في الجوع "**[3].ولا يمكن لمن كان همه بطنه أن يطمع بتجربة روحية صافية[4]، كما أن بقاءهم على قيد الحياة في الأماكن الخالية والمنعزلة لا يفسر إلا من خلال حدوث معجزة تنقذهم من الموت جوعا أو عطشا[5]. وبالتالي يمكن القول بأن الطعام في الخطاب الصوفي مجرد وسيلة لتجنب الهلاك، دون أن يتجاوز هذا السقف إلى ما هو موازٍ للنعيم ورغد العيش.

لقد كان أغلب الصلحاء على وعي بنمط عيش الخصاصة الذي كان يطبع حياة أهل البادية، خاصة أن معاشهم اليومي كان يرتكز على الفلاحة، وبالتالي كلما مست نوائب الطبيعة بحائرهم وحقولهم الزراعية إلا واشتدت معاناتهم، وقادتهم الفاقة إلى التسول والهجرة نحو مختلف المناطق طلبا للغوث، وهو ما كان يدفع المتصوفة إلى التدخل للحد من تبعات ذلك، فهذا أبو العباس السبتي الذي اشتهر بأنه كان" **يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرق فيحض الناس على الصدقة...فتنثال عليه الصدقات فيفرقها على المساكين وينصرف "**[6]. وبلغ الأمر بأبي زكرياء يحي بن محمد التادلي مبلغ توزيع كل ثروته في جفاف سنة 571هـ، تؤكد شهادة

---

1- التادلي، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص 466.

2 - الحضرمي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، **" السلسل العذب والمنهل الأحلى "**، تحقيق محمد الفاسي، مصر، 1964 م، ص 92.

3 - الحضرمي، **" السلسل العذب .."**، مصدر سابق، ص 92 .

4- من أمثال هؤلاء محمد اليستثني الذي **"سلب نفسه وشهواته وصار يشكو الماء والظمأ في لهواته وقد قيل التصوف طلب وسلب"**.
- البادسي ، **" المنزع اللطيف والمقصد الشريف .."**، مصدر سابق، ص58.

5- فرحات حليمة، **"زهد المتصوفة في الطعام وولائم الزوايا من خلال النصوص المنقبية"**، ترجمة محمد الغرايب و عبد العزيز بلفايدة، **التصوف والمجال والإنسان - أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد اللطيف الشادلي**، الرباط، 2016 م، ص32.

6 - التادلي، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص 452 .

مناقبية هذه المسألة بالقول " **سمعت محمد بن إبراهيم يقول : قال لي أبو زكرياء في عام مجاعة بمراكش..جئني بالفقراء...فأتيت بهم . فأخرج قمحا وسمنا كان عنده، ففرقه عليهم حتى لم يبق له منه شيء...فقال لي أبو زكرياء.. نذرت أن أتصدق بجميع القمح الذي في الغرفة الواحدة، ففرقه على المساكين...فرأى الحال قد اشتد بالناس. فقال لي : ألحق الغرفة الثانية بالأولى...فلما كان ذات يوم ماطر جاء وخلفه جماعة من المساكين وفي يده أوراق كرنب. فأخرج قدرا من السمن لم يبق له شيء سواها. فجعل يخرج السمن ويجعله على ورقة. حتى لم يبق منه شيء وانصرم ذلك العام ولم يبق من ماله شيء**"[1]. وبالمثل تصدق أبي محمد ابن واندلوس السوسي الذي استوطن أغمات على المساكين بجميع ما ورثه من أبيه من الأملاك ولم يتمسك بشيء منها[2]. ووصل الأمر بمحمد بن إبراهيم المهدوي إلى إنفاق مال كثير على " **الفقراء..في عام شديد فرأى جماعة من المساكين يصيحون : الجوع ! الجوع ! فرجع إلى داره، وقال : كيف يكون حالي، والناس يصيحون من الجوع. وعندي في الدار زرع كثير، فتصدق بجميع ذلك، وكان جملة وافرة، نفعه الله بذلك وذكر لي أبو الحسن أن جُملته ثلاث مائة صحفة** "[3].

كانت سنوات الندرة تشتد ويعمد الناس إلى استلاف الطعام من بعض المتصوفة بموجب عقود، فإن عجز الرعية عن إرجاع ما بذمتهم بفعل طول فترة القحط، وإتلاف محاصيلهم الزراعية، دفع أهل الولاية من ذوي الحقوق إلى إلغاء هذه العقود، وهو ما وقع تماما بفاس وبواديها حين ضربتها " **مجاعة وعام شديد ( 571 هـ / 1175 – 1176 م ) وكان عند الفقيه في ذلك الوقت، ألف صحفة من قمح. فباع جميع القمح المذكور من أناس أهل سِتْرٍ إلى أجل، وكتب على كل واحد منهم عقدا بعِدَّة ما أخذه والأجل. فلما جاء الأجل، جمع القوم الذين اشتروا منه ذلك الطعام في داره، وأخرج العهود المكتوبة عليهم بذلك، وجعلها في الماء وحلَّها،**

---

1 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، صص 245 – 246.

2 - نفسه، ص 347 .

3 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، ص 88 .

**وقال لهم : إنما بِعته من الله تعالى. ولو قلت لكم : خذوه بلا ثمن، ما اشتريتموه، فاحتلت عليكم بحيلة البيع والتأخير"**[1].

ولم يتخل هؤلاء المتصوفة عن دورهم التكافلي حتى في سني الوفرة فأبي يعزى يلنور كان يحكى عنه " **أنه إذا حرث يخرج للضعفاء تسعة أعشار صابته ويتمسك بالعشر** " [2]، أما أبو عبد الله التاودي ( ت. عام 580 هـ من فاس ) : "**كان يعلم الأولاد القرآن ويأخذ الأجرة من أولاد الأغنياء خاصة ويدفعها لأولاد الفقراء**"[3].

وقد كانت الحرف والأنشطة الفلاحية التي يكدح فيها أهل الولاية، ويتمعشون منها مصدرا لنشر ثقافة التكافل زمن الندرة، فأبو حفص عمر ابن معاد الصنهاجي " **من أهل إيفغل من بلد أزمور..كان يخلو بالبرية ويصطاد أجباح النحل.. ولما أتت على الناس المجاعة عام خمسة وثلاثين وخمسمائة جمع خلقا كثيرا من المساكين فكان يقوم بمؤنتهم وينفق عليهم ما يصطاده.. إلى أن أخصب الناس**"[4]، وهذا حال أبي بكر بن الخطيب الذي عاش في العهد المريني، فاشتهر بأنه "**كان يصنع الطعام من كسبه للفقراء والضعفاء** "[5]. إلى جانب أبو علي عمر السلاوي الذي عاش في نفس الفترة، حيث كان معروفا بـ" **احتياطه في جميع أموره وخصوصا في كسبه..فكان يحرث أطيب أرضه..يموضع يقال له آسمير من ظاهر سلا ...وكان فيه إيثار على إخوانه وتحنن على الضعفاء والمساكين، وما كان يدخر من قوته إلا قدر كفاية عائلته ويتصدق بالباقي، وربما آثر بقوته، وإن كان خاصا به**"[6].

ومن الواضح أن الأعمال التكافلية التي كان يقدمها الأولياء في الأزمنة العسيرة، كانت تعطي فعاليتها حينما تعززها مساعدة من البيت الحاكم، ففي عام 540 هـ الذي عرف عدة مصاعب مناخية، حل علي بن أبي

---

1 - نفسه، ص 89 .

2 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير**"، م.س، ص 25 .

3 - نفسه، ص 30.

4 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 183.

5 - الحضرمي، " **السلسل العذب ..**"، مصدر سابق، ص 68 .

6 - نفسه، ص 87 .

يوسف المرابطي بأغمات وريكة فبعث إلى عبد الجليل بن ويحلان ألف دينار، فأخذها وتصدق بها على المعسرين والمحتاجين[1]. وعلى نفس المنوال، تردد في المتون المصدرية قيام أبي الحسن المريني بإغاثة " **محاويج أهل بلاد المغرب عموما، يخرج زرعه المختزن الخاص به، فيقيم به أود المحاويج عموما في كل ليلة بطول الجدب.** "[2].كذلك الأمر بالنسبة لأبي عنان المريني الذي خصَّص جزءا مهما من نفقات دولته على" **عمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر**"[3]. فكان يعين أبي عبد الله محمد بن موسى في "**الإيثار على الضعفاء والمساكين، وربما تكفلت صدقته بجميع مؤن المحتاج من قوت..فيكفيه السؤال طويل مدة**"[4].

أو حينما يتلقون الدعم من وجهاء وزعماء القبائل وأهل الإحسان في البادية، إذ يقدم لنا نص مناقبي يتحدث عن أحد المتصوفة وهو أبو زكرياء يحي ابن علي الزواوي يؤكد فعالية هذه المساعدة في تخفيف حدة الأزمة عن الرعية، حيث جاء فيه" **أصابتنا مجاعة شديدة ( بجبل رجراجة ) ثم مر إلى أعيان..فكلمهم واحدا بعد واحد في معونة المساكين فيدفع له كل واحد منهم ما يطيقه. فلما اجتمع عنده مال كثير ...فكلما مر بمسكين دفع له ما يقيه...فلما اجتمع المساكين.. اشترى لهم ما يقوم بهم من الطعام وجعل عليهم قيِّما يقوم عليهم وأغناهم عن السؤال إلى أن أخصب الناس في العام الثاني فانصرفوا إلى مواضعهم** "[5]." ونفس الأمر ينطبق على الشيخ أبي يعزى يلنور ذلك "**أن الفتوح كانت تأتيه من إخوانه في الله فينفقها على زائريه**"[6]. وأبي الحسن اللجائي الذي ذاع صيته في " **النظر في أحوال المساكين، والوساطة في الصدقات عليهم** "[7].

---

1 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 145.

2 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 191 .

3 - ابن بطوطة، " **رحلة ابن بطوطة ..**"، مصدر سابق، صص 674 – 675

4 - الحضرمي، " **السلسل العذب ..**"، مصدر سابق، ص 55.

5 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 429.

6 - نفسه، ص 222.

7 - الحضرمي، " **السلسل العذب ..**"، مصدر سابق، ص 84 .

لقد لعب المتصوفة دورا كبيرا في حياة المجتمع المغربي إبان الجوائح من أجل تأمين الغذاء لجَمّ كبير من الواردين عليهم، ويبين هذا النوع من الكرامات كيف كان الخوف من المجاعة ونقص الغذاء يعيش في ذهن الإنسان إلى الحد الذي يبحث فيه عن حل دائم لتلك المشكلة، فلا يجد أحسن من أن يكلف الصالح بعدد من المهام الداخلة في إطار ترك مجال الأمل في تجاوز نقص الغذاء. ويدخل في هذا حصول الكفاية من القليل أو تكثير القليل أو إحضار غير المنتظر[1].

فقد توافد المتضورون جوعا على أبو زيد عبد الحليم ابن تونارت الأيلاني بناحية مراكش في سنة عجفاء "**فكانوا يدخلون عشرة بعد عشرة حتى أكل الأربعون شابا ومن معهم من أهل القرية وبقي الطعام على حالته**"[2].

وتكررت هذه الصورة، لكن هذه المرة بفاس وأحوازها، حين ضربتها مسغبة شديدة، فارتفعت أسعار المواد الغذائية " **وكان عند عبد الحق عشر صحاف من قمح. فقال والدي لوالدتي : إذا جاء من يسأل، لا ترده وادفع له من ذلك الطعام، وتَصَدقْ منه كل يوم بما تيسر، حتى خرجت الشَّتْوَةُ[3] .وأقامت والدتي على الأكل من ذلك الطعام والصدقة منه أشهُراً. ثم قال والدي لوالدتي : كِلْ ذلك الطعام حتى تعْرِف ما بقي منه، فاكتلناه فإذا هو على مَكِيلِهِ الأول، ولم يَنقُص منه شيء بفضل الله**"[4].

كما قدَّم لنا البادسي رواية تسير في نفس الإتجاه، وذلك أثناء حديثه عن كرامات الصالح إبراهيم بن عيسى بن أبي داود خلال الجائحة التي ضربت منطقة الريف سنة 650 هـ / 1252 م، والتي " **كانت شديدة المجاعة، قال ياسين بن الوزير : وكان لنا أيام لم نذق فيها الطعام فقلت لأصحابي ما تجدون طعاما في هذه البلاد**

1 - الشادلي عبد اللطيف، " **التصوف والمجتمع ..**"، مرجع سابق، ص 113.

2 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 135.

3 - كذا في الأصل. ولعلها : الشِّدَّةُ. راجع هامش : كتاب المستفاد، مصدر سابق، ج 2، ص 121.

4 - نفسه، ص 121 .

**إلا عند الحاج إبراهيم، فسرنا إليه، فلما وصلنا منزله..فسمى الله تعالى وقال كلوا فأكلنا حتى شبعنا شبعا مفرطا، فأكلنا حتى لم نستطع زيادة...وإن الطعام الذي قدم والادام لباقيان على حالهما "**[1].

فتكثير الطعام وحصول البركة في المحصول الزراعي لطالما شكلا طوق نجاة الفلاحين لمجابهة ظرفية القلة التي يعيشون في ظلها، خصوصا في المناطق التي تعاني من ندرة الماء والحرارة المفرطة، جاء في إحدى النصوص المصدرية رواية أحد المزارعين بسجلماسة يقول فيها " **فوجدت عبد الله الجزولي. فاستأجرته...فحصد عندي وظهرت لي بركته في زرعي ولم يزل ينمو كل عام ويضاعف حتى أثريت وامتلأت مخازني بالزرع حتى لم أجد أين أجعله"**[2].

إن هذه الحماية المادية والمعنوية التي التجأ إليها الناس زمن الندرة، تمتع بها أهل الولاية دون غيرهم، وفي ذلك إشارة للتحدي الذي يحمله هؤلاء في مثل هذه الأوقات لنظام الحكم القائم[3]، فخلال مجاعة كبرى حدثت في أغمات أخفى الهزميري عن العيون حمولة من الحبوب وأطعم منها ما بين ستين شخصا إلى مائة[4]، كما تحولت دور المتصوفة في أزمنة المساغب وما تعرفه من أزمات غذائية إلى مرافق خيرية لإيواء المتشردين وإطعام الجياع وإغاثة المنكوبين[5] . فقد عُرف عن أبو عبد الله الَّبيْغي الكمَّاد الذي استوطن ناحية سبتة أنه كان " **يصنع طعاما كثيرا.. ويجمع عليه المريدين "**[6]. وعلى نفس المنوال يفيد تخريج مصدري بأن أبو يعقوب يوسف بن أحمد الأنصاري

1 - البادسي، " **المقصد الشريف** "، مصدر سابق، ص 62 .

2 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 278 .

3- بنحمادة سعيد، "**المجال الحيوي للأولياء بالمغرب..**"، مرجع سابق، ص233.

4- فرحات حليمة، "**زهد المتصوفة في الطعام وولائم الزوايا ..**"، مرجع سابق، ص36.

5- البياض عبد الهادي، " **الطعام والإطعام زمن المجاعات بالمغرب والأندلس..**"، مرجع سابق، ص150.

6 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 271.

اشتهر عند أهل أحواز مراكش بأن " **عادته أن يخرج للسائل الطعام** "[1].ونجد أيضا بأن أبو العباس السبتي كان تحت كفالته ثلاثة وثلاثون شخصا بما فيهم العبيد[2].

لتنتقل ظاهرة كفالة الجوعى زمن الندرة إلى داخل الزوايا منذ العهد المريني، إذ أنها صارت مؤسسة اجتماعية[3] التصقت في الكثير من الأحيان بالإطعام حتى غذت مطابقة له وملازمة[4]، خاصة في مجتمع عانى بشكل خاص في هذه الفترة تراجعا خطيرا في الإنتاج الزراعي تلته في سنوات عديدة مجاعات كبرى، وشكلت بتعبير أحد الدارسين نوعا من " **مؤسسات جيش الخلاص** " وكان هذا الجانب النفعي عنصر جاذبية لا شك فيه[5].

وهذا ما يُفسر كيف أن وفاة ولي من الأولياء كان تخلف وقعا عميقا في نفسية الإنسان المغربي في العديد من المناطق بالبلاد، فأبو موسى الدكالي الذي استقر بناحية سلا في آخر أيامه "**لما مات.. أخرجوا جنازته إلى المقابر فتنازعوا في دفنه وقال كل واحد : إنما يدفن في روضتي. واجتمع خلق كثير لجنازته...فأقاموا على قبره يسمرون عليه بالليل ويقرأون القرآن بالنهار..**"[6]. وتبين زيارة الناس لأبي يعزى من الحواضر الكبرى كفاس وسبتة ومراكش، وكذا من البوادي مكانته الروحية وتقديس العامة له، لدرجة أنه وبعد وفاته ترسخت عادة زيارة قبره بتاغية[7]، وشكلت جنازة الشيخ أبي مدين " **محفل عظيم ومشهد جسيم** "[8]. لدرجة دفعت السلطان أبو

---

1 - نفسه، ص 405.

2- فرحات حليمة،"**أبو العباس السبتي بين الصلاح والانقباض عن السلطان**"، ترجمة محمد الغرايب و عبد العزيز بلفايدة، ضمن **السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب، أعمال تكريمية مهداة للأستاذ أحمد عزاوي**، 2013م، ص83.

3 - اعتبر البعض أن المجال بزواياه وأضرحته ومساجده ومنابعه المائية "**علامة على حضور المقدس، وتجلياته. فعن طريق الإستعمال الدائم لها، يتكرس الرمز، وتتأسس سلطته التأثيرية، كما أنه عن طريق طَقسنة الرمز وتصريفه في المجال، تتوطد هذه السلطة، وتصير موجبة للخضوع والهيبة** ". راجع دراسة : العطري عبد الرحيم، " **من ثراء الثقافة المغربية، الحكاية الشعبية وتقديس الماء في مجتمعات الندرة** "، مرجع سابق، ص 88 .

4 - في نفس السياق يقول ابن مرزوق : " **والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لارفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين** " . راجع : " **المسند الصحيح**"، مصدر سابق، ص 413 .

5 - الشادلي عبد اللطيف، " **التصوف والمجتمع ..**"، مرجع سابق، ص 195.

6 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، صص 206 – 207.

7 - التميمي، " **المستفاد في مناقب العباد..**"، مصدر سابق، ج 2، ص 32 – 33.

8 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، ص 104 .

العباس أحمد المريني إلى التبرك بقبره والدعاء عنده[1]. وبالمثل شكَّل قبر أبي زيد عبد الرحمن الهزميري ( ت. 721 هـ ) مزارة عظيمة بأغمات " **فالناس يتبركون به ويتزاحمون عليه...والدعاء عند قبره مستجاب، وإلى الوسيلة بقبره يلجأ من حَدَث به كرب هنالك** "[2]. لم يكن هذا التعظيم والتبجيل لمقام الولي حكراً على المسلمين، بل امتد حتى إلى أهل الذمة، فقد أورد أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي ( ت. 764 / 1362 م) أنه قال : " **أنظر إلى السبتي ( أبي العباس السبتي ) أن قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات. سمعت بمراكش يهوديا يلهج ببركته وينادي باسمه عند أمر أصابه لا مع المسلمين. فسألته عن سبب ذلك فأخبرني أنه وجد بركته في غير ما موطن** " [3].

يتضح أن المتصوف يتموضع خارج العلائق الاجتماعية فوق قيمتها ومنافساتها، فيبدو للناس أكثر من غيره مهيأ لاتخاذ موقع الحكم المتعالي الذي يلجأون إليه. إنه يبدو وكأنه ليس معنيا بشؤون الدنيا وليس طرفا من الأطراف المتنازعة عليها[4]. وبمقدار إظهار انسحابه من معمعة الدنيا، تتعلق به النفوس، فيتمكن من بسط جاهه الروحي على الناس، وبالمقابل فهو أيضا مهيأ ليكون ملجأ للناس يضفون عليه جاهاً روحيا قد يتحول إلى سلطة في مواجهة السلطات الأخرى، وربما فوقها[5].

إن السلوك التكافلي الذي سار على نهجه أهل الولاية ظل يرتكز على خطاب صوفي يشدد على القيم الإنسانية التضامنية مع المحتاجين خاصة في زمن الشدة، ويستنكر إعراض بعض المترفين والأثرياء عن ذلك، مستشهدين

---

1 - كما حدث في سنة 776 هـ التي تزامنت فيها زيارة هذا السلطان لقبر أبي مدين مع معاناة أهل المغرب الأقصى من ظروف مناخية صعبة، " **ففي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة بالمغرب. وعم الخراب به** ". ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير** "، مصدر سابق، صص 104 – 105 .

2 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير** "، مصدر سابق، ص 69 .

3 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير** "، مصدر سابق، ص 7 .

4 - أومليل علي، " **السلطة الثقافية والسلطة السياسية** "، مرجع سابق، ص 18.

5 - نفسه، ص 18 .

بالنص الديني المقدس[1]. فحركية هذا العمل الإحساني يرتبط كذلك بمعاني البركة في أبعادها الرمزية والمادية، ما يعكس ذلك البُعد القدسي الذي يُعتبر حجز الزاوية في خوارق الأولياء، وفي هذا الإطار تبرز تجليات المقدس بخصوص المشهد الغذائي زمن الكوارث؛ الأمر الذي يحيل على أن عنصر الارتكاز في هذا النسق الغذائي زمن المجاعة، تجسده بركة الولي التي تؤدي إلى تكثير الطعام القليل. وإذا كانت البركة تسري على يد الصلحاء؛ فهي حسب شيلهود ( **J** ) **Chelhod** " **بركة الله وليست هبة ممنوحة منه لبعض الأصفياء لنشر الخيرات وتوزيعها** "[2].

وعلى أية حال، فإن الحكايات الكرامية كانت تسعى إلى خلق مجتمع تسوده "العدالة الاجتماعية" وتنعدم فيه الوسائل التي تؤدي إلى التفاوت[3]، داخل محيطها معتمدة في ذلك على الجانب الإنساني القائم على مبدأ الرحمة والإحسان[4]، فلا غرابة أن المتصوفة كانوا " **يشفقون على يتامى المسلمين، ويطعمون المسكين ويفرجون كروب المعسرين**"[5]، واستطاعوا التفاعل إلى حد كبير مع واقع المجاعات وما خلفته من أثر سلبي في مجال التغذية[6]، وتثبيت الاتجاه التضامني باعتباره السبيل الوحيد للتخفيف من آثارها السلبية[7]، ورغم الانتصارات التي كانت تحققها الكرامة في عالمها، فإنها كانت تهيء الأذهان للموت.

---

**1 - يقول تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (34) يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ (35) . سورة التوبة . الآيات 34 – 35.**

2 - أورده البياض عبد الهادي، **" الطعام والإطعام زمن المجاعات بالمغرب والأندلس .."**، مرجع سابق، ص 153 .

3- بوتشيش القادري إبراهيم، **"القيم الإنسانية في الممارسات الصوفية خلال القرن 6هـ .."**، مرجع سابق، ص 32.

4- بوتشيش القاداري إبراهيم، **" المغرب والأندلس في عصر المرابطين"**، مرجع سابق، ص148.

5- البادسي، **" المقصد الشريف "**، مصدر سابق، ص21.

6- بوتشيش القادري إبراهيم/البياض عبد الهادي، **" ثقافة الطعام.. "**، مرجع سابق، ص42.

7- بنحمادة سعيد، **"المجال الحيوي للأولياء بالمغرب .."**، مرجع سابق، ص236.

وأسهم هؤلاء عن قصد أو من دون قصد في إفشال تطور " الاحتقان الاجتماعي" وتحوله إلى نواة احتجاج واعية[1]، فقد كانوا هم المستغاث بهم كلما حاق بالمجتمع مكروه أو اجتاحته كارثة طبيعية يأتي الجفاف في مقدمتها[2]، وتمكن من أن يصنع أولياء كان بحاجة إليهم[3]، في مقدمتهم أولئك الذين يمتلكون كرامات تستطيع طرد شبح الجوع عنهم[4]، فكرامات إطعام الطعام يمكن تفسيرها بالوضع الاقتصادي الذي تسيطر عليه القلة وتتخلله الجوائح الدورية[5]. وهي وإن كانت تحيل على قيم " **السخاء والكرم، فإنها تستلزم في المقابل اعترافا بالطاعم بل والخضوع له أحيانا** " [6].

إن الإطعام الذي يقوم به المتصوفة شكل واجهة تكافلية فعالة لمواجهة القحوط[7]، لكن هذا الأمر لايخلو من ريبة خاصة بعدما كشفنا عن سيادة نمط التقشف في حياة هؤلاء، بالإضافة إلى أن البعض منهم لايذخر ما زاد عن سد الجوعة[8]، في حين كان آخرون لا يذخرون شيئا[9]، ويتأكد ذلك عندما نقف عند بعض النصوص المناقبية[10]. والحال هذه أن كرامات الإطعام نمت وانتعشت في أذهان مجتمع يعاني الفاقة، خاصة إذا عُلِم أنه هناك مجتمعا "**يعاين ولايته من خلال عدد من الآيات ويعترف بها أي يضفي عليها صفة المشروعية**"[11].

---

1- بنحمادة سعيد، "**المجال الحيوي للأولياء ..**"، مرجع سابق، ص233. - المحمودي أحمد، " **عامة المغرب الأقصى** "، مرجع سابق، ص137.

2- بوتشيش القادري إبراهيم، "**القيم الإنسانية في الممارسات الصوفية..**"، مرجع سابق، ص34.

3- ولي متخصص أو متعدد التخصصات بحيث يكون هناك أربعة أنماط من الكرامات لكل نمط أولياء متخصصون به: * الكرامات المتصلة بتوفير الرزق، * الكرامات المتصلة بتوفير المال، * الكرامات المتصلة بترويض الحيوانات المفترسة، * كرامات إنزال الغيث.

4- الشادلي عبد اللطيف، " **التصوف والمجتمع..**"، مرجع سابق، ص113.

5- العامري نللي سلامة، " **الولاية والمجتمع..** "، مرجع سابق، ص317.

6 - حميش سالم، " **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ** "، مرجع سابق، ص 112.

7- البياض عبد الهادي، "**الطعام و الإطعام زمن المجاعات بالمغرب..**"، مرجع سابق، ص153.

8- يحكى عن عبد الجليل ابن ويحلان قوله " **ما اجتمع مدي مع مدي ولا صحفة مع صحفة** ". التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص149.

9- ابن عبد الملك، " **الذيل والتكملة** "، مصدر سابق، ص238.

10- التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص316.

11- العامري نللي سلامة، " **الولاية والمجتمع** "، مرجع سابق، ص16.

## 4.النزاع بين المتصوفة والسلطة المركزية زمن القحط ودلالاته

كانت هناك عدة حروب خفية يمكن وصفها بصراع الرمز؛ وذلك بين السلطة السياسية وسلطة المتصوفة، الذين تنامى حضورهم بالنسيج المجتمعي منذ عهد المرابطين[1]، مستغلين في ذلك الجوائح المائية التي كانت تتردد على المجال من حين لآخر، منصبين أنفسهم مدافعين عن المشاكل التي كانت تعانيها الرعية إبان هذه الكوارث واستبداد السلطة وضعفها عن حل المشاكل التي تعاني منها الساكنة، موظفين في ذلك رأسمالهم الرمزي من خلال توسيع دائرة التكافل الاجتماعي[2].

إن الجوائح المائية غذّت التصوف بالمغرب الأقصى لدرجة لا يمكن الفصل بينهما، باعتبار الكرامة التي يعتمد عليها المتصوف ليست سوى الابنة الشرعية لمجموعة من الظروف التي عاركها الأولياء[3]، وقد تعددت المواجهات بين السلطة والأولياء، لأنهم نصَّبوا أنفسهم كناطقين باسم الرعية، وعَبَّروا عن تذمر الفئات الاجتماعية الدنيا أي معارضة سياسة المخزن[4]، الأمر الذي دفع هذا الأخير إلى اتخاذ حسابات دقيقة في اختيار أساليب التعامل معها[5]، بين القتل والتشريد والترحيل والاعتقال تارة[6]، وبين المحاباة والتقدير تارة أخرى، وفي الجهة المقابلة شكل الدعاء بالمرض والموت والعزل[7] وسيلة الرد على تجاوزات السلطة، باعتبارها كرامات من اختصاص أهل الولاية[8].

---

1- القبلي محمد (إشراف وتقديم)، **" تاريخ المغرب تحيين وتركيب "**، مرجع سابق، ص177.

2- بنحمادة سعيد، **" المجال الحيوي للأولياء بالمغرب.."**، مرجع سابق، ص229.

3- بولقطيب الحسين، **" الكرامة والرمز: كرامات أولياء دكالة خلال عصري المرابطين والموحدين نموذجا "**، دراسات عربية : **مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية**، العدد 4/3، بيروت، 1996م، ص78.

4- بنسباع مصطفى،**"الجانب الأيديولوجي لثورة المريدين"**، أعمال ندوة من أبي برجان إلى أبي إسحاق البلفيقي-جوانب من التواصل الفكري بين المغرب والأندلس، **مجلة ك. آ. ع. إ-مراكش**، العدد12، 1995م، ص97.

5- بوتشيش القادري إبراهيم، **"حول محن المتصوفة المغاربة في العصر المرابطي"**، ضمن : **مجلة المناهل**، ع81/80، 2007، ص39.

6 - ابن قنفذ، **" أنس الفقير وعز الحقير"**، مصدر سابق، صص 87 – 88 .

7 - التادلي، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص 442 . الحضرمي، **" السلسل العذب .."**، مصدر سابق، ص 72 .

8- التشوف، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص475.

فقد جاء عن أبي العباس السبتي أنه " **أصاب الناس قحط بمراكش...وكان النظر فيها لأبي يحيى بن يوسف الكومي وكانت بينهما صحبة، فسلم عليه أبو العباس وأشار له إلى السماء كأنه قال له : تصدق ليسقى الناس، فقال له أبو يحيى : إن الله غني عنا، فولى أبو العباس وهو يقول : سبحان الله، هذا الرجل عزل نفسه...فتمت ثلاثة عشرة يوما من يوم التأريخ وجاء من اشبيلية أبو محمد بن يرزيجن بن عبد الصمد بعزلة أبي بكر بن يوسف عن دار الإشراف** "[1].

وعمل المخزن أحيانا على محاولة استمالة الأولياء وتمتيعهم بمجموعة من الامتيازات[2] فتقدموا قائمة المخاطبين في الرسائل الرسمية[3]، مبجلين فيها بعبارات من قبيل " **الصلحاء المباركين الأتقياء** "[4]. كما نجدهم بعضهم إلى جانب السلطة في مناسبات مختلفة، كحضورهم بجانب السلطان أثناء صلاة الإستسقاء[5]، أو اصطحابهم أثناء تدشين بعض المنشآت[6]. وتكليفهم بقيادة الركب إلى بلاد الحجاز[7]. إلى حد منحهم الأعطيات، فهذا علي بن يوسف المرابطي جاء بنفسه " **من مراكش إلى أغمات وريكة فزار عبد الجليل بن ويحلان وأبا محمد عبد الله المليجي وبعث إلى كل واحد منهما بألف دينار**" [8]. ونفس الأمر بالنسبة لعبد المومن بن علي الكومي الذي أمر بمنح "**مال جسيم**" لأبي داود مزاحم[9] .

---

1 - نفسه، ص 469 .

2- الشريف محمد، "**ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب- الطوائف الصوفية خلال مرحلة الانحلال الموحدي**"، ضمن : **مجلة المناهل، العدد 81/80، 2007م، ص28.**

3 - ابن أبي زرع، " **الذخيرة السنية** "، مصدر سابق، ص 152 .

4 - النميري، " **فيض العباب** "، مصدر سابق، ص 481 .

5 - ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص 398 .

6 - ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، صص 412 - 413 .

7 - ابن الخطيب، " **نفاضة الجراب** "، مصدر سابق، ج 2، ص 69 .

8 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص 145.

9 - البادسي، " **المقصد الشريف** "، مصدر سابق، ص 54 .

كما كان أبو يوسف يعقوب المريني " **مكرما للصلحاء** "[1]، وبالمثل نجد بأن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني " **إذا سمع بصالح أو عابد قصد لزيارته واستوهب منه بالدعاء، شديد الخوف من الصالحين، متواضعا لهم** "[2]، ونجد أيضا محمد بن موسى الحلفاوي الذي كان " **له شأن معروف مع مولانا الخليفة أبي عنان...إذ كان يعظمه ويؤثره**"[3]. كما روى ابن قنفذ عن زيارة للسلطان عبد العزيز المريني للولي عبد العزيز الصنهاجي، وكان " **لا يرده في حاجة ولذلك عظم التوسل به وإليه** " [4]، وتنفيذ طلباتهم، كالشيخ الصالح أبو علي الرجراجي، " **وهو لا يرد زيارة السلطان له ويجلس معه ويحضه على الخير وعلى رعي من يستند إلى الله تعالى...ويمتثل السلطان ما يأمره به من أفعال البر**[5]، خصوصا مع تهافت العامة والخاصة على إعانته[6].

وحرصوا على تصنيفهم رفقة الأعيان في الهدايا، كما أعفوا بعضهم من المغارم[7]، وأصدروا لهم ظهائر كأبي سعيد عثمان الذي يعطي بمقتضاها " **للصلحاء في كل سنة من الأموال والخلع والزرع وجميع ما يحتاجون إليه** " [8]. وأقطعوهم الإقطاعات ليتوارثوها خلفا عن سلف، " **فمن عادته ( السلطان ابو الحسن المريني ) ... أن جميع ما جرى للصلحاء والمرابطين من الإقطاعات والتحريرات لا يعدل بها عن ذرية من سوغت له، عادة جارية وسنة ماضية** "[9]. على أن المخزن المغربي" **لم يتوفق دائما في محاولاته من أجل استمالة قلوب النخبة الدينية ومعها قلوب الرعية بوجه عام** "[10].

---

1 - بن الأحمر إسماعيل أبي الوليد، " **روضة النسرين في دولة بني مرين** "، الرباط، 1962 م، ص 19.

2 - ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، ص 287 .

3 - الحضرمي، " **السلسل العذب ..**"، مصدر سابق، ص 55.

4 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، ص 84 .

5 - نفسه، ص 79 .

6 - نفسه، ص 79 .

7 - نفسه، ص 24، وصص 99 – 100.

8 - ابن أبي زرع، " **روض القرطاس** "، مصدر سابق، صص 398 – 399.

9 - ابن مرزوق، " **المسند الصحيح** "، مصدر سابق، ص 254 .

10 - القبلي محمد، " **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط** "، الدار البيضاء، 1987 م، ص 110.

لقد ظل هناك صراع خفي غير معلن بين السلطة السياسية والسلطة الرمزية للأولياء[1]، فالسياسة الرسمية اتجاه التصوف كان لها وجهان الأول يعكس الرغبة في استمالتهم خوفا على سلطتهم ودعواتهم المستجابة في كل وقت وحين[2]، وثانٍ يسعى إلى الحد من تأثير التصوف المنظم[3] وما يسببه من مشاكل للسلطة الحاكمة، خاصة وأنهم اعتمدوا في فترات التوتر والأزمات خطابا مرموزا صرَّفوه عبر قنوات الكرامات لتحقيق العدالة الاجتماعية ونبذ الظلم[4]. ويتصرفون بتلقائية كبيرة في مواجهتهم مع السلطة[5] خاصة في فترات الشدة ولم يتورعوا عن البوح بتجاوزاتها، ودعوتها إلى رعاية مصالح الناس والكف عن إلحاق الأذى بها[6]، فالظاهر بأن المتخيل الشعبي قد زاد من تزكية دور الأولياء في محاربة تعسف الدولة عن طريق خوارقهم وكراماتهم، كما هو الشأن بالنسبة للجبايات غير الشرعية[7].

هذه المواجهة كانت تنتهي في معظم الأحيان حسب الروايات المنقبية بانتصار المتصوفة[8]، عاملين في ذلك على ترسيخ مبدأ محاسبة المسؤولين في إدارة " الشأن العام "خلال هذه الفترات، وكذا ترسيخ قيم التكافل بين الجميع من أعلى هرم السلطة إلى أدنى طبقة في المجتمع، فأضحت سلوكا اجتماعيا متأصلا خلال الأزمات[9].

لم يتوان الأولياء عن تقديم يد العون للرعية ليس فقط على مستوى الإطعام، بل شمل مستويات أخرى تمس معيشة أفرادها، وهنا يبرز لنا كبار المتصوفة كأبي العباس السبتي الذي دخل في نقاش مع أبي يعقوب المنصور

---

1- نشاط مصطفى، **" الأولياء والأسود.."**، مرجع سابق، ص23. فلا وجود - على سبيل المثال - حسب المتون المناقبية لمجابهة صريحة بين الصلحاء والحكم الموحدي، وتبقى الرقابة الموحدية الصارمة والفعلية غير كافية لتفسير هذه الظاهرة . راجع : فرحات حليمة والتريكي حميد، **" كتب المناقب كمادة تاريخية.."**، مرجع سابق، ص55 .

2 - كما هو الحال بالنسبة للولي أبو محمد حسين ( عاش في ق 8 هـ ) الذي **" كان له حظ من استجابة الدعوة والإطلاع على شيء من الخفيات..وإذا دعا على أحد هلك "**. الحضرمي، **" السلسل العذب .."**، مصدر سابق، ص 72 .

3- الشريف محمد، **"ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب.."**، مرجع سابق، ص24.

4- بنحمادة سعيد، **"المجال الحيوي للأولياء بالمغرب.."**، مرجع سابق، ص213.

5- ابن الزيات، **" التشوف "**، مصدر سابق، ص232.

6- فرحات حليمة، **"أدب الحدثان والمجال المقدس .."**، مرجع سابق، ص65.

7 - فرحات حليمة والتريكي حميد، **" كتب المناقب كمادة تاريخية.."**، مرجع سابق، ص 55 . الهلالي ياسر، **" مجتمع المغرب الأقصى.. "**، مرجع سابق، ص 329 .

8- نشاط مصطفى، **" السجن والسجناء : نماذج من تاريخ المغرب الوسيط "**، الرباط، 2012، ص68.

9- بنحمادة سعيد، **"المجال الحيوي للأولياء بالمغرب .."**، مرجع سابق، ص233-235-242.

الموحدي حين استفسره عن عدم خروجه لصلاة الاستسقاء "**فقال له أمير المؤمنين أما تنظر ما نحن فيه يا سيدي؟ فقال الشيخ أنت أردت قال وكيف الأمر؟ فقال له الشيخ لو أردت صلاح المسلمين ينزل المطر الآن**"[1]، وفي نفس الإطار نجد أبو الحجاج يوسف ابن موسى الكلبي الضرير الذي " **وفد مرة على السلطان فبعث إليه بجملة من مال فلم يخرج إلى أغمات من مراكش حتى فرقه على المساكين فقيل له : لو أمسكت منه لنفسك ! فقال : لا حاجة لي به، فإن فلانا من إخواني في الله تعالى..**"[2].

وفي ذروة انهيار سلطة البيت الحاكم، وسوء الأوضاع المناخية والاجتماعية يصير " **الولي هو الملجأ الذي يتشبث به سكان البوادي وسلاحه الوحيد يكمن في كراماته. فإن لم ينجح في رفع الظلم بالوعظ استعمل الدعاء** "[3].

لقد ظلت البوادي معقلا من معاقل التصوف الفاعل والمتفاعل مع محيطه، خاصة مع نظرة الأولياء لها على أنها الفضاء النقي على حساب الحواضر التي كانت تمثل في عرفهم بؤرا للفساد[4]، حيث يقيم السلطان والفقهاء الرسميون[5]، وكأنها إشارة غير مباشرة إلى فساد السلطة وفشلها في تحقيق مجتمع متوازن بين الأطياف حسب المخزون الصوفي، كما نضيف أن هذا الاهتمام الذي أولته هذه الفئة للبوادي كان مرتبطا بنمط عيشهم المعتمد على الفلاحة[6]، وهو ما سجَّله ابن خلدون بقوله : " **يختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي**"[7]، زد على ذلك أن هؤلاء المتصوفة كانوا يتجاوزون تدبير المقدس إلى تشييد منشآت

---

1- السملالي ابن إبراهيم، " **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام** "، مصدر سابق، ج 2، ص271.

2 - التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، صص 106.

3 - فرحات حليمة والتريكي حميد، " **كتب المناقب..**"، مرجع سابق، ص 54.

4- "**ومازال كثير من الصالحين يكرهون الإقامة في قواعد البلدان خيفة الفتن**". راجع : التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص33.

5- بولقطيب الحسين، "**الكرامة والرمز..**"، مرجع سابق، ص77.

6- التادلي، " **التشوف** "، مصدر سابق، ص180.

7- ابن خلدون، " **المقدمة** "، مصدر سابق، ص142.

مائية لحل مشكلة مياه الشرب والسقي بالبادية، ومنهم على سبيل المثال أبو يَدُّو يعلى، والذي ذاع صيته بأنه كان **"متصرفا بنفسه في مرافق الناس من حفر بئر في البادية وغير ذلك طول إقامته بالمغرب"**[1].

فضلا عن قيامهم بدور الوساطة والتحكيم في النزاعات التي كانت تحدث بين أهل البوادي زمن القحوط والاضطرابات، يقول ابن قنفذ في هذا الصدد : " **ورأيت منهم بالمغرب الأقصى في طرف سكسوية من جبال درن بموضع يقال له القاهرة الصالحة عزيزة السكسوية وتبركت بها وجلست معها وهي متوجهة في صلح بين فئتين عظيمتين، ولها أتباع من الرجال وأتباع من النساء...ولا يتحرك أحد إلا عن أمرها..وهي فصيحة جدا في أجوبتها وأوامرها ووعظها. ورأيت الناس يتزاحمون عليها...ولها كرامات مشهورة...**" [2].

ونفس الوظيفة أداها الولي الصالح أبو الحسن اللجائي، فروي عنه " **حسن المحاولة في إصلاح ذات البين بين الناس، وفي زوال الشحناء والتباغض بينهم** "[3]. وهذا أيضا حال الصالح إبراهيم بن عيسى بمنطقة الريف في شمال البلاد[4].فمن يحمل البركة يبقى " **متميزا عمن لا يحوز أية رساميل رمزية مفتوحة على المقدس..فالبركة تؤمن المجال وتحصنه ضد التآكل والإختلال** "[5].

إذا كانت غاية السلطة السياسية والمتصوفة هي العمل على كسب ولاء الناس وضمان التبعية[6]، التي لا تتحقق بدون مصلحة. هذه الأخيرة تتزايد كلما حلت جائحة كبرى، فيكون المتصوفة قد تمكنوا من تحقيقها بقضاء حوائج الناس، في حين لطالما فشلت السلطة الحاكمة في ذلك، مما أضفى على العلاقة بين الطرفين نوعا من التوتر

---

1 - التميمي، " **المستفاد في مناقب العباد..**"، مصدر سابق، ج 2، ص 46.

2 - ابن قنفذ ،" **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، ص 87.

3 - الحضرمي، " **السلسل العذب ..**"، مصدر سابق، ص 84 .

4 - البادسي، " **المقصد الشريف** "، مصدر سابق، صص 60 – 61 .

5 - العطري عبد الرحيم، " **المسألة القروية ..**"، مرجع سابق، ص 141 .

6- اليملولي رشيد " **التصوف في التاريخ المغربي الوسيط- بعض ملامح المشروع السياسي**"، مقال منشور ضمن **دورية كان التاريخية** – **العدد** 29، سبتمبر 2015م، صص 104-105.

أدى إلى تعرض الأولياء ومريديهم لمختلف أشكال العقاب والمحن من قبل السلطة[1]، والتي حاولت استقطاب الأشراف والفقهاء في صفها –خصوصا أن هناك تنافر بينهما [2]– للحد من تعاظم نفوذ التيار الصوفي، بما اكتسبه من "**سلطة معنوية أصبحت تضاهي أحيانا سلطة الدولة، وتطمس في الغالب سلطة العلماء** "[3]. وترمي إلى ترسيخها في الوجدان الروحي والسيكولوجي للرعية، أي " **الإرتباط العميق للناس به للسيادة على مملكة القلب**" [4]حسب توصيف أحد الدارسين .

---

1- الحداد حميد،" **المتصوفة ومحنة السجن في الغرب الإسلامي**"، مقال منشور ضمن **دورية كان التاريخية** - العدد 22، ديسمبر2013م، ص72.

2 - ومن أمثلة هذه العلاقة المتوترة ما رواه ابن قنفذ بخصوص المتصوف مصباح بن سعيد الصنهاجي الملقب بـ" **يَشو** "( ت. 787 هـ )، حيث يقول : " **وكانت بينه وبين الفقهاء منافرة** " . راجع : " **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، ص 49 .

وبالمثل فقد ورد في المصادر أن مؤمنة التلمسانية وهي إحدى صالحات فاس " **لما أراد سيد الشرفاء وجليس الأمراء الفقيه العالم الصدر الشيخ الشهير أبو القاسم الشريف التلمساني زيارتها أبت وقالت : يعظم علي أن يقصدني شريف..هو ممن يوالي أهل الدنيا** ". ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، صص 80 – 81 . هذا لا يعني التنقيص من حرمة الشرف والحط من قدرها، بل يرتبط النفور ارتباطا وثيقا بكل من يوالي أصحاب الجاه والنفوذ والحكام ولو كان من وجهاء الأشراف وسادتهم خاصة في الفترات التي تكثر فيها مظاهر القهر والجور على الرعية .

خلصت الأبحاث إلى أن النزاع بين المتصوفة والفقهاء معروف منذ العصر الوسيط، فقد ظل الفقهاء يحذرون من تصوف مراقَب بالشريعة أي ليس تحت رقابة الفقهاء، وذلك بذريعتين : الأولى أن المتصوفة يدَّعون أن علمهم " **لدني** " لا يُحتاج فيه إلى علم مكتسب بالتعليم في المدارس ومن الكتب، بل هو " **نور يقذفه الله في القلب** " ولو كان صاحبه أميا. والذريعة الثانية هي أن التصوف إذا أُطلق له العنان فهو ينتهي إلى شطحات الصوفية. فلا بد إذن من إلزام التصوف بالإنضباط بالشريعة، ومعناه أن **"يبقى التصوف تحت رقابة الفقهاء "**. وعلى النقيض من ذلك، نجد المتصوف يطعن في دعوى الفقيه شمولية علمه الفقهي، لأنه علم بظاهر الشريعة، لا يبلغ مرتبة التصوف الذي هو **"علم كنه الدين "**. راجع : أومليل علي، " **السلطة الثقافية والسلطة السياسية** "، مرجع سابق، صص 15 - 16، ص 18 .

أكد القبلي محمد أن الشرفاء خلال القرن 14م شكلوا في نظر الحدس الشعبي مجرد حلفاء موضوعيين لنظام الحكم يدعمون تعسفات أجهزته المخزنية، فكانت النتيجة الحتمية حسب تعبيره **"أن الشرفاء أصبحوا يُخشون أكثر مما يُحترمون ..و لا يرغب أحد في الإحتكاك بهم ..ومن الجائز أن يكون نفور العامة وبعض الخاصة قد أثَّر في سلوك الأشراف أنفسهم فنتج عن كل هذا تنافر متبادل وكراهية كمينة تتفجر أحيانا أشبه بالعنصرية منها بأي شيء آخر** " . راجع دراسته : **"مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط "**، مرجع سابق، ص 114.

فحسب أومليل علي **"ظل الرهان بين الفقيه والمتصوف قائما على العامة، أي لمن يكون ولاؤهما الروحي. يترك المتصوف للفقيه شؤون الدين على مستوى السطح، أما عمق الوجدان الديني فيدَّعي المتصوف أنه من اختصاصه، ليبقى الإرتباط العميق للناس به لا بالفقيه"**. راجع : " **السلطة الثقافية..**"، مرجع سابق، صص 18 – 19 .

3 - الهلالي ياسر، " **مجتمع المغرب الأقصى..**"، مرجع سابق، ص 194.

4 - أومليل علي، " **السلطة الثقافية والسلطة السياسية** "، مرجع سابق، صص 18 - 19 .

وهذا ما يشرح كيف اتسع الشرخ بين فئة واسعة من المتصوفة والمخزن، والذي يعكسه رفضها العمل معه[1]؛ ومد اليد إلى موائد السلطان[2]، وأعطياته وهداياه[3]، وامتيازاته الجبائية[4]، إلى حد القطيعة التامة معه[5]، وعدم الالتفات إلى ما هي عليه السلطة من أبهة[6]. ففي مطلق الأحوال، فإن "**كثيرا من المتصوفة كانوا يتفادون الإتصال بالملوك ويجعلون من الإبتعاد عنهم مبدأ هاما من مبادئ سلوكهم اليومي** "[7]، للحفاظ على سمعتهم لدى العامة وعدم الطعن في تصوفهم، فكانت صورتهم تزداد لمعانا في وقت الأزمات حين تهتز هيبة الدولة، فيظهر مرة أخرى على الساحة الولي باعتباره القادر على منح الأمل في الحياة وإعادة التوازن داخل المجتمع[8] ووأد أسباب الفتن والاضطرابات وفك طوق الجور والاستبداد[9]. إلا أن تحليل بنية الكرامة يدعو إلى القول حسب البعض بأنها لم تدفع في اتجاه محاربة الظلم الاجتماعي ومقاومة الحاكم بشكل واقعي وملموس، بقدر ما كان انتصارها خارج الزمن، أما المحاكمة الفعلية فإن الكرامة أرجأتها إلى يوم البعث [10].

1- بوتشيش القادري إبراهيم، "**حول محن المتصوفة المغاربة..**"، مرجع سابق، ص41.

2 - القبلي محمد، " **مراجعات حول المجتمع والثقافة** "، مرجع سابق، ص 111.

3 - الوزان، " **وصف إفريقيا** "، مصدر سابق، ج 1، ص 289 .

4 - ابن قنفذ، " **أنس الفقير وعز الحقير**"، مصدر سابق، ص 24، وصص 99 – 100.

5 - القبلي محمد، " **مراجعات حول المجتمع والثقافة** "، مرجع سابق، ص 111.

6- فرحات حليمة، "**السلاطين والأولياء والفقهاء..**"، مرجع سابق، ص72.

7 - القبلي محمد، " **مراجعات حول المجتمع والثقافة** "، مرجع سابق، ص 111.

8- بوتشيش القادري إبراهيم، " **المغرب والأندلس في عهد المرابطين** "، مرجع سابق، ص126.

9- بنحمادة سعيد، " **المجال الحيوي للأولياء بالمغرب..**"، مرجع سابق، ص223.

10 - بولقطيب الحسين، " **الكرامة والرمز**"، مرجع سابق، ص 5.

# خاتمة :

في ختام هذا البحث يمكن تسجيل عدة خلاصات واستنتاجات، في مقدمتها أن المغرب الأقصى كان يتميز بغنى موارده المائية على اختلاف أنواعها، ولذلك حظيت تقنيات وأساليب استغلالها باهتمام الدولة والمجتمع بالبوادي، إذ تُظهر الأسطغرافيا بأن المغرب عرف حركية اقتصادية وعمرانية، إذ لعب الماء دورا هاما في تشكيل المشاهد الزراعية.

إن العصر المرابطي عرف اهتمام الدولة بإنجاز العمائر المائية خاصة بالحواضر، ثم سيشمل الأمر البادية بصورة واسعة مع السلطة الموحدية، إذ عملت على توسيع المساحة المسقية والتجهيزات المائية بهذه المناطق، ثم سرعان ما تعرضت الأنشطة الفلاحية ومعها التقنيات والمنشآت المائية لانتكاسة واضحة مع الدولة المريني، بفعل ميولاتها الحربية وطبيعتها الرعوية، فكانت النتيجة هي انحسار خطير في مساحة الأراضي المروية والمزروعة.

لا شك أن الماء لعب دورا رئيسيا في تباين جغرافية الإنتاج الزراعي بالبوادي المغربية خلال فترة الدراسة، إذ أن وفرة المياه واعتدال المناخ كانت وراء كثرة المنتجات خاصة بالمناطق السهلية الأطلنتية، وهو ما لم يكن متاحا في باقي مناطق البلاد، لكن ذلك لم يَحُل دون ابتكار أهل بادية هذه المناطق لوسائل وطرق لتدبير ظرفية القلة.

يمكن القول أيضا بأن القاسم المشترك الذي طبع التحولات التي كانت تعرفها ملكية الأرض بالمجال القبلي على مر الدول التي تعاقبت على حكمه، هو شيوع الإقطاع بشتى أنماطه خاصة في العهد الموحدي والمريني، باعتباره من أهم الوسائل التي كانت تهدف من خلالها السلطة المركزية إلى مكافأة الموالين لها، أو تسكين الخارجين عليها، وكسب رضى أصحاب المكانة الروحية والرمزية في المجتمع.

كما أن أشكال استغلال الأرض وعلاقات الإنتاج كانت تدخل ضمن الأطر التنظيمية والقانونية التي ارتكز عليها نظام الري في البادية المغربية، نظرا لأدوارها الاقتصادية والاجتماعية. لكنها تأثرت بالظروف المناخية الصعبة والعوامل الأخرى التي كانت تتفاعل معها، مما كان يؤدي إلى تفكك هذه العلاقات الإنتاجية، واختفاء معالمها.

تطرقنا أيضا لمظاهر النزاع حول المياه، ودور موجات الجفاف الكبرى أو الفيضانات والسيول في وقوعها، وجوانب تدخل الفقه المالكي والأعراف من أجل الحفاظ على الاستقرار داخل البوادي، تحقيقا للمنفعة العامة والتدبير المشترك للموارد الطبيعية وعلى رأسها المياه، على أن هذا الاستقرار ما يلبث أن يتعرض للإختلال عندما تحل الجوائح المائية، ومن تم العصف بكل تلك الإتفاقات المبرمة شرعية كانت أم عرفية.

يمكن القول أيضا بأن عنصر الماء نسجت حوله شبكة من العلاقات السوسيو اقتصادية في البادية المغربية والتي تكشف هذه المرة ليس عن علاقته بالصراع والتشاحن، بل عن حضور قيم التضامن والتكافل في تدبيره بين أفراد الجماعة القبلية، سواء من حيث تشييد المنشآت المائية أو ما يهم تداول حصص توزيع المياه، بما يتخللها من معاملات وذلك من أجل المحافظة على تماسك مكوناتها، ولتحقيق مصلحتها المشتركة في استغلال المجال الذي تستقر فيه كلما أمكنها ذلك، وحسب الظروف الطبيعية السائدة، فمستويات التوتر والتوافق كانت خاضعة بشكل أساسي لتقلبات المناخ .

إن القحوط كانت تعلب دورا حاسما في ارتفاع الأسعار، إلى جانب عوامل أخرى ( بشرية وسياسية..)، كانت تزيد من تأزيم أوضاع الرعية، حينما تتسع دائرة الأزمات الغذائية خاصة بالبوادي، رغم بعض محاولات السلطة لضبط الأسعار ومحاربة الإحتكار، وتوزيع الطعام على المعسرين فطول أمد الجفاف كفيل بأن يكبح كل مستويات التدخل الرسمي أو الشعبي المتعلقة بالتكافل الاجتماعي.

إن ظرفية القلة دفعت أهل المغرب الأقصى إلى ابتكار أساليب وتقنيات تتداخل فيها الإعتبارات المناخية والثقافية والذهنية من أجل تحضير أغذية نباتية لسد رمقه، أظهر من خلالها مخزون الذاكرة التاريخية لديه خاصة في فترات المجاعة والقحط، وأن ظروفها ومستويات حدتها، كانت تتحكم أيضا في أنماط التغذية بالمجال القروي، فتؤدي إلى تحول في نظامهم الغذائي المألوف، والإنتقال إلى أطعمة الإضطرار.

كما يمكن القول بأن سلوك التخزين والإدخار شكل وسيلة من بين وسائل أخرى كانت ترنو التخفيف من ظرفية الجوائح المائية، وقد ترجمت ثقافة الادخار ضمن أمثال المغاربة التي ظلت تحفز على الخزن والادخار للنجاة زمن المسغبة، وهي تكشف أيضا عن أنماط العيش ووسائل الإنتاج وروح التضامن بين القبائل، كما تعكس الخضوع لثقافتها المشتركة وإنتاج الأعراف التي تنظم المعيش اليومي بالأرياف.

ساهمت الجوائح المائية في حدوث تحركات بشرية متقلبة وشديدة التنوع، حيث لعبت دورا كبيرا في تغير الخريطة الديمغرافية والعمرانية فخلقت حالة من عدم الاستقرار، وعرقلت تمركز نمط معين من العيش فيها فانتقل المرابطون من السفوح الشرقية والجنوبية لدرن نحو الداخل والمناطق الشمالية. وينتج عن هجرات قبائل صنهاجة تقلُّص مجال تنقلات قبائل غمارة، فضلا عن تعمير مناطق جديدة كانت فيما سبق أقل سكانا كجبل فازاز وتوسع تعمير المناطق القديمة الإستقرار، حيث نشطت حولها الزراعة ولعبت دورا كبيرا في تحويل القبائل الصنهاجية الطارئة على المنطقة إلى قبائل مُستقرة، يتزايد اعتمادها على النشاط الزراعي وتربية المواشي بدل الرعي الواسع.

تمت الإشارة إلى أن حركة التعمير وأشغال الزراعة شهدتا توسعا في العهد الموحدي، لكون المصامدة كانوا أكثر تجمعات البربر عددا وتمرسا بالنشاط الزراعي بالبادية المغربية رغم من ضيق المجال الزراعي بالجبال وسفوحها.
من أهم نتائج الهجرات التي عرفها العصر المريني ذلك الإختلال الذي بدأ يتسرب إلى التلاؤم البشري مع البيئة وانقلاب التوازن العمراني، فاتجهت حياة الإستقرار وممارسة النشاط الزراعي إلى المناطق الأقل خصوبة، وأُفرِغت المناطق الخصبة من سكانها لتصبح مجالا للرعي والترحال.

إن دخول العنصر العربي قلب التوازن الذي كان قائما بين الجبل والسهل، بحرمان القبائل الجبلية من مشاتيها، فأصبحت المناطق الجبلية والوعرة التي كانت شبه فارغة في بداية العصر الوسيط، أكثر سكانا من السهول، وأن الهجرات سواء بالنسبة للقبائل المستقرة أو الطارئة على البادية المغربية نتج عنها عدم الحفاظ على أصولها وتعدادها، مع التأكيد على أن تدخلات الدول المتعاقبة على حكم المغرب قد كان لها هي الأخرى دور بارز في رسم معالم الخريطة البشرية والديمغرافية للبلاد سعيا منها لتدارك ما خلفته الجوائح من تدمير للبنية السكانية وفراغ المجال.

إن الجبايات كانت خاضعة لتقلبات المناخ، فكلما جادت السماء بغيثها، إلا واقتصرت على ما هو شرعي، وكلما حل القحط زادت دوافع فرض الشرعي وغير الشرعي منها، كما يمكن تسجيل أن العصبية الصنهاجية والمصمودية قد اتخذتا في مراحل تطلعهم للسلطة وبداية حكمهم " **إسقاط الوظائف** " كشعار سياسي وديني لنيل ثقة والتفات الرعية حولهم، إلا أن مرحلة ضعف دولتهم عرفت عودة التعسف الضريبي تحت ضغط المصاعب المناخية والأزمات السياسية.

أما التجربة الزناتية المرينية فقد اتخذت مسارا مخالفا، فمارست الشطط منذ بداية حكمها في فرض مختلف الضرائب الشرعية وغير الشرعية زمن الوفرة والندرة على حد سواء، ومرورا بمختلف سلاطين الدولة، كقاعدة ثابتة، باستثناء عهد أبي الحسن المريني الذي شكل مرحلة إصلاح ضريبي حقيقي، سرعان ما تبددت تدابيره بعد وفاة خليفته أبي عنان، بل يمكن القول بأنها من أهم الأسس المادية التي ارتكزت عليها دولة بني مرين في قيامها والحفاظ على استمراريتها.

إن الإخفاق في حل مشكل التعسف الجبائي قد أدى في فترات الندرة إلى إفلاس العديد من التجار، وتوقف معظم الفلاحين عن العمل وفقدانهم للحافز، وبالتالي سيادة الركود الاقتصادي، مما أسفر عن ردود أفعال ومواقف لها أبعاد دينية وأخلاقية واقتصادية واجتماعية وسياسية...

لعبت الظروف الطبيعية دورا مهما في تكوين الذهنية المغربية ومساهمتها في توجيه سلوك مغاربة العصر الوسيط وتشكيل مواقف ذهنية خرجت من رحم ذلك المناخ المتأزم، وما يترتب عنها من تراجع ديموغرافي، فظل التفسير الخرافي شفيع تفكير المغاربة إزاء استعصاءات الطبيعة، حيث تواترت ظواهر التبرك والإيمان بالأساطير والخوارق، حيث شكلت الجوائح المائية مجالا حيويا استغله المتصوفة لصالحهم من خلال السهر على القيام بصلوات الاستسقاء التي مثلت عين الكرامات التي يظهرها الأولياء في الأزمات والشدائد الملازمة للقحوط والمجاعات، علاوة على نشوب عدة حروب خفية يمكن وصفها بصراع الرمز؛ وذلك بين البيت الحاكم وسلطة المتصوفة، الذين كان نفوذهم يتعاظم بالبوادي، لكون الجوائح المائية غذّت التصوف بهذا المجال، باعتبار الكرامة التي يعتمد عليها المتصوف وليدة مجموعة من الظروف العسيرة التي يجابهها.

أدى استغلال المتصوفة للقحوط إلى الصدام مع السلطة المركزية والدوائر المحيطة بها، فنصَّبوا أنفسهم كناطقين باسم الرعية، يملكون شرعية الترافع عن معاناتهم والتعبير عن ما يصيبهم من سخط وتذمرٍ كادحيهم ومستضعفيهم نتيجة صلف المخزن وجور رأس السلطة فيه، أو تصرفات ولاته وعماله وخدامهم، خاصة في زمن المسغبة والإملاق، الأمر الذي دفع السلطة المركزية إلى اتخاذ مواقف وردود أفعال تجاهها، اعتمدت وسائل الترهيب تارة، والترغيب تارة أخرى .

# لائحة المصادر والمراجع


✓ **المخطوطات :**

❖ البلوي أبو القاسم، " **العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل** "، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 6148.

❖ العياشي، عبد الله بن عمر، " **الإحياء والإنتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش** "، م.خ.ع. الرباط، رقم 1433د.

❖ ابن هيدور علي بن عبد الله التادلي، "**الأمراض الوبائية** "، مخطوط خ.ح-الرباط، رقم 9605.

✓ **المصادر :**

❖ ابن أبي زرع الفاسي علي، " **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** "، دار المنصور، الرباط، 1972.

❖ ابن أبي زرع الفاسي، "**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** "، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

❖ ابن الأثير أبو الحسن، " **الكامل في التاريخ** "، ج 8، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1407هـ/1987م.

❖ ابن الأحمر إسماعيل أبي الوليد، " **روضة النسرين في دولة بني مرين** "، المطبعة الملكية بالرباط، 1962م.

❖ ابن الأزرق أبو عبد الله، " **بدائع السلك في طبائع الملك** "، ج 2، تحقيق علي سامي النشار، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977م .

❖ الأنصاري ابن القاسم محمد، " **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار** "، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط 1403هـ/1983م .

❖ الباجي أبو الوليد، **فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام**، تحقيق الباتول بن علي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، مطبعة فضالة- المحمدية، 1410هـ/1990م.

❖ البادسي عبد الحق بن اسماعيل، " **المنزع اللطيف والمقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف** "، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية الرباط، ط2، 1414هـ/1993.

❖ البرتغالي مجهول، " **وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور** " ، ترجمة هنري دوكاستري، نقله عن الفرنسية : محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، المطبعة : دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، ط 1، 1995.

❖ البرزلي أبي القاسم بن أحمد البلوي، " **فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام –لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام** "، ج4، محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002م.

❖ ابن بطوطة، " **رحلة ابن بطوطة : تحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** "، ج 1، قدَّم له وحققه الشيخ محمد عبد المنعم العريان وراجعه وأعدَّ فهارسه الأستاذ مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم – بيروت، ط 1، 1987 .

❖ البكري أبو عبيد الله، " **المسالك والممالك** "، جزءان، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة، ج 2، دار الغرب الإسلامي– بيروت، طبعة 1992.

❖ البيذق أبو بكر الصنهاجي، " **أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين** "، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، 1971.

❖ ابن البيطار أبو محمد ضياء الدين، " **الجامع لمفردات الأغذية والأدوية** "، ج 4، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د.ت.

❖ التسولي ( أبو الحسن علي بن عبد السلام )، " **البهجة في شرح التحفة** "، ج 2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، لبنان، 1950.

❖ " **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب** "، اعتنى بتحقيقه ودراسته الفنية واللغوية والتاريخية والإجتماعية، ليفي بروفنسال، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، نصوص وترجمات، المجلد الثاني، 1955م.

❖ الجزنائي علي، "**جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس** "، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية –الرباط، ط 2، 1991م.

❖ ابن الحاج التجيبي القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد( ت. 529 هـ )، " **نوازل ابن الحاج التجيبي** "، أجزاء 1، 2، 3، دراسة وتحقيق أحمد شعيب اليوسفي، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطبعة تطوان، تطوان، ط 1، 2018.

❖ الحضرمي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، " **السلسل العذب والمنهل الأحلى** "، تحقيق محمد الفاسي، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، المجلد العاشر، ج 1، 1964 م.

❖ الحميري محمد عبد المنعم، " **الروض المعطار في خبر الأقطار** "، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975.

❖ ابن حوقل أبي القاسم، "**صورة الأرض**"، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، 1992م .

❖ الخطابي محمد العربي، " **كتاب الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي**"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م، ص199.

❖ بن الخطيب لسان الدين ، **–** " **الإحاطة في أخبار غرناطة** "، تحقيق محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1973م .

**–** " **معيار الإختيار في ذكر المعاهد و الديار** "، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة 1423هـ/2002م .

**–** " **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب** "، ج 3، تقديم وتحقيق السعدية فاغية، الناشر : مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989 .

❖ ابن خلدون عبد الرحمان ، " **تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** "، ج 6، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 2000 م.

❖ ابن خلدون عبد الرحمن، " **المقدمة** "، تحقيق وتقديم وتعليق د. عبد السلام الشدادي، جزئين، خزانة ابن خلدون – بيت الفنون والعلوم والآداب، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2005.

❖ ابن الرامي محمد بن إبراهيم اللخمي، " **الإعلان بأحكام البنيان** "، تحقيق ودراسة فريد بن سليمان، تقديم عبد العزيز الدولاتلي، مركز النشر الجامعي 1999م.

❖ بن رسول عمر بن يوسف، " **ملح الملاحة في معرفة الفلاحة** "، تحقيق عبد الله محمد علي المجاهد، كلية الزراعة، جامعة صنعاء، الطبعة الأولى، 1987.

❖ ابن رشد القرطبي المالكي أبي الوليد محمد بن أحمد ( و. 520 هـ / 1126 م )، " **فتاوى ابن رشد** "، ج 3، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1987 .

❖ الرصاع أبي عبد الله محمد الأنصاري ( ت.894 هـ / 1489م)، " **شرح حدود ابن عرفة : الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية** "، تحقيق محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، القسم الأول، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ط 1، 1993 .

❖ الرصاع محمد الأنصاري، " **فهرست** "، تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة- تونس1967م.

❖ ابن رضوان المالقي أبي القاسم، " **الشهب اللامعة في السياسة النافعة** "، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة-الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1404هـ/1984م.

❖ ابن زهر أبو مروان، " **كتاب التيسير في المداواة والتدبير** "، تحقيق وتعليق محمد عبد الله الروداني، مطبعة فضالة المحمدية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية-الرباط، 1991م.

❖ ابن الزيات، " **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي** "، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات ك.آ-الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، ط2، ص1997م.

❖ ابن زيدان عبد الرحمان بن محمد السجلماسي، "**إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس** "،ج 1، تحقيق علي عمر، منشورات مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، الطبعة الأولى، 2008م.

❖ ابن سعيد المغربي علي بن موسى بن محمد ( ت. 685 هـ )، "**بسط الأرض في الطول والعرض** "، تحقيق خوان فرنيط خينيس، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1958.

❖ ابن سعيد المغربي، " **كتاب الجغرافيا** "، حققه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ط 1، 1970 م.

❖ ابن السكاك المكناسي محمد بن أبي غالب ( ت . 818 هـ )، " **نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام**"، تحقيق وضبط نزيهة المروني العلمي الإدريسي، الناشر : دار الإمام المخلوفي، تحت رعاية رابطة الشرفاء الأدارسة بوجدة – المملكة المغربية، ط 1، 2016 م.

❖ ابن سلمون الكناني، أبي محمد عبد الله ( ت. 741 هـ )،" **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام** "، تحقيق محمد عبد الرحمان الشاغول، نشر وتوزيع وطباعة دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 2011 م.

❖ السوسي محمد المختار، **المعسول** "، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1961 م.

❖ الشريف الإدريسي، "**المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** "، تحقيق محمد حاج صادق، دون تاريخ.

❖ الشريف الإدريسي، "**وصف افريقيا الشمالية والصحراوية** "، مأخوذ من نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بيريس، الجزائر1376هـ/1957م .

❖ ابن صاحب الصلاة عبد الملك، " **المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس** "، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط3، 1987.

❖ الطرطوشي أبو بكر، " **كتاب الحوادث والبدع** "، تحقيق محمد الطالبي، طبعة تونس، 1955م.

❖ بن عبد البر أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي، " **الكافي في فقه أهل المدينة المالكي**"، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الثانية، 1992.

❖ ابن عبد الملك المراكشي، "**الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة** "، ج 8، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984م .

❖ ابن عذاري المراكشي، "**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** "، ج4، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ط3، 1983م .

❖ ابن عذاري المراكشي، " **البيان المغرب – قسم الموحدين** "، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، ط1، 1406هـ/1985.

❖ ابن العطار محمد بن أحمد، " **الوثائق والسجلات** "، اعتنى بتحقيقه ونشره شالميتا وكورينطي، مجمع الموثقين المجريطي المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد 1983.

❖ العمري ابن فضل الله ، " **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** "،ج1، تحقيق كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان 2010.

❖ العمري ابن فضل الله، "**وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني مقتبس من مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري**"، تحقيق محمد المنوني، قطعة منشورة ضمن : المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث و دراسات رقم 20، الطبعة الثانية، 2000.

❖ ابن العوام الإشبيلي، " **الفلاحة الأندلسية** "، تحقيق، أنور أبو سويلم سمير الدروبي علي ارشيد محاسنة، ج1 منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط1، 2012 .

❖ ابن غازي العثماني أبي عبد الله محمد بن أحمد ، " **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون** " ، طبع بعد الاعتناء بتصحيحه، مطبعة الأمنية، الرباط، 1952م.

❖ الغساني أبو القاسم بن محمد الشهير بالوزير ( ت 1019 هـ / 1611 م )، " **حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار** "، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط 2، 1990.

❖ الفاسي أبي عبد الله محمد بن أحمد ( ت. 829 هـ ) " **الإتقان والأحكام : شرح تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام** "، ج 2، تحقيق محمد عبد السلام محمد سالم، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 2011 م .

❖ ابن فرحون برهان الدين أبي الوفاء،" **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام** "، ج 2، خرّج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه جمال مرعشلي، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، 2003.

❖ الفشتالي عبد العزيز، **"مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا"**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، منشورات **وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الرباط**،1993م.

❖ ابن القاضي المكناسي، "**جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**"، دار المنصور للطباعة والوراقة–الرباط، 1973م.

❖ القاضي عياض وولده محمد، **"مذاهب الحكام في نوازل الأحكام"**، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1997 .

❖ ابن القطان المراكشي، " **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان** "، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1990.

❖ القلقشندي أبو العباس، **"صبح الأعشى في صناعة الإنشا** "، ج 5، وزارة الثقافة، طبع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة 1963.

❖ ابن قنفذ القسنطيني أبي العباس أحمد الخطيب ( ت. 810 هـ / 1408 م )، " **أنس الفقير وعز الحقير**"، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط، مطبعة أكدال– الرباط، دون تاريخ.

❖ الكفيف عبد الله الزرهوني ، " **ملعبة الكفيف الزرهوني** "، تقديم وتعليق محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1987م.

❖ مارمول كربخال، " **إفريقيا** "، ج1، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، الرباط، 1984.

❖ الماوردي أبي الحسن، **"الأحكام السلطانية والولايات الدينية** "، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، ط1، 1409هـ/1989م.

❖ المجاجي عبد الرحمان بن عبد القادر( ت 1020 هـ )، " **التعريج والتبريج في أحكام المغارسة والتصيير والتوليج**"، طبعة حجرية، فاس، دون تاريخ.

❖ " **مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية** "، اعتنى بإصدارها **ليفي بروڤانصال Lévi Provençal**، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء العاشر، رباط الفتح : المطبعة الاقتصادية – الرباط، 1941م.

❖ مجهول، " **الاستبصار في عجائب الأمصار** "، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة– آفاق عربية، بغداد، 1985 م.

❖ مجهول، " **الحلل الموشية في الأخبار المراكشية** "، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، ط1، الدار البيضاء، 1399هـ/1979م .

❖ مجهول، " **تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية وتبيين مقاديرها من أقوال العلماء المعتنين بتحقيق ذلك**"، تقديم وتحقيق الشريف محمد، مجلة التاريخ العربي، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، ع11، صيف 1420هـ/1999م.

❖ المراكشي عبد الواحد، " **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** "، تقديم وتحقيق وتعليق زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة 1994م.

❖ المراكشي عبد الواحد، " **وثائق المرابطين والموحدين** "، تحقيق حسين مؤنس، الناشر : مكتبة الثقافة الدينية – الظاهر، مصر، الطبعة الأولى، 1997.

❖ ابن مرزوق أبو عبد الله محمد، " **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن** "، تحقيق ماريا خيسوس بغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

❖ المقدسي أبو عبد الله محمد بن أحمد، " **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** "، مكتبة مدبولي، ط3، 1411هـ/1991م.

❖ المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد، **–** " **أزهار الرياض في أخبار عياض** "، ج 1، تحقيق : مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية – بيت المغرب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، 1358 هـ / 1939 .

– " **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** "، المجلد 3، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.

❖ المقريزي، أحمد بن علي، " **إغاثة الأمة بكشف الغمة** " ، قام بنشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 2، القاهرة ، 1957 م.

❖ المنذري عبد العظيم، " **صحيح الترغيب والترهيب** "، تحقيق محمد ناصر الألباني، مكتبة المعارف، ط1، الرياض، 2000 م.

❖ ابن منظور جمال الدين، " **لسان العرب** "، المجلد الثالث عشر، دار صادر بيروت، د.ت.

❖ الناصري أحمد بن خالد، " **كتاب الاستقصا لدول المغرب الأقصى** "، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتب الدار البيضاء، ج3، 1418هـ/1997م.

❖ النباهي أبو الحسن، " **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا** "، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 5، 1983م.

❖ النميري ابن الحاج، "**فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب** "، دراسة و إعداد الدكتور محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1990.

❖ ابن هلال، ابراهيم هلال السجلماسي، " **الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير** "، طبعة حجرية، مكتبة آل سعود، 1319 هـ / 1901م.

❖ ابن وحشية أحمد بن علي، " **الفلاحة النبطية** "، تحقيق توفيق فهد، ج1و2، المعهد الفرنسي للدراسات العربية–دمشق، د.ت.

❖ الوزان الحسن، " **وصف إفريقيا** "، ج2، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1983م .

❖ الونشريسي أبي العباس أحمد بن يحيى، " **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى افريقية والأندلس والمغرب** "، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، الرباط، 1401هـ/1981م.

## ✓ المراجع والدراسات :

❖ أبو العزم عبد الغني، "**معالم المدينة الإسلامية: نموذج مراكش**"، ضمن **ندوة " مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي** "، أشغال الملتقى الأول، الطبعة الأولى، مطبعة فضالة – المحمدية، 1989م.

❖ أبو جيب سعدي،" **القاموس الفقهي لغة واصطلاحا** "، دار الفكر – دمشق، ط 2، 1988 .

❖ أبو ضيف مصطفى، " **القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين** "، ديوان المطبوعات الجامعية–الجزائر، 1982م.

❖ أجميلي حميد،" **جوانب من التاريخ الديموغرافي بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط (ق6–8هـ/12–14م)–رصد أولي لبعض قضايا الديمغرافية التاريخية** "، تقديم إبراهيم القادري بوتشيش، منشورات مركز تافيلالت للدراسات والتنمية والأبحاث التراثية، أرفود، 2016م.

❖ أحمد زروال، "**النظام الخطارتي : أسلوب من أساليب تدبير المياه الباطنية بالحوز المراكشي**"، ضمن أعمال **ندوة: الماء بتانسيفت: تاريخ وتقنيات**، مطبعة ووراقة الوطنية مراكش، طبعة 1، 2002 .

❖ إد الفقيه أحمد، **"نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي شرعا وعرفا وتشريعا "**، منشورات كلية الشريعة- أكادير، سلسلة رسائل وأطروحات جامعية رقم 6، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، 2002.

❖ أزايكو علي صدقي، **"التأويل النسبي (الجينيالوجي) لتاريخ شمال إفريقيا"، مجلة كلية الآداب- الرباط**، ع 15، 1990م.

❖ استيتو محمد،" **الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16 "، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، ك.أ.ع.إ**، ظهر المهراز، فاس، 1988.

❖ ازريكم عبد الرزاق بن عمر، " **مدينة غمات وما إليها: في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمدينة الوسيطية ببلاد المغرب "**، الطبعة الأولى، مراكش، 2012 م.

❖ أسكان الحسين، **– إيد"** ضمن **المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته**، إشراف محمد حمام، ج1، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط 2004.

- **" تكنولوجيا التحكم في الماء بالجنوب المغربي خلال العصر الوسيط"، ندوة تاريخ الري بالجنوب المغربي**، الأيام الوطنية الثامنة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، أكادير 27-28 اكتوبر 2000 ، مجلة أمل التاريخ-الثقافة-المجتمع، العدد 24، 2001 .
- **" المالية الموحدية "**، ضمن : **وقفات في تاريخ المغرب، دراسات مهداة إلى الأستاذ إبراهيم بوطالب**، منشورات ك .آ .ع. إ- الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 27، مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2001م.
- **" المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب "**، ضمن أعمال **ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب"**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004م.
- **" مظاهر الخلل في تسيير شؤون الدولة بالمغرب الوسيط نموذج الدولة المرابطية والموحدية"، مجلة أمل**، ع 32/31، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، السنة الرابعة عشرة، 2006.

❖ إسماعيل محمود عبد الرزاق، **"سوسيولوجيا الفكر الإسلامي"**، ج1، دار مصر المحروسة، القاهرة، 2005.

❖ امعيط نور الدين، " **الادخار بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط : المصطلحات المتداولة والتقنيات المستعملة**"، ضمن أعمال : **الندوة الدولية " المخازن الجماعية في الأطلس الكبير المركزي : تراث مادي ورأسمال رمزي** "، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 11، تنسيق ومراجعة سعاد بلحسين ومحمد العاملي، مطبعة Cosa info، بني ملال، 2017.

❖ أومليل علي،" **السلطة الثقافية والسلطة السياسية** "، مركز دراسات الوحدة العربية، مكتبة مؤمن قريش، بيروت – لبنان، ط 2، 1997م.

❖ باسكون بول، " **الأساطير والمعتقدات بالمغرب** "، تعريب مصطفى المسناوي، **مجلة بيت الحكمة**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، العدد الثالث، 1986.

❖ باسيليو بابون مالدونادو، "**العمارة الأندلسية–عمارة المياه** "، ترجمة د. علي إبراهيم علي منوفي، مراجعة وتقديم د. محمد حمزة إسماعيل الحداد الناشر مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2008 .

❖ بن البراء يحيى، " **ملكية الأرض في موريتانيا : أبعادها الإجتماعية والسياسية : دراسة في النصوص الفقهية والوقائع** "، منشورات : معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة– الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.

❖ البركة محمد، "**النظام الغذائي من خلال التراث النوازلي مقاربة عمرانية لفتاوى أبي عمران الفاسي**"، ضمن **كتاب النظام الغذائي بالمغرب والأندلس : دراسات في سوسيولوجيا الأحكام والقيم والعوائد**"، محمد البركة، سعيد بنحمادة، عبد الهادي البياض، منشورات الزمن، سلسلة شرفات العدد 77، ط1، 2016م .

❖ بروديل فرناند، " **البحر المتوسط والعالم المتوسطي** "، ترجمة عمر بن سالم، أليف للنشر – تونس، 1990.

❖ البرينسي عبد اللطيف ،"**نهر درعة والقبائل الدرعية من خلال المصادر القديمة**"، ضمن أعمال **ندوة: حوض نهر درعة ملتقى حضاري وفضاء للثقافة والإبداع**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1996.

❖ برينيون جون وإبراهيم بوطالب وأخرون، " **تاريخ المغرب** "، تعريب محمد الغرايب، عبد العزيز بل الفايدة، محمد العرجوني، مطابع الرباط نت، ط 1، 2018 م.

❖ البزاز محمد الأمين، " **الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة والوسطى** "، **مجلة المناهل**، ع 69- 70، 2004 م.

❖ البزاز محمد الأمين، " **حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط**"، مقال منشور ضمن **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط**، العدد الثامن، 1993م.

❖ بلحسين سعاد، " **مخازن أوجكال : المعيش اليومي وآليات تدبير المجال** "، أعمال : الندوة الدولية " **المخازن الجماعية في الأطلس الكبير المركزي : تراث مادي ورأسمال رمزي** "، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 11، تنسيق ومراجعة سعاد بلحسين ومحمد العاملي، مطبعة Cosa info، بني ملال، 2017.

❖ البنا علي، " **أسس الجغرافيا المناخية والنباتية** "، دار النهضة العربية، بيروت، 1970.

❖ بنحمادة سعيد، – " **أثر البنية القبلية في تدبير النزاعات على الماء بالمغرب والأندلس – المحددات والتجليات**"، **مجلة هيسبريس تمودا**، العدد44، السنة 2009م.

- " **أثر التقاويم في تطوير البستنة بالأندلس والمغرب خلال العصر الوسيط**"، ضمن : **مجلة عصور الجديدة**، العدد 14–15، أكتوبر 1435هـ/2014م.
- " **الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط مدخل لدراسة العوائد والقيم**"، ضمن **كتاب النظام الغذائي بالمغرب والأندلس : دراسات في سوسيولوجيا الأحكام والقيم والعوائد**"، محمد البركة، سعيد بنحمادة، عبد الهادي البياض، منشورات الزمن، سلسلة شرفات العدد 77، ط1، 2016م .
- " **الغرب الإسلامي :مباحث في العلوم التجريبية** "، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2013م.
- " **الماء والإنسان في الأندلس–خلال القرنين 7–8هـ/13–14م** "، إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة بيروت، ط1، 2007م.
- " **المجال الحيوي للأولياء الأدوار الدينية والعسكرية والإجتماعية** "، ضمن **كتاب التصوف السني في تاريخ المغرب : نسق نموذجي للوسطية والإعتدال**، تقديم وإشراف إبراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة–الدار البيضاء، 2010م.
- "**الملكية العقارية وقانون الماء ببلاد المغرب والأندلس بين التشريع النظري والتنزيل التاريخي دراسة لأثر الجغرافيا التاريخية في تبيئة القانون**"، أعمال **ندوة: التاريخ والقانون التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة**، أعمال مهداة للأستاذ الدكتور محمود اسماعيل أيام 3–4–5 نونبر 2009، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، سلسلة الندوات رقم 22، 2009.

❖ بنسباع مصطفى،"**الجانب الأيديولوجي لثورة المريدين**"، أعمال **ندوة "من أبي برجان إلى أبي إسحاق البلفيقي–جوانب من التواصل الفكري بين المغرب والأندلس**"، أيام 12-13 نونبر 1993م، **مجلة ك. آ. ع. إ–مراكش**، العدد12، 1995م.

❖ بنعبد الله عبد العزيز، "**الماء في الفكر الإسلامي والآدب العربي** "، ج 2، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المحمدية، 1996 م.

❖ بنعلة مصطفى، " **المؤسسات الحبسية والتخفيف من حدة الجفاف من خلال الحوالات الحبسية وبعض النوازل المرفقة بها** "، ضمن أعمال **ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، 2004.

❖ بنميرة عمر،" **النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن والتاسع/14و15م)**"، ك.آ.ع.إ.الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 67، مطبعة الأمنية-الرباط، ط1، 2012م .

❖ بوتشيش القادري إبراهيم – البياض عبد الهادي، "**ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها زمن المجاعات: المغرب والأندلس من القرن6هـ/ حتى القرن 8هـ/12م/14م نموذجا**"، ضمن **مجلة عصور الجديدة**، ع7-8، خريف-شتاء 1433-1434هـ/2013-2014م، ص34.

❖ بوتشيش القادري إبراهيم، – " **إسهامات في التاريخ الإقتصادي والإجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط**"، تقديم محمد المنوني، منشورات جامعة المولى إسماعيل، مكناس، 1997 .

- " **أملاك الدولة بين التراجع والاسترجاع من خلال نماذج من الغرب الإسلامي**"، ضمن : **ندوة: التصرف في ملكية الدولة عبر التاريخ**، أشغال الملتقى الدولي المنعقد بتونس في 10 و11 مارس 1999م، جمعها عبد السلام حميدة و أحمد مشارك، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 2005م .
- " **البنية القبلية بالمغرب ومسألة المساواة والتراتب الاجتماعي**"، ضمن **كتاب : تاريخ الغرب الاسلامي– قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1994م.
- " **حول محن المتصوفة المغاربة في العصر المرابطي**"، ضمن : **مجلة المناهل**، ع81/80، 1428/2007.

- " **دور الفقهاء في الرقابة المالية بمغرب العصر الوسيط على ضوء رسالتين موجهتين ليوسف بن تاشفين** "، السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب، **أعمال مهداة إلى الأستاذ أحمد عزاوي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 2013 م.
- " **الفكر السحري والعرافة بالمغرب والأندلس خلال العصر المرابطي**"، ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية تيارات الفكر في المغرب والأندلس-الروافد والمعطيات، أعمال **الندوة الرابعة** التي نظمت أيام 26-27-28 أبريل 1993م، منشورات ك.آ.ع.إ-تطوان، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، 1995.
- " **القيم الإنسانية في الممارسات الصوفية خلال القرن 6هـ -قيم الخير والإحسان نموذجا**"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، ع12، 1995م .
- " **مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس** "، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، د.ت.
- " **مخطوط نوازل ابن الحاج مصدر جديد في تاريخ المجال القروي بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**"، **ندوة البادية المغربية عبر التاريخ**، تنسيق ابراهيم بوطالب، منشورات ك.آ.ع.إ.الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم77، مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء، ط1، 1420هـ/1999م.
- " **معمار مراكش في عصر المرابطين والموحدين من خلال النصوص الأثرية في المصادر المكتوبة**"، ضمن **مجلة المناهل**، ع 74/73، السنة 27، فبراير 2005م.
- " **المغرب والاندلس في عصر المرابطين : المجتمع – الذهنيات – الأولياء** "، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1993م.
- " **مقالات في تاريخ الغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين**"، مطبعة سجلماسة-مكناس، ط1، 2007م.

❖ البوزيدي سعيد، "**دور الشبكة النهرية والمجالات الرطبة في توزيع المواقع القروية**"، **مجلة البادية المغربية**، العدد3، السنة3، 2009م.

❖ بوشرب أحمد، "**دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي و أزمور-(قبل 28 غشت 1481- أكتوبر 1541م)** "، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1984م .

❖ بولقطيب الحسين، – " **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين** "، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة– الدار البيضاء، دون تاريخ.

- " **الحياة الإقتصادية للحلف القبلي المصمودي في القرنين الخامس والسادس الهجريين**"، **مجلة الإجتهاد**، العدد 18، السنة5، 1413هـ/1993م .
- " **الكرامة والرمز: كرامات أولياء دكالة خلال عصري المرابطين والموحدين نموذجا**"، دراسات عربية : **مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية**، العدد 4/3، السنة 33، فبراير 1996م.

❖ البياض عبد الهادي، **–** " **أثر التغيرات المناخية في التمثلات الشعبية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط** "، ضمن أوراق **الندوة الدولية التكريمية المهداة للأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش :" التاريخ الاقتصادي والإجتماعي وتاريخ الذهنيات بالمغرب والأندلس : قضايا وإشكاليات** "، ج 3، تقديم وتنسيق محمد الشريف، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، المطبعة : شمس برينت – سلا، ط 1، 2020م.

- " **الطعام والإطعام زمن المجاعات بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط بين التدبير الرسمي والتضامن الشعبي**"، ضمن **كتاب النظام الغذائي بالمغرب والأندلس : دراسات في سوسيولوجيا الأحكام والقيم والعوائد**"، محمد البركة، سعيد بنحمادة، عبد الهادي البياض، منشورات الزمن، سلسلة شرفات العدد 77، ط1، 2016م .
- " **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6–8هـ/12–14م)**"، دار الطليعة للنشر–بيروت، ط1، 2008م.
- " **المحددات العلمية في الممارسة الفلاحية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط : إسهام في دراسة التربة والمياه** "، ضمن أعمال ندوة " **الفلاحة في تاريخ المغرب** "، تكريما للأستاذ أحمد مزيان، تنسيق محمد اليزيدي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطابع الرباط نت، ط 1، 2019 م.
- " **وضعية الزراعة بالمغرب والاندلس خلال العصر الوسيط (دراسة في المؤثرات الطبيعية والعوامل البشرية)**"، ضمن **مجلة البادية المغربية**، الماضي– الحاضر–المستقبل، العدد4، السنة4، 2011 .

❖ بن تاويت محمد، " **تاريخ سبتة** "، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة – الدار البيضاء، ط 1، 1982.

❖ التوفيق أحمد، " **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر( اينولتان 1850–1912** ) "، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 63، مطبعة النجاح الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 2011م.

❖ تيتاو حميد، "**المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر العصر الوسيط : متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية**"، ضمن أعمال **ندوة : " الفلاحة في تاريخ المغرب** "، تكريما للأستاذ أحمد مزيان، تنسيق محمد اليزيدي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطابع الرباط نت، ط 1، 2019 م.

❖ جسوس عز الدين، "**موقف الرعية من السلطة السياسة في المغرب والأندلس على عهد المرابطين**"، دراسة في علم الاجتماع السياسي، افريقيا الشرق–المغرب، 2014م .

❖ جلاب حسن، "**في تاريخ الماء و أساليب الري و التوزيع بمراكش**"، ضمن دراسات مغربية في التراث، المطبعة و الوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى 1998.

❖ الجنحاني الحبيب، "**نظام ملكية الأرض في المغرب الإسلامي القرن 1هـ . 6هـ/ 7م . 12م**"، **مجلة دراسات تاريخية**، العدد الخامس، 1981م.

❖ الجيدي عمر بن عبد الكريم، **–** " **العرف والعمل في المذهب المالكي**"، مطبعة فضالة، المحمدية، 1984.

- " **محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي** "، منشورات عكاظ، مطبعة النجاح الجديد–الدار البيضاء، 1987م.

❖ حافظي علوي حسن، **–**" **أخطار تنقل القوافل في القفر بين العوامل الطبيعية والثقافية**"، من إيناون إلى استانبول، **أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المؤذن**، تنسيق عبد الأحد السبتي عبد الرحيم بنحادة، منشورات ك.آ. ع. إ– الرباط، سلسلة أبحاث ودراسات، رقم 53، جامعة محمد الخامس، ط1، 2012م.

- " **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي** "، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1418هـ /1997م .
- " **طرق الاستدلال على وجود الماء وتدبير قلته ودفع مضاره بصحراء بلاد المغرب في العصر الوسيط**"، **ندوة الماء والتعمير ببلاد المغرب في العهدين القديم والوسيط**،أيام 15-16-17 نوفمبر2007، أعدها للنشر محمد حسن، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس2009 .

- " **النشاط التجاري بسجلماسة وعلاقته بمجالها القروي** "، ضمن أعمال ندوة " **التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب** "، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني – عين الشق – الدار البيضاء، 1989 م.

❖ حالي محمد، " **المجتمع والأزمات الديمغرافية في تاريخ المغرب في القرن الثامن عشر ( 1727 – 1757 ) : مساهمة في الديمغرافيا التاريخية** "، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2013.

❖ حباشي عبد اللطيف،" **حول صورة الفلاح في الثقافة العربية الإسلامية : أدب النوازل نموذجا** "، مجلة أمل، العدد 9، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997.

❖ حبيدة محمد ، "**الماء في المغرب : التقنية والتنظيم ملاحظات حول القرنين 17 و 18**"، ضمن أعمال **ندوة الماء في تاريخ المغرب**، منشورات ك. آ. ع. إ- عين الشق الدار البيضاء، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، 1999م.

❖ الحجاجي محمد غازي،" **خروج السمايم نقايم وخروج الليالي نعايم : الأمثال الشعبية بمنطقة الدار البيضاء والشاوية حسب المواسم الفلاحية** "، ضمن سلسلة الشاهد في تاريخ وتراث الدار البيضاء والشاوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1 ، 2015 م.

❖ حجازي مصطفى،" **التخلف الإجتماعي : مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور**"، منشورات المركز الثقافي العربي ،ط 9، 2005.

❖ الحداد حميد،" **المتصوفة ومحنة السجن في الغرب الإسلامي**"، مقال منشور ضمن **دورية كان التاريخية – العدد 22**، ديسمبر2013م.

❖ بن حسن محمد، "**القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط** "، دار الرياح الأربع للنشر-تونس، 1986م.

❖ حميش سالم، " **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ** "، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط 1، 1998 .

❖ خالد عبد الغني، " **تاريخ السياسة الجبائية بالمغرب القرن التاسع عشر** "، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2002.

❖ الخديمي علال، **"من التاريخ الاجتماعي للمغرب : مؤسسة النزايل والمواصلات الداخلية والتدخل الأجنبي خلال القرن 19م"**، ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر التاريخ، ج1، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عين الشق الدار البيضاء، 1989م.

❖ الخمليشي عبد العزيز، " **الهدية** "، ضمن " **معلمة المغرب** "، حرف الهاء، العدد 22، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 2005 م.

❖ دندش عصمت عبد اللطيف، "**الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين –عصر الطوائف الثاني** "، بيروت–لبنان 1988م.

❖ دوس فرانسوا، " **التاريخ المفتَّت : من الحوليات إلى التاريخ الجديد** "، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2009م.

❖ دوفيردان غاستون، " **تاريخ مراكش من التأسيس إلى الحماية (1912م)** "، ج1، ترجمة محمد الزكراوي وخالد المعزوزي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، دار أبي رقراق للطباعة، 1433هـ/2012م.

❖ دي كاسترو جوزويه، **"جغرافية الجوع** "، ترجمة زكي الرشيدي، مراجعة محمود موسى، دار الهلال للنشر–القاهرة، 1970م.

❖ رابطة الدين محمد، –**"آليات توزيع المياه بمراكش زمن حكم الموحدين"**، ضمن أعمال **ندوة "الماء الممتلك : الدول القسمة وحق التصرف في الحظ من الماء** "، منشورات، ك.، آ. ع. إ–مراكش 2002.

- " **مراكش زمن الموحدين جوانب من تاريخ المجال والإنسان** "، تقديم مصطفى الشابي، المطبعة والوراقة الوطنية–مراكش، ج1، ط2، 2016م.
- مادة **"الرب باب"**، ضمن **معلمة المغرب**، ج13، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1989، ط2001.

❖ الرامي خالد، " **النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان( 1817– 1913م)– دراسة في العمارة الإسلامية"**، منشورات جمعية تطوان أسمير , مطبعة الخليج العربي، 2008م .

❖ رويان بوجمعة، " **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912 – 1945**"، منشورات دار الأمان–الرباط، مطابع الرباط نت، 2013.

❖ زيعور علي، " **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم : القطاع اللاواعي في الذات العربية** "، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، لبنان، ط 2، 1984.

❖ الزين عبد الفتاح، " **المغرب الماقبل استعماري : سيرورة مجتمعية ( 1631 م – 1912 م )** "، ضمن **المجلة التاريخية المغربية**، العدد 55-56، تونس، 1989.

❖ السبتي عبد الأحد و الخصاصي عبد الرحمان، " **من الشاي إلى الأتاي–العادة والتاريخ** "، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 25، ط1، 1999م.

❖ السلامي رشيد، " **وثائق مرينية : مراسلات، معاهدات، ظهائر** "، دراسة وتحقيق، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد الخامس بالرباط، ج 2، 1989م .

❖ الشاذلي عبد اللطيف، "**التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري**"، سلسلة أطروحات ورسائل 4، منشورات جامعة الحسن الثاني – الدار البيضاء،1989م.

❖ الشريف محمد، "**تدقيقات حول المسكوكات الموحدية من خلال تقييد جديد حول النقود والأوزان والمكاييل المغربية من القرن 7هـ/13م**"، **مجلة مواسم**، المطابع المغربية والدولية–طنجة، شتاء1995م/ربيع1996م.

❖ الشريف محمد، "**ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب– الطوائف الصوفية خلال مرحلة الانحلال الموحدي**"، ضمن : **مجلة المناهل**، العدد 81/80، محرم 1428هـ/فبراير2007م.

❖ شفيق محمد، "**الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية**"، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة –المعاجم– الرباط، 1999م .

❖ الطاهري أحمد، "**الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد من نظام التشمير التعاقدي إلى نمط الانزال الاقطاعي**"، منشورات مركز إسكندرية للكتاب، الإسكندرية، مصر، 2004.

❖ الطويل حجاج محمد، **–** " **دكالة بين الشدة والرخاء**"، ضمن أعمال **ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، بتنسيق مع الجمعية المغربية للبحث التاريخي، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم4، 2004.

- " **الري والزراعة المسقية في الجنوب**"، ضمن **ندوة تاريخ الري بالجنوب المغربي**، الأيام الوطنية الثامنة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، أكادير 27-28 اكتوبر 2000، **مجلة أمل التاريخ–الثقافة–المجتمع**، العدد24، 2001م.

- " **الفلاحة المغربية في العصر الوسيط** "، **رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – جامعة محمد الخامس، السنة الجامعية 1987 – 1988 م.
- **مادة " الرب "، معلمة المغرب**، ج13، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1989، ط2001.
- مادة " **السانية "، معلمة المغرب**، ج 14، الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، نشر مطابع سلا، 2001 .
- " **المرس"، معلمة المغرب**، ج21، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1426هـ/2005م.
- " **منطقة عبدة وأحمر خلال العصر الوسيط: المجال والإنسان"**، ضمن **الكتاب الجماعي " تاريخ إقليم آسفي: من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة** "، إعداد محمد الأسعد، دفاتر دكالة عبدة رقم1، سلسلة بحوث ودراسات، منشورات مؤسسة دكالة–عبدة للثقافة والتنمية، ط1، 1420هـ/2000م .
- " **وضعية الأراضي الفلاحية في المغرب، من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الوطاسية من القرن 2 / 10 هـ / 8 – 16م** "، **مجلة البادية المغربية**، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ع 7، 2017.

❖ طويلب عبد القادر، " **النظام المالي في الدولة الموحدية وأثرها عليه–القبالات نموذجا** "، **دورية كان التاريخية**، العدد25، سبتمبر 2014م.

❖ العامري نللي سلامة، " **الولاية والمجتمع–مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي** "، دار الفارابي–بيروت–لبنان، ط1، 2001.

❖ العجلاوي موساوي، "**تقنيات استخراج المياه الباطنية في مناجم الفضة بالمغرب(2هـ–7هـ/8م–13م)**"، ضمن أعمال **ندوة الماء في تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عين الشق الدار البيضاء، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، 1999م.

❖ العروي عبد الله ، – " **مجمل تاريخ المغرب** "، ج1، الناشر المركز الثقافي العربي–الدار البيضاء، ط5، 1996م.

- "**مفهوم التاريخ** "، ج1، المركز الثقافي العربي، بيروت–لبنان، الطبعة 4، 2005.

❖ العطري عبد الرحيم، – " **المسألة القروية في المغرب : الأرض والسلطة والمجتمع** "، منشورات مقاربات، ط 1، 2017م.

- " **من ثراء الثقافة المغربية، الحكاية الشعبية وتقديس الماء في مجتمعات الندرة** "،**مجلة الثقافة المغربية**، ع 18، 2018 م.

❖ العلوي القاسمي هاشم، " **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي**"، الجزء الأول، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1415هـ/ 1995م.

❖ العمراني محمد، "**مسألة الخمور في تاريخ المغرب الوسيط**"، **مجلة أمل**، العدد 16، السنة السادسة، 1999م.

❖ عويناتي صباح، "**تحولات الأسر البدوية بأحواز مراكش خلال العصرين المرابطين والموحدي من خلال كتاب: "التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات"**، أعمال **ندوة : الأسرة البدوية في تاريخ المغرب**، تنسيق البيضاوية بلكامل، فاطمة مسدالي، حليمة بنكرعي، منشورات البحث في تاريخ البوادي المغربية– سلسلة ندوات ومناظرات رقم2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م.

❖ عيسوي عبد الرحمن، " **سيكولوجية الخرافة** "، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ط 1، 1974م.

❖ غضبان أكرم حسين، "**الإقطاع في عهد الموحدين**"، **مجلة آداب البصرة**، ع51، السنة 2010م .

❖ غطيس مصطفى، "**نهر تمودة: النهر ذو الأسماء الخمسة**"، **دورية كان التاريخية.www.kan.nashiri.net** العدد 18، ديسمبر 2012 .

❖ غيداء خزنة، " **الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري الممارسات والنظرية** "، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1997.

❖ الفاتحي حميد، " **ملكية الأرض في بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط** "، **أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس – أكدال، السنة الجامعية 2007 – 2008م.

❖ الفاسي عبد الإله، " **الحركة** "، معلمة المغرب، حرف الحاء، العدد 10، منشورات مطابع سلا، 1998.

❖ فتحة محمد، – " **جوانب من الحياة الإقتصادية المغربية خلال العصر المريني** "، **حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء**، العدد 2، 1985 .

- " **النوازل الفقهية والمجتمع : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي ( من القرن 6 إلى 9 هـ/ 12 – 15م )**"، جامعة الحسن الثاني عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل، 1999م.

❖ فرحات حليمة والتريكي حميد، " **كتب المناقب كمادة تاريخية** "، ضمن ندوة " **التاريخ وأدب المناقب**"، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، نشر وطبع عكاظ، الرباط، 1989 .

❖ فرحات حليمة، " **أبو العباس السبتي بين الصلاح والانقباض عن السلطان**"، ترجمة محمد الغرايب و عبد العزيز بلفايدة، ضمن كتاب "**السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب : الإئتلاف والاختلاف**"، أعمال تكريمية مهداة للأستاذ أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 2013 م.

- " **أدب الحدثان والمجال المقدس في المغرب نموذج ماسة**"، ترجمة عبد العزيز بل الفايدة، **مجلة المناهل**، السنة 29، ع80–81، محرم 1428هـ/فبراير2007م.
- " **زهد المتصوفة في الطعام وولائم الزوايا من خلال النصوص المنقبية**"، ترجمة محمد الغرايب و عبد العزيز بلفايدة، **التصوف والمجال والإنسان – أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد اللطيف الشادلي**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، تنسيق وتقديم عثمان المنصوري، مطابع الرباط نت، 2016م.
- " **الصلحاء والسلطة بين الرفض والإغراء في المغرب الوسيط**"، ترجمة محمد الغرايب، ضمن كتاب "**السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب : الإئتلاف والاختلاف**"، أعمال تكريمية مهداة للأستاذ أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 2013 .

❖ فقادي الحسين، " **من مظاهر التغذية في العصر الوسيط**"، ضمن **مجلة أمل**، العدد 16، السنة 6، 1999م.

❖ القبلي محمد، – " **انهيار الموحدين بدأ منذ معركة العقاب**"، ضمن **مجلة زمان**، العدد 37، نونبر 2016م.

- " **تاريخ المغرب تحيين وتركيب** "، إشراف وتقديم، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط 2011م.
- " **التموجات الدينية – الاجتماعية ومشروعية سلطان الدولة بالمغرب الأقصى الوسيط**"، ضمن كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، علائق وتفاعلات، دار توبقال للنشر، ط1، 1997م.
- " **حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن 12م ونهاية القرن 13م**"، ضمن : **كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط : علائق وتفاعلات** "، دار توبقال للنشر، ط1، 1997م.
- " **رمز الإحياء وقضية الحكم في المغرب الوسيط** "، أعمال **ندوة " أبو حامد الغزالي : دراسات في فكره وعصره وتأثيره** "، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد الخامس بالرباط، 1988.
- " **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط** "، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987 م.

❖ القدوري عبد المجيد، " **عودة إلى ظاهرة الزوايا في مغرب العصر الحديث** "، ضمن **ندوة " وقفات في تاريخ المغرب** "، دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 27، تنسيق عبد المجيد القدوري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 2001.

❖ كاتشانفسكي يوري، " **عبودية إقطاعية أم أسلوب إنتاج آسيوي ؟** "، ترجمه عن الروسية عارف دليلة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981.

❖ كرراز فوزية، " **الموارد المالية بالدولة الموحدية** "، ضمن **مجلة عصور الجديدة**، مجلة فصلية محكمة يصدرها مختبر البحث التاريخي، جامعة وهران العددان 16-17، شتاء-ربيع 1436هـ/2015م.

❖ الكيالي عاصم إبراهيم، " **الولاية والولي عند السادة الصوفية في الشريعة والطريقة والحقيقة** "، دار كتب ناشرون، بيروت، ط 1، 2010 م.

❖ لوليدي يونس، " **الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية** "، مطبعة إنفو برانت، فاس، ط 1، 1996 .

❖ المجدوب محمد، **"الثروة المائية في المغرب القديم"**، ضمن أعمال **ندوة: الماء في تاريخ المغرب،** منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق الدار البيضاء، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، 1999.

❖ المحمودي أحمد، **"عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي "**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، سلسلة دراسات وأبحاث رقم7، 2001م.

❖ مزين محمد، **" فاس وباديتها : مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549–1637 "**، جزآن، منشورات جامعة محمد الخامس – كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط 1، 1986.

❖ مزين محمد، **"التاريخ المغربي ومشكل المصادر"**، ضمن **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس،** جامعة محمد بن عبد الله، ع2، 1406هـ/1985م.

❖ المغراوي محمد، **"المغرب في العصر الموحدي: جدلية القوة والأزمة"**، ضمن أعمال ندوة **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب"**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، 2004.

❖ المكني عبد الواحد، **"العامة وتمثل أزمات الطقس بالمغارب خلال القرن التاسع عشر: ملاحظات أولية"**، ضمن أشغال الندوة الدولية " **الأزمات في تاريخ المغرب الكبير** " – المنعقدة بصفاقس في 25-27 أكتوبر 2007، جمَع البحوث وقدَّم لها مبروك الباهي، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 2011.

❖ المنصوري عثمان، **" بعض قضايا البحث الديمغرافي في الفترة الحديثة ( القرن 16 نموذجا )"**، ضمن **مجلة كنانيش،** منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، ع 1، 1999 م.

❖ المنوني محمد، **" العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين "**، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر– سلسلة التاريخ6، ط2، الرباط، 1977م .

❖ مهدان امحمد، **" الماء والتنظيم الاجتماعي : دراسة سوسيولوجية لأشكال التدبير الإجتماعي للسقي بواحة تودغى "**، منشورات جامعة ابن زهر – أكادير، 2012 .

❖ المودن عبد الرحمن، **"التوتر و الإنفراج في علاقات البادية والمدينة في مغرب ما قبل الإستعمار– فاس وتازة وأريافهما بين ق16و19م"**، ضمن **ندوة تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي،** التي انعقدت ب ك.آ.ع.إ. الرباط أيام 13-14-15 دجنبر 1984م، منشورات ك.آ.ع.إ–الرباط سلسلة ندوات ومناظرات رقم 10، طبعة 1988م.

❖ موسى عمر عز الدين، **النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري،** دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1424هـ/2003م .

❖ مولابيه فرانسيس و جوزيف كولينز، " **صناعة الجوع: خرافة الندرة** "، ترجمة أحمد حسان، تقديم فؤاد زكرياء، سلسلة عالم المعرفة- الكويت، ع64، 1986م.

❖ الناصري محمد، " **الكوارث الطبيعية والحتمية التاريخية** "، ضمن **مجلة ك.آ.ع.إ، الرباط،** ع 15، 1989- 1990.

❖ نشاط مصطفى، - " **الأولياء والأسود في تاريخ المغرب الوسيط نماذج من العصرين الموحدي والمريني**"، ضمن **التصوف والمجال والإنسان، أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد اللطيف الشادلي،** الجمعية المغربية للبحث التاريخي، تنسيق عثمان المنصوري، 2016.

- " **السجن والسجناء–نماذج من تاريخ المغرب الوسيط** "، منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، الرباط، 2012م.

❖ نصر الله سعدون، "**دولة الأدارسة في المغرب العصر الذهبي** "، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1408 هـ. 1987 م.

❖ النعيم عبد العزيز العلي، " **نظام الضرائب في الإسلام ومدى تطبيقه في المملكة العربية السعودية مع المقارنة** "، الطبعة الثانية، 1985.

❖ الهروي الهادي، " **القبيلة، الإقطاع والمخزن : مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844 – 1934** "، أفريقيا الشرق، 2005م.

❖ هشام مليح، "**المخزن والجباية في مغرب ما قبل الحماية**"، مطبعة الأمنية –الرباط، الطبعة الأولى 2016.

❖ الهلالي محمد ياسر، - " **أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية**"، ضمن أعمال **ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، 2004.

- " **الإشتغال بالفلاحة في مغرب أواخر العصر الوسيط : علاقة التمثلات بالواقع التاريخي** "، ضمن أعمال ندوة " **الفلاحة في تاريخ المغرب** "، تكريما للأستاذ أحمد مزيان، تنسيق محمد اليزيدي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطابع الرباط نت، ط 1، 2019 م.

- " **التراتب الاجتماعي في البادية المغربية أواخر العصر الوسيط**"، أعمال **ندوة : الأسرة البدوية في تاريخ المغرب**، تنسيق البيضاوية بلكامل، فاطمة مسدالي، حليمة بنكرعي، مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية- سلسلة ندوات ومناظرات رقم2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، ط1، 1427هـ/2006م.
- " **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين : إسهام في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي**"، **أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس – أكدال، السنة الجامعية 1999 – 2000 م.

❖ الهنتاتي نجم الدين، "**مياه الأمطار في المدينة في الغرب الإسلامي الوسيط**"، ضمن أعمال **ندوة الماء والتعمير ببلاد المغرب في العهدين القديم والوسيط**، أيام 15-16-17 نوفمبر2007، أعدها للنشر محمد حسن، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس2009 .

❖ هوزالي أحمد، - "**تاسلطانت**" ضمن **معلمة المغرب**، ج 6، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1992.

- "**سيدي بوعثمان**"، ضمن **معلمة المغرب**، ج6، مطابع سلا 1414هـ/1992م.

❖ اليملولي رشيد " **التصوف في التاريخ المغربي الوسيط– بعض ملامح المشروع السياسي**"، مقال منشور ضمن **دورية كان التاريخية – العدد 29**، سبتمبر 2015م.

✓ **المراجع والدراسات باللغة الأجنبية :**

❖ Alfred Bel, « **La religion musulman en Berbérie** », **Revue d'art Oriental et d'archéologie**, publiée sous le patronage du Haut Commissaire de l'Etat français en Syrie , Tome XXI, fascicule 3 – 4 ,Paris, 1940.

❖ Allain. ch, - **«Reconnaissances archéologiques dans le massif des Rehamna et la Bahira», Hespéris Tamuda**, N 41, 1954.

- **« Les Citernes et les Margelles de Sidi-Bou-Othman», Hespéris Tamuda**, Tome 38, Année 1951.

- Ben Ali Driss ,**« Le Maroc Précapitaliste : Formation Economique et Sociale** », Société Marocaine des Editeurs Réunis, Casablanca, 1983.
- Berque ( J ), **« Nawâẓil el muzâraᶜa du Miᶜyâr Al Wazzânî »,** étude et traduction , preface de R.Maunier, Editions Felix Moncho, Rabat, 1940.
- Berthier Paul, **«Les Plantations De canne a Sucre et les Fabriques de Sucre dan L'ancien Maroc», Hespéris Tamuda**, vol VII, Rabat 1966.
- Bois ( Ch ), **« Années de disette, année d'Abondance, sécheresse au Maroc »** , **Revue pour l'étude des calamités**, Genève, 1949, N° 26 -27
- Brunot ( L ), **« Proverbes et dictions arabes de Rabat »**, **Revue Hesperis - Tamuda**, vol 8, 1928.
- Colin, G.S., « **L'origine des Norias de Fès »**, **Hespéris Tamuda**, Tome XVI, fasc. I-II, Ier et 3eme trimestre, 1933.
- Duby Georges, **« L'économie rurale et la vie des campagnes dans l'Occident médiéval »**, éditions Montaigne, Paris, 1962, 2 vol.
- El Faïz Mohammed**, Marrakech Patrimoine En Péril**, Actes Sud/Eddif 2002.
- Faucher Daniel , **« L'économie rurale et la vie des campagnes dans l'Occident médiéval »**, In: Études rurales, n°5- 6, 1962, p : 190.
- Ferhat Halima et Triki Hamid**, « Faux prophètes et Mahdis dans le Maroc médiéval »**, **Revue Hespéris-Tamuda**, Vol XXVI-XXVII, Fascicule unique, 1988-1989.
- Goblot (H), « **les quanates, une technique d'acquisition de l'eau »**, Monton éditeur, Paris, la Haye, New Yourk.
- Le Roy Ladurie ( E ) ,**« Histoire du climat depuis l'an mil »**, V. I , Flammarion, Paris ,1967.
- Menesson D, **« L'irrigation dans le monde islamique : l'eau, élément culturel »**, C.I.H.E.A.M , Options Méditerranéennes, $N^0$ 14, Paris , 1972.
- Meunié Jacques (Mme)**,«Greniers Collectifs»**, **Revue Hespéris Tamuda**, T.XXXVI, 1e et 2e trimestre, 1949.
- Mircea Eliade, **« Le Sacré et le profane »**, Editions Gallimard, Paris, 1965, p : 63 – 64.

❖ Nicolas Michel , **« Poids et mesures de l'agriculture et de l'alimentation dans le Maroc précolonial », Revue Hespéris Tamuda**, XXXI , 1993, fax, Unique.

❖ Pascon( P), « **le Haouz de Marrakech »**, Editions Marocaines et Internationales, Tanger,1977, Tome1.

❖ Raymond Jamous, **« Honneur et Baraka : Les structures sociales et traditionnelles dans le Rif »**, **Revue de L'occident musulman et de la Méditerranée** , n0 34, 1982.

❖ Rosenberger Bernard , - **« Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc.XV°-XVIII° siècles »,** in **A.E.S.C** , N° 3-4, 1980.

- **« Société, pouvoir et alimentation : nourriture et précarité au Maroc précolonial »,** publié avec le concours du service de coopération et d'action culturelle de l'ambassade de France au Maroc, Alizés, 2001.

❖ Rosenberger Bernard et Triki Hamid , **« Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe », Hesp-Tam, Vol XVI »** , fasc unique, 1973, pp : 109 -176 .et fasc unique, 1974, pp : 5-104.

❖ Savine Albert , **« le Maroc il y a cent ans ; souvenirs du chirugien W.Lemprière »,** annotés d'après les documents d'archives et les mémoires, société des Editions Louis Michaud , Paris, 1911.

## فهرس المحتويات

**مقدمة : ..... 1**

**الفصل الأول : ملاحظات أولية حول قضايا الماء والمناخ بالمغرب خلال العصر الوسيط ..... 16**

**المحور الأول : المحددات المناخية كمدخل لدراسة مصادر المياه..... 17**

**المحور الثاني : الموارد المائية ودورها في النشاط الزراعي والمشاريع السقوية..... 25**

1. أهم مصادر المياه بالمغرب الأقصى..... 25

2.استغلال الموارد المائية في الأنشطة الفلاحية بالمغرب ما بين القرنين 11 و 14م:..... 36

**المحور الثالث : عنصر الماء كمحدد أساسي في توزيع وتباين الإنتاج الزراعي بالبوادي :..... 52**

**الفصل الثاني : حضور المياه في البنيات الاجتماعية للبوادي ..... 66**

1.الملكية العقارية للأرض..... 67

2.أثر عنصر الماء على علاقات الإنتاج وأنماط إستغلال الأرض ..... 83

3. الماء بين تدبير النزاع ومظاهر التضامن بالبوادي :..... 98

**الفصل الثالث : الجوائح المائية بالبادية المغربية وأساليب المواجهة الرسمية والشعبية ..... 124**

**المحور الأول : أثر الأزمات المائية على الأسعار..... 126**

**المحور الثاني : العوائد الغذائية زمن القحط :..... 136**

**المحور الثالث : الإدخار والتخزين كأساليب للتخفيف من ظرفية الندرة :..... 143**

**المحور الرابع : دور المناخ في التنقلات البشرية بالمجال المغربي :..... 152**

**المحور الخامس : التحصيل الضريبي بين تدابير السلطة والمصاعب المناخية ما بين القرنين 11 و 14 م. ..... 160**

1.أثر الظروف المناخية والسياسية على التحصيل الجبائي :..... 160

2.عوامل فشل السياسة الجبائية :..... 181

3.أثر السياسة الضريبية والجوائح على الفلاحين والتجار :..... 186

**الفصل الرابع : الماء بين الوفرة والندرة: دراسة في الطقوس والذهنيات وأنماط التفكير :..... 198**

1.ممارسات عملية وتفسيرات خرافية للجوائح المائية : ..... 199
2.الإستسقاء بأهل الولاية والصلاح :..... 209
3. الدور التكافلي للأولياء والمتصوفة زمن المجاعات: ..... 215
4.النزاع بين المتصوفة والسلطة المركزية زمن القحط ودلالاته ..... 227
**خاتمة : ..... 235**
**لائحة المصادر والمراجع..... 239**